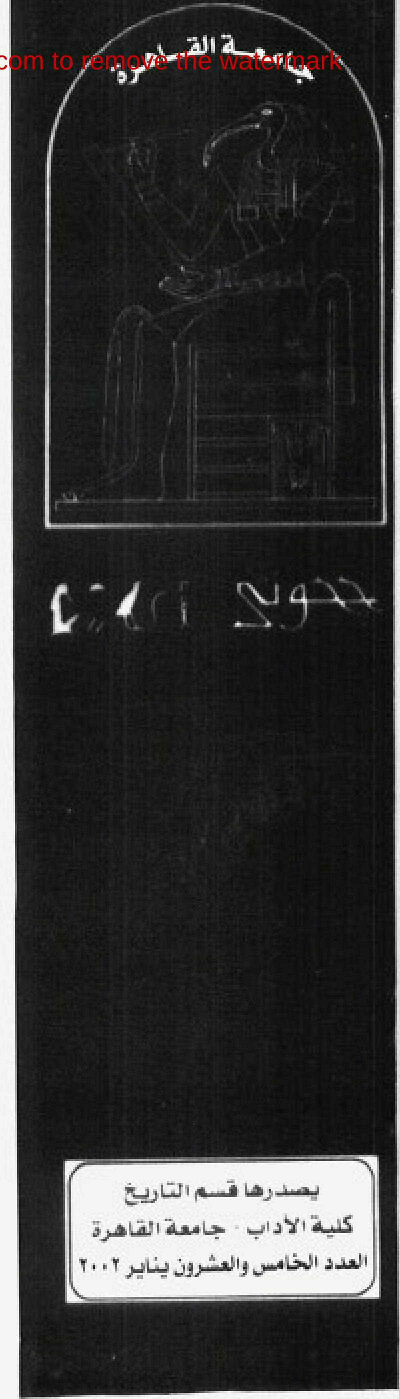


دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



البحوث والدراسات :

- قداسة وعروبة القدس عبر العصور.
- سلوكيات الأعوان فى عصر الإمارة الأموية بالأندلس.
  إلهام محمد هاشم الدجانى
- أضواء على حركة الطالبى محمد بن جعفر وخلفياتها عند نهاية القرن الثانى الهجرى.
  د. أحمد السرى
- كونرادين وعرش الصقليتين.
  أميرة مصطفى أمين يوسف
- صرغتمش الناصرى الأمير الحاكم : دراسة فى السيرة الذاتية ٧٣٧ - ٧٥٩ هـ / ١٣٣٦ - ١٣٥٧ م.
  د. محاسن الوقاد
- الوضع السياسى الداخلى فى الدولة المظفرية فى عهد الشاه شجاع (٧٦٠ - ٧٨٦ هـ) (١٣٥٨ - ١٣٨٤).
  د. هويدا عبدالمنعم
- الصراع بين المماليك البحرية والقوى الأوروبية فى البحر المتوسط (٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م - ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م).
  د. خالد بن خلفان بن ناصر الوهيبى
- أصول هندسية أثرت فى بناء الشخصية الفنية الإسلامية .
  د. عصام عرفة
- الكتابات العربية على الآثار الإسلامية فى مدينة دهلى (دلهى) بالهند من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجرى ، الثانى عشر إلى السادس عشر الميلادى.
  أحمد رجب محمد
- المهمشون فى جنوب القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين.
  د. يحيى محمود محمد

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة
العدد الخامس والعشرون يناير ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

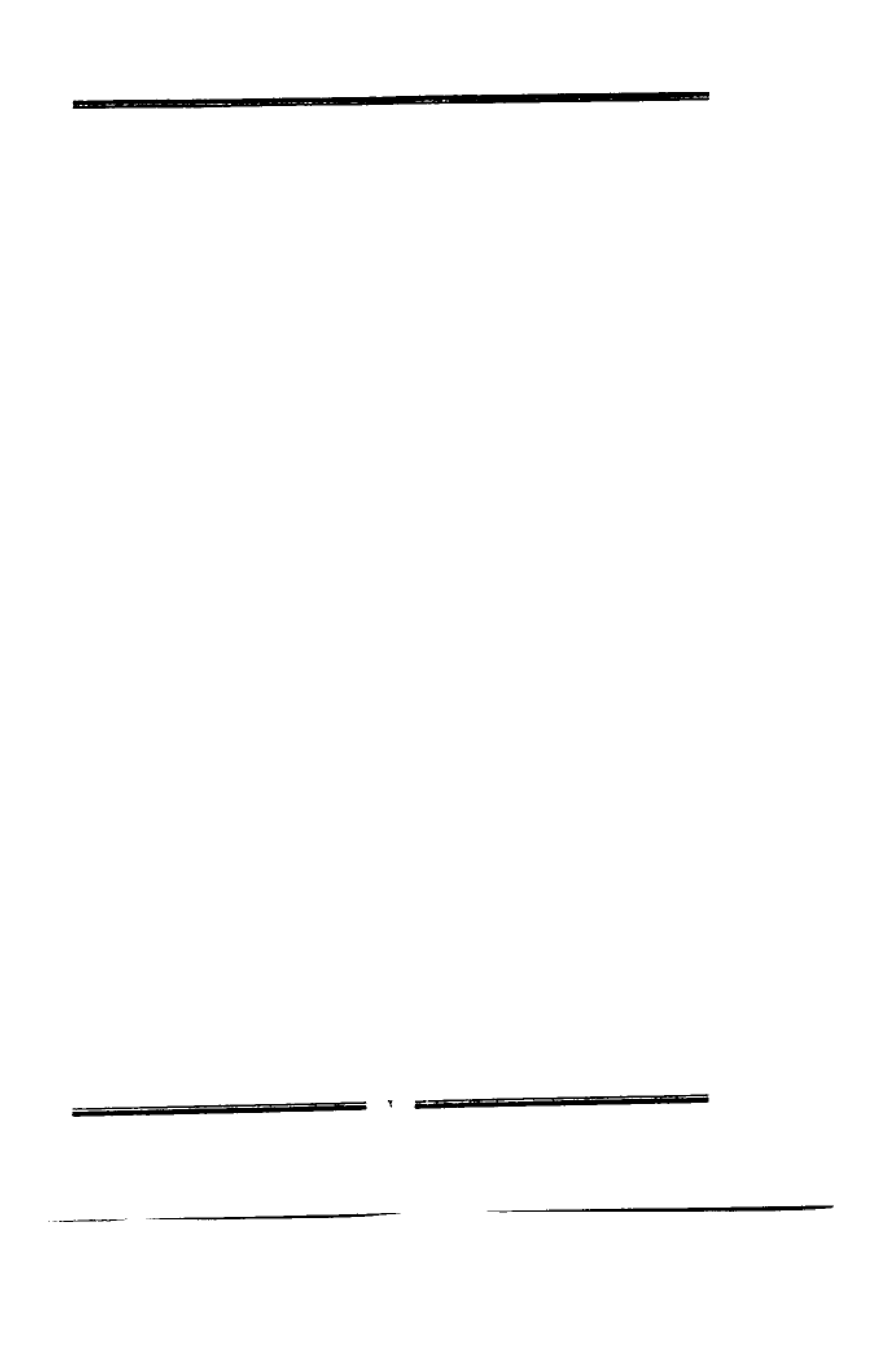
الْمُؤَرِّخُ الْمِصْرِيُّ

دراساتٌ وبحوثٌ في التاريخِ والحضارةِ

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب .جامعة القاهرة

العدد الخامس والعشرون

يناير ٢٠٠٢م



المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم السيدة الأستاذة الدكتورة / ليلى عبدالجواد إسماعيل رئيس التحرير على العنوان التالي : كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم التاريخ) بريد الأورمان ـ محافظة الجيزة.

All Correspondence to be directed to : Editor-in Chief : Prof. Laila A. Esmaeel, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

قواعد النشر

- ترحب المؤرخ المصري بنشر الأبحاث والدراسات الأصليه ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصري للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (Word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما في ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش في نهاية البحث.
- المؤرخ المصري لا تنشر بحوثًا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر في مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصري لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيًا كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر في المؤرخ المصري متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصري تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

شكـر

للسادة الأساتذة الذين شاركوا في تحكيم هذا العدد وهـم ـ وفقـا لـترتيب البحوث بالمجلة ـ على النحو التالي :

١ - أ.د. عطية أحمـد القوصـي

٢ - أ.د. عصام الدين عبدالـرؤوف

٣ - أ.د. حـامد زيـان غـانم

٤ - أ.د. ليلى عبدالجواد إسـماعيل

٥ - أ.د. محمـود عرفـة

٦ - د. فايزة محمـود عبدالخـالق

٧ - أ.د. رعوف عبـاس حـامد

٨ - أ.د. أحمـد الشـربيني

والشكر للسادة المدرسين والمدرسين المساعدين المشاركين فـي مراجعـة هذا العدد وهم :

- د. محمد عبدالنعيم
- السيد / محمد فتحي الزامل
- السيد / حسن قرني

محتويات العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد :

يسعدني كل السعادة أن أقدم للقارئ المصري والعربي الكريم العدد الخامس والعشرين من مجلة المؤرخ المصري، داعية الله العلي القدير بأن تمضي المؤرخ المصري قدما في مسيرتها العلمية على نحو مشرف، ورافعة أيدي الضراعة بالدعاء والرجاء أن تحقق أهدافها من خلال نشر الأبحاث الجادة والجديدة في كافة ميادين التاريخ والحضارة، وأن تصل في إصداراتها إلى العدد الخمسين بل والمائة بإذن الله تعالى.

والمؤرخ المصري حقل خصيب، وميدان فسيح لنشر البحوث العلمية والأكاديمية التي يتقدم بها شباب الباحثين، وموقع خصب كذلك لعرض الكتب والمؤلفات الحديثة التي يتقدم بها الأساتذة وكبار الباحثين خاصة بعد أن أمست حديث المحافل والمنتديات العلمية في جمهورية مصر العربية بل وفي العالم العربي، فهي نافذة يطل منها الجميع على كافة أفرع الدراسات التاريخية والحضارية بل والأثرية كذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن العدد الخامس والعشرين من المؤرخ المصري نشأ في رحم قسم التاريخ، وتعهده أساتذة القسم وأعضاءه بالعناية والرعاية والإرشاد والتوجيه فشاركوا في تحكيم بحوثه ودراساته كل في مجال تخصصه، كذلك ساهم السادة المدرسون والمدرسون المساعدون في مراجعة مقالاته وبحوثه بعد طبعها. ومن ثم فقد تعاون الجميع في سبيل إخراجه على نحو نأمل أن يحوز رضى الجميع.

وفي الختام لا أملك إلا أن أقدم أسمى آيات الشكر والتقدير لجميع الزملاء في قسم التاريخ الذين كانوا خير عون لي في إخراج هذا العدد على هذه الصورة.

والشكر كل الشكر للسيدات والسادة أصحاب البحوث والدراسات التي نشرت بهذا العدد لما بذلوه من جهد في سبيل إعدادها.

نفع الله به المتخصصين في ميدان الدراسات التاريخية.

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ صدق الله العظيم.

رئيس التحرير

أ.د. ليلى عبدالجواد



البحوث والدراسات



قداسة وعروبة القدس

عبر العصور

د. إلهام محمد هاشم الدجاني

القدس، أو بيت المقدس، أو ايلياء، أو أورشليم، كلها تسميات لمدينة القدس المقدسة العاصمة الأزلية لبلاد فلسطين، وهي مدينة عربية إسلامية يحاول الصهاينة اليهود بعد أن أقاموا دولتهم الغاشمة على أرض فلسطين الطاهرة أن يجعلوها عاصمة لدولتهم المزعومة إسرائيل، تلك الدولة التي أشار الله تعالى في كتابه الكريم إلى حتمية زوالها بعد علوها في قوله تعالى: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلنّ علوًا كبيرًا (*) فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولا (*) ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا (*) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرًا ﴾[١]. صدق الله العظيم.

وقبل الحديث عن تاريخ مدينة القدس ونشأتها الأول، علينا أن نشير إلى أن سكان هذه المدينة، منذ نشأتها وقبل أن تنشأ على أرض فلسطين كان سكانها وسكان فلسطين الأقدمين عربًا عُرفوا باسم اليبوسيين، هاجروا من جزيرة العرب على أثر الجفاف الذي حل بها في القديم إلى أرض فلسطين[٢]. وعاشوا مع أهلها البلستينيين العرب الكنعانيين منذ أربعة آلاف سنة تقريبًا قبل مولد سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبل ظهور سيدنا موسى وأتباعه على مسرح الأحداث منذ أكثر من ألفي عام، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة أيدتها المكتشفات الأثرية الأخيرة وأخذ بها العلماء بالإجماع تقريبًا[٣].

والبلستينيون الكنعانيون هم أقدمُ الأقوام الذين استقروا في أرض فلسطين وأعطوها اسمهم، وإليهم يرجع تأسيس حضارة فلسطين القديمة. وكانت لغة هؤلاء البلستينيين هي اللغة العربية القديمة التي كان يتكلم بها أهل شبه جزيرة العرب قبل هجرتهم إلى منطقة الهلال الخصيب. وينتسب الكنعانيون عمومًا إلى كنعان بن حام ابن نوح عليه السلام، وكان اسم بلاد كنعان يُطلق، في أول الأمر، على الساحل السوري والقسم الغربي من فلسطين، ولكنّ استعماله عمّ بعدئذ بحيث صار يشمل قسما كبيرًا من سوريا وأطلق على كل فلسطين[٤].

ومن الموجات السامية العربية التي أعقبت هجرة اليبوسيين الكنعانيين إلى منطقة الهلال الخصيب هجرة العموريين، وهي الهجرة الثانية العربية الكبرى من جزيرة العرب، وقد تمركز هؤلاء في بداية الأمر في الأقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا في الانتشار في أواسط سوريا حتى وصلوا إلى جنوب فلسطين.

كذلك تمت هجرة عربية ثالثة من الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب قامت بها جماعة عُرفت بالآراميين، المنتسبين إلى ارام بن سام بن نوح عليه السلام، في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد ثم توغلوا في أطراف البلاد فأقاموا في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد في دمشق وحماة[٥]. وينتسب سيدنا إبراهيم الخليل إلى هذه الجماعات، وقد عُرف أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام الآرامي الأصل قد تواجد في بلدة حرّان في الفترة ما بين سنوات ١٩٠٠-١٨٥٠ ق.م. ومن حقنا وحق كل باحث أن يسأل : كيف يمكن أن يكون سيدنا ابراهيم الخليل يهوديًا يدعي اليهود أنهم ينتسبون إليه، مع أنّ إبراهيم الخليل عاش قبل أن يعرف التاريخ جماعة يسمون أنفسهم يهودا بحوالي ١٣٠٠ سنة ؟ ولنا أن نسأل أيضًا في هذا المجال كيف جاء اليهود إلى العراق وكيف اتصلوا بسيدنا ابراهيم في حين أنه لم يكن لهم وجود بعد أصلا في العراق أو غيره، وكيف يزعم اليهود أنّ سيدنا ابراهيم تزعمهم في رحيله إلى فلسطين قبل أن يكون قد خلق يهوذا الذي جاءت تسمية اليهود منه أو يكون قد خلق يعقوب الذي عُرف باسم إسرائيل[٦]؟

ولو رجعنا إلى تاريخ مدينة القدس القديم واصل نشأتها، لوجدنا انها مدينة عربية يبوسية قديمة أسسها العرب اليبوسيون الذين وفدوا إلى ارض فلسطين منذ اوائل الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد أكدت ذلك الراي عمليات التنقيب عن اثار

القدس القديمة في منتصف القرن التاسع عشر، كذلك ما ورد عن ذلك في آثار الحضارة المصرية القديمة وما ورد عنها في توراة اليهود.

وفي محصلة أعمال التنقيب الأثري في موضوع القدس القديم ثبت أنّ التل الجنوبي الشرقي الذي توجد فوقه ساحة الحرم القدسي، والذي يدعي اليهود أنّ هيكل سليمان كان قائما فوقه به مستوطنات سامية ترجع إلى عصر البرونز السحيق. كما عثر على بقايا هيكل عظمي ترجع إلى هذا العصر الذي كان يعيش فيه سكان فلسطين اليبوسيون العرب على رعي الماشية ويمارسون الزراعة في حيز ضيق من الوديان العتيقة بين التلال وذلك لندرة مصادر المياه هناك(٧).

أما المصدر الثاني لتاريخ القدس القديم فقد جاء من آثار الحضارة المصرية القديمة وأولها آثار تل العمارنة(٨). وقد قام عالم الآثار الإنجليزي فلندرز بتري Flanders Butry بالتنقيب عن آثار العمارنة سنة ١٨٨٧ ونجح في الحصول على ٣٧٧ لوحة طينية منقوشة بالخط المسماري ومدونة باللغة الأكادية في بقايا دار المحفوظات الملحقة بقصر إخناتون. والذي يهمنا من هذه اللوحات وجود رسالة على إحداها يرجع تاريخها إلى سنة ١٤٠٠ ق.م. وقد كتب هذه الرسالة أمير كنعاني يدعى (عبدو نخيبا) كان حاكمًا على أورشليم من قبل الفرعون وبذلك ثبت بما لا يقطع الشك أنّ الفلسطينيين اليبوسيين القدماء هم الذين أسسوا أورشليم والتي كانت قلعة محصنة ومقرًا لحكم هذا الأمير المعيّن من قبل فرعون مصر والذي يدين له بالولاء(٩).

أما المصدر الثالث لإثبات عروبة القدس منذ القدم فهي توراة اليهود ذاتها، فقد ورد في سفر الخروج(١٠). ذكر ملك أورشليم اليبوسي ويُدعى (ملكي صادق) وقد أشارت التوراة إلى أنه هو الملك الذي استقبل سيدنا إبراهيم وباركه عندما وفد إلى فلسطين(١١). وفي سفر القضاة(١٢). ورد اسم القدس بلفظ " يبوس " إشارة إلى اليبوسيين الذين أسسوها(١٣).

ومن واقع الكشوفات الأثرية ثبت أنّ أورشليم القدس عند هجرة اليبوسيين العرب إليها لم يقيموا فيها معبدًا مقدسًا، ذلك لأنّ القبائل السامية الكنعانية ومنها اليبوسيين لم تكن تعرف بناء المعابد الحجرية الضخمة الفخمة مثلما فعل المصريون لقدامى والبابليون.

وخلاصة القول أن التاريخ المعروف والثابت الآن عن نشأة القدس أنها أنشئت من حوالي خمسة آلاف سنة على يد اليبوسيين، وأن أقدم تسمية لها هي يبوس أو مدينة اليبوسيين. وتسمية المدينة بأورشليم هي تسمية بلغة اليبوسيين الارامية وهي تتكون من مقطعين : أو بمعنى أرض أو مقر أو بيت في اللغة الارامية، وسالم أو ساليم هو اسم إله اليبوسيين فيكون بذلك معناها : مدينة الإله سالم[١٤]. وقد ورد هذا الاسم للمدينة في وثائق مصر الفرعونية منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد، كذلك سماها اليونانيون (بروسالم)، وسماها المؤرخ اليهودي يوسيفيوس في أوائل الفتح الروماني لها (هيروسليما) ومنها اشتق الأوربيون تسميتها (جيروساليم). وسماها الرومان : ايليا كابوتولينا، وسماها العرب : ايليا، والقدس، وبيت المقدس، وسماها القرآن الكريم اسمين : القرية[١٥] والأرض المباركة[١٦]. وأضاف الأتراك إلى اسم القدس في التاريخ الحديث صفة الشريف فعُرفت بالقدس الشريف.

ولنا أن نتساءل هنا بعد أن أكدنا هوية فلسطين والقدس العربية القديمة، كيف يدعي اليهود بأقدمية تواجدهم في هذه البلاد قبل التواجد العربي بها، وعلينا بيان التاريخ الحقيقي لهجرة العبرانيين إلى فلسطين وإلى القدس.

فمن المعروف أن قبائل العبرانيين هي قبائل بدو رحل من القبائل السامية كانت تعيش في المنطقة الصحراوية جنوبي دجلة والفرات (الرافدين)، ثم دفعها الجفاف إلى التسلل غربًا نحو وديان فلسطين ونهر الأردن قادمة من بلاد أور (العراق). وقد استمر هذا التسلل العبراني وقتًا طويلا وكان تدريجيًا، لكنه بلغ ذروته حوالي عام ١٤٠٠ ق.م. ويُفهم من المصادر أن قبائل العبرانيين عندما هاجرت إلى فلسطين في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، لم تستطع دخول أورشليم القدس بسبب تحصين سكانها اليبوسيين لها تحصينا شديدا[١٧]. وتقول التوراة ويؤيدها القرآن الكريم في ذلك أن بعض قبائل العبرانيين لم تستطع البقاء في فلسطين لفقرها فهاجرت إلى مصر في عهد تولي سيدنا يوسف بن يعقوب الوزارة[١٨] بها أيام حكم الهكسوس لها، وأنهم استقروا على حدود مصر الشرقية في أرض جوشن بمحافظة الشرقية (١٧٣٠-١٥٨٠ ق.م.)

وقد ظل هؤلاء العبرانيون مقيمين في مصر إلى أن كان خروجهم منها في عهد الفرعون رمسيس الثاني او في عهد ابنه (مرنبتاح) ١٣٠٤-١٢٣٧ ق.م، خرج بهم سيدنا موسى بعد أن استجابوا لدعوته وديانة التوحيد التي كلفه الله تعالى بنشرها بين الناس في مصر، خرج بهم إلى أرض كنعان فلسطين، وهذا هو الذي أطلق عليه الخروج في التاريخ اليهودي أو الخروج الموسوي المشار إليه في التوراة بسفر خاص به عُرف بسفر الخروج(١٩).

والذين خرجوا مع سيدنا موسى من بني إسرائيل والذين كانوا قد جاءوا إلى مصر على مراحل عهد وزارة سيدنا يوسف وقبل عصر سيدنا موسى بنحو ٦٠٠ سنة كانوا قد انصهروا مع شعب مصر وصاروا مصريين بالمواطنة، هؤلاء لم يكونوا يعتنقون الديانة اليهودية التي يحملها اليهود الآن والتي لم تكن قد وُجدت بعد، بل كانوا مسلمين وموحدين وذلك باعتراف فرعون الخروج نفسه الذي اعتنق الإسلام وهو يغرق كما أشار بذلك القرآن الكريم، في قوله تعال ﴿ وجاوزنا ببني إسْرائيل البحْر فأتْبعهُمْ فِرْعوْنُ وجُنُودُهُ بغْيًا وعدْوًا حتّى إذا أدْركهُ الغرقُ قال آمنتُ أنّهُ لا إله إلاّ الّذِي آمنتْ بِهِ بنُو إسْرائيل وأنا مِن المُسْلِمِين ﴾(٢٠). وكذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى ﴿ فما آمن لِمُوسى إلا ذُرِّيّةٌ مِّن قوْمِهِ على خوْفٍ مِّن فِرْعوْن وملئِهِمْ أن يفْتِنهُمْ وإِنّ فِرْعوْن لعالٍ فِي الأرْضِ وإِنّهُ لمِن المُسْرِفِين (*) وقال مُوسى يا قوْمِ إن كُنتُمْ آمنتُمْ بِاللهِ فعليْهِ توكّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِين (*) فقالُوا على اللهِ توكّلْنا ربّنا لا تجْعلْنا فِتْنةً لِّلْقوْمِ الظّالِمِين (*) ونجِّنا بِرحْمتِك مِن القوْمِ الكافِرِين﴾(٢١).

ولما واجه الخارجون من بني إسرائيل أرض فلسطين أمرهم سيدنا موسى عليه السلام بالدخول إلى الأرض المقدسة ومنازلة منْ بها من طغاة القوم (الجبارين) وإجلائهم عن أورشليم، وأعلمهم موسى أن الله قد كتب لهم ووعدهم إياها فأبوا وتقاعسوا عن الجهاد وعبدوا العجل فغضب موسى ودعى عليهم بأن يتوهوا في صحراء سيناء أربعين سنة(٢٢). وهكذا اتخذ بنو إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون وجنوده دينا وثنيا جديدًا أسموه اليهودية وتحولوا فيه عن الوحدانية التي كانوا عليها. وقد أورد الله تعالى هذا التحول من قبل بني إسرائيل في سورة

البقرة[٢٣]. وتؤكد التوراة اليهودية حقيقة العقاب الذي حـل ببنـي إسـرائيل بعـد عصيانهم موسى وتقول [أن الرب أتاه الموسويين في البرية أربعين سنة حتى فنـي الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب][٢٤].

ولتلخيص محاولات اليهود التوافد على فلسطين والقدس ومحاولاتهم المتكررة عبر التاريخ اغتصاب هذه الأرض وتشريد أهلها نقول : أن بني إسرائيل بعد التيـه في سيناء أربعين سنة مات خلالها سيدنا موسى وأخوه هارون ودفنا بطور سـيناء، انتقلت القيادة على من تبقى من بني إسرائيل في سيناء إلى يوشع بن نـون، تلميـذ موسى الذي قاد الحرب ضد اليبوسين الكنعانيين من أجل دخول فلسطين وأورشـليم. وقد تميزت تلك الفترة بقيام حروب ضارية بين الفريقين، وفـي التـوراة اليهوديـة يعرف اليهود بأن ارتباط تاريخهم بأورشليم القـدس لـم يبـدأ إلا بعـد أن قـاموا بمهاجمتها في عهد يوشع بن نون في القرن الثالث العشر قبل الميلاد[٢٥].

ونستخلص من رواية التوراة أن مدينة أورشليم القدس كانت بين المدن التـي لم يستطع يوشع احتلالها لمناعتها وصلابة مقاومة سكانها اليبوسيين بقيادة مليكـهم (أدوني صادق)[٢٦]. فتركها لشأنها وبقيت أورشليم في يد أصحابها العرب اليبوسيين.

وأعقب عهد يوشع بن نون، طبقا لما ورد فـي التـوراة اليهوديـة، عهـد القضاة، وقد استمر هذا العهد حوالي قرن كامل من الزمان (بيـن سـنتي ١١٢٥، ١٠٢٥ ق.م.) وتعترف التوراة بفشل الإسرائيليين في طـرد أهـل فلسـطين مـن أرضهم ورضائهم السكن معهم في أرضهم[٢٧].

وأعقب عهد القضاة عهد الملوك بتولي شاؤول مُلك بني إسـرائيل[٢٨]، لمـدة ١٥ سنة (١٠٢٥-١٠١٠ ق.م) تم تقلد الحكم من بعده داود ملكـا ونبيـا (١٠١٠-٩٧١ ق.م.)، وقد استمر حكمه زهاء أربعين سنة، وتولى الحكم مـن بعـده ابنـه سليمان (٩٧١-٩٣٢ ق.م.)[٢٩].

ويُنسب إلى سليمان بناء الهيكل في أورشليم، وهو في الأصل بنـاه مسـجدا لعبادة الله الواحد الأحد؛ ذلك لأن داود وسليمان أنبياء الله تعالى إلى بنـي إسـرائيل بعثهم الله تعالى ليعيدوا بني إسرائيل إلى الإسلام الدين الحنيف وعبادة رب أجدادهـم ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لكن اليهود ادعوا كذبا أنه بنى الهيكل لعبـادة اله اليهود (يهوه)[٣٠].

ولم يدم حكم داود و سليمان لأكثر من ثمانين عامـــا، وبعـــد وفـــاة ســـليمان (حوالي ٩٣٢ ق.م.) انقسمت الدولة الإسرائيلية التي قامت علــــى أرض فلســـطين بشكل مؤقت إلى دولتين هذيلتين منفصلتين : الأولى في الشمال وعُرف باسم مملكـــة إسرائيل وعاصمتها بلدة السامرة، والأخرى في الجنوب وعُرفت باسم مملكة يـــهوذا وعاصمتها أورشليم. وقد أسس المملكة الأولى (مربعام) وهو مـــن نســـل يعقـــوب. وتوالى على حكم هذه المملكة عدد من الملوك كان آخرهم (هوشع بن أيلـــة) ٧٣٢-٧٢٤ ق.م.، وقد قضى الآشوريون على مملكته في عهد الملك الآشوري ســـرجون الثاني[٣١]. الذي استولى على السامرة عام ٧٢١ ق.م. وقضى على مملكة إســـرائيل وسبى سكانها إلى آشور عاصمة دولته.

أما مملكة يهوذا فقد حكمها أسباط يهوذا، وأول ملوكها هـــو (رحبعـــام بـــن سليمان) ٩٢٢-٩١٥ ق.م. وقد قام (شاشنق) فرعون مصر في السنة الخامسة مـــن حكم رحبعام بحملته المشهورة على أورشليم سنة ٩٣٠ ق.م.، واستولى على المدينة وعلى خزائن هيكل سليمان، كما ورد في سفر الملوك الأول. وقد ســـجل شاشـــنق أخبار هذه الحملة على بوابة بوباسطة عند حائط في معبد الكرنك الكائن الآن بمدينة الأقصر المصرية[٣٢].

ولقد قضت الدولة البابلية الكلدانية التي قامت في سوريا والعراق ودام حكمـــها ٧٣ سنة (من٦١٢-٥٣٩ ق.م.)[٣٣] على مملكة يهوذا، وقام مليكهم (نبوخذ نصـــر) أعظم ملوك بابل بذلك على أثر حملتين قام بهما ضـــد اليـــهود ســـنتي ٥٩٧ ق.م. و ٥٨٦ ق.م. وقام بسبي اليهود إلى عاصمته بابل وعُرفت هذه الفترة فـــي تـــاريخ اليهود باسم فترة السبي البابلي أو الأسر البابلي[٣٤].

وهكذا قضى على المملكتين الهزيلتين المؤقتتين اللتين أقامهما اليـــهود علـــى أرض فلسطين، وكان عدد الملوك الذين حكموا في كليهما عشرين ملكا. ودام حكـــم المملكة الأولى ٢٠٩ سنة (٩٣١-٧٢٤ ق.م.)، ودام حكم الثانية ٣٤٥ سـنة (٩٣١-٥٨٦ ق.م.). وبعد ذلك انتهى الوجود اليهودي تماما من فلسطين والقدس بعد مرور ٤٢٠ سنة من قيام مملكة داود على أرضها، وعادت فلسطين محـــررة لأصحابـــها العرب اليبوسيين الكنعانيين.

وفي عام ٥٢٦ ق.م. قامت في مشرق العالم القديم الإمبراطورية الفارسية وحلت محل دولة آشور كقوة عظمى في الشرق[٣٥]. ونجح مؤسسها قورش في اجتياح الشام وفلسطين، وقد ساعده يهود المنفى في بابل في الدخول إلى أورشليم. وتقول التوراة[٣٦] أنه سمح لليهود المنفيين في بابل بالعودة إلى أورشليم وذلك تحت تأثير زوجته (استير) اليهودية و(مردخاي) مستشاره اليهودي. ورغم ذلك لم يعد كل اليهود المنفيين إلى فلسطين وفضل معظمهم البقاء في بابل واتخاذها موطنا لهم ولم يعد إلى فلسطين إلا المتعصبون والمتدينون من اليهود[٣٧].

وقد أمر قورش بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقته، إلا أن البناء لم يتم إلا في عهد خليفته دارا سنة ٥١٥ ق.م.

ولما قامت الإمبراطورية المقدونية ونجح الإسكندر الأكبر في إسقاط الإمبراطورية الفارسية، رحب الإسرائيليون بالإسكندر حين قدم غازيا لبلاد الشام ومحاربا للفرس، إلا أن العمر لم يمتد بالإسكندر فقد مات في شبابه سنة ٣٣٢ ق.م. وتقسمت دولة الإسكندر في الشرق الأوسطبين اثنين من قواده هما سيليكيوس وبطلميوس أقام كل منهما دولة عُرفت الأولى بالدولة السلوقية والثانية بدولة البطالمة. وقد حكمت دولة البطالمة في مصر بينما حكم السلوقيون أعالي الشام وبلاد العراق، وتنازعت المملكتان حول أحقية كل منهما في حكم فلسطين. وأصبح وضع اليهود في فلسطين بين المد والجزر وساءت علاقة اليهود بالملك السلوقي انتيخوس الرابع (١٧٥-١٦٤ ق.م.) فقام بمهاجمة أورشليم ودمر هيكلهم، الذي كان الفرس قد بنوه لهم، وقرر بناء معبد فوق الهيكل لربه الإغريقي (زيوس) الأوليمبي، بعد طرد اليهود من أورشليم. وقرر تغيير اسم أورشليم إلى مدينة زيوس الاوليمبي[٣٨]. وقد أجبر هذا الملك اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية، وأصدر قرارات تمنع اليهود من ممارسة طقوسهم وتعاليم دينهم. وقد أحدثت هذه القرارات رد فعل عنيف من جانب الأصوليين اليهود، فاشتد الصراع بينهم وبين الدولة اليونانية حتى وقعت ما عُرف في التاريخ اليهودي باسم (الثورة المكابية) سنة ١٦٦ ق.م. وعُرف عهد المكابيين، الذي دام قرن وربع قرن من الزمان في تاريخ اليهود باسم العصر المكابي (١٦٦-٣٧ ق.م.).

وبعد تغلغل الرومان في الشرق وتغلبهم على السلوقيين في سوريا أصبحت فلسطين تحت حكم الرومان، ففي سنة ٦٤ ق.م. احتل القائد الروماني بومبي سوريا وضمها إلى روما. وفي السنة التالية دخل بومبي أورشليم وجعلها تابعة لحاكم سوريا الروماني. ولم يكن اليهود في فلسطين في ذلك العهد بأحسن حال مما كانوا عليه في العهد الإغريقي، فكانوا أيضا بين المد والجزر في ظروف مضطربة نجمت عن صراع الزعماء الرومان فيما بينهم على الحكم. وقد ساءت علاقة اليهود بحكام الرومان وقاموا بتمرد في أورشليم في عهد الإمبراطور (فسباسيانوس) سنة ٦٨م، فأرسل الإمبراطور ابنه (تيتوس) سنة ٧٠م لحصار أورشليم والقضاء على تمرد اليهود بها. وسقطت أورشليم في يد الرومان يوم العاشر من أغسطس (آب ٧٠م)، وهو نفس اليوم والتاريخ الذي أحرق فيه نبوخذ نصر البابلي هيكل سليمان بعد دخوله أورشليم عام ٥٨٧ ق.م.[٣٩]. أي بعد ٦٥٧ عامًا من تدمير البابليين لهيكل سليمان، وبعد ما يقرب من ١٠٥٠ سنة من انتزاع الملك داود لأورشليم من أصحابها اليبوسيين العرب الفلسطينيين.

أما المرة الثالثة والأخيرة التي اقتحم فيها الرومان أورشليم وطردوا اليهود منها، فقد كانت أواخر عهد الإمبراطور (هادريانوس) يوم التاسع من أغسطس (آب) عام ١٣٥م، وذلك في أعقاب الثورة اليهودية التي عُرفت باسم (ثورة باركوكبا) أي ابن الكوكب[٤٠]. ولقد كان حجم القتلى والأسرى من اليهود على يد الرومان كبيرًا حتى أصبحت فلسطين خالية تمامًا من اليهود منذ أن دخلوها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد قيل " أن أسواق النخاسة امتلأت بالرقيق اليهود حتى أصبح ثمن العبد اليهودي المسترق لا يزيد على ثمن الفرس ".

وأصدر هارديان قرارات عقابية ضد اليهود، من ضمنها قرار بمحو اسم أورشليم من السجلات والتعاملات الرسمية، وأن يعاد بناء هذه المدينة على الطراز الاغريقي الروماني، وأن يتغير اسمها إلى اسم جديد هو (إيليا كابيتولينا)[٤١]. وأمر الامبراطور هادريان كذلك بأن تقتلع قواعد هيكل سليمان من أساسه وان يُحرث موقعه حرثًا تامًا حتى يبدو وكأن هذا الهيكل لم يكن قائما أبدا في موقعه، وأن يُبنى محله معبدًا باسم (جوبيتر الأولمبي الكابيتولوني) كرمز يراه الجميع يُعلن عن انتهاء سيطرة اليهود على هذه المدينة العربية النشأة والأصل.

وعلى أثر هذا الطرد الذي وقع لليهود من فلسطين والقدس على يد الرومان تفرق اليهود وتشتتوا في بلاد المهجر، وهي الفترة التي عرفت في تاريخهم باسم(الدياسبورا)[42]. وقد قُدر عدد اليهود الذين شردوا بحوالي ٨٥٠ ألفا، بخلاف نفس العدد الذي هلك منهم قتلا وجوعا ومرضا. وقد كانت هذه هي الضربة الأخيرة لليهود في فلسطين والقدس، ولم يعد لهم هنالك كيان يُذكر بعد ذلك طوال العصور التالية.

ولقد ظل اليهود في شتات مطرودين من أرض فلسطين ومحرمٌ عليهم سكنى القدس طوال خضوع بلاد الشام وفلسطين لحكم الرومان حتى الفتح الإسلامي لهذه البلاد سنة ١٥هـ/٦٣٦م في خلافة عمر بن الخطاب (ﷺ) عل يد قائده عمرو ابن العاص. وكان عمرو قد حاصر مدينة القدس مع أبي عبيدة بن الجراح، ولما اشتد الحصار عليها قرر (سفرنيوس) بطريقها التسليم على أن يأتي الخليفة عمر بنفسه ليتسلم المدينة ويقرر شروط الصلح[43]. فأرسل عمرو بذلك إلى الخليفة عمر الذي وافق وحضر بنفسه وتسلم المدينة بالفعل[44]. وقد أورد الطبري[45] نص العهد الذي كتبه عمر لأهل إيلياء (القدس)، والذي يُفهم من نصه أنه سمح لأهل القدس بالحرية الدينية ونص على احترام المشاهد المسيحية المقدسة في المدينة ودفع المسيحيين للجزية. وكان عمر قد قبل كل شروط الصلح مع البطريق إلا الشرط الخاص بحرمان اليهود من دخول القدس، معتبرًا في ذلك بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم وليس فيه شئ يسمح بهذا[46]. ولكنه تعهد لمسيحي القدس بألا يدخل أحدٌ من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن حاراتهم. وهكذا سُمح لليهود بالعودة للقدس ليعيشوا فيها كأهل ذمة في ظل الحكم الإسلامي. ولقد بنى الخليفة عمر مسجدًا في المنطقة التي كانت مليئة بالتراب بجوار الصخرة المقدسة التي عرج من عندها رسول الله (ﷺ) إلى السماء في حادثة الإسراء والمعراج، وهو المسجد المعروف بجامع عمر في ساحة حرم الأقصى المقدس.

وجاء توافد اليهود إلى القدس بطيئا طوال عهد حكم الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين لكن أعدادهم ازدادت بشكل واضح في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان[47]. وحين أصبحت بلاد الشام في يد الفاطميين، بما فيها القدس، ازداد تواجد اليهود بالمدينة لتسامح الفاطميين عمومًا مع أهل الذمة يهودًا أو نصارى، ولم

يكن اليهود منبوذين في الدولة الإسلامية مثلما كان حالهم في مجتمع أوربا العصور الوسطى يسكنون في أحياء خاصة بهم مغلقة عليهم، عُرفت باسم الجيتو، بل كانوا يسكنون مع المسلمين إن شاءوا لأنه لم يكن في المدن الإسلامية احياء مخصصة لغير المسلمين بحيث لا يتعدونها[٤٨].

ولقد اهتم حكام المسلمين بمدينة القدس وعرفوا قدسيتها القديمة، وقد نبههم القرآن ونبهتهم أحاديث الرسول (ﷺ) إلى قدم قداسة هذه المدينة وإلى قداسة ساحة حرم الأقصى التي بارك الله تعالى ما حولها[٤٩]. لكن القرآن والحديث لم يحددوا بالقطع بداية نشأة المدينة وبداية قداستها، لكنهما أشارا إلى أن نشأة هذه المدينة المقدسة بأنها كانت موغلة في القدم.

ولقد أشارت أيتان من سورةآل عمران[٥٠] إلى أن أول بيت وُضع للناس على الأرض هو الذي وُضع في مكة مباركا وهدى للعالمين، وهو البيت الحرام. أما عن زمن وضعه ووضع المسجد الأقصى فيروي عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري(ﷺ) قوله : " قلتُ يا رسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولا ؟ قال : المسجد الحرام، قُلتُ : ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى، قُلت : كم كان بينهما ؟ قال: اربعون عامًا "[٥١].

وعن بناء المسجد الحرام ذكر الأزرقي في كتابه تاريخ مكة[٥٢] أن أول من بنته الملائكة ثم آدم عليه السلام ومن بعده ابنه شيث إلى أن حدث الطوفان فدرس موضعه إلى أن بعث الله ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام فرفعا قواعده وأعلامه، وهو البناء الرابع للبيت.

ويجوز أن تكون الملائكة أو آدم عليه السلام، بعد أن بنت المسجد الحرام باربعين سنة، كما ورد في الحديث النبوي الشريف، بنت المسجد الأقصى بناءه الأول. وبناءا على ذلك فإن السنة المقصودة هنا ليست السنة التي نعد بها في التقويم الدنيوي وإنما المقصود بها السنة الكونية التي يُعد فيها اليوم بألف سنة مصداقا لقوله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[٥٣]. ونخلص من الروايات المختلفة الواردة في هذا الخصوص بأن تاريخ بناء المسجد الحرام وتاريخ بناء المسجد الاقصى ونشأة مدينة القدس التي قامت حول المسجد الأقصى أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى اذ ان ذلك يرجع إلى بدء خلق الكون.

ولقد كرّم الله تعالى القدس تحت مظلة الإسلام وخصهما بالفضل، والواقع أن فضائل المسجد الأقصى كثيرة أشار إليها القرآن الكريم في العديد من آياته في سورة البقرة والإسراء وغيرها، وفي الأحاديث الشريفة، ومنها قوله (ﷺ) : " لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى".

وقد كرّم الله تعالى القدس بأن جعله مكان مسرى رسول الله (ﷺ) ومعراجه إليه. كذلك تبرز مكانة القدس وفضله في الإسلام في توجه المسلمين في صلاتهم نحوه قبل أن يؤمروا بالتحول إلى الكعبة نحو سبعة عشر شهرًا بنزول الآية ١٤٤ من سورة البقرة[٥٤].

والمسجد الأقصى الوارد ذكره في القرآن الكريم هو أول القبلتين وثالث الحرمين، وسُمي كذلك لأنه أقصى وبُعد عن الأقذار والخبائث، وأنه أقصى المساجد التي تزاد ويُبتغى من زيارتها الأجر والثواب[٥٥]. والمقصود هنا بالمسجد الأقصى ليس المسجد الحالي فحسب ولكن المقصود كل ساحة حرم الأقصى التي عليها المسجد الحالي ومسجد عمر وقبة الصخرة، وهي مساحة تبلغ نحو ٣٤ فدانًا.

ويُنسب بناء المسجد الأقصى الحالي إلى الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان سنة ٦٥هـ/٦٨٥م[٥٦]. ويُرجع بعض المؤرخين تمام بنائه إلى ابنه الوليد بن عبدالملك[٥٧] سنة ٨٧هـ/٧٠٦م[٥٨]. وقد وصف الرحالة الفارسي المسلم ناصر خسرو[٥٩]. الذي زار القدس سنة ٤٣٨هـ في شهر رمضان م هذا العام، المسجد الأقصى وبيّن الفخامة التي كان عليها وذكر تفاصيل ذلك المسجد مع ذكر التجديدات التي وقعت عليه على مر السنين حتى أيامه (في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي)[٦٠]. ثم يصف بعد ذلك قبة الصخرة التي بناها عبدالملك بن مروان بالتفصيل[٦١]. تلك القبة التي أمر ببنائها سنة ٧٢هـ/٦٩١م فوق الصخرة المقدسة التي عرج من عندها براق رسول الله (ﷺ) في رحلة المعراج إلى السموات العلى، كذلك يصف بناء مسجد هذه القبة[٦٢].

ولقد واصل خلفاء المسلمين الاهتمام بعروبة فلسطين والقدس وجعلوا هذه البلاد محل عنايتهم ورعايتهم؛ فلقد استمر خلفاء بني أمية يولون القدس الكثير من العناية و الرعاية بداية بعبدالملك بن مروان وأبنائه الوليد وسليمان، حتى بلغ من

حب الخليفة سليمان بن عبدالملك لمدينة القدس أنه بعد أن جاءته البيعة بالخلافة وهو بالبلقاء قدم إلى القدس وأتته الوفود هنالك تبايعه وقد هم بالإقامة في القدس واتخاذها مقرًا لحكمه بدلاً من دمشق[٦٣].

كذلك اهتم خلفاء العباسيين بعروبة فلسطين والقدس وجعلها ايالة مستقلة استقلالاً ذاتيًا. واهتموا كذلك بعمارة المسجد الأقصى، فقد روي أن هذا المسجد قد وقع به تصدع في جدرانه الشرقية والغربية بسبب زلزال وقع بالبلاد سنة ١٣٠هـ فتولى الخليفة أبو جعفر المنصور ردع هذا الصدع وإعادة إعمار المسجد وتجديد بنائه[٦٤]. كذلك قام الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩هـ) بإعادة بناء المسجد حين تعرض لزلزال آخر أيام خلافته[٦٥].

وبالنسبة لتواجد اليهود في القدس خلال الحقبة الإسلامية، فمن الملاحظ أن تواجدهم بها وبفلسطين عمومًا كان قليلا خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة، حتى أن الرحالة الفارسي المسلم ناصر خسرو، الذي زار القدس في الخامس من شهر رمضان سنة ٤٣٨هـ/١٦ مارس ١٠٤٧م، لم يشر في كتاب رحلته لأي تجمع يهودي بمدينة القدس، أو أي ملكية أراضي لليهود بها وعدم وجود مستوطنات يهودية هناك، ولو وُجدت لما تردد هذا الرحالة، الذي ذكر كل شئ رآه، عن ذكره. وقد اقتصر قول ناصر خسرو عند الحديث عن سكان القدس من عرب مسلمين آنذاك بأن عددهم يبلغ حوالي عشرين ألف رجل غير النساء والأطفال المسلمين. ولم يشر إلى أي ملل أخرى كانت تسكن المدينة غير الرهبان المجاورين للأماكن المقدسة والحجاج المسيحيين واليهود الذين كان يقتصر تواجدهم المؤقت بالمدينة على أداء فريضة الحج ثم العودة إلى بلادهم[٦٦].

ولقد تعرض أهل القدس لعدوان الصليبيين، الذين أقاموا في القدس حكومة صليبية عُرفت بمملكة بيت المقدس الصليبية، فحين استولى (جودفروي بوايون). قائد الحملة الصليبية الأولى، على بيت المقدس[٦٧]. أقام في المدينة حمام دم لأهل الملل الثلاثة، وانطلق رجاله في شوارع المدينة يقتلون كل ما يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. واستمرت المذبحة طوال يوم الفتح وطوال الليل، حتى أن هذا القائد الوحشي أرسل لبابا روما يبشره بنصر الصليبيين

بقوله : " إن خيولنا كانت تغوص إلى رقابها في دماء المسلمين في إيوان سليمان ومعبده "[٦٨].

وبالمناسبة فإن الحروب التي شنها الأوربيون على بلاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى وعرفت بالحروب الصليبية فإنها لم تبدأ في الأصل ضد المسلمين، ولا كما ادعوا بأنهم قاموا بها لتخليص بيت المقدس وأماكنه المسيحية المقدسة من يد المسلمين، ولكنها بدأت في الأصل ضد اليهود في شرق أوربا وبلاد الروسيا ثم تحولت بعد ذلك ضد المسلمين حين وصلوا إلى الشرق الإسلامي. ويحكي كاتب اليهود الكبير سيمون دبنوف عن المذابح التي قام بها الصليبيون في أوربا الشرقية وروسيا قبل وصولهم إلى بلاد الشرق الإسلامي ويصف حمامات الدم الكثيرة التي راح ضحيتها آلاف الضحايا من اليهود[٦٩].

وبالنسبة ليهود القدس فقد ثبت أن الصليبيين أحرقوا عليهم معبدهم الذي تجمعوا فيه، فقتل الكثير منهم وأسر الكثير ممن فر ونجى من القتل، وبيع أسراهم في سوق النخاسة، وروي أن ثلاثين يهوديا بيعوا بدينار واحد. وقد برر "دي بلوين" قتله وتحريقه لليهود بأنه ينتقم منهم لقتلهم المسيح[٧٠]. ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبي في كل مدن فلسطين، وشملهم القتل والأسر في يافا والخليل (حبرون) وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية[٧١]. ونتيجة لهذه المذابح الصليبية هرب من استطاع الهرب من بقايا اليهود من مدن فلسطين ناجيا بحياته إلى أماكن آمنة، حتى كادت فلسطين جميعها أن تخلو تماما من اليهود. وقد ذكر ذلك الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي، الذي زار فلسطين سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، حيث أورد أنه رأى فلسطين خالية تماما من اليهود أو تكاد. فذكر أنه لم ير في القدس سوى أربعة يهود يعملون بالصياغة، وأنه لم ير في يافا سوى يهودي واحد، وفي الرملة ثلاثة يهود، وروى أنه مر على باقي مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهودي واحد.

ولقد ظل حكم الصليبيين لمدينة القدس مدة تسعين عاما، حتى تم تحريرها وتخليصها على من أيديهم على يد صلاح الدين الأيوبي، بعد انتصاره في معركة حطين[٧٢]. وبعد أن أتم صلاح الدين الفتح سمح لليهود بالعودة إلى القدس، وأظهر التسامح والعفو مع أهل المدينة ما جعل المؤرخين يذكرونه بالخير والثناء والتقدير[٧٣]. ولقد أصدر صلاح الدين نداء غداة تحريره للقدس يحث فيه اليهود

صغارًا وكبارًا، وبخاصة الهاربين من العدوان الصليبي بالعودة إلى القدس. وفي خلال سنوات قليلة من حكم صلاح الدين أعيد المجتمع اليهودي في القدس، وقد عاد مع العائدين عدد كبير من كبار علماء اليهود وربانيتهم من أوربا وسكنوا القدس، وسمح لهم صلاح الدين بالعمل في التجارة والمال والطب ومنحهم حرية العبادة وأمنهم حيث سكنوا، فبرزت منهم شخصيات هامة في عهده وبخاصة الطبيب العالم الفيلسوف موسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٤م.

ولقد تمسك صلاح الدين في صلح الرملة مع الصليبيين[٧٤] بعروبة القدس بسيادة دولة المسلمين عليها وعلى بقية مدن فلسطين، ولم يسمح للمسيحيين واليهود فيها وفي غيرها إلا بحرية العبادة. كذلك تمسك بقية حكام الأيوبيين، الذين حكموا بعد صلاح الدين، وحكام المماليك الذين ورثوا حكم الأيوبيين في مصر والشام بعروبة القدس، وحافظا على ذلك الأمر طوال مدة حكمهم ولم يفرطوا خصوصًا في القدس ولم يسمحوا لليهود بأي ملكية فيها ولكن يسمحوا لهم بحق الزيارة وتلمس أماكن العبادة، وسمحوا لجاليتهم الصغيرة بالعيش ومعاملتهم معاملة أهل الذمة في الحقوق والواجبات.

وكان حرص سلاطين المماليك شديدًا في أن يجعلوا من القدس واحة للأمان يتردد عليها العلماء والفقهاء والقضاة والدارسون والزهاد والمتعبدون من مختلف الملل والمذاهب الدينية، وهو ما لم يتوفر لهذه المدينة في الأزمنة الحالية حتى صارت جديرة بأن تتحول في عهدهم من مجرد ولاية صغيرة تابعة لإمارة دمشق إلى نيابة مستقلة إداريًا تابعة مباشرة للسلطان المملوكي في القاهرة. وهكذا استمرت القدس مدينة عربية إسلامية طوال عهد حكم المماليك لمصر والشام حتى الفتح العثماني لهذه البلاد.

وفي ظل السيادة العثمانية ارتفع شأن القدس فأسبغ عليها سلاطينهم وخلفائهم لقب الشريف فصارت تُعرف : بالقدس الشريف. وقد حرص السلطان العثماني سليم الأول على زيارة الأماكن المقدسة بالقدس، وأصدر فرمانا بمنع هجرة اليهود إليها وإلى سيناء حفاظًا على الطابع العربي الإسلامي المميز لهذه المناطق، وقد استمر هذا الفرمان ساري المفعول حتى سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م[٧٥].

ولقد ظلت فلسطين والقدس جزءا من الدولة العثمانية قرابة أربعمائة عام تقريبا[٧٤]. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى خضعت فلسطين للسيطرة البريطانية بعد أن احتلها الجيش البريطاني في ديسمبر ١٩١٧م، وخطط لها أن تكون جزءا من نظام الانتداب الذي أنشأته عصبة الأمم التي تكونت في أعقاب الحرب العالمية الاولى، وأصدرت بريطانيا، في ظل انتدابها على فلسطين في نفس العام، وعد بلفور الذي أعلنت فيه رغبتها في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[٧٦]. وقد عارض أهل فلسطين العرب، الذين سكنوها منذ فجر التاريخ، وعد بلفور الغاشم والذي وصف بأنه " وعد أعطى من لا يملك إلى من لا يستحق "[٧٧]. وبعد صدور الوعد بخمسة أسابيع احتل الجنرال اللنبي القدس في ديسمبر ١٩١٧م، وفرضت بريطانيا على الفلسطينيين بالقوة تنفيذ وعد بلفور وتحقيق قيام الوطن القومي لليهود في فلسطين. ورفض الشعب الفلسطيني الانتداب البريطاني على بلادهم، وصار تاريخ الانتداب هو نفسه تاريخ كفاح شعب فلسطين ضد التسلل اليهودي لبلادهم في ظل الاحتلال البريطاني وضد تهويد القدس العاصمة الأبدية لفلسطين.

إلا أن الحكومة البريطانية مسلحة بالانتداب ومستخدمة قوة إمبراطوريتها المدعمة بقوى الصهيونية العالمية ركزت على تنفيذ وعد بلفور بالقوة وتسهيل هجرة واسعة النطاق لليهود إلى أرض فلسطين ضد مشيئة شعبها. وكان اليهود في عام ١٩١٧ يمتلكون ٢% من أرض فلسطين ولكن في منتصف عام ١٩٤٨م صاروا يمتلكون ٦% من مساحة فلسطين فقط رغم كل الإجراءات التعسفية التي قامت بها بريطانيا لتسهيل الهجرة والتملك لليهود في أرض فلسطين[٧٨].

واتخذت معارضة الفلسطينيين للهجرة اليهودية شكل مظاهرات واضطرابات وثورات اندلعت سنوات ١٩٢٠م و٢١ و٢٩ و٣٦، وكانت القدس سنة ١٩٢٩م مسرحا لاضطرابات ومصادمات كبرى وقعت بسبب ما عرف بثورة البراق أو حائط المبكى كما يسميها اليهود.

وفي فبراير ١٩٤٧م قررت الحكومة البريطانية، بعد أن واجهت أعمال عنف دامية، عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة وطلبت إيجاد تسوية لمشكلة فلسطين. واعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م مشروع تقسيم فلسطين بموجب القرار ١٨١ الذي ينص على إنهاء الانتداب البريطاني على

فلسطين وانسحاب القوات البريطانية منها تدريجيا وإقامة دولتين في فلسطين إحداهما عربية والأخرى يهودية وتخطيط الحدود بينهما، ووضع نظام دولي لمدينة القدس تجرى إدارته من قبل مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة. وقد شمل هذا القرار الخاص بالقدس الذي حمل رقم ١٨ أن تكون مدينة القدس مجردة من السلاح وأن تكون كيانا منفصلا تحت إشراف مجلس الوصاية الذي يتعين عليه وضع مشروع نظام أساسي للقدس ويعين حاكما لها ويجرى انتخاب مجلس تشريعي بالاقتراع العام للسكان البالغين، وأن يبقى هذا النظام الأساسي ساريا لمدة عشر سنين، ثم ينظر فيه مجلس الوصاية على النحو الواجب على مشاركة المواطنين عن طريق الاستفتاء الشعبي.

لكن القتال الذي وقع سنة ١٩٤٨م حال دون تنفيذ ذلك القرار، وسارع اليهود باحتلال القطاع الغربي من القدس، واحتلت الأردن القطاع الشرقي بما فيه المدينة القديمة المسوّرة، وبذلك قُسمت القدس إلى قسمين بحكم الواقع. وفي ٢٣ يناير ١٩٥٠م أعلنت إسرائيل القدس عاصمة لها وأنشأت وكالاتها الحكومية في الجزء الغربي من المدينة. وبعد أن سيطرت إسرائيل على القدس أخذت العمل على تهويد المدينة المقدسة.

ولقد غيرت حرب ١٩٦٧م الوضع في القدس تغييرا جذريا، إذ احتلت إسرائيل القدس الشرقية مع الضفة الغربية لنهر الأردن، ومنذ ذلك الوقت أحدثت عددا من التغييرات السكانية والمادية في القدس[٢٩]. وإن كل البيانات والأرقام التي نقلتها الصحف الإسرائيلية وتصريحات كبار المسئولين في الحكومة الإسرائيلية عما يُسمى بالإدارة المدنية لإسرائيل للأراضي العربية المحتلة تشير إلى وجود مخطط إسرائيلي مدروس يستهدف تحويل القدس بشطريها إلى مدينة يهودية بالكامل مع حلول عام ٢٠٢٠م. ومعدلات العمل على تهويد القدس قد تضاعفت عشرات المرات عما كان عليه الحال عام ١٩٦٧م وحتى مجيء حكومة السفاح شارون إلى الحكم. وخلاصة القول أن مخطط نسف اتفاقيات أوسلو وتجميد عملية السلام يؤكدان أن اسرائيل تريد ابتلاع كل القدس إنْ لم يكن في مخططها ابتلاع كل فلسطين.

الهوامش

١- سورة الإسراء : الايات ٤-٧.

٢- اليبوسيون هم فرع من القبائل العربية الكنعانية نزحوا من جزيرة العرب واستقروا في فلسطين منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد اتخذ اليبوسيون لهم عاصمة في البلاد أسموها يبوس صارت فيما بعد تُعرف باسم أورشليم، وذكرت التوراة ذلك، وقالت : يبوس هي أورشليم، وأورشليم مدينة اليبوسيين. (عبدالحميد زايد : القدس الخالدة في الوثائق القديمة، مقال في بحوث مؤتمر مصادر تاريخ القدس، القاهرة ١٩٩٨م، ص٥٥-٥٦).

3- K.M. Kenyon : Jerusalem, Excavating 3000 years of History, London 1929, p. 247.

٤- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق، ج١، طبعة بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٨م، ص٨٥-٨٨.

٥- فيليب حتى : نفس المصدر السابق، ج١، ص٧٠-٧٢.

٦- فيليب حتى : نفس المصدر السابق، ج١، ص١٧٤-١٧٨.

٧- يدحض الأستاذ عباس العقاد هذا القول ويرد عليه بما يثبت كذبه في كتابه "أبو الأنبياء" عن سيدنا ابراهيم وإدعاء اليهود بالانتساب إليه.

٨- سيد الناصري : المصادر الأثرية والأدبية لأورشليم القديمة منذ تأسيسها حتى طرد الرومان لليهود منها عام ١٣٥م، مقال بمجلة بحوث مؤتمر القدس المنعقد في كلية الأداب - جامعة القاهرة خلال الفترة ٢١/٣-٢٣/٣/١٩٩٨م، القاهرة ١٩٩٨م، صفحات ٣-٤٨.

٩- تقع هذه الآثار في منطقة تل العمارنة بمحافظة المنيا فيما عُرفت أيام الفرعون أمنحتب الرابع الملقب بأخناتون (١٣٧٩-١٣٦٢ ق.م.)، باسم مدينة أخناتون.

١٠- الناصري : نفس المقال السابق، ص٧.

١١- الإصحاح ١٤ : (فقرات ١٧-٤١)، وقد ذكرت التوراة أن هذا الملك اليبوسي قال في حق إبراهيم : " مبارك أبراهام من العلي القدير مالك السماوات والأرض ".

١٢- الناصري : المصادر الأثرية، ص٨.

١٣- القضاة : الفقرات ١٩-٢١.

١٤- يقول السفر : " وفيما هم عند يبوس والنهار قد إنحدر قال الغلام لسيده : تعالى نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، قال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة ليس فيها أحدٌ من بني إسرائيل ".

١٥- الناصري : المصادر الأثرية، ص٧.

١٦- سورة الأعراف : الآية ١٦١ [وإذْ قِيل لهُمْ اسكُنُوا هذِهِ القرْية وكُلوا مِنْها حيْثُ شِئتُمْ].

١٧- سورة الكهف : الآية ٧١ [الأرْض التِي باركْنا فِيها لِلعالمِين] وسورة المائدة : الآية ٢١ [الأرْض المُقدّسة].

١٨- الناصري : المصادر الأثرية، ص٩.

سورة يوسف : الآيات ٩٨-١٠٠ [فلمّا دخلوا على يُوسُف آوى إليْهِ أبويْهِ وقال ادْخُلوا مِصْر إن شاء الله آمِنِين (*) ورفع أبويْهِ على العرْشِ وخرُّوا لهُ سُجّدًا وقال يا أبتِ هذا تأوِيلُ رُؤْياي مِن قبْلُ قدْ جعلها ربِّي حقًا وقدْ أحْسن بِي إذْ أخْرجنِي مِن السِّجْنِ وجاء بِكُم مِّن البدْوِ مِن بعْدِ أن نّزغ الشّيْطانُ بيْنِي وبيْن إخْوتِي إنّ ربِّي لطِيفٌ لِّما يشاءُ إِنّهُ هُو العلِيمُ الحكِيمُ].

١٩- وهو أحد الأسفار الخمسة التي تتكون منها التوراة اليهودية.

٢٠- سورة يونس : الآية ٩٠.

٢١- سورة يونس : الآيات ٨٣-٨٦.

٢٢- يقول الله تعالى في ذلك (سورة المائدة : الآيتان ٢٠-٢١) : [وإذْ قال مُوسى لِقوْمِهِ يا قوْمِ اذْكُرُوا نِعْمة اللهِ عليْكُمْ إذْ جعل فِيكُمْ أنبِياء وجعلكُم مُّلُوكًا وآتاكُم مّا لمْ يُؤْتِ أحدًا مِّن العالمِين (*) يا قوْمِ ادْخُلُوا الأرْض المُقدّسة التِي كتب اللهُ لكُمْ ولا ترْتدُّوا على أدْبارِكُمْ فتنقلِبُوا خاسِرِين].

٢٣- سورة البقرة : الآيات ٤٧-٥٤.

٢٤- سفر العدد ١ : ٤٥-٤٧، سفر يشوع، الإصحاح الأول ١-١٠.

٢٥- سفر يشوع : الإصحاح العاشر (توفي يوشع بن نون بعد وفاة موسى بعد حوالي ٢٧ سنة على الوجه الأرجح).

٢٦- سفر يشوع : الإصحاح الأول ١-١٠.

٢٧- " وقلت لكم أنا الرب لا تأمنوا الهة الأموريين الذين أنتم ساكنون أرضهم " (سفر القضاة : الإصحاح السادس ١٠).

٢٨- وهو الذي جاء اسمه في القرآن الكريم باسم طالوت : [وقتل داوُدُ جالوت وآتاهُ اللهُ المُلكَ والحكمةَ وعلمهُ مما يشاءُ] سورة البقرة : الآية ٢٥١.

٢٩- [وورث سُليمانُ داوُد] سورة النمل : الآية ١٦.

٣٠- يقول تعالى في ذلك في سورة البقرة : الآيات ١٣٣-١٣٦ : [أمْ كنتُمْ شُهداء إذْ حضر يعقوب الموتُ إذْ قال لبنيه ما تعبُدُون من بعْدي قالوا نعبُدُ إلهك وإله آبائك إبْراهيم وإسْماعيل وإسْحاق إلها واحدًا ونحْنُ لهُ مُسْلمُون (*) تلك أمّةٌ قدْ خلتْ لها ما كسبتْ ولكُم مّا كسبْتُمْ ولا تُسْألُون عمّا كانُوا يعْملُون (*) وقالوا كُونوا هُودا أوْ نصارى تهْتدُوا قُلْ بلْ ملّة إبْراهيم حنيفا وما كان من المُشْركين (*) قُولوا آمنا بالله وما أنْزل إليْنا وما أنْزل إلى إبْراهيم وإسْماعيل وإسْحاق ويعْقوب والأسْباط وما أُوتي مُوسى وعيسى وما أُوتي النّبيُّون من رّبّهمْ لا نُفرّقُ بيْن أحدٍ مّنْهُمْ ونحْنُ لهُ مُسْلمُون].

31- Albright, W.F., : The Bibilical Beriod From Abraham to Ezra, New York 1963, p.116.

32- Gardiner, A.H. : Egypt of the Pharohs, Oxford 1961, p.329.

٣٣- حلت الكارثة بدولة بابل سنة ٥٣٩ ق.م. على يد الفرس وبانقضائها أيام الإمبراطوريات السامية (فليب حتيء تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٢٣٩).

٣٤- خمن عدد الأسرى اليهود الذين حملوا إلى بابل بحوالي ٥٠ ألف شخص. (فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٢٢٠).

٣٥- حتى : تاريخ سورية، ص٢٣٩.

٣٦- سفر نحميا (٣ : ١٢).

٣٧- عبّر شاعر اليهود عن الحنين الـذي رواد أكـثرهم بكلمـات مؤثـرة فـي (المزمور ١٣٧) حيث قال : " على أنهار بابل هناك جلسـنا، بكينـا أيضـا عندما تذكرنا صهيون، على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا لأنه هنـاك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحين قائلين رنموا لنا مـن ترنيمات صهيون كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريب ؟ إنْ نسيتك يـا أورشليم تنساني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إنْ لم أذكرك، إنْ لـم أفضـل أورشليم على أعظم فرحي ".

٣٨- سيد الناصري : المصادر الأثرية، ص٢٦-٢٧.

٣٩- سفر المكابيين ٧ : ٣-٤٣-٥٨و.

٤٠- الناصري، نفس المرجع، ص٢٨.

41- Josephus, B.J. : Histoire de la Palestine depuis la conquâte d'Alexandre Jusqu'a l'invasion arabe, Paris 1952, vi, pp.220-228.

٤٢- ذكرت هذه الثورة ونبوءة قيامها في كتاب العهد القديم فـي سـفر العـدد، الإصحاح ٢٤ : ١٧.

٤٣- سيد الناصري : نفس المرجع، ص٤٢.

٤٤- حسن ظاظا : القدس مدينة الله، الإسكندرية ١٩٧٤م، ص٢٠.

٤٥- عطية القوصي : تـاريخ الدولـة العربيـة الإسـلامية، القـاهرة ١٩٩٤م، ص١١٣.

٤٦- عطية القوصي : اليهود في ظل الحضـارة الإسـلامية، القـاهرة ٢٠٠١م، ص١١.

٤٧- الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٣، القاهرة ١٩٦٢م، ص٦١١.

٤٨- أورد الطبري نص العهد الذي كتبه عمر لأهل ايليا (القدس) والذي جاء فيه: " بسْم الله الرّحْمن الرّحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنيـن أهـل ايلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالـهم ولكنائسـهم وصلبانـهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تـهدم ولا ينتقـص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهـون

على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ". (الطبري : تاريخ الرسل، ج٣، ص٦٠٩).

٤٩- هو الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية، حكم الدولة الإسلامية مدة عشرين عامًا من سنة ٦٥هـ إلى سنة ٨٥هـ.

٥٠- هنالك رواية تقول أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم أن يسكنوها وألا يخالطوا المسلمين، بينما تقول رواية أخرى أنه أسكنهم حارة اسمها الجودرية. (عطية القوصي : اليهود في ظل الحضارة الإسلامية، ص٣١، هامش ١٣).

٥١- سورة الإسراء : الآية ١.

٥٢- سورة آل عمران : الآيتان ٩٦ ، ٩٧.

٥٣- ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٦، القاهرة ١٩٥٦م، ص٤٦٩.

٥٤- الأزرقي : تاريخ مكة، طبعة دار الأندلس، ١٤١٣هـ/١٩٨٣م، ص٧٥.

٥٥- سورة الحج : الآية ٤٧.

٥٦- في قوله تعالى : [قدْ نرى تقلُّب وجْهك في السّماء فلنولّينّك قبْلةً ترْضاها فولِّ وجْهك شطْر المسْجدِ الحرام وحيْثُ ما كُنْتُمْ فولُّوا وُجُوهكُمْ شطْرهُ].

٥٧- خصه الله تعالى بفضائل عظيمة منها أن الصلاة فيه بخمسمائة صلاة في غيره عدا المسجد الحرام فالصلاة فيه بمائة ألف صلاة، والاعتكاف فيه فضل كبير، وأول من يدخل الجنة مؤذنو الكعبة ومؤذنو المسجد الأقصى.

٥٨- الواسطي (أبو بكر محمد) : فضائل البيت المقدس، القدس ١٩٧٩م، ص٨١.

٥٩- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، بيروت ١٩٩٥م، ص٢٩٢.

٦٠- مساحة المسجد الأقصى الآن ٤٦٧٥ مترًا مربعًا بطول ٨٥ مترًا وعرض ٥٥ مترًا، وهو يقوم على ٥٣ عمودًا من الرخام، ٤٩ سارية من الحجر، وبهذا المسجد ١١ بابًا، ثلاثة منها مغلقة حالية، وهي باب الرحمة وباب التعزية وباب البراق.

٦١- جاء في هذا الوصف في كتاب سفر نامة لناصر خسرو، وهو الكتاب الـذي سجل فيه رحلته إلى المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج. (ناصر خسـرو: سفر نامة، تحقيق: يحيى الخشاب، بيروت ١٩٧٠م، صفحات ٥٦-٧٥).

٦٢- ناصر خسرو: سفر نامة، ص٦٥-٦٦.

٦٣- المقدسي: فضائل بيت المقـدس، مخطوطـة، تحقيـق: زنوبـة نـادي، ص٢٣١-٢٣٢؛ الحنبلي: الأنس الجليل بتـاريخ القـدس والخليـل، ج١، النجف ١٩٦٨م، ص٢٨١-٢٨٢.

٦٤- الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٢٨٢؛ السيوطي: اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٤٦.

٦٥- المقدسي: فضائل بيت المقـدس، ص٦٣-٦٤؛ أحسـن التقاسـيم، لبـدن ١٩٦٧م، ص١٦٨-١٦٩.

٦٦- ناصر خسرو: سفر نامة، ص٥٥.

٦٧- تم هذا الاستيلاء مـن جـانب الصليبيـن علـى المدينـة المقدسـة سـنة ٤٩٣هـ/١٥ يوليو ١٠٩٩م.

٦٨- ستيفن رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد البـاز العرينـي، بيروت ١٩٦٧م، ص٤٠٤.

69- Simon Dubnov: History of the Jews, V.IV, London 1968, p.214.

70- Ben Jurion : The Jews in their Lands, London, 1966, p.214.

71- Ben Jurion : Cit., p. 215.

٧٢- حرر صلاح الدين هذه لمدينة يوم الجمعة ليلة الإسراء والمعراج ٢٧ رجـب سنة ٥٨٣هـ/ الثاني من أكتوبر ١١٨٧م.

٧٣- أبلغ ثناء قيل في حق صلاح الدين ما أورده المرخ لين بول سـتانلي وذلـك بقوله: " إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التي أبداها صلاح الديـن لسكانها هي الحسنة الوحيدة التي فعلها لكفاه بذلك أن يكون أعظم الفـاتحين وأرقهم قلبًا في عصره بل وربما في كل العصور ".

(Stanley Lane-Pool : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beirut 1964, p.234)

٧٤- عُقد هذا الصلح بين صلاح الدين والصليبيين في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢٠ سبتمبر ١١٩٢م.

٧٥- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية، القاهرة ١٩٨٠م، ج٢، ص٩٦٣.

٧٦- حين قسم العثمانيون في عهد السلطان سليم الأول بلاد الشام إلى ولايات أصبحت القدس تشكل سنجقا من سناجق ولاية دمشق، وأصدر السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٢٠هـ فرمانا يؤكد ويجدد فيه ما جاء في الفرمان السابق الذي أصدره بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء.

٧٧- سالم الكسواني : المركز القانوني لمدينة القدس، عماد ١٩٧٨م، ص١١٢-١١٣.

٧٨- إسماعيل أحمد ياغي : القدس في قرارات الأمم المتحدة (١٩٤٧-١٩٩٠)، مقال بمجلة بحوث مؤتمر مصادر القدس، القاهرة ١٩٩٨م، ص٦١٠.

٧٩- إسماعيل أحمد ياغي : القدس في قرارات الأمم المتحدة، ص٦١٧.

المصادر والمراجع

المصادر :

- القران الكريم.
- كتاب العهد القديم.
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، بيروت ١٩٩٥م.
- ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٦، القاهرة ١٩٥٦.
- الأزرقي : أخبار مكة، الجزء الأول، طبعة دار الأندلس، الرياض ١٤١٣هـ/١٩٨٣م.
- الحنبلي، مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، النجف ١٩٦٨م.
- السيوطي، جلال الدين : اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، القاهرة ١٩٨٢م.
- الطبري، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك، ج٣، القاهرة ١٩٦٢م.
- المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٦٧م.
- المقدسي : فضائل بيت المقدس، مخطوط، تحقيق زنوبة نادي، القاهرة ٢٠٠٠م.
- ناصر خسرو : سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت ١٩٧٠م.
- الواسي، أبو بكر : فضائل البيت المقدس، القدس ١٩٧٩.

المراجع العربية :

- إسماعيل أحمد ياغي : القدس في قرارات الأمم المتحدة (١٩٤٧-١٩٩٠). مقال بمجلة مؤتمر مصادر القدس، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- حسن ظاظا : القدس مدينة الله، الإسكندرية ١٩٧٤م.
- رونسيمان ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني. بيروت ١٩٦٧م.
- سالم الكسواني : المركز القانوني لمدينة القدس، عمان ١٩٧٨م.
- سيد أحمد الناصري : المصادر الأثرية والأدبية لأورشليم القدس منذ تأسيسها حتى طرد الرومان لليهود منها عام ١٣٥م، مقال بمجلة مصادر القدس، القاهرة ١٩٩٨م.
- عباس محمود العقاد : أبو الأنبياء (إبراهيم)، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥م.
- عبدالحميد زايد : القدس الخالدة في الوثائق القديمة، مقال في مجلة بحوث مصادر القدس، القاهرة ١٩٩٨م.
- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية، القاهرة، القاهرة ١٩٨٠م.
- عطية القوصي : اليهود في ظل الحضارة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١م.
- عطية القوصي : تاريخ الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد عبدالكريم رافق، ج١، بيروت ١٩٥٨م.

المراجع الأجنبية :

- Albright, W.F., : The Bibilical Period From Aberaham to Ezra, New York 1963.
- Ben Jurion : The Jews in their Lands, London, 1966.
- Dubnov Simon: History of the Jews, V.IV, London 1968.
- Gardiner, A.H. : Egypt of the Pharohs, Oxford 1961.
- Josephus, B.J. : Histoire de la Palestine depuis la conquâte d'Alexandre Jusqu'a l'invasion arabe, Paris 1952.
- Kenyon, K.M. : Jerusalem, Excavating 3000 years of History, London 1929.
- Stanley Lane-Pool : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beirut 1964.

سلوكيات الأعوان

في عصر الإمارة الأموية بالأندلس

د. إلهام محمد هاشم الدجاني

عرف التاريخ السياسي والحضاري للدول الإسلامية التي قامت في المشرق والمغرب على مر العصور اتخاذ خلفاء وملوك وحكام هذه الدول أعوانًا لهم يساعدونهم في حكم بلادهم وفي أمورهم الإدارية والمالية كذلك في إدارة ممتلكاتهم الخاصة.

وكان اختيار هؤلاء الأعوان من قبل حكام هذه الدول يخضع لاختبارات كثيرة وكان الأشخاص المختارون يتمتعون بصفات ومواهب خاصة تؤهلهم للوصول إلى بلاط هؤلاء الحكام والعمل معهم وتنفيذ أوامرهم والإخلاص في خدمتهم والسعي دومًا إلى إرضائهم.

وكثيرًا ما كان يقع التنافس بين هؤلاء الأعوان بعضهم والبعض الأخر لنيل الحظوة عند الحاكم والاستئثار بالقرب منه دون غيره وكان ذلك يستلزم منهم الحذر الدائم من سخط الحاكم والتخلص بأسرع ما يكون ممن يحاولون الدس والكيد لهم عنده.

وكثيرًا ما كان يصل بعض هؤلاء الأعوان إلى مكانة سامية ومنزلة رفيعة عند حاكم ولكنهم يخسرون هذه المكانة وينحسر النفوذ والسلطان عنهم إذا ما مات هذا الحاكم أو عَزل، فيلقي هؤلاء الأعوان المصير السئ من المصادرة والسجن أو النفي أو القتل.

وكذلك كثيرًا ما يحدث أن ينعم حاكمٌ على أعوانه بسبب اتساع نفوذهم وزيادة سلطتهم وكثرة ما جمعوا من مال وأحرزوا من جاه ويخاف منهم أن ينقلبوا عليه وأن يعملوا على الاستئثار بالحكم دونه فيقوم بنكبتهم. ولنا في تاريخ أبي جعفر

المنصور الخليفة العباسي مع كبير أعوانه أبي مسلم الخراساني، وفي تاريخ البرامكة مع الرشيد، وفي تاريخ بني سهل مع المأمون أمثلة واضحة في مصير هؤلاء الأعوان الذين أخلصوا لحكامهم كل الإخلاص فجوزوا بجزاء (سنمار).

وفي عصر الإمارة الأموية في الأندلس اتخذ أمراء بني أمية أثناء حكم إمارتهم بالأندلس الأعوان تقليدًا لما كان في المشرق الإسلامي اتخذوهم من أهل الثقة لمناصرتهم، مستغلين في ذلك ما لدى بعض الأعوان من نزعات بشرية لحب الظهور والوصول، مما يدفعهم إلى الإخلاص والغيرة على مصالح الدولة حتى ينالوا رضا الحكام والتقرب منهم ويشيعوا الأمن والاطمئنان في البلاد.

كذلك اتخذ الأمراء من الأعوان عيونًا لهم على أقوامهم؛ فحين رأى الأمير عبدالرحمن بن معاوية، أرطباش النصراني في إحدى الغزوات وحوله الهدايا سأل عنه واستدعاه، وحين عرف مقداره بين قومه عينه قومسًا فأصبح عينًا له على قومه من النصارى[١].

كما لم يتوان الأمراء في الاعتماد على الأعوان من الموالي والمماليك لتقوية سلطانهم في مواجهة العصاة فحين سمع عبدالرحمن بن معاوية من ثعلبة بن كليب خبر اباء بعض العرب عن الانضواء تحت رايته[٢]، اتخذ قراره الفوري بالاعتماد على الموالي والمماليك، حتى يستطيع ومن معه أن يمسكوا بزمام الأمور في الأندلس، وكان رأيًا صائبًا، لمنع ظهور جماعة العرب على سائر الجماعات الأندلسية الأخرى.

ولم يبخل الأمراء بمساعدتهم للأعوان ورفع المعاناة عنهم حتى يأمنوا جانبهم تفاديًا لأي اضطرابات وعصيان من جانبهم. فحين جاء رجل من كنانة إلى هشام الرضي – وكان صنيعة له – يخبره بتسرع أخيه سليمان بن عبدالرحمن والي جيان في قراره بشأن قتل رجل من كنانة لرجل خطأ. إذ أنه جعل الدية على بني كنانة أجمعين وعلى الرجل صنيعة هشام خاصة، نجد أن هشاما أسرع إلى أبيه وأخبره الخبر، فأمر عبدالرحمن بن معاوية بترضية هذا الكناني وقومه ودفع الدية من بيت مال المسلمين وكتب لابنه سليمان بعدم التعرض لهم[٣] وذلك كله لدرء وقوع أي اضطرابات داخلية قد تحدث.

وعلى الرغم من حاجة الأمراء لهؤلاء الأعوان لمعاضدتهم وشد أذرعـــهم إلا أنهم لم يكونوا يستمعوا إليهم ويوافقوهم على ما فيه ضرر بالبلاد وأهلها، حيث لـــم يستمع الأمير عبدالرحمن بن الحكم، لقول أحد المغرضيـــن، ليبـــتز الأمـــوال مـــن الأندلسيين بوضع رسوم على الدواب والأحمال التي تعبر علــــى القنطـــرة لـتزداد الاموال، فرفض الأمير أن يبتدع أمرا لم يحدثه اباؤه باختراع هذا " المكس القبيـــح "، ووبخه على رأيه هذا، قائلا : " لو أشرت عليّ بترميم المسجد المجـــاور لـــدارك بدلا من هذا الرأي لكان أوفى "، وفرض عليه أن يصلح المســـجد علـــى حســـابه الخاص عقابا له على محاولة استغلال أموال الناس وفرض مكوس قبيحة(٤).

ولقد كان لتهافت بعض الأعوان في التقرب من الحكام أثـــره فـــي ســـلوكهم وعلاقات بعضهم ببعض من ناحية، وعلاقة الأمراء بهم من ناحية أخرى، فـــامتلأت حياة هؤلاء بالوشاية والحسد واستغلال النفوذ وغير ذلك من المفاسد التـــي وجهـــها الأمراء بكل حزم وقسوة دون تردد أو هوادة حفاظا على إرساء العدل ومنعا للفســـاد من أن يستشرى في البلاد.

ولن يكن الأمراء يرغبون فيمن يتهالكون على المناصب ويكيدون في ســـبيل نيلها من الأخرين، فعندما تنافس وزراء عبدالرحمن بن الحكم على منصب الحجابـــة بعد وفاة حاجبه عبدالكريم بن مغيث مما أضجر ذلك صدر الأمـــير، فأقســـم أن لا يولي أحدا منهم وأقرع بين الخزان فخرجت القرعة إلـــى الـــبربري " ســـفيان بـــن عبدربه المصمودي "(٥). وإن كان الرأي أن سبب إجرائه لتلك القرعـــة أنـــه كـــان يـــرى تساوى المتقدمين لهذه الوظيفة في المكانة، وعدم وصول أحـــد منـــهم إلـــى الدرجة التي كان عليها حاجبه المتوفى.

ولم يقبل الأمير محمد تدخل أقرب المقربين له في أمـــور الدولـــة بـــدون أن يطلب المشورة منهم. فحين توفى المولى الكاتب حامد بن محمد الزجالي، تطلع إلـــى الكتابة العليا عدد من أفضل الموالي من الوزراء وغيرهم، وعرض البعض نفســـه على الأمير لتقلدها، فأعرض عنهم، وأرسل إلى المولى عبدالملك بن عبـــدالله بـــن عبدالله بن أمية، وقلده الكتابة رغم أنه لم يكن الأصلح لتولي هذا المنصـــب. ولكـــن الأمير رأى أن يسير على سنة سلفه في احياء بيوت الشرف في دولته، وقـــد كـــره

وزيره هشام بن عبدالعزيز[6] هذا التصرف منه ولم يهتم الأمير برأي وزيره وسار في سياسته التي رسمها لنفسه.

ورأى الأمير محمد أن يعطي هذه الفرصة لأحد أبناء الموالي السابقين في الخدمة، حتى لا يتولى على هذه المناصب أبناء السوقة وأبناء الناس من العامة، واقتنع المولى هشام بن عبدالعزيز برأي الأمير واعتذر له[7]. ثم طلب الأمير من الكاتب عبدالملك بن أمية أن يستعين في أمره بأهل المعرفة من هذه الصناعة، ونبه هاشم أن لا يتعجل في اتخاذ قراراته[8] إذ أن من سياسة الأمير محمد محاسبة أهل خدمته وإيقافهم على موضوع الخلل والخطأ[9].

ولم يكن الأمير محمد غافلا عن تقرب وتزلف المولى هاشم بن عبدالعزيز إليه وكان يظهر ذلك له أمام الآخرين، فحين أمر الأمير محمد، هاشمًا ببناء حصون مدينة البيرة وأعطاه الأموال لذلك، إلا أنه بنى الحصون على حسابه الخاص وأرجع الأموال للأمير فأثنى الأمير عليه، وكان الأمير يعرف أن هذا التصرف تزلفا له من جانب وزيره، وكان الأمير يوبخه في بعض الأحيان على هذا التزلف حين يزداد أمره، وقد قال له في إحدى المرات بصدد ذلك : " لقد كنت غنيا عن هذا التبذل الزائد الذي يعقب كدر المجالس، فأبعد خاسئا "[10].

ورغم هذا فإن الأمير محمد كان يحسن الظن بوزيره هاشم ويعتبر ما يحدث منه من أخطاء نتيجة التسرع والزلل وعدم تقدير الأمور ولم يشك يوما في إخلاصه له. ومع ذلك لم يقف الأمير محمد موقف المتفرج من أعمال هاشم الخاطئة فاستدعاه في أحد المرات وأعطاه الشكايات المرسلة من الناس ضده، فأنكر صحتها واتهم كاتبيها بالحسد والغيرة منه ولكن الأمير أنذره بعدم إساءته إلى الناس حتى لا تتكرر هذه الشكايات وأمره أن لا يعرف أصحاب الشكايات بقراءته لها حتى يستمروا في الشكاية له[11].

ولقد نتج عن التهافت على المناصب والرغبة في التقرب إلى الأمراء أن كثرت الوشايات والدسائس من جانب بعض الأعوان ضد بعضهم البعض وتعددت مظاهرها فأصبح الحسد والغيرة يسودان العلاقة فيما بينهم.

وقد وشى أحد أعداء أصبغ بن وانسوس، والي مارده، به عند الحكم بن هشام ليوقع بين الوالي والأمير وبعد تأكد الأمير من صحة هذه الوشاية المدسوسة، أغار الحكم على مارده سبعة أعوام إلى أن اضطر أصبغ بن عبدالله بن وانسوس إلى أن يطلب الأمان، فأمنه الأمير وأسكنه قرطبة وأصبح من جلسائه(١٢).

وكذلك دس الخازن الأكبر المولى موسى بن حدير في عهد الأمير عبدالرحمن الثاني على القاضي ابراهيم بن العباس المرواني (بكلمة خاطبته بها امرأة تخاصمت إليه علانية بمجلس نظره، فلم ينكرها) فقد خاطبته بقولها : " يا ابن الخلائف "، فعزله الأمير سريعاً(١٣). ويستخلص من هذا النص أن أمراء بني أمية لم يرضوا أن يشاركهم أحد من معاونيهم في ألقابهم ورئاستهم.

وقد وقع الحسد بين أعوان أمراء الأمويين فمن ذلك ما وقع من حسد بين الوزير الشاعر العربي يحيى بن بكر وبين زرياب المولى على ما وصل إليه من مكانة أدبية ومادية في أيام عبدالرحمن بن الحكم. وكان الأمير قد منح زرياب راتباً شهريًا مقداره مائتى دينار في الوقت الذي كان راتب الوزير فيه ثلثمائة دينار، كذلك منح أبناءه الأربعة كل شهر عشرين دينارًا لكل واحد منهم، مع منح زرياب مكرمة أميرية من الأموال العامة تقدر بثلاثة آلاف دينار ومنحة ثلاثمائة مد ثلثاها شعير والثلث الآخر قمحًا. كذلك أقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ما يساوي أربعين ألف دينار(١٤). فبسبب ذلك قام الغزال بهجو زرياب، ولما تناهي إلى مسمع الأمير هذا الهجاء، غضب على شاعره وأمر بنفيه من الأندلس، فارتحل الغزال(١٥) إلى العراق.

كذلك وقع تحاسد بين ا لوزير هاشم وزير الأمير وبين الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبده، وكانت أراء هذا الحاجب صائبه في حل المشكلات وقد أوتى الحكمة في حسن التخلص من الأزمات التي يوقعه فيها حساده، وفي مقدمتهم الوزير هاشم. وقد تآمر هؤلاء الحساد على توريط الحاجب في أمر يكون أول متكلم فيه ووعدوه بالتأييد فيما يذهب إليه من رأي، ولكن الحاجب تخلص من هذه المكيدة بالانفراد بالأمير والتحدث معه في موضوع آخر(١٦).

الأمر الثاني الذي يوضح لنا حسد الوزراء للحاجب تلك المعلومات الخاطئة التي أعطاها الوزير هاشم للحاجب عيسى بن أبي عبده بشأن تعيين عبدالحميد بن

عبدالواحد بن مغيث في باغه والذي اعتبرها إهانة له وعلامة على عــدم رضــى الأمير عنه، وفطن الأمير محمد إلى دور الوزير هاشم في هذا الأمر[١٧].

وكما وقع الحسد من جانب الوزير هاشم لبعض الأعــوان، تعــرض لنفــس الموقف بعد وفاة الأمير محمد، وتولى الأمير المنذر الولاية. فقد سعى الحساد بيــن الأمير والوزير، وحاول الأمير المنذر في بداية أمره أن يقر هاشم بــن عبدالعزيــز على الحجابة كما كان في عهد أبيه محمد بن عبدالرحمن. ولما تكــاثرت الأقــاويل وأوعز الحساد للأمير المنذر بسوء نية هاشم في شعر له ألقاه عند مــواراة الأمــير محمد في قبره، بأن المقصود هو المنذر فأمر بقتله، فقد قال هاشم :

أعــزى يــا محمــد عنــك نفســي معـــاذ الله والمنـــن الجســـام
فــهلا مــات قــوم لــــم يموتـــوا ودوفع عنك لــــي كــأس الحمــام[١٨]

وقد وقع تحاسد في عهد الأمير عبدالله بن محمد بن بدر بن أحمــد الخصــي الصقلي وصيف عبدالله بن محمد، والوزير أبي عثمان عبيدالله بن الفخر بــن أبــي عبده، ونتج عن ذلك عزل الأمير لوزيره أبــي عثمــان (خــاملا، بتحــامل بــدر الوصيف)[١٩].

كما لم تخل حياة بعض الأعوان وتصرفاتهم من محاولات اســتغلال للنفــوذ الذي منح لهم بحكم ما تقلدوه من مناصب، الأمر الذي قوبل بالشدة والصرامة مــن جانب الأمراء ضد مستغلي النفوذ. فحين تولى شاعر الإمــارة الغــزال المنــاصب الهامة في الدولة في أيام عبدالرحمن بن الحكم ومنها قبض الأعشار واختزانها فــي الأهراء، حدث أن استغل ظروف انحباس المطر، فباع المدخرات بالسعر المرتفــع، وبعد نزول المطر ورجوع الأسعار إلى ما كانت عليه من رخص، اشترى ما يمــاثل تلك المدخرات بالثمن المنخفض، وحين علم الأمير بالأمر غضب وأمر بســجنه[٢٠] ثم عفا عنه بعد أن توسل إليه بالشعر معتذرا[٢١].

وهكذا كانت تقع العقوبة على أقرب المقربين إلى الأمــير إذا أثبتــت لديــه محاولة استغلالهم لمناصبهم وتقتهم بهم. وإن كان هذا الأمر للصالح العــام، ولكــن كان لابد من استشارة الأمير فيه.

كما استغل نصر الخصي مكانته وصلته بالأمير عبدالرحمن الثاني وكون عصبة حوله لمساعدته في أعمال غير مشروعة، وبعد انكشاف أمره أمر الأمير بتعذيب أنصاره وبدأ بعقاب عباس الطلبي وأخيه ووليد بن أبي لجمة ولم يفدهم دفاع نصر الخصي عنهم، برغم كونهم من بطانته[٢٢]. كما قبض في نفس السنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) على مسرة الخصي الكبير وعباس أخيه فسجنا حيث وجدت الأموال الطائلة لديهما. ومما لا شك فيه أن هذه الأموال كلها جمعت بالسحت وبطريقة غير مشروعة مما أشاع كراهية الناس لهما. وكذلك استغل نصر الخصي منصبه من خلال مرض الأمير عبدالرحمن بن الحكم فعزل عيسى بن شهيد عن الحجابة وقلدها عبدالرحمن بن رستم مكانه. ويظهر من حديث ابن حيان[٢٣] أن الأمير عبدالرحمن بعد أن شفي من علته، أنكر ما فعله نصر الخصي من تغيير في مراتب أهل الخدمة، وعزل عبدالرحمن بن رستم وأعاد بن شهيد إلى الحجابة.

وعلى الرغم من محاولات نصر الخصي المستمرة للتميز عن سائر معاوني الأمير وحرصه على الظهور، متقنا لعمله، إلا أنه كان يفشل في كثير من المهام الموكلة إليه. وكان الأندلسيون من بطانة أهل القصر، ومنهم يحيى الغزال يسخرون منه ويستثيرونه فيحقد عليهم ولكنه كان دائم التظاهر للأمير بالحب والوفاء والإخلاص مما جعله مقربا من زوجته أم عبدالله. وحاول نصر أن يسقي بالسم للأمير ليتولى ولده عبدالله الإمارة ولكنه فشل في ذلك وحاق به مكره حيث طلب منه الأمير أن يشرب قبله فمات متأثرا بالسم ونجا الأمير[٢٤]. وقد فرح الكثيرون ممن كان لا يكف عن أذاهم وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبدالرحمن[٢٥].

كما استجاب الأمير عبدالله بن محمد لقول وزيره سليمان بن وانسوس حين أنشد شعرا وضح فيه أن والي البيرة جهور بن عبدالملك البختي قد أخذ الأموال من الرعية ظلما قبل خروجه من الولاية فاستجاب له الأمير وأمر بتغريم جهور بن عبدالملك بثلاثة آلاف دينار[٢٦].

وهناك بعض الأعوان الذين استغلوا الثقة التي منحها إياهم الأمراء وعاثوا في البلاد الفساد وأوقعوا الضرر بالناس ولم يكونوا عند حسن ظن ولاة الأمر، وما

كان للظلم والاستغلال أن يستمرا ويبقيا في ظل حكم أمراء حريصين على إرساء العدل ومنع الظلم لجميع فئات المسلمين.

فهذا أبو خالد هاشم بن عبدالعزيز بن هاشم الذي كان من (أخص) وزراء محمد بن عبدالرحمن، الذي أضاف إلى منصبه مهام عسكرية لقيادة العسكر إلى غرب الأندلس، فلم يحفظ هاشم هذه الفضيلة والنعمة التي أسبغها عليه الأمير بل زاد في غيه وطغيانه، إلى أن تمكن الأمير المنذر من قتله وخلص الناس من شره[٢٧].

ولقد أفسد هاشم بن عبدالعزيز الدولة، بالرغم من أنه كان مقدمًا على العساكر، وكان سئ السيرة والسلوك عند توجهه لقمع بعض الحركات للخارجين على الدولة والمناوئين لها، كما حدث حينما وجهه الأمير محمد مع العسكر لتهدئة الأوضاع في غرب الأندلس، فأساء السيرة في الحركة والنزول والمعاملة مع الجند، فقبضوا عليه وأخذ أسيرًا، ثم افتدى بأموال عظيمة، وكذلك حينما توجه إلى سرقسطة مع الأمير المنذر فأساء الأدب معه حتى أثار حقده عليه وضغينته لمّا صارت السلطنة إليه.

ولما تولى المنذر بن محمد قام بسجن هاشم بن عبدالعزيز بعد أن ذكره بذنوبه، ثم أخرجه وأتى به إلى دار عظيمة كان قد شيدها هاشم وضرب عنقه فيها[٢٨].

وفي الحقيقة، أنه بالرغم من وجو د هذه الظواهر الخاصة بفساد سلوك بعض الأعوان والتي يمكن أن نستنتج منها فساد الدولة في عصر الإمارة، إلا أن ذلك لا يدل دلالة كافية على فساد جميع أعوان أهل الخدمة، بصورة واضحة. فقد كان أمراء بني أمية بحكمتهم وحنكة سياستهم يتصدون لهذه المفاسد من جانب الأعوان وكانوا يقظين دومًا لهم مراقبين لحركاتهم وسكناتهم مكافئين المخلص منهم ومعاقبين من تسول له نفسه منهم الفساد والإفساد.

الهوامش

١- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص٥٧-٥٨.

٢- نفس المصدر، ص٥٢.

٣- ابن عذاري :البيان المغرب، ج٢، ص٦٧؛ مؤلف مجهول : أخبار مجموعة، ص١٢٢-١٢٤.

٤- ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٥١.

٥- ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص٤٤٦.

٦- ابن حيان : نفس المصدر، ص١٤٣.

٧- ابن حيان : نفس المصدر، ص١٤٤.

٨- ابن حيان : نفس المصدر، ص١٤٦.

٩- مؤلف مجهول : أخبار مجموعة، ص١٤١-١٤٢.

١٠- ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص١٧١.

١١- ابن حيان : نفس المصدر، ص١٤٨.

١٢- ابن عذاري : البيان المغرب، ج٢، ص٧٢.

١٣- ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص٤١.

١٤- محمد أحمد الحفني : زرياب، ص١٠٦.

١٥- الحفني : نفس المرجع، ص١٢٣؛ هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤٩٤.

١٦- ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص١٥٢-١٥٣.

١٧- ابن حيان : نفس المصدر، ص١٥٤-١٥٥.

١٨- ابن الخطيب : أعمال الإعلام، ص٢٤؛ وقيل أن الذي تدخل لدى الأمير المنذر بضرورة التخلص من هاشم بن عبدالعزيز، هو عبدالملك بن عبدالله لعداوة بينهما؛ عن دوزي : محاضرات، ص٩٥.

١٩- ابن الأبار : الحلة السيراء، ج١، ص١٤٧.

٢٠- عبدالقادر زمامة : يحيى بن حكم البكري، في كتاب مغربيات لمحمود إسماعيل عبدالرازق، الرباط، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص١٥٩.

٢١- ابن عذري : البيان المغرب، ج٢/ ص٩٣.

٢٢- ابن حيان : المقتبس، السفر الثاني، ص١٧.

٢٣- ابن حيان : نفس المصدر، ص٢٦-٢٧.

٢٤- العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس، ص٩١.

٢٥- مؤنس : معالم، ص٢٩٤.

٢٦- ابن الأبار : الحلة، ج١، ص١٦١.

٢٧- ابن الأبار : نفس المصدر، ج١، ص١٣٧ وما بعدها.

٢٨- ابن الأبار : الحلة السيراء، ج١، ص١٣٧ وما بعدها؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٥٣.

المصادر والمراجع

١- **ابن الأبار** : الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ج٢، القاهرة ١٩٧٠م.

٢- **ابن بشكوال** : كتاب الصلة، القاهرة ١٩٥٥م.

٣- **حسين مؤنس** : معالم تاريخ الأندلس.

٤- **ابن حيان** : المقتبس من تاريخ رجال الأندلس، السفر الثاني، تحقيق محمود علي مكي، بيروت ١٩٧٣م.

٥- **ابن الخطيب** : أعمال الأعلام، نشر ليفي بروفنسال، مدريد ١٩٣٤م، وطبعة بيروت ١٩٥٦م.

٦- **زمامة، عبدالقادر** : يحيى بن الحكم البكري، الرباط ١٩٦٧م.

٧- **ابن سعيد الأندلسي** : **المغرب في حلى المغرب**، ليدن (د.ت).

٨- **العبادي، أحمد مختار** : المجمل في تاريخ الأندلس، الإسكندرية ١٩٤٨م.

٩- **عبدالعزيز سالم** : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الإسكندرية ١٩٧٠م.

- **ابن عذاري** : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، نشر دوزي، ليدن ١٨٤٩م.

- **ابن القوطية** : تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت ١٩٨٢م.

١٢- **محمد أحمد الحفني** : زرياب.

١٣- **محمد عبدالله عنان** : دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة ١٩٦٩م.

١٤- **مؤلف مجهول** : أخبار مجموعة.

١٥- **هونكة** : شمس العرب تسطع على الغرب.

أضواء على حركة الطالبي

محمد بن جعفر وخلفياتها عند نهاية القرن الثاني الهجري

د. أحمد السري
رئيس قسم التاريخ والآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الإمارات

تمهيد :

ترتبط حركة محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١] في الحجاز عند نهاية القرن الثاني الهجري بالأحداث الدامية التي جرت بين الأمين والمأمون، والتي أفسحت المجال لكثير من الطامحين في أنحاء الخلافة. كما ترتبط بطموحات الطالبيين أو العلويين التي انتعشت بتبني حركة أبي السرايا لها.

ولفهم طبيعة التطورات التي جرت في الحجاز عند نهاية القرن الثاني الهجري نرى من الضروري التذكير بطبيعة الخطر الذي كانت حركات الطالبيين أو الحركات العلوية تمثله على الخلافة العباسية. وقد كان الخطر عظيمًا على الدوام بغض النظر عن الوزن العسكري ومكان الظهور، وآية ذلك أن كل حركة من الحركات المتوالية كانت تشير بأصابع الاتهام إلى العباسيين كمغتصبين لـ " حق الطالبيين "، وهو الحق الذي يرى الطالبيون أن بني العباس ادعوه لأنفسهم ووصلوا باسمه إلى الخلافة[٢]. وقد أخذ الطالبيون كما كان شأنهم في العهد الأموي يشكلون محاور استقطاب لقبائل وجماعات يجمعها هدف الخروج أو الإطاحة بالخلافة العباسية، حيث أخذ بعض المسلمين يرون في آل أبي طالب واجهات دينية وسياسية يمكن تحت ظلالها تحقيق هذا الطموح أو ذاك فترسخت لذلك ومنذ العهد الأموي "ثقافة الحق في الخلافة " عند الأمويين والطالبيين والعباسيين على السواء. ولم تسلم " ثقافة الحق في الخلافة " هذه مع ذلك من الاستغلال من طامحين سياسيين لا

يقرون بالحق في السلطة لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ولكنهم ينزلون عند مزاج عام ترسخ عبر الصراعات المختلفة، ودفع إلى تعلق فئات من المسلمين بآمال يرونها ستتحقق لو أن العلوي فلان أو فلان قام بالأمر. ومن يتأمل في كتاب مقاتل الطالبيين يقف على الكثير من تداخل الدوافع بين الطالبيين وطالبيهم والموقف من الخلافة العباسية.

ولسنا بحاجة للتشديد على أن دراسة حركة واحدة من حركات الطالبيين لا ينبغي أن تنفصل ذهنيا ولا تاريخيا عن الحركات التي سبقتها منذ مبايعة الحسن للخليفة معاوية في عام ٤٠ هجرية، وهو العام الذي عرف بعام الجماعة، مرورا بمقتلة الحسين في كربلاء وبحركة زيد بن علي وابنه يحيى إلى حركة عبدالله بن معاوية وهي آخر محاولات الطالبيين في العهد الأموي.

حرب الأمين والمأمون والحركات العلوية :

بإعلان الخلافة العباسية انكسرت العلاقة بين البيتين الهاشميين وانتقلت من المحاجاة حول الأحقية في السلطة كما وردت في الرسائل المتبادلة بين محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور إلى مواجهات مسلحة. وقد تتابعت المحاولات العلوية للثورة على الخلافة العباسية، وهي المحاولات التي بدأها محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم مرورًا بحركة أخوية إدريس ويحيى ثم حركة الحسين بن علي صاحب فخ، ثم حركة يحيى بن عبدالله زمن الرشيد. أما الحركات العلوية التي ظهرت عند نهاية القرن الثاني الهجري ومنها حركة محمد بن جعفر الصادق فقد ظهرت في ظروف لا تشبه الظروف التي حدثت فيها الحركات الأولى، فالحركات الأولى قامت في ظل رسوخ الخلافة العباسية وتنامي قوتها العسكرية والاقتصادية وهو ما مكنها من القضاء على مختلف المعارضات، لكن حركة محمد بن جعفر تأتي بعد أن أضعف العباسيون أنفسهم ركائز سلطتهم فكريًا وعسكريًا، عبر الاستهتار بوصايا الرشيد في مسألة التتابع على الخلافة بين الأخوين الأمين والمأمون وعبر الحرب الضروس بينهما فيما بعد، كما أن الكعبة المشرفة وما شهدت من أيمان مغلظة لم تستطع بهيبتها وقدسيتها وقف طموحات الأخوين في الطغيان على بعضهما. وقد تميزت حركة محمد بن جعفر عن سابقاتها العلوية بإعلانها الخلافة مباشرة حيث بويع محمد بن جعفر خليفة ولقب بأمير المؤمنين، وذكر أن الحجاز وتهامة بايعته،

وهو أول طالبي يبايع له بالخلافة بعد الحسن بن علي[٣]. مع ما يعني ذلك من إسقاط الشرعية كلية عن الخلافة العباسية.

لقد كانت حرب الأمين والمأمون صراعا مكشوفا من أجل السلطة بين أخوين في الظاهر وكانت بين تيارين وجماعتين في الواقع، هما حزب المأمون الفارسي، وحزب الأمين العربي. وأيا كانت مبررات هذا الفريق أو ذاك، فلا بد من القول أن الحرص على السلطة المطلقة واستخدام القوة للحصول عليها قد طغيا على المبررات الأخرى. وكانت هذه الحرب بمبرراتها العملية منعطفا خطيرا في تاريخ الخلافة العباسية التي كانت قد رسخت شرعيتها منذ ظهورها وحتى عصر الرشيد على أساس النسب، والاصطفاء الإلهي (إنما أنا ظل الله في أرضه) والنجاح في الإطاحة بالأمويين، لكن هذه الشرعية تنهار الآن في الحرب بين الأمين والمأمون، وتفتح الباب واسعا أمام الطامحين وأهل القوة لمحاولة الإطاحة بالخلافة العباسية أو اقتطاع جزء من أجزائها المترامية للسيادة فيه، خاصة وقد حدث ما يمكن تسميته "بفراغ في السلطة" بعد مقتل الأمين عام ١٩٨هـ، وبقاء الخليفة المأمون في مرو بعيدا عن بغداد مركز الخلافة وحاضرتها، لاسيما وأن المأمون بمقتل أخيه الأمين لم يصر تلقائيا خليفة شرعيا لكل المسلمين، بل خلع في بغداد عام ٢٠٢هـ، إثر مبايعته لعلوي هو على الرضا بن موسى الكاظم عام ٢٠١هـ، ليكون ولي عهده، ولم تحصل للمأمون بيعة عامة بخلافته إلا عام ٢٠٤هـ[٤]. وهو العام الذي وصل فيه من مرو إلى بغداد. وعليه يمكن اعتبار السنوات الست بين (١٩٨-٢٠٤) هي سنوات خلو من سلطة مركزية مجمع عليها. ولا عجب أن يرى كل طامح أو خارج عن السلطة العباسية نفسه في تلك الظروف أو بعدها مقلدا للسادة الكبار في تقاتلهم الأشد والأدمي على السلطة.

وقد كان الطامحون في المرصاد لانتهاز أوضاع ما بعد الحرب بين الأمين والمأمون، فالجيوش منهكة والمأمون استقر بعيدا عن مرو وترك بغداد وكل العراق للحسن بن سهل حديث العهد بالمجوسية وغير المقبول من عامة المسلمين في العراق والجزيرة بسبب ما روي من حجب أخيه الفضل بن سهل المأمون عن الناس في مرو واستبد بالخلافة دونه بصفته الوزير. لذلك " هاجت الفتن في الأمصار "[٥]. أو بتعبير المقدسي " تشوشت الدنيا "[٦]. وكان الطالبيون هم الذين

افادوا من هذه الأوضاع أو كما وصف ابن الأثير " وانتشر الطالبيون في البلاد"[٧].
وظهرت حركات علوية كثيرة في السنتين الأخيرتين من القرن الثاني الهجري منها حركة محمد بن جعفر الصادق، ولابد من الإشارة هنا إلى أن تلك الحركات قد انبثقت عن الحركة الأم غير العلوية وهي التي قادها السري بن منصور المعروف بأبي السرايا.

حركة أبي السرايا وصلتها بحركة محمد بن جعفر :

لابد أن تمنح حركة أبي السرايا قدرا غير يسير من التركيز والاهتمام ليس لأنها الحركة الأم التي تولدت عنها حركات محمد بن جعفر، بل لأن زعيم هذه الحركة الواسعة والخطيرة على الخلافة العباسية قد قادها واحد من المغمورين لا صلة له ببيوتات الحكم عباسية كانت أم طالبية. فقد بدأ أبو السرايا حياته مؤجرا للحمير ثم قاتلا لأحد الناس في الجزيرة الفراتية، ثم فارا من وجه القصاص إلى الشام ثم قاطع طريق ثم كبرت حركته وتنامت دون هدف سوى قطع الطريق ونهب أموال البلدان والمدن المهاجمة[٨]. ولم يتمكن أحد من القضاء عليه لما أبداه من شجاعة وحنكة عسكرية، ثم يقرر أحد قواد العباسيين العسكريين، يزيد بن مزيد الشيباني، ضمه إلى قواته لمقاتلة بابك الخرمي في أرمينية، ويصبح مقربًا عند آل مزيد، وقد تزامن سطوع نجم أبي السرايا مع الخلافات السياسية بين الأمين والمأمون وهي التي تحولت بعدئذ إلى حرب ضروس بين الأخوين دامت خمس سنوات. وسط هذه الأجواء يجد أبو السرايا لجيشه موضعًا في جيش المأمون، فقد راسله هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون فانتقل إلى معسكره بألفي فارس وصار يخاطب " بالأمير ".

وقد أبلى أبو السرايا في حرب الأخوين وانتصرت قوات المأمون، لكن هرثمة لم يواصل التعامل معه بما يستحق من تقدير فنقصه عطاءه الذي وعد مما دفع أبا السرايا إلى الانسلاخ ثانية باتباعه عن جيش المأمون وعاد إلى قطع الطريق ونهب الأموال في عين التمر ودقوقا، ثم دخل الكوفة، وهناك وجد الطالبي محمد بن ابراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا. والذي كان أول من خرج بالكوفة داعيًا لنفسه كما يذكر

الطبري وصاحب العيون والحدائق[٩]، وأعانه أول الأمر واحد من رجـال القبـائل الطامحين هو نصر بن شبث العقيلي كما يذكر الأصفاني[١٠].

والأمر لا يحتاج إلى عميق فكر لمعرفة الدوافع التي حركـت أبـا السـرايا لمبايعة الطالبي ابن طباطبا على الرضى من آل محمد في هذه اللحظة التاريخيـة، فأبو السرايا يعرف الجدل السياسي القائم بين البيتين، ويعرف مـا أحدثـه حـرب الأخوين من شروخ في المزاج العام للمسلمين، ودوافعهم في الوقوف مع المعارضة العلوية، ولكنه يدرك أيضا وهو الأهم أنه لا يستطيع الثبـات فـي وجـه القـوات العباسية كقاطع طريق وناهب أموال، فرأى أن يرفع واجهة دينية علوية يقاتل تحـت لوائها، لها الاسم وله كان الأمر، وهكذا تمكن أبى السرايا من تحويل حركتـه مـن حركة نهب وقطع طريق إلى حركة تطمح إلى الإطاحة بخلافة بني العباس وإقامـة خلافة علوية وسمى نفسه " داعية آل محمد "[١١]. أما ابن طباطبا فهو كغـيره مـن الطالبيين لا يستطيع تشكيل أي خطر حقيقي على بني العباس ما لم تدعمـه قـوات تؤمن بطموحاته في الخلافة، ولذلك نستطيع القول أن أبا السرايا وابن طباطبـا قـد وجدا في بعضهما الضالة المنشودة للآخر، فلا أبـو السـرايا يؤمـن يقينـا بحـق العلويين، وإلا لكان فعل ذلك في بدء أمره، ولا ابن طباطبا يؤمن بصفاء نيـة أبـي السرايا في رفع راية العلويين في وجه العباسيين، وإلا لما انتظـر حتـى يعـرض أبو السرايا الأمر عليه. أي أن الانتفاع المتبادل كل من صاحبه كان واضحـا منـذ البداية سواء أعلن عن ذلك أم لا. ولا نعتقد أن رأي الأصفهاني في مقاتل الطـالبيين له سند من الواقع حين يقرر عن أبى السرايا ــ رغم اعترافه بسوء سيرته وأنـه " عاش في نواحي السواد " ــ أنه " كان علوي الرأي ذا مذهب في التشيع "[١٢]. وقـد برزت المواجهة بين الاثنين، حسب رواية الطبري، بعد تمكن أبـو السـرايا مـن هزيمة جيش للعباسيين قوامه عشرة آلاف مقاتل فأحب ابن طباطبا بصفته الأصـل الديني للحركة أن يمارس صلاحياته بشأن توزيع الغنائم وهو ما لـم يكـن موافقـا لرأي أبى السرايا، وقد أتاح الموت المفاجئ لابن طباطبا في اليـوم التـالي مجـالا للشائعات التي ذهبت إلى أن أبا السرايا قد سم ابن طباطبا وجـاء بغـلام صغـير كواجهة جديد طيعة له[١٣]. لقد كان واضحا منذ البداية أن أبا السـرايا إنمـا اتخـذ واجهة دينية لإنقاذ سمعة حركته ولم يكن راغبا في أن يشاركه أحد فيما حقق مـن

سلطان، ولذلك تبدو رواية التخلص من ابن طباطبا بالسم واستخدام غلام من الطالبيين كواجهة جديدة لحركته أكثر انسجاما مع الأحداث من رواية الأصفهاني التي، رغم الإقرار بالخلاف حول الخطط الحربية، تجعل موت ابن طباطبا وانتقال البيعة إلى الغلام الحدث محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قضاءً وقدرًا، كما تصور أبا السرايا معتذرا عما لامه عليه ابن طباطبا ملتزما بعدم العودة لمثل ما فعل. وتختم الرواية بجعل البيعة للغلام الطالبي يتم في سياق طبيعي حيث جرت الخيرة بين آل أبي طالب حول الرضا منهم وأبو السرايا سامع مطيع لما يقررون[٤٤].

وقد تمكن أبو السرايا من هزيمة الجيوش العباسية التي أرسلت إليه مما شجع طالبيين أخرين للخروج في البصرة والحجاز واليمن، مع وجود خلاف في المصادر حول علاقة هذه الحركات بحركة أبي السرايا، وهل هي امتداد لحركته ومرتبطة بها أم أنها حركات مستقلة. ومع ذلك فالنتيجة في الحالين واحدة وهي اتساع حركات الطالبيين جغرافيا تحت مظلة حركة أبى السرايا التي لنا الآن أن نتصور خطرها على الخلافة العباسية، إذ امتدت إلى البصرة والأحواز وفارس والحجاز واليمن وأرسل من قبله ولاة إلى تلك الجهات كما ضرب الدراهم بالكوفة.

وفيما يخص حركة الطالبيين في الحجاز (مكة والمدينة) وهي الحركة التي ستظهر محمد بن جعفر الصادق أميرًا للمؤمنين فقد أرسل أبو السرايا إلى مكة الطالبي حسين بن حسين الأفطس، وإلى المدينة محمد بن سليمان نائبان له، وكان والي مكة والمدينة للعباسيين في هذا الوقت العباسي داود بن موسى، وهو الذي ثبته المأمون في الولاية بعد سماع اعتراضه على نزع الأمين للعهود المعلقة في الكعبة استعدادًا لحرب أخيه المأمون.

وتظهر روايات الطبري رد الفعل الحاصل في مكة والمدينة من تطورات حركة أبى السرايا. أما محمد بن سليمان فقد دخل المدينة دون قتال، أما حسين الأفطسي والذي وجهه أبو السرايا إلى مكة وأمره بإقامة الحج للناس لذلك العام مع ما تحمل إمرة الحج من دلالات على السطوة والنفوذ الروحي وتغييب السلطة العباسية في أكثر المواقع أهمية من الناحية الدينية عند المسلمين فقد وجد هناك والي مكة والمدينة العباسي دواد بن عيسى وقد كان بإمكانه قتال حسين الأفطس

خاصة مع وجود مسرور الخادم الحاجب المشهور للخليفة هارون الرشيد وبرفقتـــه مائتي فارس، وهو الذي عرض قتال حسين الأفطس ومنعه من دخول مكـــة، لكــن الوالي العباسي يرفض فكرة القتال ويعتذر عن ذلك كما تفيد رواية الطبري بأنـــه لا يستحل القتال في ا لحرم " والله لو دخلوا من هذا الفج لأخرجـــن مـــن هـــذا الفـــج الآخر "(١٥). ويعرب مسرور الخادم من استيائه ويقول لداود " تسلم ملكك وســلطانك إلى عدوك ومن لا يأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حرمك ولا مـــالك، قـــال لـــه داود: أي ملك لي ! والله لقد أقمت معهم حتى شيخت فما ولوني ولاية حتى كـــبرت سني، وفني عمري، فولوني من الحجاز ما فيه القوت؛ إنما هذا الملك لك وأشـباهك؛ فقاتل إن شئت أو دع "(١٦). وما كان بإمكان مسرور الخادم أن يقاتل بـــلا واجهـــة دينية بعد أن رفض الوالي الثبات في مكة أو ترك بعض ولده ليقاتل مسرور باســـمه كما طلب، فخرج هو الآخر بقواته وحسراته. وترك الحرم بلا إمـــام للصـــلاة ولا خطبة، حتى تبرع لإقامة الصلاة رجل مغمور لن يؤاخذ على موقفه من القـــادمين. لقد فضل والي العباسيين الانسحاب من مكة هو وولده بعد أن حمل أمتعته وأثقالـــه ودبر خطة للخروج إلى المشاش(١٧). يأمن فيها هـــو ومتاعـــه. واعتقـــد أن هـــذه المحاورة لا تحتاج إلى تعليق إضافي ففيها ما يكفي من الإشارة إلى خور العزم بـــل وفقدان الفائدة من الدفاع عن ملك ليس له من نعيمه شئ فقد كبرت سنه، وولي على بلد لا قوت فيه، وهو قول يدل أيضًا ليس فقط على تهشم الجبهة العباسية خاصة مع بقاء المأمون في مرو بخراسان، ووقوعه تحت تأثير الفضل بن ســـهل. بـــل علـــى القناعة بحصول فراغ في السلطة في كل العراق والجزيرة مما يجعل القتال باســـم سلطان غير موجود غير ذى قيمة، خاصة وأننا أمام وال من العباسيين له موقـــف مبدئي من ترتيبات الخليفة هارون الرشيد بين أولاده في التتابع على الخلافة، فقـــد كان شاهدًا على العهد الذي ألزم به الرشيد ولديه الأمين والمأمون تجـــاه بعضـــهما وعلق في الكعبة ضمانا لاحترامه. ولما علم داود بن موسى بأن الأمين يريد نـــزع العهد من الكعبة وخلع أخيه المأمون اعترض على ذلك بدوافع دينية وهي احـــترام العهود والأيمان المغلظة التي أخذت على الأخوين في الكعبة، ثم بايع للمأمون بعـــد خلع الأمين سنة ١٩٦هـ(١٨). وقد كافأ المأمون فيما بعد داود بن موسى بتثبيته واليا على مكة والمدينة. ولا نشك أن هذا الوالي العباسي قد نظر ثانيـــة إلـــى الأمـــور

بواقعية شديدة، ورأى أن حركة أبي السرايا وما أحدثته من سلب ونهب هو ومن شايعه أو شايعهم من العلويين دليل على الفوضى الحاصلة في الخلافة العباسية وعلى غياب سلطة الخلافة وهيبتها فآثر أن ينسحب على أن يقاتل باسم خلافة لا سلطة لها إلا في مرو بخراسان حيث الخليفة. وكان هذا يدل أيضا على أن حركات الطالبيين وسواهم والتي حصلت إثر الحرب بين الأمين والمأمون، أي في العامين الأخيرين من القرن الثاني الهجري قد قامت مستغلة فراغ السلطة الحاصل، بقصد الحصول على أي نصيب من تركة سلطة رئيت متهاوية في تلك الظروف. وقد سهل هرب العباسي داود بن موسى هذه المواقف الطريق على حسين الأفطس خاصة بعد أن أخبره بعض الطالبيين وأعوانهم أن مكة لم يعد بها سلطان فدخلها في أول أيام المحرم. وقد بدأ حسين الأفطس أعماله بتغيير " كسوة الظلمة من بني العباس "[١٩]. " ليطهر من كسوتهم "[٢٠]. وألبسها كسوة من قز رقيق (حرير رقيق) أرسلها أبو السرايا، " مكتوب عليها: أمر بها الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد "[٢١]. وفي هذا دليل على تغير صاحب الأمر والنهي في بلاد الحرمين الشريفين، فهذا تصرف من يرى نفسه صاحب الأمر وإن لم تعلن خلافة بعد. وقد كانت كسوة الكعبة بما فيها من رمزية عملا سياسيًا مقبولا أما باقي مانسب إلى حسين الأفطس من أعمال فهي المنكرات الواضحة، فقد روي أنه تتبع ودائع بني العباس وأتباعهم، كما أنه وتحت حجة البحث عن أموال بني العباس سطا على أموال ناس لا صلة لهم ببني العباس، وقام بتعذيبهم لدرجة أن الدار التي كانوا يعذبون فيها سميت " دار العذاب "[٢٢]. كما روي أنه سطا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المسجد الحرام[٢٣]. وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المنزوعة على قدر المنزلة لكل شخص[٢٤]. وقد أدى كل ذلك إلى هرب أكثر الناس فهدمت دورهم[٢٥]. كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهرًا لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد وصف أيضًا بالجمال وهو ابن لقاضي مكة من قبل علي بن محمد بن جعفر، وسنعود لمناقشة هذا الأمر.

وقائع حركة محمد بن جعفر :

ترتبط وقائع حركة محمد بن جعفر بالمصير الذي لقيه أبو السرايا وحركته، فقد هزم أبو السرايا وقتل، وعلى إثر ذلك بويع ابن جعفر في مكة بالخلافة وإمرة المؤمنين، ولذلك فإن وقائع حركته ترتبط بتصفية جيوب العلويين في الحجاز واليمن. إذ بعد القضاء على هذه الحركة توجه قادة الجيوش العباسية وهم عيسى بن يزيد الجلودي، وورقاء بن جميل وحمدوية بن على بن عيسى بن ماهان وهارون بن المسيب إلى مكة والمدينة لحرب الطالبيين هناك. لكن أول المواجهات العسكرية بين أمير المؤمنين في الحجاز والقوات العباسية تقع عندما قدمت قوات إسحاق بن موسى من اليمن، وهو الوالي المطرود بقواته من قبل الطالبي الخارج هناك إبراهيم بن موسى الكاظم. وقد استعد محمد بن جعفر مع أتباعه من العلويين ومن جيشهم من الأعراب بالمال، بحفر خندق في أعالي مكة، لكن الحرب، ما لبثت أن توقفت بعد أيام من بدئها وفضل إسحاق بن موسى الانسحاب باتجاه العراق، ومن الواضح أنه انسحب من المعركة لأنه رأى أن الكفة ليست لصالحه. لكن إسحاق بن موسى المنسحب هذا يقنع بعد قليل بالعودة مع القوات القادمة من العراق بقيادة ورقاء بن جميل وعيسى الجلودي، ولا يخفى الطبري نفوره من حركة محمد بن جعفر فيورد روايات عنها تحط من شأنها ويذكر أن أعوان محمد بن جعفر كانوا من غوغاء الناس ومن السود العاملين على جلب المياه ثم الأعراب المرتزقة، وأن هذه القوات قد تعبأت ببئر ميمون بأعلى مكة حيث وقعت المواجهات الأولى غير الحاسمة، لكن الهزيمة حاقت في اليوم التالي بمحمد بن جعفر وأصحابه، ثم طلب من بعض الأعيان في مكة وفيهم قاضيها التوسط عند قواد بني العباس العسكريين كي يمنحوه أمانا للخروج من مكة، فوافق إسحاق بن عيسى وورقاء بن جميل على ذلك في جمادي الآخرة من عام ٢٠٠ للهجرة. وقد تفرق الطالبيون وأعوانهم بعدئذ، لدرجة أن محمد بن جعفر وهو في طريق الهرب إلى الجُحفة[٢٦]. لم يستطع مقاومة رجل من موالي بني العباس جمع موالي العباسيين وعبيدهم وطارده في الطريق للانتقام من نهب داره بمكة فأدركه بين جدة وعسفان فانتهب جميع ما معه. وجرده حتى تركه في سراويل، وهم بقتله لكن أخذته به شفقة فترك له قميصا وعمامة ورداء ودريهمات يتسبب بها[٢٧].

ومع ذلك فقد حاول ابن جعفر ثانيه جمع الأنصار استعدادا لجولة ثانية بينه وبين العباسيين فذهب إلى بلاد جهينة لحشد من يقدر عليه ومؤملا أن يجد في القادمين إلى موسم الحج أعوانا لأمره، لكن والي المدينة العباسي هارون بن المسيب والذي تمكن من استعادة المدينة من الطالبي محمد بن سليمان، تصدى له وأخرج له جيشا تمكن من هزيمة محمد بن جعفر، كما فقئت عينه في هذه المعركة بنشابة أصابته، ولما يأس من نصرة أهل الموسم طلب الأمان ثانية من الجلودي ومن رجاء ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون، فأعطى الأمان الذي طلب وضمن ابن عم الفضل بن سهل على المأمون بالوفاء، ومن الواضح أن الأمان الجديد قد أعطى له شرط أن يقوم بخلع نفسه، وقد جرى هذا الاتفاق في العشرين من ذي الحجة من عام ٢٠٠هـ.

ويبدو أنه كان مهمًا جدًا إخراج لحظة الخلع على نحو يتفق وأهمية ما سيقوله محمد بن جعفر، كما لا يستبعد أن يكون قد تم الاتفاق على الأفكار التي ستدخل في خطبة الخلع لإقناع الناس بها. ومن بين الإجراءات الشكلية التي تقدمت خطة الخلع، إلباس محمد بن جعفر " قباء أسود " لما في ذلك من إشارة إلى طرح البياض (لون المعارضة ضد العباسيين) والظهور باللون الأسود وهو لون العباسيين الرمزي، كما أن القائد الحربي عيسى الجلودي صعد إلى رأس المنبر، بينما أجلس ابن جعفر دونه بدرجة ولم يعط سيفا ليتقلده. وهذه الشكليات ذات أبعاد رمزية في غاية الأهمية، فهو قبل أن يقول شيئا وافق على أن يعلوه قائد العباسيين، وهو ما يعني أن النسب العلوي في خضم الصراع السياسي لا وزن له عند الخلافة العباسية وأتباعها، بل هكذا يجب أن يستقر في أذهان العامة وعليهم أن يدركوا لمن المقام الأعلى والكلمة الفصل.

أما خطبة الخلع فلا بد من إيرادها لأهمية ما ورد فيها :

"أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، فإنه كان لعبدالله عبدالله أمير المؤمنين في رقبتي بيعة بالسمع والطاعة، طائعًا غير مكره، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه: محمد المخلوع وعبدالله أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منا ومن غيرنا. وكان نمي إلى خبر؛ أن عبدالله

عبدالله أمير المؤمنين كان توفي، فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بـــإمرة المؤمنيـــن، واستحللت قبول ذلك لما كان على من العهود المواثيق في بيعتي لعبـــدالله عبـــدالله الإمام المأمون، فبايعتموني ــ أو من فعل منكم ــ ألا وقد بلغني وصح عندي أنـــه حي سوي. ألا وإني استغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة، وقد خلعت نفسي مـــن بيعتي التي بايعتموني عليها؛ كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، وقد صرت كرجـل من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم، وقد أخرجت نفسي من ذلك، وقد رد الله الحـق إلى الخليفة المأمون عبدالله عبدالله المأمون أمير المؤمين، والحمد لله رب العـــالمين؛ والصلاة على محمد خاتم النبيين والسلام عليكم أيها المسلمون "[٢٨].

ويظهر جليًا في هذه الخطبة أنه قد أعد لها بإحكام ففيها أولا إقرار من محمـد بن جعفر بأن للمأمون في عنقه بيعة وأنه كان شاهد على ما أقره الرشيد بين ولديـه، ثم إنه استحل أن يبايع له لسببين الأول إنها كانت فتنة غشيت عامـــة الأرض منـــه ومن غيره ثم لأنه كما قال سمع بأن المأمون قد مات، أمـــا وقـــد صـــح عنـــده أن المأمون حي يرزق فإنه يحل من بايعه من بيعته ويخلع نفسه ويقبل بـــالعودة إلـــى صفوف المسلمين ليكون كأحدهم، كما أن جعل شائعة وفاة المأمون عذرًا لقبول ابـــن جعفر بالخلافة، واستخدام مصطلح " المخلوع " الذي شاع ضمن الدعاية المأمونيـــة ضد أخيه الأمين فيه تأكيد على شرعية خلافة المأمون. وبهذه الخطبة تنتهي خلافـــة قصيرة لعلوي في الحجاز، دامت ثمانية أشهر، من ربيع الأخر حتى ذي الحجة مـــ عام ٢٠٠ للهجرة.

ومع ذلك فهنالك تباين في المصادر حول أمور كثيرة ارتبطت بهذه الحركـــ تكشف المواقف المختلفة للفرقاء على هيئة روايات غير متجانسة حول هذا الأمر ؛ ذلك، وقد وجدنا من المفيد أن نفرد كل مسألة على حدة لمناقشتها وهذه القضايا هي

- نهاية محمد بن جعفر.
- البيعة لمحمد بن جعفر، أعن رضا منه وقعت أم بالإكراه.
- المنكرات المنسوبة لأركان حركته، ابنه علي وحسين الأفطسي.

نهاية محمد بن جعفر :

تختلف المصادر في تسجيل المصير الذي آل إليه أمر ابن جعفر بعد هذه الخطبة، فاليعقوبي (ت٢٨٤هـ) يذكر أن القائد العسكري عيسى الجلودي خرج به بنفسه إلى المأمون وهو بمرو، فلما صار بجرجان توفى محمد بن جعفر، ثم تسلم كتاب من المأمون يأمره بالرجوع إلى الحجاز[٢٩]. وهذه الرواية على خلاف جميع الروايات التي تجعل موت ابن جعفر عام ٢٠٣هـ[٣٠] في جرجان وهو في طريقه مع المأمون في رحلته من مرو إلى بغداد. يذكر الطبري أن القائد العسكري عيسى بن يزيد الجلودي خرج به إلى العراق وسلمه إلى الحسن بن سهل الذي بعث به إلى المأمون بمرو[٣١] ومثله يذكر ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في المنتظم[٣٢]. وكذلك النجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ) صاحب إتحاف الوري[٣٣]. ويذكر المعاصر ابن خياط (ت٢٤٠هـ) أن المعتصم المكني أبو إسحاق قد حج في هذه السنة فظهر على محمد بن جعفر وابن الأفطس بمكة وبعث بهما إلى المأمون[٣٤]. أي أن هذه الرواية تلغي القيادات العباسية المشتركة مباشرة في الحرب ضد ابن جعفر وتجعل أبا إسحاق (المعتصم) الذي حج في تلك السنة المتصدر للأحداث، ولا تختلف هذه الرواية عن سابقاتها إلا في كونها تجعل اسم أبي إسحاق يتصدر الأحداث، ولعل المعتصم قد أرسله مع الجلودي إلى المأمون عبر العراق، وهو ما تشير إليه أيضا رواية اليعقوبي الأقدم زمنا بعد روايات المعاصر ابن خياط، فيذكر أن الجلودي قدم إلى مكة ولم يحارب محمد بن جعفر بل استأمن منه فأخذه الجلودي وخرج به بنفسه إلى المأمون[٣٥]. أما المتأخرون جدا أمثال ابن خلدون في العبر (ت٨١٠هـ) وابن على الفاسي (ت٨٣٢هـ) في شفاء الغرام، وكذلك الفاسي (ت٨٨٥هـ) في الزهور المقتطفة فلا يذكرون شيئا عن الرفقة التي تولت إيصال محمد بن جعفر إلى المأمون بل يذكرون أنه لحق بالمأمون فعفى عنه[٣٦]. أو سار إلى العراق حتى بلغ المأمون بمرو[٣٧]. أو خلع نفسه وسار إلى الحسن بن سهل وإلى المأمون بمرو[٣٨]. ويبدو أن السبب في ذلك هو كثرة القواد العسكريين الذين تواجدوا في الحجاز عند نهاية عام ٢٠٠ للهجرة ثم حج المعتصم في هذه السنة، وبصفته أخو الخليفة فإن ما يجريه هذا القائد أو ذاك من أمر يجري عند مؤرخ باسم أخي الخليفة وعند آخر باسم القائم بالمهمة مباشرة، وأيا كان أمر الإيفاد وإلى أين ومن أرسله ورافقه

فالثابت أن محمد بن جعفر قد توجه بعد ذلك إلى المأمون بخراسان عبر العراق، وأنه كان المتولي لاشخاص آل أبي طالب إلى المأمون[٣٩]. كما أن رواية اليعقوبي السالفة التي يفهم منها أن محمد بن جعفر توفي في الطريق بجرجان قبل أن يبلغ المأمون لا تستقيم مع باقي الروايات ولا مع تاريخ وفاته المثبت عام ٢٠٣هـ.

واللافت في هذا كله هو التأكيد على قربه من المأمون بما يحمل ذلك من دلالات فيها الإقرار بشرعية الخلافة وحاجة المأمون الملحة لهذا الإقرار في تلك الظروف التي أعقبت مقتل الأمين والمأمون. كما أن تقريب محمد بن جعفر من قبل المأمون بعد الإطاحة بالحركات العلوية التي خرجت ضمن ومن عباءة أبي السرايا يقع في الفترة التي أخذ فيها المأمون يفكر بعلاقة جديدة مع العلويين انتهت بتعيين علي الرضا بن موسى الكاظم ولي عهد للمأمون. ويبدو أن صفات الفضل والزهد والعلم التي خلعت علي محمد بن جعفر لم تكن، في حال توفرها فعلا، لتقنع الخليفة المأمون ليختاره هو وليا لعهده من بين العلويين بدلا من علي بن موسى الكاظم الذي يبدو أنه كان حقا الأوفر حظا من العلم والتفقه بل والنفوذ في أوساط العلويين كما أنه كان الإمام التاسع عند الشيعة، وأحد الذين تدخلوا لإقناع محمد بن جعفر بوقف القتال ورفض[٤٠]. ولذلك أصر المأمون عليه كي يقبل بولاية العهد. ويبدو أن معظم الروايات كما تظهر عند الطبري مثلا قد تأثرت بهذا التقريب لمحمد بن جعفر فصورت علاقة محمد بن جعفر بحركات الطالبيين على نحو يتسق وهذ التقريب كما سنناقش بعد قليل، بل أن الخطيب البغدادي في خبر وفاة ابن جعفر يورد رواية معنعنة فيها أن المأمون لم يشهد الجنازة فقط بل " دخل بين العمودين فلم يزل بينهما حتى وضع، وتقدم فصلى عليه، ثم حمله حتى بلغ به القبر، ثم دخل قبره فلم يزل فيه حتى بني عليه، ثم خرج فقام على القبر وهو يدق فقال له عبدالله بن الحسين : ــ ودعا له ــ يا أمير المؤمنين إنك قد تعبت، فلو ركبت فقال له المأمون : إن هذه رحم قطعت من مأتي سنة. قال الحسن قال جدي : وروي في هذا الحديث أنه قال : هذا حق ضيع من مأتي سنة "[٤١]. أما الأصفهاني في مقاتل الطالبيين فإنه يذكر القرب الذي ناله محمد بن جعفر عند المأمون وكيف أنه كان شاهدا على بيعة المأمون لعلي الرضا بولاية العهد ثم شاهدا على صحة جثته قبل دفنه كي يدفع المأمون عن نفسه تهمة قتله[٤٢]. وتكرر رواية الأصفهاني ما ورد

عن الخطيب البغدادي فتجعل المأمون في لحظة دفن محمد بن جعفر عند وفاته بجرجان عام ٢٠٣هـ، يدلي بشهادة حول حقوق العلويين " دخل المأمون بين عمودي السرير فحمله حتى وضعه في لحده وقال : هذه رحم مجفوة منذ مأتي سنة"(٤٣). وهذه الشهادة فيها كما نرى ادانة للخلفاء الراشدين ولبني أمية وبني العباس حتى زمنه، وبدلا من التحديد بمأتي سنة كما يظهر في رواية الخطيب البغدادي والأصفهاني يذكر الفاسي نزول المأمون الى لحد محمد بن جعفر لكنه فيما يبدو لم يصدق التحديد الزمني بمأتي سنة وان صدق المقولة عامة فأورد عن المأمون أنه قال : " هذه رحم قطعت من سنين ". والغريب أن يذكر هذا عن المأمون مرتبطا بموت طالبي مغمور نسبيا ولا يذكر مرتبطا بموت علي الرضا الأشهر والمعين وليًا للعهد، وارتباط قول كهذا باسم علي الرضا أوفق للأحداث، والظاهر أن المأمون يقول هنا أشياء لا نعتقد أنه قالها، لأن الرحم المقطوع كان سياسيًا في الأصل، وهو ما أشارت إليه الرواية الثانية عند الخطيب البغدادي " هذا حق ضيع من مأتي سنة " وظل سياسيًا مقطوعًا بعد ذلك أيضًا، وعندما تكون علاقة الرحم محكومة بأمور السياسة، يسقط الرحم جملة، كما علمت التجربة الخليفة الأمين الذي نسب إليه قول بليغ بعد أسره وتساءل إن كان أخوه المأمون سيقتله، فأجابه المحاور كلا إن الرحم ستعطفه عليك، فأجاب الأمين بحكمة دهر لا تبلى " الملك عقيم لا رحم له "(٤٤). وحتى لو صح القول عن المامون على نحو ما روي، فانه قول لا يعتد به ويشهد فقط على دهاء المأمون السياسي، لأن أثر هذا القول كان قد محي أصلا بالتخلص من علي الرضا قبل عام من وفاة ابن جعفر.

ونخلص من كل هذا إلى أن ابن جعفر أقام بخراسان مدة عامين إلى جانب المأمون وشهد البيعة لعلي الرضا ثم دفنه في طوس عام ٢٠٠٢هـ ووافته منيته بجرجان عام ٢٠٣ للهجرة، بينما ظل مصير ابنه علي وابن الأفطس مجهولا.

البيعة لمحمد بن جعفر :

المسألة الخلافية المراد جلاؤها هنا هي هل أجبر محمد بن جعفر على البيعة كي يكون خليفة أم أنه كان طامحًا مثله مثل غيره من العلويين الذين خرجوا عند نهاية القرن الثاني الهجري ؟

تذكر أغلب المصادر أن بيعة محمد بن جعفر بالخلافة مرتبطة بالمصير الذي لقيته حركة أبى السرايا، إذ لم تستطع الصمود في النهاية أمام الجيوش العباسية التي أعدها الحسن بن سهل والي العراق وقادها الخبير بتفكير أبى السرايا واستراتيجياته العسكرية هرثمة بن أعين.

وتذكر مصادر مثل الطبري[٤٥] وابن الأثير[٤٦] وصاحب العيون والحدائق[٤٧] وابن الجوزي[٤٨] وابن خلدون[٥٠]، أنه بعد أن أيقن كل من حسين الأفطس، وعلي بن محمد بن جعفر بموت أبى السرايا وتلاشي قواته، وفقد السند المعنوي والعسكري، نظرًا في أمر حركتهما في مكة وما قد أحدثاه من سلب ونهب وأعمال سيئة وأيقنا بالهلاك أمام القوات العباسية التي ستزحف على مكة عاجلا أو آجلا، توصلا إلى فكرة البحث عن واجهة دينية يختبئان خلفها لأن كليهما رغم النسب العلوي لم يعد يصلح للدعوة لسوء سيرتهم[٥١]. وقد وجدا في شخص الطالبي محمد بن جعفر الصادق أفضل واجهة لرفعها والقتال باسمها، خاصة وأنه كما تصور تلك المصادر، قد اشتهر بحسن السيرة وبالعلم والفضل " وكان محببًا للناس، مفارقا لما عليه كثير من أهل بيته "[٥٢] أي تاركا للخروج "[٥٣]. كما كان معلمًا وراوية للحديث عن أبيه والناس تكتب عنه. وبينما تصور معظم المصادر محمد بن جعفر رافضًا للمبايعة ومكرها على قبولها وأن أهالي مكة والمجاورين إنما حشروا لمبايعته حشرًا طوعًا وكرهًا[٥٤]. يعطي الأصفهاني في مقاتل الطالبيين سببًا آخر لخروج محمد بن جعفر في مكة، وهو إنه إنما خرج غيره على فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد أن علم بكتاب فيه سب لفاطمة بنت الرسول ﷺ ، فلما قدم جماعة بذلك الكتاب وقرءوه عليه لم " يرد عليهم جوابًا حتى دخل بيته، فخرج عليهم وقد لبس الدرع، وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه "[٥٥]. وليس ثمة ذكر عند الأصفهاني لما ذكر من إكراه حسين الأفطس وعلي بن محمد لمحمد بن جعفر بالبيعة له بعد وفاة أبى السرايا، أي أن رواية الأصفهاني تجعل خروج محمد بن جعفر طواعية وهو ما نريد أن نقرره بغض النظر عن السبب المباشر المشكوك في صحته. كما لابد من ذكر رواية المقدسي (ت٣٥٥هـ) التي تذكر أن عليا ولد محمد بن جعفر قد خرج في البصرة[٥٦]. بينما تجعله المصادر المذكورة يخرج في مكة مع ابن

الأفطس. ويذكر اليعقوبي أن محمد بن جعفر العلوي تغلب بمكـــة وأخـــرج واليـــها لهاشمي[٥٧]. ولا يذكر شيئا عن الإكراه المذكور فـــي المصـــادر الأخـــرى. أمـــا المصدر المعاصر لمحمد بن جعفر، وهو معاصر له أيضا في الزمان والمكان، مـــع ما يحظى به من ثقة في رواياته لاتباعه أساليب الإسناد المتبعة في علم الحديث[٥٨]. فهو خليفة بن خياط في تاريخه والذي يخالف كافة المصادر التي أتـــت مـــن بعـــده ويقرر أن محمد بن جعفر سنة تسع وتسعين ومائة وثب بالبصرة وليس بمكـــة[٥٩]. صحيح أنه يذكر أيضا بعد ذلك أن ابن جعفر وثب بمكة لكنه يقـــرر أولا أن مبـــدأ خروجه كان في البصرة. وبالنظر إلى الثقة الكبيرة في روايات ابن خياط بالإضافـــة إلى معاصرته لابن جعفر في الزمان والمكان فلابد من منـــح روايتـــه مصداقيـــة استثنائية. وباعتماد هذه الرواية، تسقط الرواية الأخـــرى والمبثوثـــة فـــي معظـــم المصادر حول الإكراه المزعوم لمحمد بن جعفر بالبيعة.

ولإعادة بناء تسلسل زمني للأحداث مقنع نرى أن رواية المقدسي التي تقـــرر خروج علي بن محمد بن جعفر في البصرة تسمح بفهم أن عليا هذا كان قائد أبيـــه العسكري في البصرة كونه الأوفر شبابا والأكثر حماسا، وقد لاح لـــهما أن يتركـــا البصرة فيما بعد لقريبهما زيد بن موسى بن جعفر الملقب بزيد النار لكثرة ما أحـــرق من بيوت العباسيين كما روي. ولعلهما تركا البصرة خوفا من طغيان أبي الســـرايا على حركتهما بينما يفضلان الاستقلال، وفي خروجه الأول في ا لبصرة لم يذكـــر ابن خياط أن محمد بن جعفر ادعى خلافة أو إمرة للمؤمنين والظاهر أنه أراد مثـــل غيره من العلويين وسواهم الفوز بنصيب من الدنيا مسنودا بنسبه العلوي وهـــو مـــا ألمح إليه في خطبة التنازل السالفة وأنها كانت فتنة غشيت عامة الأرض منه ومـــن غيره. ويبدو أن الأقدار دارت لصالحهما حين قدما مكة وفيها العلوي ابن الأفطـــس نائبا عن أبي السرايا، ولنا أن نتصور في غمرة الفوضى الحاصلة وغياب الســـلطة أن تحالفا بين ابن الأفطس وعلي بن جعفر قد قام على أساس أن تكون مكة لهما بما يقتضي ذلك من الاستئثار بأموال العباسيين وغيرهم في مكـــة، كمـــا نســـتطيع أن نتصور وبحكم الولاء الرابط بين أبي السرايا وابن الأفطس أن يتراجع اسم محمـــد بن جعفر كي لا يعد منافسا لصاحب النفوذ الفعلي أبي الســـرايا أمـــام نائبـــه ابـــن الأفطس. أما بعد هزيمة أبي السرايا ومقتله فالطريق مفتوح ثانية أمام محمـــد بـــن

جعفر ليكون على رأس حركة انقلابية على الخلافة العباسية ويقبـــل المبايعـــة لـــه بالخلافة ويتلقب بإمرة المؤمنين. كما أن خطبة الخلع التي مرت بنا لم تتضمن أية إشارة إلى الإكراه ليكون عذرًا له، بل قدمت إشاعة موت المـــأمون كعـــذر لقبول البيعة بالخلافة. ثم إن المصادر التي تصوره أكره على ذلك تذكر أنه ظل شـــهرا أو شهور ليس له من الأمر شئ سوى الاسم، ولا يتفق هـــذا وواقـــع الحـــال، فـــأول المواجهات العسكرية وقعت بعد شهرين من مبايعته بالخلافة في جمادي الآخر بينما بويع في الثالث من ربيع الآخر، ولنا أن نتصور أن هذه الفترة الفاصلة هي اسـتعداد وجمع أعوان وحفر خندق وخلافه. وعليه، وبتذكر أنه خرج أصـــلا فـــي البصـــرة نخلص إلى أنه شمر عن ساعد الجد فورًا وأعد العدة لمواجهة القوات العباسية كمـــا مر بنا في وقائع الحركة والتي تظهر أنه لم يكن زاهدًا في الخلافة بل نشـــطا جـــدا وحريصًا جدًا في الحفاظ عليها[٦٠]. وأنه لم يسلم إلا بعد هزيمته وإدراكـــه لعجـــزه أمام القوات العباسية وعزوف الناس عن الانضمام لحركته.

ويصبح من الضروري البحث عن سبب لذلك التصوير الرابط بين علم وزهد ابن جعفر ووصفه بأنه تارك للخروج من جهة ثم ما زعم من إكراهه علـــى قبـــول بيعة بإمرة المؤمنين من جهة ثانية ومحاولة تبرئته مـــن أعمـــال الســـلب والنـــهب والمنكرات المخلة بالشرف ونسبتها لولده علي ولابن الأفطس من جهة ثالثة. وأعتقد أن الإجابة تكمن في النهاية التي أفضت إليها حركته والمقام الذي وجده بعدئذ عنـــد المأمون. ففي خطبة التنازل التي مرت بنا يعتذر ابن جعفر عما بدر منه ويؤكد حـق المأمون في الخلافة. كما أنه بعد ذلك حظي بتقريب المأمون له، ولا يصح بالتـــالي أن يصور علوي يقربه المأمون بأن سعى للخلافة وأسقط شرعية خلافة المـــأمون، كما لا يصح أن ننسب له منكرات وأفاعيل وإلا لطال المأمون منها نصيب ولظـــهر موافقا على ما يروى من منكرات لأشخاص يؤمون بلاطه، ومن جهة أخرى فلا شـك أن الدعاية المأمونية كانت في أمس الحاجة إلى من يؤكد شرعية خلافة المأمون بعد مقتل أخيه الأمين وخاصة من علويين بسير نقية وسمعة زكية، وقد لعب محمد بـــن جعفر دورًا في ذلك عبر خطبته في مكة والتي لاشك أنها لاقـــت ذيوعـــا ليعـــرف القاصي والداني رأي هذا العلوي الذي كان بويع خليفة، بخلافة المأمون. لكل ذلـــك نرى أن الرواية المبثوثة في معظم المصادر والتي تصور إكراه محمد بـــن جعفـــر

على البيعة لا تستقيم مع وقائع الحركة، ولكنها تستقيم مع سياسات المأمون في تثبيت خلافته، خاصة وأن كتابة التاريخ قد تأثرت بانتصارات المأمون وتم تزوير الشرطين اللذين علقا في الكعبة بين الأمين والمأمون، كما يرجح ذلك بأدلة مقنعة مؤرخ معاصر[٦١]. وعليه يمكن القول أن رواية باقي الأحداث التاريخية المتصلة بزمن المأمون ستتأثر هي الأخرى بحاجة المأمون إلى تبرئة ساحته من دم أخيه ومن فكرة التغلب على الخلافة بالقوة.

المنكرات المنسوبة لأركان حركة ابن جعفر، ابنه علي وحسين الأفطس :

تحت هذا العنوان نريد مناقشة أعمال السلب والنهب والمنكرات التي نسبتها معظم المصادر[٦٢]. لحسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر. ولا بأس من إعادة ما ذكرنا سابقا من أعمال قبيحة ومنكرات واضحة، وأنهما تتبعا ودائع بني العباس وأتباعهم، وسطيا على أموال الناس بحجة البحث عن ودائع بني العباس وأنهما قاما بتعذيبهم وأنشئا دارًا خاصة سميت " دار العذاب "[٦٣]. كما سطيا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المسجد الحرام وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المنزوعة على قدر المنزلة لكل شخص. وقد أدى كل ذلك إلى هرب أكثر الناس فهدمت دورهم. كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهرًا لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد من قبل علي بن محمد بن جعفر وصف أيضًا بالجمال وهو ابن لقاضي المدينة.

فما هو الموقف من كل هذه الأعمال وما علاقة محمد بن جعفر بها. ومن بين المصادر والمراجع التي بين أيدينا يعلق فقط صاحب كتاب تاريخ أمراء مكة على أخبار الاغتصاب بالذات بعبارة واحدة دون مناقشة تقول " وقد تكون هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته وقد نقلناها كما وردت "[٦٤].

ولنبدأ بالأخبار الخاصة بأعمال السلب والنهب فنقول بأن الفراغ الذي حصل في السلطة عند نهاية القرن الثاني الهجري وبقاء الخليفة المأمون في مرو قد شجع كثيرين أفرادًا وجماعات ومنهم الطالبيون على التغلب على الأمصار واعتماد أعمال السلب والنهب طريقًا قصيرًا للثراء وأن الأخبار التفصيلية المتعلقة بهذه

الأعمال في بغداد وغيرها من المدن، بالإضافة إلى حركة أبي السرايا وما ارتبط بها من أعمال سلب ونهب تجعل من الصعب عدم تصديق الروايات المتعلقة بما جرى من أعمال سلب ونهب في مكة، لقد كانت روحًا طاغية في كل العراق والجزيرة العربية، لدرجة أن حركات مناهضة لحركات السلب والنهب تشكلت فيما بعد تسمى المطوعة، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٦٥). كما أن حركة مثل حركة العيارين والشطار قد لعبت دورا اخر أساسيًا في نشر روح الفوضى والسلب رغم أنها كانت تعبيرًا عن الفاقة والجوع في وجه الرغد والوفرة(٦٦). ووجدت في فراغ السلطة القائم لها متنفسا. وقد خرجت أعمال السلب والنهب عن حدود الاعتداء على أموال الخلافة وممثليها إلى سلب أموال الناس العاديين الذين اضطروا للهرب من مكة، وأيًا كانت مبالغات المصادر في تصوير أعمال السلب والنهب فإن تلك المبالغات لا تنفي الوقائع مع ذلك.

والسؤال المطروح هنا هو هل شارك محمد بن جعفر شخصيًا في أعمال السلب والنهب أو ناله من غنائمها نصيب ؟

ونشير في البدء إلى أن المصادر التي تتحدث عن إكراه محمد بن جعفر على البيعة تظهره ورعًا زاهدًا وأن لا صلة له بأعمال السلب والنهب، لكن رواية عند الخطيب البغدادي تقلب هذه الصورة فتظهر ابن جعفر مشاركًا في أخذ الأموال، وإن كانت الرواية مرتبطة بأموال أحد ولاة بني العباس وليس سائر الناس. ويسند الخطيب البغدادي إلى حفيد لإسحاق بن موسى والي العباسي في اليمن والذي خرج منه بعد ظهور العلوي إبراهيم بن موسى هناك، ومر بنا في الحديث عن وقائع الحركة ومواجهته العسكرية مع ابن جعفر، يذكر الخطيب البغدادي نقلا عن حفيد إسحاق أن جده خلف عياله وثقله في مكة حين ولاه المأمون على اليمن وأن محمد ابن جعفر قد أخذ كل ذلك(٦٧). كما ينفرد الخطيب البغدادي بذكر قسمًا من ديباج الكعبة الذي نزعه ابن الأفطس قد وصل إلى محمد بن جعفر ومما يشير إلى عظم هذا القسم أن صاحب الرواية عند الخطيب البغدادي يذكر أنه ذهب لمبايعة محمد بن جعفر بالخلافة فأمر له " بشقة ديباج ... وطرح من تلك الكسوة على الدواب دوابه ودواب أصحابه "(٦٨). وهذا يعني أن محمد بن جعفر كان شريكًا لولده وابن الأفطس فيما أخذوه من أموال بني العباس وأموال الكعبة، وإلا فمن أين لهم تلك

الأموال التي ذكر أنهم جندوا بها الأعراب وفرضوا لهم وحفروا بها خندقـًا حـول الكعبة وأداروا جولتين حربيتين كبيرتين على الأقل[٦٩]. وهناك قصة ظريفة تصـور محمد بن جعفر لا علاقة له بابن الأفطس وابنه وبما نهباه، وأنه استلف من حجبـة الكعبة ٥٠٠٠ دينار ليستعين بها على أمره[٧٠]. ولسنا نعلم كيف سلمت هذه الأمـوال من السلب وقد تجاوز السلب والنهب أموال بني العباس وخزائن الكعبة إلى أمـوال الناس العاديين واضطروهم للهرب من مكة، وأظنها قصة موضوعة لتدعـم زهـد محمد بن جعفر في الدنيا وفي الخلافة، خاصة وقد دبجت القصة بأن حجبة الكعبـة قد أخذوا عليه سندًا بذلك وأشهدوا عليه الشهود، وأن المأمون قضاها عنه بعـد أن فشلت حركته وطولب بها. ومما يدل على ضعف هذه الرواية هي أن أجـواء مكـة في هذه الفترة عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تكن تسمح بجريان الأمـور علـى النحو الذي تصوره الرواية، وما دام ابن جعفر قد بويع خليفة وله الأمـر والنـهي، تبقى قصة الاستلاف وتشديد الحجبة بضرورة كتابة سند بذلك وإشهاد الشـهود ثـم قضاء الدين من قبل المأمون ضمن الروايات التي أرادت تبرئة محمد بن جعفر مـن الأعمال الشائنة للأسباب التي ذكرناها في مناقشاتنا حول أمر البيعة، زد على ذلـك أن رواية الاستلاف هذه لا ترد إلا عند مصدر واحد متأخر وهو إتحـاف الـورى بأخبار أم القرى لعمر بن فهد المتوفى ٨٨٥ للهجرة.

ونلتفت الآن إلى الروايات المتعلقة باغتصاب المرأة والغلام الأمـرد. ولابـد من ذكر أن ابن خياط واليعقوبي لا يذكران هاتين الواقعتين ولا الوقـائع الأخـرى ذات الصلة في العراق، وليس هذا بالضروري دليلا على عدم حدوثـهما، بـل لـه علاقة بمنهج الكتابة المقتصر على خيط الأحداث الرئيسي عنـد اليعقوبـي وابـن خياط، أما باقي المصادر كالطبري وابن الأثير وصاحب العيون والحدائـق وابـن الجوزي وابن خلدون فيوردون خبرًا واحدًا عن الخطف لكل من المـرأة والغـلام. لكنه يختلف في التفاصيل قليلا في هذا المصدر أو ذاك. يذكـر الطـبري " فوثـب حسين بن حسن (الأفطس) على امرأة من قريش من بني فهر ــ وزوجها رجل مـن بني مخزوم، وكان لها جمال بارع ــ فأرسل إليها لتأتيه فـامتنعت عليـه، فأخـاف زوجها وأمر بطلبها فتوارت منه، فأرسل ليلا جماعة من أصحابه فكسـروا بـاب الدار واغتصبوها نفسها، وذهبوا بها إلى حسين، فلبثت عنده إلى قرب خروجه مـن

مكة فهربت منه، ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة. ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام من قريش، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد، وكان جميلا بارعا في الجمال ــ فاقتحم عليه بنفسه نهارًا جهارًا في داره ــ حتى حمله على فرسه في السرج "(٧١).

وهذه الرواية تكرر بعدئذ في المصادر المتأخرة عن الطبري، والتي لا نرى ضرورة للإشارة إليها باستثناء ما كتبه صاحب العيون والحدائق وابن خلدون، اللذين جعلا هاتين الحادثتين الفرديتين حالة عامة، فكتب صاحب العيون والحدائق " حتى صار أصحابه (ابن الأفطس) إلى أخذ الحُرم وأخذ أبناء الناس وتهتك في أولادهم "(٧٢). وكتب ابن خلدون " وأفحشوا في الزنا واللواط واغتصاب النساء والصبيان "(٧٣).

والظاهر أن صاحب العيون والحدائق وابن خلدون قد اتخذوا من تلك الحادثة المروية دليلا على شيوع فعل جماعي، وفي هذا كما نرى مبالغة وسوء تصوير غير مسنودة من الواقع ولا من الروايات الأخر، واعتقد أننا فقط أمام رواية لحالتي اختطاف واغتصاب لامرأة وغلام. فهل هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته كما يذكر صاحب تاريخ أمراء مكة أم أننا فعلا أمام وقائع حدثت مخلة بالشرف ومحرمة شرعا وهي مما يأباه الذوق العربي المؤسس على معاني الحلال والحرام وعلى النخوة العربية المعلية لشأن العرض وكرامة النساء. يبدو أننا في هذه الفترة التاريخية الحرجة، فترة خلو الخلافة الإسلامية من سلطة فاعلة في العراق والجزيرة، وسيادة روح التغلب بالقوة، وخلو الحركات من شعارات سياسية، مضطرون للاعتراف بفساد الأخلاق الذي ساد وانتشر في جهات كثيرة من العراق(٧٤) وبلاد الحجاز. ومن السهل قطعا أن نقول أن هذه روايات موضوعة للتشهير، لكنا مع ذلك نحتاج إلى حجج لدعم القول بالتشهير، وأخرى لنفي قرائن قد تدعم تأكيد الخبر. ومنها أنه ما دمنا لا نستطيع إنكار الاعتداء على أموال الناس بل وعلى أموال الكعبة المشرفة، فإن هذا الأمر يقنع بأن الذي لا يستحي من الله جل وعلى ويسقط هيبة الكعبة وقدسيتها علنا، لا يستحي من الناس وبإمكانه ارتكاب أية فاحشة أو منكر معتدا بقوته. وما دام ابن الأفطس سيد الموقف فله أن يفعل ما يشاء. ومما جعل الأمر قابل للتصديق هو تحديد هوية المرأة وزوجها. لكن الذي

يضعف هذه الرواية القول بأن الجماعة التي أرسلت لإحضارها قد قامت باغتصابها أولا ثم حملتها لابن الأفطس، وهو تصوير غير معقول ولا متصور من اتباع ينفذون رغبة سيدهم في أكثر الأمور مساسا بالكرامة، حتى وهم يعتدون على كرامة غيرهم بحكم التغلب الحاصل. وقبل أن نقرر شيئا نهائيا بشأن هذه الرواية نلتفت إلى رواية الغلام المخطوف وهو جرم لا يقل فحشا عن الأول، والغريب أن يروى أن أهل مكة قد ثاروا وتجمهروا أمام دار الإمارة حيث الخليفة المبايع محمد ابن جعفر. وتصور الرواية أن الحشد كان كبيرا والهياج حادا والتهديد بالخلع أو بالقتل عاليا لدرجة أن أمير المؤمنين المبايع يطلب الأمان كي يخرج لابنه وينتزع منه الغلام، وقد منحوه أمانا كي يذهب إلى ولده لانتزاع الغلام منه بعد أن رفض ابن الأفطس التدخل في الأمر مشيرا إلى عجزه عن ذلك وخوفه من حرب بينه وبين علي بن محمد بن جعفر[٧٥]. وهي مناسبة هنا لنؤكد على حالة الفوضى في مكة وأن كل واحد من المتنفذين كان يعمل باستقلالية عن الآخر على الأقل في أمور النهب والمنكرات المذكورة. وقد تمكن محمد بن جعفر، كما تفيد الرواية، من الذهاب إلى ولده وانتزاع الغلام منه وتهدئة خواطر الناس. ورغم أن الغلام ابن لقاضي مكة، إلا أن موقفا للقاضي بهذا الصدد لتخليص ابنه لم يرو، ولعله لم يدرك ذلك لوقوع الخطب والتحرير في نفس اليوم، كما أن علاقة محمد بن جعفر بهذا القاضي لم تتأثر كما يبدو، إذ رأينا أن محمد بن جعفر يرسل إلى جماعة من أهل مكة فيهم القاضي كي يتدخل لدى إسحاق بن موسى للحصول على أمان كي يخرج من مكة بعد هزيمته في الجولة الأولى من الحرب[٧٦]. والغريب في الأمر أن المرأة وهي الأكثر تمثلا للعرض والشرف والنخوة والتي اختطفت من بيت زوجها وأكرهت على معاشرة رجل بالحرام، كما تذكر الرواية، لم تثر غيرة الناس كما حدث مع الغلام، هل لأن خطف الغلام وقع جهارا نهارا، فيما خطفت المرأة فجرا وكان زوجها قد هرب من مكة كما تصور الرواية ؟ أم لخوفهم من سطوة ابن الأفطس ورجاله كما قد عرفوه حتى الآن ؟ أم أن الحادثة لم تقع أصلا وأن الأمر كله تعريضا وتشهيرا بخصوم بني العباس في هذه الفترة ؟ ومع ذلك فإن هذا السؤال الأخير تقل دلالته عندما نعلم أن موضوع النساء كان حاضرا في المواجهات سواء أكان للدعاية السياسية أم للفعل الدال على قوة المنتصر. يورد

الأصفهاني على لسان الجيش العباسي المهاجم لابي السرايا في الكوفة " وأقبل اهل بغداد يصيحون يا أهل الكوفة : زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، و الله لنفعلن بهم كذا وكذا "[٧٧].

وهذا القول وإن قيل أنه داخل في الإرجاف العلوي ضد العباسيين، كما هو الحال في قصة المرأة والغلام وأنها يمكن أن تكون إرجافا ضد العلويين، إلا أن وجود هذه الأخبار يعد رغم ذلك دليلا على حصول هتك للأعراض هنا أو هناك. ومما يقوي الاعتقاد بحصول تلك المنكرات في مكة إقرار الأصفهاني بسوء سيرة ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر، ليس صراحة بالاسم، ولكن ضمن معايير الاختيار التي اعتمدها لكتابه " مقاتل الطالبيين " كما أشار إلى ذلك في المقدمة حيث يقول : " ومقتصرون في ذكر أخبارهم (الطالبيين) على من كان محمود الطريقة، سديد المذهب، لا من كان بخلاف ذلك، أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث أو فساد "[٧٨]. ولذلك خرم ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر من سيرة ذاتية مستقلة في كتاب الأصفهاني بين ذلك الحشد الهائل من الأسماء.

ومع ذلك فإن أقصى ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا الاستعراض بشأن المرأة والغلام، وأخذا بعين الاعتبار سيادة روح التغلب وانتشار الفوضى وتراجع القيم عند نهاية القرن الثاني الهجري، أنها أمور غير مستبعدة.

خلاصة :

والخلاصة أن حركة محمد بن جعفر العلوي بدأت في البصرة عام ١٩٩هـ ثم انتقلت إلى مكة، وأنها وقعت كنتيجة من نتائج الحرب بين الأمين والمأمون وخلو العراق وكل شبه الجزيرة من سلطة خلافية فاعلة بعد مقتل الخليفة الأمين عام ١٩٨هـ. وكانت هذه الحركة من بين حركات تغلب علوية كثيرة قامت عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تحمل في طياتها أي بديل سياسي معلن في شعار أو خطبة. وهي الحركات التي وجدت في حركة أبي السرايا غير العلوي مظلة عسكرية لها، كما وجد أبو السرايا في العلويين واجهة دينية يقاتل تحت لوائها. وقد تميزت حركة محمد بن جعفر عن باقي حركات التغلب الأخرى بأنها أعلنت خلافة علوية عقب حرب الأمين والمأمون وخلو العراق والجزيرة من سلطة خلافية مقبولة، وكان ابن جعفر أول طالبي يبايع بالخلافة بعد الحسن بن علي وتلقب بإمرة المؤمنين، وهو ما جعل خطر حركته يكون الأقوى. وقد ترافقت الحركات العلوية ومنها حركة محمد بن جعفر بأعمال سلب ونهب واعتداء على أموال الكعبة كما نسبت إلى بعض شخوصها منكرات أخلاقية فاضحة. وقد كان ابن جعفر طامحا في الخلافة عاملا لها بكل ما استطاع. وقد أمكن دحض الروايات التي تصوره زاهدا في السلطة وأنه إنما أجبر على ذلك، وكان بقدر أو بآخر شريكا لولده، ولابن الأفطس في كل أعمال السلب والنهب المذكورة، وأوضحنا أن سبب تصويره زاهدا في الخلافة أو الأعمال المنكرة تكمن في النهاية التي آلت إليها حركته وهي الاستسلام ثم التسليم بخلافة المأمون وفي الحظوة التي وجدها عند المأمون بعدئذ. وقد دامت حركته من ربيع الآخر سنة ١٩٩هـ إلى ذي الحجة سنة ٢٠٠ للهجرة على أن بيعته كخليفة لم تدم إلا ثمانية أشهر من ربيع الآخر حتى ذي الحجة من نفس العام.

الهوامش

١- تضيف له بعض المصادر لقب الديباج أو الديباجة،و يبرر ذلك بحسن وجهه، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م، ج١، ص١٣١٧، في مادة دبج " وديباجة الوجه وديباجه : حسن بشرته، أنشد ابن الأعرابي للنجاشي "

هم البيض أقوامًا وديباج أوجه، كرام إذا غبرت وجوه الأشائم

وبينما لا نجد هذا اللقب عند مؤرخ معاصر لمحمد بن جعفر هو ابن خياط. في تاريخه، ولا عند اليعقوبي في تاريخه ولا الطبري في تاريخه، ولا ابن الأثير في الكامل، ولا ابن الجوزي في المنتظم، ولا في العيون والحدائق عند المؤلف المجهول، نجد اللقب عند أخرين أمثال الخطيب البغدادي، وابن الجوزي، وابن خلدون، وعند ابن علي الفاسي في شفاء الغرام ... وعند الفاسي في إتحاف الورى بأخبار أم القرى وهو الذي يستخدم اللقب بكثافة عوضًا عن الاسم. ويبدو أن اللقب لم يكن شائعًا ولا متفق عليه، وإلى هذا يشير ابن حزم، أو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م، ص٥٩، حين يذكر " والشيعة تلقبه الديباجة لجمال وجهه " ومع ذلك فانقسام المصادر حول إيراد لقبه من عدمه لا يبدو أنه على أساس مذهبي، وإلا لسقط من بعض المصادر التي أوردناها بعاليه، ويبقى أن نقول أن غياب أخبار مفصلة عن حياة محمد بن جعفر الأولى باستثناء أنه كان يروي عن أبيه يقنع بأنه كان مغمورًا، وأنه إنما عُرف على نحو واسع عند نهاية القرن الثاني الهجري بعد قيامه بالحركة التي نحن بصدد إلقاء الضوء عليها، وأن اللقب الذي منحته الشيعة إياه قد حدث كما نرجح بعد حركته بوقت طويل وإلا لأثبته كافة المؤرخين استسهالاً للإشارة إليه بلقب بدلاً من محمد بن جعفر كما سنرى في متن البحث.

٢- في الرسائل المتبادلة بين الطالبي محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور تظهر جليًا المرتكزات التي على أساسها ادعى كل فريق الحق لنفسه في خلافة المسلمين، انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار روائع التراث العربي، بيروت د.ت. ج٧/ ٥٦٦-٥٧٣. وقد جاء في رد محمد النفس الزكية لأبي جعفر المنصور، الطبري ج٧/٥٦٧، ما يلي: "وأن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا" وقد كانت تلك المرتكزات وأهمها القرب من نسب النبي عبر ابنته فاطمة هي القاسم المشترك، أو قل الوعي المشترك الذي كان يعلن عن نفسه كل حركة طالبية، كما كان النسب عند بني العباس عبر العم العباس هو الآخر من بين أهم المرتكزات إلى جانب النجاح في الإطاحة بالخلافة الأموية.

٣- الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، ج٢، المكتبة السلفية، المدينة المنورة ١٩٧٠، ١٣٣/٢. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠م، ص٥٣٧.

٤- المقدسي، مطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ المنسوب لأبي زيد أحمد ابن سهل البلخي، ج٥، مصور عن طبعة خاصة في باريس ١٨٩٩، ١١٢/٥.

٥- مجهول، العيون والحدائق من خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم، مطبعة بريل، هولندا ١٨٦٩م، ص٣٤٦.

٦- المقدسي، ١٠٩/٥.

٧- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ج٦، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ٣٠٥/٦.

٨- هذه هي السيرة التقليدية التي نجدها لأبي السرايا في معظم المصادر التاريخية التقليدية، انظر مثالا على ذلك الطبري ٥٣٤/٨-٥٣٥. لكن هذه الصورة لا وجود لها عند الأصفهاني في مقاتل الطالبيين، والذي لا يذكر

شيئا من هذه الأخبار المتواترة عن أبي السرايا بل يركز على الفـترة التـي اتصل بها بابن طباطبا، ويصوره شيعيا محبا لآل البيت، آمـرا بـالمعروف وناهيا عن المنكر، الأصفهاني، ص٥٣٦، ٥١٨، ٥٤٢-٥٥٩.

٩- الطبري ٥٢٨/٧. العيون والحدائق، ص٣٤٦.

١٠- الأصفهاني، ٥١٩.

١١- الطبري، ٥٣٥/٨.

١٢- الأصفهاني، ٥٢١.

١٣- الطبري، ٥٢٩/٧.

١٤- الأصفهاني، ٥٣١.

١٥- الطبري، ٥٣٢/٨.

١٦- الطبري، ٥٣٢/٨.

١٧- منطقة متصلة بجبال عرفات، ياقوت الحموي، شهاب الديـن أبـو عبـدالله، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، ج٢، دار الكتب العلمية، بـيروت ١٩٩٥م. ١٥٤/٢.

١٨- ابن علي الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد، شفاء الغرام بأخبـار البلد الحرام، ج٢، ط١، حققه ووضع فهارسه د. عمر عبدالسـلام تدمـري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٨٩.

١٩- الطبري، ٥٣٦/٨.

٢٠- مجهول، ٣٤٨.

٢١- الطبري، ٥٣٦/٨.

٢٢- الطبري، ٥٣٦/٨.

٢٣- عن أساطين الحرم وأعدادها وما وجد بها من ذهب، انظر: الأزرقـي أبـو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الأخبـار، دار الأندلس، بيروت ١٩٩٦م، ٨٢/١-٨٣.

٢٤- الطبري، ٨/٥٣٦. ابن الأثير، ٦/٣١١. أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ج٦، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م، ٦/٣١١.

٢٥- الطبري، ٨/٥٣٦. مجهول، ٣٤٨.

٢٦- كانت قرية على طريق المدينة على بعد ستة مراحل من المدينة وعلى ثلاث مراحل من مكة، الحموي، ٢/١٢٩.

٢٧- الطبري، ٨/٥٣٩.

٢٨- الطبري، ٨/٥٤٠.

٢٩- اليعقوبي، ٤٤٨.

٣٠- يستثنى من ذلك الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، الوافي بالوفيات، ج٢، دار فرنس ستاينر للنشر، ١٩٧٤م، ص٢٩١، الذي يورد تاريخين لوفاته هما سنة ٢٠٤هـ وسنة ٢٠٣هـ، ثم يذكر أن الأخير هو التاريخ الصحيح.

٣١- الطبري، ٨/٥٤٠.

٣٢- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م، ١٠/٨٥.

٣٣- ابن فهد، النجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٢، ط١، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانكي، القاهرة ١٩٨٣م، ص٢٦٩.

٣٤- ابن خياط، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار العلم ومؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٧م، ص٤٧٠.

٣٥- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، مج٢، دار صادر، بيروت ١٩٧٠م، ص٤٤٨.

٣٦- الفاسي، تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، ط١، تحقيق د. مصطفى محمد حسين الذهبي، الرياض ١٩٩٧م، ص١٧٩.

٣٧- ابن علي الفاسي، ٢٨٨.

٣٨- ابن خلدون، عبدالرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٥، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت ١٩٩٩م، ٥/٥٢٠.

٣٩- الأصفهاني، ٥٦٢.

٤٠- الأصفهاني، ٥٤١.

٤١- الخطيب البغدادي، ٢/١١٥. كما أن رواية البغدادي هذه تجعل موت ابن جعفر بخراسان بينما عامة الروايات تؤكده في جرجان.

٤٢- الأصفهاني، ٥٦٤، ٥٦٧.

٤٣- الأصفهاني، ٥٤١.

٤٤- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه وقد له د. مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت.، ٣/٥٠٢.

٤٥- الطبري، ٨/٥٣٧.

٤٦- ابن الأثير، ٦/٣١١.

٤٧- مجهول، ٣٤٨-٣٤٩.

٤٨- ابن الجوزي، ٨٢.

٤٩- الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، حوادث ١٩١-٢٠٠، تحقيق د. عمر السلام تدمري، دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٩٩م، ص٧٨.

٥٠- ابن خلدون، ٥/٥١٩.

٥١- مجهول، ص٣٤٨.

٥٢- ابن الأثير، ٦/٣١١.

٥٣- الذهبي، حوادث ١٩١-٢٠٠، ص٧٥.

٥٤- الطبري، ٨/٥٣٧. ابن الأثير، ج٦/٣١٢.

٥٥- الأصفهاني، ٥٣٩.

٥٦- المقدسي، ٥/١٠٩.

٥٧- اليعقوبي، ٤٤٨.

٥٨- انظر مقدمة التحقيق لكتاب تاريخ خليفة بن خياط التي كتبها الدكتور أكرم ضياء العمري وبين فيها منهج ابن خياط في الكتابة التاريخية ومستوى الثقافة التي تلقاها رواياته، ص١٤ وما بعدها.

٥٩- ابن خياط، ٤٦٩.

٦٠- لاحظ المستشرق الهولندي، ك. سنوك هورخرونيه في كتابه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، أن الكتاب العلويين ـ ولم يسمهم ـ يرون أن محمد ابن جعفر غير مذنب، لكنه يرى أن هذا الزعم غير صحيح بدليل نشاط ابن جعفر للاستيلاء على المدينة. والمستشرق في ملاحظته هذه خلط بين أمر السلب والنهب والرغبة في الخلافة، فاستدل بالثانية على الأولى، لكنها تبقى ملاحظة مهمة تعزز ما ذهبنا إليه من رغبة أكيدة لمحمد بن جعفر في نيل الخلافة. ك. سنوك هورخرونيه، تاريخ مكة المكرمة، ج١، نقله إلى العربية د. علي عودة الشيخ، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٩٩٩م، ١٣٠/١.

٦١- شاكر مصطفى، دولة بني العباس، ج١، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٣م، ص٤٠٤-٤١٠، ٤٢٨-٤٣٦.

٦٢- الطبري، ٥٣٦/٨-٥٣٧. ابن الأثير، ٣١١/٦-٣١٢. ابن الجوزي، ٨٢/١٠. مجهول، ٣٤٨. ابن خلدون، ٥١٩/٥-٥٢٠. ابن فهد، ٢٦٥. ابن علي الفاسي، ٢٨٦.

٦٣- الطبري، ٥٣٧/٨.

٦٤- عبدالغني، عارف، تاريخ أمراء مكة، دار البشائر، ط١، دمشق ١٩٩٢م، ص٢٨٣.

٦٥- الطبري، ٥٥١/٨.

٦٦- عبدالمولى، محمد أحمد، العيارون والشطار في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٧٨م، ص١٦٦.

٦٧- الخطيب البغدادي، ١١٤/٢.

٦٨- الخطيب البغدادي، ١١٤/٢.

٦٩- الطبري، ٥٣٨/٨-٥٣٩.

٧٠- عمر بن فهد، ٢٦٧.

٧١- الطبري، ٨/٥٣٧-٥٣٨.

٧٢- مجهول، ٣٤٨.

٧٣- ابن خلدون، ٥/٥٢٠.

٧٤- انظر مثلاً ما كتبه الطبري، ٨/٥٥١، حول فساق الحربية والشطار ببغداد والكرخ، وكيف أنهم أخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرقات، وأنهم تمكنوا من فعل ذلك لأنه لا سلطان يمنعهم من ذلك "لأن السلطان كان يعتز بهم".

٧٥- الذهبي، حوادث ١٩١-٢٠٠/٧٤.

٧٦- الطبري، ٨/٥٣٩.

٧٧- الأصفهاني، ٥٢٦.

٧٨- الأصفهاني، ٥.

كونرادين وعرش الصقليين

د. أميرة مصطفى أمين يوسف
رئيس قسم التاريخ
كلية التربية للبنات بجدة / الأقسام الأدبية

إن ما يميز بعض الحقب التاريخية عن بعضها، هو ظهور شخصيات لها من صفات القيادة، ما يبهر معاصريها، وشخصيات أخرى لها من الأعمال، ما يخلد اسمها عبر العصور، وشخصيات لها من الطموحات، التي تؤدي بها إلى طريق النهاية، بل إن تلك الطموحات، ربما قادت أصحابها إلى القتل أو الإعدام، ومن تلك الشخصيات الشخصية التي نحن بصدد دراستها، ففي ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م وفي معسكر Campo Maricino في مدينة نابولي، جرى إعدام كل من كونرادين Conradin وفريدريك من بادين Fredrick of Baden مع عدد من أتباعهما[١]. ولكن من هو كونرادين، وما هي الجريمة البشعة، التي أدت إلى ذلك الإعدام، الذي لم يرحم شاب لم يتعد السادسة عشر من العمر ؟ ومن هو فريدريك من بادين ؟ ولماذا استحق نفس المصير ؟

إن الإجابة على تلك الأسئلة ستكون من خلال الأحداث التي سنتناولها هذه الدراسة، فكونرادين هو الاسم الذي عرف به كونراد الخامس Conrad V، وهو تصغير لكونراد Conrad، وسمي أيضا بالنسر الصغير، أو الأسد الصغير[٢]. وجد كونراد لأبيه هو الإمبراطور فريدريك الثاني[٣] Fredrick II (١٢١٢-١٢٥٠م) ويعتبر فريدريك الثاني من أبرز الشخصيات، التي شهدتها العصور الوسطى، وأشدها غرابة فقد ولد من أب ألماني وأم نصف إيطالية[٤]، وتلقى تعليمه في صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية، وكان يجيد عدة لغات منها اللغة العربية، كما كان يجيد الشعر العربي وغير العربي، وكان ماهرا في السياسة والحرب والقانون، حتى أطلق عليه أعجوبة الدنيا[٥]. وقد حكم فريدريك الثاني كلا

من صقلية وألمانيا، علاوة على أنه كان يحمل لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما أنه أصبح ملك بيت المقدس عن طريق زواجه في سنة ١٢٢٥م من وريثة العرش إيزابيلا Isabella ابنة حنا دى برين John of Brienne، ولهذا فإن فريدريك كان يتمتع بأعلى نفوذ مدنى في العالم المسيحى[٦].

أما أبو كونرادين فهو كونراد الرابع Conrad IV، الذى أنجبه فريدريك من زوجته إيزابيلا ابنة حنا دى برين وريثة عرش مملكة بيت المقدس، وقد خلف كونراد الرابع أبوه فريدريك الثانى فى حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكن المعارضة في ألمانيا قامت فى وجهه، فلم يستطع أن يتصدى لها، وغادر ألمانيا إلى صقلية، وحكم بها سنتين فقط من ١٢٥٢-١٢٥٤م[٧]، وقد ساعده فى ذلك أخوه غير الشقيق مانفريد Manfredi[٨] وعند وفاة كونراد الرابع آل حكم صقلية وألمانيا - الذى اقتصر على مقاطعة سوابيا Swabia - إلى ابنه كونراد الخامس، الذى عرف بكونرادين، وتوج كونرادين ملكا على الصقليتين[٩] The Tow Sicilies فى بالرمو عاصمة صقلية في سنة ١٢٥٤م، وعمره لا يتعدى العامين[١٠]، وعاش كونرادين فى كنف والدته إليزابث فى إقليم بافاريا Bavaria فى ألمانيا، ولكنها ما لبثت أن تزوجت من الكونت مينارد Mainard استغل عمه مانفريد تلك الفرصة وأعلن نفسه ملكا على الصقلتين فى عام ١٢٥٨م[١١].

وبعد أن أصبح مانفريد ملكا، وضع له بعض الأهداف الأولية، وفى مقدمتها فرض السيطرة على الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والعمل على توحيد إيطاليا والاستيلاء على القسطنطينية[١٢] كذلك بدأ مانفريد حكمه بإثارة المشاكل مع البابوية فامتد نفوذه إلى توسكانيا وانكونا التابعتين لها[١٣]، أما فى علاقته بجيرانه فقد ارتبط بجمهوريتى البندقية وجنوة بروابط طيبة كما قام بمصاهرة أميرأبيروس فتزوج ابنته هيلين Heleen، كذلك زوج ابنته كونستانس Constans من وريث عرش أرغونة كما أجبر حكام تونس المسلمين على دفع الإتاوة التى كانوا يدفعونها لوالده[١٤].

انزعجت البابوية من سيطرة مانفريد ومحاولاته الجادة فى التوسع لذا فقد عملت على التخلص منه، والقضاء عليه، ولكن كان لابد لها من البحث عن

شخصية تحل محله فى حكم الصقليتين، وقد بدأ البابا اسكندر الرابع Alexander IV (١٢٥٤-١٢٦١م) بتلك المهمة ولكنه توفى قبل أن يحقق ما يريد[١٥].

سار البابا أوربان الرابع Urban (١٢٦١-١٢٦٤م) على نفس سياسة سلفه فى العمل على أبعاد مانفريد، وتنصيب أحد أبناء العائلات المالكة فى أوروبا بدلا عنه فى حكم الصقليتين[١٦] وأخيرا رشح لويس التاسع Lewis IX أخوه شارل دانجو Charles of Anjou[١٧] لتولى ذلك المنصب فرحب البابا[١٨]، وقبل أن يبدأ بتنفيذ ذلك وصلته سفارة من مانفريد يعلن فيها عن استعداده التام للقدوم على البابا فى مقره[١٩] من أجل التفاوض معه ولكن البابا رفض قدومه قبل أن يدرس مانفريد الشروط البابوية التى أرسلت إليه.

وما أن وصلت تلك الشروط إلى مانفريد حتى قام باستعراضها وتفحصها وفى النهاية أعلن رفضه لها بالكلية[٢٠] وأرسل ذلك الرفض للبابا وعندئذ بدأ البابا فى استكمال التفاوض مع شارل دانجو، وقد اختلفت آراء المؤرخين فى تلك المفاوضات فبينما ذكر فى تاريخ الموره أن البابا أرسل رسالة لشارل دانجو يطلب منه أن يستعد لمحاربة "ذلك الطاغية الذى ملك الأراضى وممتلكات الكنيسة" وأن يخوض معه قتالا ويدمره فإذا وافق على ذلك فله أن يأخذ جميع أموال القديس بطرس وأن يضعها تحت تصرفه لاستئجار الجنود وأن كل من (يعتقدون بالمسيح) وكل من عمدوا سيحملون شارة الصليب ويمضون معه، وسيسلم صولجان الكنيسة له ولأولاده بالوراثة وسيقوم البابا بتحيته ووضع التاج على رأسه ليكون ملكا على الصقليتين[٢٠].

أما المؤرخ جوردان فقد ذكر أن البابوية وضعت لشارل دانجو شروطا قاسية فى سنة ١٢٦٣م لتوليه ذلك المنصب إلا أنه وافق عليها[٢٢] وزيادة على ذلك وعد بشن حرب ضد مانفريد كما وعد بأن لا يسمح لكونراديين أو أى شخص آخر بالمطالبة بعرش الصقليتين وعند ذلك أسبغت عليه البابوية رضاها وحمايتها فقد وجدت فيه الشخصية القوية التى لها من الإمكانات المادية والعسكرية ما يمكنها من القضاء على مانفريد كما أن لويس التاسع ملك فرنسا وأخو شارل دانجو يستطيع أن يقدم كل مساعدة لأخيه إذا دعت الحاجة خاصة إذا أدرك لويس أن مانفريد يمثل

خطرا على البابوية وذلك "لورعه وتقواه"[٢٣] ولكن شارل دانجو ما أن نال موافقة البابوية على ذلك المنصب حتى قام ينقض جميع الشروط التى اتفق مع البابا عليها – وأهمها أن لا يسمح لنفسه بتقلد أى منصب فى إيطاليا سواء فى الولايات التابعة للملكية أو تلك التى تكون تابعة للبابوية[٢٤]. وأبلغ البابا بقدومه إلى روما وعلى الرغم من غضب البابا فقد أظهر أنه قد سر لذلك وخرج بنفسه مع الكرادلة ونبلاء روما لاستقباله وقدم له تشريفا عظيما فى هذا الاستقبال[٢٥]، ولم يكن ذلك حبا فى شارل دانجو وإنما لأنه الوسيلة التى سيقضى على مانفريد بها، وعند وصول شارل إلى روما سكن فى قصر السناتور فى الكابيتول Capitol ثم أرسل إلى زوجته الكونتيسة بياتريس Beatriz فى فرنسا وطلب منها اللحاق به فى روما لكى يتوجهما البابا كليمنت الرابع Clement IV ملكا وملكة على عرش الصقليتين[٢٦] إضافة إلى منصب سناتور روما، وعندئذ أرسل البابا خمسة كرادلة وأربعة مطارنة واثنى عشر أسقفا إلى شارل دانجو ليصطحبوه إليه وبعد تبادل الأحاديث الودية شكر البابا شارل على إجهاد نفسه من أجل رضى الكنيسة ثم أقام البابا قداسا احتفاليا فى كنيسة القديس بطرس توج بعده شارل دانجو ملكا على الصقليتين ووضع على رأسه تاجا من الذهب وحياه كل الحضور صغارا وكبارا[٢٧] وكان ذلك فى ٢٣ مايو ١٢٦٥م، وهنا لابد من الإشارة إلى أنه بعد تتويج شارل ملكا أصبح هناك أكثر من ملك على الصقليتين فهذا شارل دانجو قد نال ذلك المنصب برضاء البابوية ومباركتها، وهذا مانفريد الذى آل إليه عرش المملكة بوضع اليد بعد أن أزاح ابن أخيه كونرادين واستولى على الحكم بدلا منه، أما الثالث فكان كونرادين الذى آل إليه العرش بالميراث، ونظرا لأن كونرادين كان صغيرا فقد انحصر الصراع بين مانفريد وشارل دانجو وكان لابد من معركة عسكرية يقضى فيها أحدهما على الأخر وينفرد بالعرش.

وعليه فما أن توج شارل على الصقليتين وأصبح سناتور لروما حتى قرر عدم إضاعة الوقت وأخبر البابا كلمنت الرابع أنه لم يأت إلى روما من أجل الجلوس فيها "إنى لم آت إلى هنا لأجلس كأمرأة" وطلب منه أن يرسل إلى كل من يؤمن" بالمسيح" لمساعدته فى حرب مانفريد[٢٨].

تجمع لشارل عدد كبير من المقاتلين فقسمهم إلى سرايا وأمرهم بالخروج، وتسلح بما هو مناسب له كملك "ومضى إلى البابا وسأله مباركته وهو راكع على ركبتيه وباركه البابا، وصلب فوقه، ووضع طبعة الصليب على الجانب الأيسر من صدره، وبارك جيوشه، وصلى من أجلهم وقال: "كل من يموت بالسيف في هذه الحملة سينال عفو المسيح والبابا عن كل الخطايا التى ارتكبها أيا كانت فى حياته، تماما كما لو كان فى أرض الشام، لانتزاع قبر المسيح من أيدى غير المسيحيين"[٢٩]. وبعد ذلك غادر شارل دانجو روما فى ٢٠ يناير ١٢٦٦م لقتال مانفريد. والتقى الطرفان عند مدينة بنفنتو حيث الأرض غير مستقرة بمنحدراتها ووهادها[٣٠] وقد وصل مانفريد إليها أولا فوزع قواته حولها وكان فى موقف أفضل من شارل دانجو ولكن مانفريد تسرع فى التحرك نحو العدو وكان لذلك التسرع أسبابه[٣١].

وفى ٢٦ فبراير ١٢٦٦م اشتبك الطرفان فى معركة ضارية، انتهت بهزيمة مانفريد هزيمة منكرة وانتهى الأمر بقتله على يد شارل" فأبقى ممالكه فى راحة وسلام"[٣٢] وما أن انتهت المعركة حتى قام جند شارل بنهب مدينة بنفنتو التابعة للبابوية كما أن المدن الإيطالية بدأت فى إعلان خضوعها لشارل الواحدة تلو الأخرى[٣٣] خوفا من أن تصل قواته إليها ثم عبرت قوات شارل إلى صقلية ففتحت له أبواب الصقليين على مصراعيها[٣٤].

قام شارل بالقسوة على الإيطاليين الذين خضعوا له الأمر الذى أغضب البابوية وخاصة البابا كليمنت الرابع والذى تمنى أن يحكم الصقليين بعد مانفريد ملكا مواليا وتابعا للبابوية لا ملكا علاقته بها بين مد وجزر[٣٥] لذا فقد أجبر البابا كليمنت الرابع شارل دانجو على التنازل عن منصب سناتور روما بموجب المعاهدة التى أبرمت بين البابوية وبين شارل عام ١٢٦٣م[٣٦].

استجاب شارل لذلك مرغما، وتم تعيين سناتور آخر لروما هو الدوق هنرى القشتالى Dok Henry of Castil[٣٧] الذى كان من المؤيدين لشارل والبابوية، ولكن ما أن تولى هنرى القشتالى ذلك المنصب حتى قلب لشارل والبابوية ظهر المجن وأظهر كراهيته الشديدة لهما وأيد أعدائهما الجبليين المؤيدين اليوهنشتاوفن[٣٨].

ظهر خطر عظيم أقض مضجع البابوية، وهدد إيطاليا شمالا وجنوبا، بل هدد شارل وصقلية، وتمثل هذا الخطر في كونرادين الوريث الشرعي للأباطرة الألمان. وعلى الرغم من غضب البابوية على شارل بسبب نهب بنفنتو والقسوة على أهالي المدن الإيطالية التي سلمت له إلا أن ظهور كونرادين أجبرها على التمسك بشارل وتمنت لو أنها لم تسحب منه منصب سناتور روما وفضلت أن يعود لحكم جنوب إيطاليا خاصة بعد أن أعلن هنري القشتالي أنه سوف يحارب في صف كونرادين وقت نشوب الحرب(٣٩).

كان كونرادين في ذلك الوقت في الخامسة عشر من عمره جميلا شجاعا ذكيا نضج نضوجا مبكرا، وكان يعلم جيدا مكانته ومكانة أسرته(٤٠) فازدادت حدة طموحاته إلا أن والدته لم تشجع تلك الطموحات العالية خوفا على حياته وخوفا من الدخول في مغامرات غير مضمونة النتائج خاصة أنه صغير السن(٤١).

أما ابن عمه والمتقارب معه في السن وصديق عمره فردريك أف بادن والوريث الشرعي لدوقية النمسا - التي آلت إليه عن طريق والدته كان هو المشجع الوحيد له لاسترجاع ملك آبائه وأجداده(٤٢).

وإذا تفحصنا النظرة العامة لكونرادين في ذلك الوقت نجد أن البابوية كانت تكن له ولأسرته بغضا شديدا، وترى أنه لا أحقية له في حكم صقلية، أما لويس التاسع ملك فرنسا فقد أكد أن كونرادين له حقوق في الصقليتين لا يمكن تجاهلها(٤٣). ولعله في تلك الفترة كان غاضبا على أخيه شارل دانجو وإلا لماذا يصرح بهذا الرأي وهو الذي قد أشار على البابوية بتعيينه أو ربما لأن كونرادين كان في ذلك الوقت صغيرا أما بعد أن أصبح على مشارف الشباب فلا يمكن التغاضي عن حقوقه، أما أنصار الهوهنشتاوفن في إيطاليا فقد اتجهوا نحو كونرادين بعد معركة بنفنتو ومقتل مانفريد. هذا بالإضافة إلى العديد من رجال عائلة لانسيا الذين فروا إلى كونورادين في بافاريا وقاموا بتحريضه على الانتقام لمقتل عمه مانفريد(٤٤) والمطالبة بحقه في عرش الصقليتين "طولب بإلحاح من أقاربه ليخرج في حملة لقتال اللص شارل"(٤٥).

وما إن سمع البابا كليمنت الرابع بفرار المناصرين لكونرادين إلى بافاريا وعندما تأكد أن كونرادين سيقوم بغزو إيطاليا عندئذ أصدر في ١٨ سبتمبر ١٢٦٦م

قرار حرمان ضد كل شخص اختار كونرادين لعرش صقلية أو سوف يصاحبه فـــي جيشه كذلك فقد أصدر البابا مرسوما بإباحة الاستيلاء على ممتلكات كل مـــن يؤيـــد سيادة كونرادين على صقلية أو يستقبل ممثلين عنهم هذا إلى جانب قرار الحرمـــان الذى سيصدر ضدهم[٤٦].

قام أنصار كونرادين فى بافاريا برسم الخطط الحربية له كمـــا رســـموا لـــه ولمعاونيه خطة سيرهم أثناء الغزو وهى أن يسير كونراديـــن إلـــى توسـكانيا أمـــا كونراد كابيس Conrad Capece أحد قادته فيقوم بالهجوم على صقلية يساعده فـــى ذلك أمير تونس الحفصى[٤٧].

غادر كونراد كابيس تونس مع أنصاره بعد أن أمدهم أميرها بالمؤن والذخـــائر واتجهوا إلى صقلية وهناك قاموا بإشعال الثورة بها ثم سيطروا عليها سيطرة فعليـــة وأصبحت فى أيديهم ما عدا مدينتين احتفظ بهما نائب شارل علـــى صقليـــة وهمـــا بالرمو ومسينا Meesena، أما مدينة لويسرا Lusera فقد أشعل المســـلمون نـــار الثورة بها[٤٨]، هذا إلى جانب مدينة كالابريا، أما شارل دانجو فقد اســـتطاع إســـقاط حصن Poggibonsi فى سنة ١٢٦٧م، كما استولى على فولتيرا Volterra وبـــيزا Piza التى خرب ميناءها وكل ما يحيط بها[٤٩].

وفى سنة ١٢٦٨م اتجه شارل دانجو إلى فيتربو لزيارة البابا فى مقره، ومـــا إن وصل إلى هناك حتى استقبله البابا استقبالا حافلا وأسبغ عليه رضـــاه وأصـــدر مرسوما بتعيينه نائبا إمبراطوريا على لمبارديا وقال له "إنى أعطيك السلطة لتـــأخذ من خزانة القديس بطرس حوارى كنيسة روما بقدر ما يمكنـــك أن تجـــد واحمـــى ممتلكاتك وأرض الكنيسة"[٥٠].

شكر الملك شارل البابا وانحنى بشدة أمامه وذلك بعد مباركة البابا له "وهـــنا فى اعتقادهم" وعند ذلك أمر البابا أن تحرر الرسائل إلى كل الممـــالك وأن يرســـل الكرادلة والأساقفة مع بركاته وأن يطلب من الجميع تقديـــم المعونـــة وأن ترســـل الجيوش والقوات فى معية شارل الذى كان يحمل لواء وصولجان الكنيسة لمســـاعدته ولحماية أراضى وممتلكات كنيسة روما "ولهم المباركة والعفـــو عـــن أى خطايـــا ارتكبوها من يوم ميلادهم كما لو أنهم ذهبوا حقا إلى قبر المســـيح لقتـــال الأعـــداء

عروق البرابرة" وقد وجد استجابة لمطالبه فقد أرسلت له العديد من الممالك جيوشا انضوى تحت لوائها فرسانا ومشاة(٥١).

أما شارل دانجو فقد أرسل رسالة إلى حاكم إمارة المورة يطلب منه مساعدته بقوات من أرضه ولكن ذلك الحاكم اضطرب وخاف عندما قرأ الرسالة لأنه سمع أن كونرادين قد جهز جيشا فاق الحصر وربما يكون النصر حليفة فيقضي على فرسانه ويفنيهم ولكنه لم يجد بدأ من الاستجابة لطلب شارل فأخذ أفضل وأحسن رجاله واشتروا ما ينقصهم من الخيول واتجهوا للانضمام لجيش شارل(٥٢)، أما شارل فقد توجه بادئ ذي بدئ إلى مملكته وفي طريقة حاول إخضاع المسلمين في لوسيرا ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح(٥٣).

جهز شارل ست شواني وسفن شحن وسفن تجارية وأرسلها إلى بروفانس لتنقل القوات مع خيولها والمؤن والطعام للجيش المستعد للقتال، هذا إلى جانب ارساله لأخيه لويس التاسع على وجه السرعة رسالة يطلب فيها مساعدته وطلب جنود من ذوي الخبرة ليشاركوه في المعركة الحاسمة(٥٤)، أما كونرادين فقد جمع قوات كثيرة من المشاه والفرسان وخرج من بافاريا في سنة ١٢٦٧م مصطحبا معه حوالي أربعة آلاف جندي ألماني راغبين ومتلهفين للموت معه(٥٥). كذلك احتوى جيشه على قليل من الجند المرتزقة وكثير من الإيطاليين المؤيدين له ولأسرته كما كان بجيشه الكثير من الصقليين(٥٦).

وفي أكتوبر سنة ١٢٦٧م وصل كونرادين إلى فيرونا Veirona أحد المراكز الهامة لتجمع المؤيدين له، وقد بقى بها كونرادين مدة ثلاثة أشهر ولا يعلم السبب الذي من أجله ظل كونرادين ذلك الوقت الطويل في فيرونا، ولعل أحد تلك الأسباب هو رغبته في إعطاء أنصاره فرصة للانضمام إليه أو أنه كان يأمل أن يترك شارل توسكانيا ويتجه جنوبا وذلك بسبب ثورة مسلمي لوسيرا وصقلية وعند ذلك يستطيع كونرادين أن يستولي على مدن إيطاليا الواحدة تلو الأخرى، ولكن شارل ظل مقيما في توسكانيا لإحباط مخططات كونرادين(٥٧).

دفع كونرادين ثمنا باهظا لبقاء قواته وقتا طويلا في فيرونا فأهلها تضجروا من ذلك الجيش الذي ليس لديه من المؤن والأغذية ما يكفيه كما أن قادة الجيش

شعروا بالملل من بقائهم فترة طويلة دون عمل ولم يدخلوا في المعركة الحاسمة التي جاؤا من أجلها أما لوردات ألمانيا ودوق بافاريا فقد عادوا إلى مواطنهم ورفضوا أن يصحبوا كونرادين إلى أبعد من فيرونا ولم يقتصر الأمر على أولئك بل أن أنصار كونرادين أنفسهم بدأ صبرهم ينفذ، ولذا فقد أسرع كونرادين بالتحرك من فيرونا في ١٧ يناير ١٢٦٨م حتى وصل إلى سافونا Savona ومنها أبحر في مركب صغير إلى بيزا Bizza فوصلها في ٧ أبريل ١٢٦٨م وفيها تم استقباله استقبالا يليق بمكانته الملكية[٥٨] وقد التقى في هذه المدينة هو وجيشه بابن عمه فريدريك أوف بادن وقدمت له مدينة بيزا الكثير من الجنود والأموال والعدة والعتاد[٥٩].

أما شارل دانجو فقد غادر توسكانيا واتجه إلى لوسيرا لإخماد ثورة المسلمين بها، وقد انتهز كونرادين الفرصة فقام بهجوم على لوقا Lucca فقاومته ثم سار إلى حصن Poggibonsi وهو الحصن الذى استولى عليه شارل قبل ذلك فقام أصحاب الحصن والذين يكنون الكراهية لشارل دانجو بتقديم الحصن لكونرادين[٦٠].

سار كونرادين بعد ذلك يريد التوجه إلى روما حيث مقر البابا في فيتربو وما أن شاهده البابا بجيشه من أعلى القصر الخاص لسكناه حتى تمنى أن يسير كونرادين في طريق حتفه[٦١].

وفي روما استقبل كونرادين استقبالا رائعا من قبل أهلها الذين ارتدوا أجمل الملابس وزينوا مدينتهم بأجمل الزينات والأعلام واعتبروا دخول كونرادين إلى مدينتهم بأنه يوم مشهود بالنسبة لهم[٦٢].

أما هنرى القشتالى سناتور روما فقد خرج مع أهالى روما لاستقبال كونرادين وأعلن له إخلاصه وولائه، وأنه سيقف بجانبه في حربه ضد البابوية وشارل دانجو.

وبعد هذا الاستقبال من أهل روما وسناتورها غادر كونرادين روما بعد أن مكث بها ثلاثة أسابيع وقد انضم له من الفرسان حوالى ألفي فارس من المدربين تدريبا عاليا، وعليه فقد بلغ تعداد جيشه حوالى ستة آلاف مقاتل[٦٣].

وفي أغسطس سنة ١٢٦٨م وصل كونرادين إلى سكوركولا Scorcola في غربي نهر سالتو Salto وعسكر بها، وقد قسم كونرادين جيشه إلى ثلاثة أقسام، قسم أسند قيادته إلى هنرى القشتالى سناتور روما وقوامه الفرسان الأسبان وقوات

من أنصار كونرادين فى روما وكمبانا، والقسم الثانى كان يتكون من بعض الفرسان الألمان ذوى الأسلحة الثقيلة، أما القسم الثالث فقد صفت فيه فيالق الاحتياط تحت قيادة كونرادين وابن عمه فردريك أف بادن[٦٤]. أما شارل دانجو فقد تقدم وعسكر فى شرق نهر سالتو، وكان قوام جيشه حوالى خمسة آلاف مقاتل، وكان أغلبهم من الجند ذوى الخبرة الذين أرسلهم له أخوه الملك لويس التاسع والذى كان شارل يعرفهم ويثق بهم، وقد قسم شارل جيشه إلى ثلاثة أقسام أيضا.. القسم الأول من الإيطاليين المعارضين لكونرادين، وهؤلاء اصطفوا فى شرق نهر سالتو، والقسم الثانى تكون من الفرنسيين تحت قيادة المريشال هنرى أف كوسانز Henry of Counsances، أما الجيش الاحتياطى فكان تحت قيادة شارل دانجو وإيرار أف سانت فاليرى Erar of Saint – Valery وكانوا حوالى ألف مقاتل من أفضل الفرسان، وقد اختبأت هذه الفرقة وراء أحد التلال على بعد حوالى الميل[٦٥].

أرسل شارل جواسيسه وعيونه لإخباره بمدى قوة كونرادين، وما أن رأوها حتى أصيبوا بالدهشة فدعا أحدهم رفاقه وقال "تعالوا وألقوا نظرة إنى أرى جيوشا رهيبة عديدة وشجاعة وأقدر أنها ضعف ما لدى الملك"[٦٦].

عاد الجواسيس إلى المكان الذى يعسكر فيه الجيش وأخبروا شارل بما رأوا، ولكن إيرار أف سانت فاليرى قام بتقديم نصيحة قيمة لشارل مؤداها أن قوات الألمان حمقى وغير جديرين بالثقة، كما أنهم ليس لديهم حماس عال بل يدخلون المعركة كالمجانين، لذا لابد أن لا يقاتلوا بالطريقة التقليدية، فعند ذلك يخسر شارل وجنوده المعركة وأشار عليه باتباع المكر والحصافة كما يفعل الأتراك والروم، فإذا فعل ذلك فإن النصر سيكون حليفه، فرح شارل دانجو بذلك فرحا شديدا وقال له إذا كان المكر والخديعة سيساهمان فى هزيمة خصمى والاستيلاء على ممتلكاته فهيا ومرحبا وطالما أنك لديك خبرة حربية فهاك جيوشنا وجهها كيفما تشاء[٦٧]. وعند ذلك بدأ الرجل فى رسم خطة حربية تعتمد فى أساسها على المكر والحيلة ومن أهم بنودها عدم الالتقاء وجها لوجه مع الخصم كما يفعل الفرنجة وإنما القتال بالخدع الحربية وانتهاز فرصة أن الأرض التى ستقام عليها المعركة غير مستقرة وليست سهلا مستويا، ولذا تفصل بعض القوات من الجنود الدهاة ذوى الخبرة عن كل السرايا ويتم تزويدهم بخيول خفيفة وتقسم هذه القوات إلى ثلاثة أقسام ويوجهوا

لمهاجمة الألمان فيضربوا ويهربوا[٦٨] ويعطوا للألمان انطباع بأنهم سيستمرون في القتال وعند تصدى الألمان لهم يقومون بالتقهقر ويتظاهرون بالهرب فيتبعهم الألمان حتى يصلوا إلى معسكرنا فسيجدونه خاليا لأن الفرق التي تقهقرت لا تدخل المعسكر بل تنطلق إلى الجهة الأخرى، وأما بقية الفرق فستكمن فى كل مكان، وما إن يروا الألمان المعسكر خاليا وفيه الملابس والأشياء الفاخرة، فإنهم سيكفون عن تعقب قواتنا ويدخلون المعسكر للاستيلاء على ما فيه وعندئذ تخرج لهم القوات المختبئة من كل الجهات وتنقض عليهم وتشتت جمعهم وإذا تم ذلك فستكون قوات كونرادين فى خطر شديد[٦٩].

كان نهر سالتو هو الفاصل بين الجيشين وكان فوقه جسر يصل بين شاطئيه الغربى والشرقى وعليه فقد بدأ هنرى القشتالى بالتحرك نحو الجسر، أما قوات شارل فقد عبرت الجسر وبدأت المعركة التى عرفت فى التاريخ بمعركة تاجليا كوزو Tagliacozzo[٧٠] وحدث ما لم يكن متوقعا إذ أحرزت قوات كونرادين انتصارا عظيما على قوات شارل دانجو بل هوى جنوده الواحد تلو الآخر قتلى واعتقدت قوات كونرادين أن المريشال هنرى أف كونسانز هو شارل لأن شارل ألبسه عباءته وسلمه لوائه، لذا فقد انقضت عليه وتم الاستيلاء على اللواء منه وانتهى الأمر بذبحه وما أن شاهد فرسانه ذلك حتى لاذوا بالفرار فاقتفى هنرى القشتالى أثرهم[٧١].

أما كونرادين فقد تقدم بقوات الاحتياط لتنفيذ الضربة القاضية على قوات شارل إلا أنه لم يجد أحدا فى المعسكر لفرار أغلبهم، وهنا ساعد الحظ شارل دانجو وطبقت خطة ايرار تلقائيا لأن قوات كونرادين ما أن رأت المعسكر خاليا حتى انقضوا للاستيلاء على ما فيه من مؤن وعتاد وذخائر وخيام على أذرع فاخرة وصناديق كبيرة من المال وبدوا وكأنهم فقدوا عقلهم وما أن رأى شارل وايرار ذلك حتى أصدروا الأوامر للكمائن المختبئة خلف التلال بالانقضاض على جند كونرادين[٧٢] وعند ذلك هجموا عليهم هجمة ضارية وأحاطوا الألمان من كل جانب، وبعد صراع عنيف بين الطرفين ذبح الألمان "كما لو كانوا من الخنازير البرية"[٧٣] وتمكن كونرادين وابن عمه فريدريك أف بادن والحارس الخاص لكونرادين بالهرب إلى روما، أما من تبقى من فرسان كونرادين فقد كانوا مع هنرى

القشتالى يتعقبون فرقة من جيش شارل دانجو، وما أن سمع هنرى بما حدث حتى عاد مسرعا مع بقية الجيش ليواصل المعركة ضد شارل دانجو، وعلى الرغم من أن عدد جيشه كان أكبر من القوات المتبقية مع شارل إلا أن قواته كانت مجهدة من عناء قتال يوم طويل كانت فيه الحرارة مرتفعة، وما أن التقى هنرى القشتالى بقوات شارل حتى حلت الهزيمة به وبقواته وقبض عليه وألقى فى السجن(٧٤).

أما كونرادين وابن عمه فريدريك أف بادن فقد سارا إلى روما ومعهم خمسين فارسا فقط، وما إن وصلوا فى ٢٨ أغسطس ١٢٦٨م حتى رفض نائب هنرى القشتالى فيها دخولهم، وعلى الرغم أنه كان من المؤيدين لكونرادين وحزبه إلا أنه ما أن سمع بتفاصيل المعركة وهزيمة كونرادين حتى انقلب عليهم فاضطر كونرادين إلى المسير حتى وصل إلى ميناء صغير فى استيورا Astaura على أمل أن يجد مركبا ينقله مع رفاقه إلى مدينة جنوة لكن الحاكم المحلى للمنطقة قبض عليهم لأنهم غرباء نزلوا فى منطقته وعندما علم بشخصياتهم سجنهم فى قلعة من القلاع التى يملكها(٧٥)، وما أن علم شارل بذلك حتى أرسل فى طلبهم فنقلوا إلى الستريا وهناك تم العفو عن عدد من النبلاء الإيطاليين، أما كونرادين وفريدريك بادن وبعض أتباعهما فقد نقلوا إلى نابولى حيث أودعوا فى سجنها، أما شارل دانجو فقد قسم الغنائم التى غنموها من جيش كونرادين على جنوده واحتفظ لنفسه بخيمة كونرادين وما فيها من أسلحة فاخرة وثياب ومال "ولم يكن فى حاجة إلى ما هو أكثر"(٧٦).

وقد اختلف المؤرخون فى الطريقة التى تمت بها نهاية كونرادين فبينما أشار بعضهم إلى أن كونرادين كان أسير حرب لدى شارل دانجو والأنظمة العسكرية تحرم قتل الأسير، لذا لابد أن يكون هناك مبررا قانونيا لإعدامه لذا فقد اجتمع شارل بقضاة نابولى وأمرهم برصد الجرائم التى اتهم بها كونرادين، وبعد محاكمة غير عادلة قرر القضاه فى نابولى إعدام كونرادين وابن عمه فريدريك أف بادن(٧٧) أما الأول فكانت تهمته التمرد والخيانة، والثانى كانت جريمته أنه ظل مخلصا لكونرادين حتى النهاية(٧٨).

أما ما ورد فى تاريخ الموره فيختلف عن ذلك كليا فذكر أن كونرادين قطعت رأسه وأعدم من قبل بعض الرجال فى نابولى ممن كانوا خصوما له، وعندئذ حملوا

رأسه على طرف رمح وقدموها للملك شارل الذى غضب لذلك الفعل وأعلن أنه كان يفضل أن يفقد أحد مدنه على أن يقتل كونرادين "فهو قبل كل شئ نبيلا وجنديا" ولا يستحق أن تقطع رأسه"(٧٩)، ولعل شارل أمر بقتله ولكنه تظاهر بالغضب الشديد لمقتل كونرادين حتى يكسب الرأى العام وخاصة أهالى نابولى الذين حزنوا عليه أشد الحزن وظل فى ذاكرتهم سنين طويلة(٨٠). وهكذا دفع كونرادين حياته فى سبيل عرش الصقليتين، أما فريديريك أف بادن فكان فى سبيل إخلاصه الشديد لابن عمه.

وقد تناول المؤرخون ذلك الحدث بشئ من الأهمية بل بكثير من الحزن فاعتبروا كونرادين شابا بريئا قسى عليه من هو أقوى منه كما اعتبروا أن قتله جريمة تتنافى مع أقل درجات الإنسانية واعتبر شارل دانجو مذنبا طاغية(٨١).

وإذا تساءلنا عن موقف البابوية من ذلك نجد أن حياة شارل عندها أهم بكثير من حياة كونرادين التى كانت تكن له ولأسرته العداء وبالقضاء على كونرادين وابن عمه فريدريك تخلصت البابوية من خطر تدخل الألمان أعدائها الألداء فى ايطاليا(٨٢).

أما شارل فما هى الفائدة التى جناها من إعدام كونرادين وابن عمه فريدريك أف بادن الذى اعتقد أنه بقتلهما سيصبح من السهل عليه الحكم وهو مطمئن بعد القضاء على سلالة الألمان إلى الأبد وأصبح لا ينازعه فى حكم الصقليتين أحد ولكنه كان واهما فقد استمرت الثورات ضد حكمه لما قام به من مذابح ومصادرة أموال النبلاء وتوزيعها على الفرنسيين وفرض الضرائب على الأهالى الأمر الذى زاد من شعور الغضب والكراهية عليه(٨٣) وانتهى الأمر بانفجار ثورى رهيب حدث فى ٢٩ مارس ١٢٨٢م أطاح بحكمه(٨٤) وقضى على آماله وطموحاته العريضة فى الغزو والفتح وتكوين إمبراطورية مترامية الأطراف.

الحواشي

(1) Istoria della Morea, ed charles Hopf in his chroniques Greco-Romanes, Berlin, 1873.

ترجمها إلى العربية:

سهيل زكار: الموسوعة الشامية فى تـــاريخ الحـــروب الصليبيـــة، ج١٠، ط دمشق، ١٩٩٥، ١٤١٦ هـ، ص ٥٢٣٦-٥٣٧.

٢) إسمت غنيم: شارل دانجو وسياسته في الصقليتين، ١٩٩٢، ص ١٨.

(٣) ذكر في تاريخ المورة Istoria della Morea أن فردريك الثانى هـــو عـــم كونرادين والصحيح أنه جده لأبيه. أنظر الترجمة العربية.

سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣٠.

(٤) توفيت والدته فى عام ١١٩٨م، وكانت قد طلبت من البابا أنوسنت الثـالث، أن يكون وصياً على ابنها الصغير، وقد شارك البابا مستشـــارى مـــن الألمـــان والصقليين.

(Michelangelo Schipa: Italy and sicily under Frederick II in C.M.H. Vol. VI ed, Burty Cambridge, 1968, p. 131.

(٥) عاشور: تاريخ أوروبا فى العصـــور الوســطى، ط بــيروت، ١٩٧٢، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٦) محمد مبروك نافع: تاريخ العرب، ج٢، الطبعة الثانية، ١٩٤٩م، ص ١٥١.

(7) Hampe K.: Geschichte Konradins Von Hohenstaufen, Innsbruck, 1894, p. 21.

اسمت غنيم، شارل دانجو، ص ١٨.

(٨) ومانفريد أنجبه فريدريك الثانى من زوجته الإيطالية بيانكا لانسيا، التى تنتمـى إلى عائلة لانسيا الشهيرة ذات النفوذ، والإقطاعات الشاسعة، في إقليم كالابريـا في جنوب إيطاليا، وقد عرف عن مانفريد ما عرف عن والده فريدريك الثانى

من عدم الإيمان و إثارة المشاكل مع البابوية. لمزيد من التفاصيل انظر:
(إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ص ١٨، ١٩).

(٩) المقصود بالصقليتين جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، اللتين تم توحيدهما على يد روجر الثانى النورمانى (١١٣٠-١١٤٥م) وكان روجر يلبس ملابس المسلمين، وقد وصفه نقاده بأنه الملك نصف الوثنى.
(محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص ٧٨٨).

(10) Hampe K.: Op. Cit. P. 20-21.
اسمت غنيم، شارل دانجو، ص ١٨.

(11) Ibid. اسمت غنيم، شارل دانجو، ص ١٨.

(12) Gregoras: Historiae Byzantinae, ed Webri, Bonn, 1829. P. 72.
Buchon J.: Recherches Historiques sur la parincipaute Francaise de Moree, etces Hautes. Baronnies, Vol. 1, Paris, 1845, pp. 103-104.

(١٣) إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ١٩.

(14) Previte – Orton: Italy, 1250-1290 in C. M.H. ed Tanner, Vol. VI, p. 184-185.

(15) Powicke F: King Henry III and the Lord Edward, Vol. 1. Oxford, 1947, pp. 370-384.
رشح للبابا إدموند Edmund وهو ابن ملك انجلترا هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧٢م) وبعد العديد من الاتصالات ألغى البابا هذا الترشيح.
إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ٢٠).

(١٦) فاوض البابا ملك انجلترا ولكن باءت تلك المفاوضات بالفشل، أما أسبانيا فكان الملك جيمس الأول على أتم استعداد لتولى عرش الصقليتين ولكن البابا كان لديه تحفظا عليه نتيجة لتحالف الملك جيمس مع مانفريد بل وتربطهما

المصاهرة، أما ملك قشتالة فكان مغضوبا عليه من البابوية نتيجة لتحالفه مع الحزب الملكى المعارض للبابوية.

(إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ٢١).

(١٧) عرف لويس التاسع بالقديس لويس، وقد آل إليه عرش فرنسا فى ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦ بعد وفاة والده لويس الثامن ووالدته هى الملكة بلانش ابنة ألفونس التاسع ملك قشتالة.

(إسمت غنيم: تاريخ الحروب الصليبية، ١٩٩٦، ص ٢١١).

وشارل دانجو هو الإبن الأصغر للملك لويس الثامن وقد أوصى له والده قبل وفاته بكونتيتى أنجوومين Anjou, Main فتسلمها بعد أن بلغ سن الرشد.

(Leonard: Les Angevins de Naples Paris, 1954, pp. 47-49.

(18) Jordan: Les origines de la Domination Angevine, en Italy, Paris 1909, p. 374-378.

إسمت غنيم، شارل دانجو، ص ٢٢.

(١٩) كانت إقامة البابا فى فيتربو فى جنوب إقليم تسكانيا وهى مدينة رومانية قديمة وقد اتخذتها البابوية عاصمة لها بعد روما.

Signorelli G.: Viterbo nella storia della chiesa, 2 Vols, 1907, pp. 222-223).

(٢٠) من هذه الشروط الاعتراف بحق مانفريد فى حكم الصقليتين دون النظر لادعاءات كونرادين، وإن يدفع مانفريد مبلغا كبيرا من المال للبابوية، بالإضافة إلى أتاوة سنوية، وأن يسمح مانفريد لمعرضيه السياسيين بالعودة إلى صقلية وأن يعيد لهم جميع ممتلكاتهم وأراضيهم.

إسمت، شارل، ص ٢٢-٢٣.

(Jordun: Les Origines, pp. 389-450).

وللمزيد من التفاصيل عن أسباب رفض مانفريد - أنظر نفس المرجع، وحتى صفة ٤٩٠).

(٢١) تاريخ الموره Istoria della Morea.

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥١٢.

(٢٢) من تلك الشروط أن لا يسمح شارل لنفسه بتقلد أى منصب فى إيطاليا سـواء فى الولايات التابعة للملكية أو التابعة للبابوية وأن يدفع إتـاوة للبابـا قدرهـا عشرة آلاف أونصة من الذهب وللمزيد من التفاصيل عـن تلـك الشـروط، أنظر:

Jordan: Le origine de la Domination Angevine en Italy, pp. 392-401.

ومن الأسباب التى دفعت شارل للقبول هو غيرة زوجته من شقيقاتها اللاتـى تزوجن ملوك وأرادت هى أن تصبح ملكة مثـل شـقيقاتها، وللمزيـد مـن التفاصيل.. أنظر:

تاريخ المورة Istoria della Morea ترجمة سهيل زكار: المرجع السـابق، ج١٠، ص ٥١٣.

(٢٣) إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ٢٨.

(24) Jordan: Les origine de le Domination Angevine en Italy, pp. 398-402.

(٢٥) تاريخ الموره Istoria della Morea.

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥١٦.

(26) Previte – Orton: Italy, 1250-1290, in C.M.H. Vol. I, pp. 166-167.

(٢٧) تاريخ الموره Istoria della Morea.

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥١٦.

(28) Ibid.

إسمت غنيم، شارل دانجو، ص ٣١.

(29) Ibid: p. 517.

إن هذا النص يوضح لنا مدى الكره العميق الذى تكنـــه البابويـــة للأبـــاطرة الألمان كما يوضح اعتقاد المسيحيين فى صلب وقتل المسيح ولكننا نقول ومـــا قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

(٣٠) تاريخ الموره Istoria della Morea.

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥١٨.

وبنتفينو هى مدينة فى إقليم كمبانيا جنوب إيطاليا وارتبطت بنفينتـــو بمدينـــة نابولى بصلات اقتصادية وثيقة، وللمزيد عن هذه المدينة، أنظر:

Hirsch: Le ducato di Benevento, 1968, pp. 1-30.

إسمت، ص ٣٢، هامش ١.

(٣١) من الأسباب التى دفعت مانفريد للتسرع فى التحرك هو عدم ثقتـــه فـــى ولاء رعاياه ورغبة كثير من رجاله بالاستسلام للعدو. وللمزيد من التفاصيل عـــن ذلك.. أنظر:

Oman: A History of the Art of war in the middle Ages, Vol. I. pp. 498-499.

إسمت، ص ٣٣، هامش ١.

(٣٢) تاريخ الموره Istoria della Morea.

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥١٨.

(33) Del Giudice: La Familia del Remmanfredi, Naples, 1863, pp. 71.

إسمت، ص ٣٩، هامش ١.

(34) Jordan: L' Allemagne et l'Italie aux XIIe Siecles, dans Glotz: Histoire Generale, Histoire du moyen Ages, Vol. IV. Paris, 1909, pp. 366-368.

(35) Boehmer J.: Regesta Imperii, ed., Ficker and Wink elmann innsbruch, 1881-1901, Vol. V, pp. 1484-1489.

(٣٦) أنظر ما سبق.

(٣٧) هنرى القشتلى هو الأخ الأصغر للملــك الفونســو ملــك قشــتالة (١٢٥٢-١٢٨٤م) وكان مغارما ثريا ينتمى إلى الطبقة الاستقراطية.
إسمت، ص ٢٤٣، هامش ٢.

(Previte-orton Italy, p. 187).

(٣٨) الهوهنشتاوفن أسرة ألمانية حكمت الإمبراطورية الرومانيـــة المقدســة فـــى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ويعتبر حكمها أعظم الفترات فى تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى واتخذت الإسم نسبة إلـــى أحــد قلاعــهم المسماه شتاوفن Staufen فى إقليم سوابيا.

Buchler J Die Hohenstaufen, 1925.

إسمت غنيم، شارل دانجو، ص ٣٣.

(39) Previte – orton: Italy, pp. 187-189.

(40) Hampe K.: Op. cit. 21-23.

(41) Ibid.

إسمت، ص ٤٤.

(42) Ibid: pp. 175-176.

إسمت، ص ٤٤.

(43) Ibid: p. 24.

إسمت، ص ٤٠. بالهامش.

(٤٤) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣٠.

(45) Ibid.

(46) Hampe K.: Op. Cit. P. 98-101.

إسمت، ص ٤٦، هامش ١.

(47) Previte – orton: Italy, p. 187.

(٤٨) مسلمي لوسيرا في جنوب إيطاليا كان لهم دور هام في الثورات التي قامت ضد حكم شارل دانجو، وهذه المدينة من المدن الرومانية، لكنها دمرت في عهد اللمبارديين في عام ٦٦٣م وأعاد بناءها الإمبراطور فريدريك الثاني في ١٢٣٣م وشجع المسلمين على الإقامة بها.

(إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ٧).

(49) Jordan: Les Origine, p. 386-391.

(إسمت غنيم: شارل دانجو، ص ٤٦، هامش ١).

(٥٠) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣١.

(51) Ibid.

(52) Ibid.

(53) Hampe K.: Op. Cit., p. 330.

(٥٤) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣١.

(55) Ibid.

(56) Hampe K.: Op. Cit. Pp. 346-350.

(57) Malaspina, Saba: Historia Sicula, in Muratori. Riss. Vol. VIII, pp. 834-837.

(58) Hampe. K.: Op. Cit. Pp. 345-360.

(59) Ibid.

(60) Ibid.

(61) Ibid. pp. 360-370.

(62) Malaspina: Op. Cit., pp. 842-844.

(63) Hampe K.: Op. Cit. Pp. 388-395.

إسمت غنيم، شارل دانجو، ص ٥١.

(64) Villani: (G.): Cronica, 8, Vol. Florence, 1823, Vol. II, pp. 181-189.

(65) Malaspina: Op. Cit. Vol. III. Pp. 845-848.

إسمت غنيم، شارل دانجو ، ص ٥٢.

Miller: The latin in the levant, pp. 128-129.

Oman: A History of the Art of war in the middle Ages, London, 1924, Vol. I, pp. 505-515.

(٦٦) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣٣.

(67) Ibid.

وإيرار سانت فاليرى جندى مخضرم عاد لتوه من حملة صليبية في الشـــرق وكـــان يشغل منصب الحاجب الملكى فى فرنسا.

(68) Ibid.

(69) Ibid.

(70) Jordan: Le Origine, pp. 386-401.

(71) Miller: Op. Cit. Pp. 128-129.

(٧٢) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣٦.

(73) Ibid.

(٧٤) ظل هنرى القشتالى فى الأسر سنوات طويلة ثم أفرج عنه فى ســـنة ١٢٩٣م فى عهد شارل الثانى أف أنجو فعاد إلى وطنه فى أسبانيا.

إسمت، ص ٥٤، هامش ٢.

Wolff.: Mortgage and Redemption of an Emperor, Son: Castile and the Latin Empire of Constantinaple, instudies in

the Latin Empire of constantinaple, London, 1976, Ch. V. p. 78.

(75) Malaspina: Op. Cit. Vol. III, p. 848-850.

النائب المحلى للمنطقة هو حنا فرانجيبان John Frangipan.

(٧٦) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣٧.

(77) Hampe K.: Op. Cit, pp. 305-315.

(78) Ibid.

(٧٩) تاريخ المورة Istoria della Morea

ترجمة سهيل زكار: المرجع السابق، ج١٠، ص ٥٣٧.

(80) Hampe K.: Op. Cit., pp. 315.

(81) Leonard: Les Angevins de Naples, Paris, 1954, p. 380.

(82) Malaspina: Op. Cit., pp. 850-852.

(83) Previte – Otron: Italy, p. 189.

(84) Bartholomew of Neocastro: Historia Sicula, ed Paladino, in Muratori, Riss Vol. XIII, Part 3, 1921, p. 11-13.

المصادر والمراجع

- إسمت غنيم: شارل دانجو وسياسته في الصقليتين، ١٩٩٢.
- سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحرب الصليبية، ج١٠، ط دمشق، ١٩٩٠م/ ١٤١٤هـ.
- عاشور: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ط بيروت، ١٩٧٢م.
- محمد مبروك نافع: تاريخ العرب، ج٢، الطبعة الثانية، ١٩٤٩.

- Bartholomew of Neocastro: Historia Sicula, ed. Paladino, in Muratori, RISS, Vol. XIII, Part 3, 1921.
- Buchon (y): Recherches historiques sur la princiaute francaise de Morea, et ces hautes baronnies, I, Paris, 1845. New York, 1976.
- Hampe K.: Geschichte Konradins Von Hohenstaufen, Innsbruck, 1894.
- Jordan E.: L'Allemagne et L' Italie aux XIIe Siecles, dans Glotz: Histoire Generale, Histoire du Moyen Ages, Vol. IV, Paris, 1909.
- Jordan E.: Les Origines de la Domination Angevine en Italy, Paris, 1909.
- Malaspina, Saba: Historia Sicula, in Muratori, Riss, Vol. VIII.
- Miller (W): The Latins in The Levant, A History of Frankish Greece (1204-1566) London, 1908.
- Oman: A History of the Art of War in the Middle Ages, 2 Vols, London, 1924.

- Powicke (F): King Henry III and Lord Edward, Oxford, 1957.
- Previte – Orton: Italy 1250-1290, in C. Med. H. Vol. IV, ed Hssey, Cambridge, 1975.
- Sanudo (M.): Istoria del Regno di Romani, in Hapf Chroniques Greco – Romanes, Berlin, 1873.
- Villani (G): Cronica, 8 Vols, Florence, 1823.

صرغتمش الناصري الأمير الحاكم

دراسة في السيرة الذاتية ٧٣٧-٧٥٩هـ/١٣٣٦-١٣٥٧م

د. محاسن الوقاد

كلية الآداب - جامعة عين شمس

يتناول هذا البحث دور واحد من الأمراء المماليك الذين عاشوا في عصر السلطان الناصر حسن ٧٤٨-٧٦٢هـ/١٣٤٧-١٣٦٠م، والذي لم يكن كغيره من الأمراء المماليك الذين ارتضوا العيش في كنف سادتهم. وتشير المصادر التاريخية المملوكية والشواهد الأثرية إلى أن صرغتمش منذ اشتراه سيده السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م بسعر فاق كل أسعار المماليك في ذلك الوقت قد أظهر ما يبشر بأنه سيصير له شأن في سلطنة المماليك. وتمضي الأحداث بذلك المملوك الذي عرف باسم صرغتمش الناصري، ليصبح من زمرة الأمراء، وهو الأمر الذي أهله ليصبح مدبر شئون السلطنة في فترة من الفترات بصورة مطلقة. وقد بلغ صرغتمش مكانة رفيعة بين رجال الدولة المملوكية جعلته يلقي القبض على السلطان حسن ويعزله من كرسي السلطنة. ويعين مكانه أخاه السلطان صالح بن الناصر محمد بن قلاوون، وبهذا أنهى فترة حكم السلطان حسن الأولى.

وبلغ الأمير صرغتمش درجة من النفوذ فاقت نفوذ كثيرا من الأمراء الاخرين، حيث أعاد السلطان حسن مرة ثانية إلى دست السلطنة المملوكية، كما قام بحل أوقاف بعض الأمراء ومصادرتها، وعزل القضاة من البلاد والنيابات التابعة، وأشرف على البريد[١].

ونظرا لأهمية البريد في تدبير أمر البلاد، يظهر أهمية الدور الذي لعبه صرغتمش في معرفة دقائق الأمور في البلاد والتحكم في مصائر السلاطين. ومن الأمور التي تشير إلى ازدياد نفوذ الأمير صرغتمش[٢] في البلاد، حيث أصبح

الشخصية الأولى في عهد السلطان حسن، أنه أقدم على سك عملة عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م، وهو الأمر الذي يعتبره المؤرخون والفقهاء من شارات الملك[٣].

وهكذا تشير الدلائل التاريخية إلى أهمية الدور الذي لعبه الأمير صرغتمش، محل الدراسة، في سلطنة المماليك لاسيما على عهد السلطان الناصر حسن، وهو الأمر الذي حدا بالبحث إلى تخصيص هذه الدراسة التاريخية لسيرته الذاتية، وبيان ما نجم عن ظهوره في سماء السلطنة وبلوغه هذه الدرجة الرفيعة التي سيتعرض لها الباحث بالتفصيل في هذه الدراسة.

يذكر المؤرخون أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اشترى في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م أحد المماليك ويدعى " صرغتمش بن عبدالله " من أحد تجار المماليك ويدعى ابن الصواف، بثمانين ألف درهم، وخلع على الخواجا[٤] تشريفا كاملا بحياصة[٥] ذهب، وكتب له توقيعا بمسامحة[٦] كبيرة في متاجرة، زادت عن مائة ألف درهم، حتى قيل " لم يسمع بمثل ذلك في ثمن مملوك[٧] بذلك الزمان أجمل صوره ولا أحسن شكلا منه "[٨].

ويعتبر السعر الذي دفع من أجل شراء صرغتمش، أعلى سعر دفع لمملوك حسبما ورد في المصادر المملوكية المعاصرة حيث تمدنا هذه المصادر بمعلومات وفيرة عن أسعار المماليك وبصفة خاصة أولئك الذين استطاعوا أن يحتلوا المراكز المرموقة في الدولة المملوكية، بل نجد في بعض الأحيان إشارات إلى الأسعار التي دفعت لشراء المماليك الذين نجحوا في الوصول إلى مرتبة السلطنة، وهذه الأسعار تنقسم إلى فئات ثلاث هي :

١- الأسعار المرتفعة.
٢- الأسعار المتوسطة التي تعتبر بمثابة العمد الأساسية لدراسة أسعار المماليك.
٣- الأسعار الزهيدة التي دفعت لاقتناء بعض المماليك[٩].

وفيما يتعلق بالأسعار المرتفعة، تتحدث أغلب مصادر هذا العصر عن لقب الألفي الذي أطلق على السلطان المنصور قلاوون نسبة إلى قيمته التي اشترى بها،

إذا اشتراه أستاذه الأمير علاء الدين اقسنقر بألف دينار وغالى في قيمته لحسنه وصورته[١٠].

ويروى السخاوي في كتابه الضوء اللامع أن السلطان المؤيد شيخ قد اشترى يشبك المشد وقت أن كان نائبا لطرابلس بألف دينار[١١]. ويذكر المؤرخ الذهبي أن الأمير فارس الدين أقطاي بيع أيضا بألف دينار، وإن لم يخلع عليه لقب الألفي[١٢].

وهناك بعض الأمثلة للأسعار الزهيدة التي دفعت أيضا في شراء بعض المماليك من أمثلة السلطان بيبرس الذي بيع في دمشق بثمانمائة درهم أي ما يعادل أربعين دينارًا. وذلك لبياض في إحدى عينيه[١٣]. وهذا يشير إلى أن بعض العيوب الخلقية كانت تلعب دورا في تحديد سعر المملوك آنذاك. كما تشير المصادر إلى مملوك آخر بيع بسعر يتراوح بين ٧٥٠ ، ١٠٠٠ درهم وهي تساوي في هذا العصر ما بين سبعة وثلاثين وأربعين دينارًا[١٤].

كما تشير المصادر أيضًا أن يشبك بن عبدالله الذي اشتراه السلطان خطر بمائة دينار، كما يمدنا المصدر نفسه بإشارة إلى أن السلطان خطر قد بيع باثنى عشر ألف درهم، وهي توازي في تلك الفترة ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين دينارًا[١٥].

ويبدو أن التفاوت في أسعار المماليك مرجعه إلى عدة عوامل منها جمال المملوك وحسنه وشجاعته وقوته البدنية وشكله العام، بالإضافة إلى العيوب الخلقية التي كانت تلعب دورًا هامًا في تحديد سعر المملوك إبان تلك الفترة.

وقد يتساءل الباحث هل دخل صرغتمش الطباق[١٦] أم تمت تربيته في موضع آخر كالحريم السلطاني مثلا ؟

ذلك أن سلاطين المماليك قد درجوا على إنزال المماليك السلطانية[١٧] عند شرائهم بالطباق لتعليمهم القرآن وأحكام الدين وآداب الشريعة وفنون الحرب من الرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية، كما يشهد بذلك الرحالة برنارد دي بريدنباخ، أحد الرحالة الأجانب الذي زار مصر في عصر سلاطين المماليك[١٨].

وإلى جانب ذلك عمد بعض السلاطين إلى تبني فئة صغيرة من المماليك الأحداث[١٩] لسبب أو لآخر، وفي هذه الحالة كان يأمر بانزالهم في الدور السلطانية بدلا من الطباق وذلك لكي ينالوا حظهم من التربية والتعليم مع أبناء السلطان في الحريم السلطاني، وهم في هذا كانوا أسعد حظا من مماليك الطباق، إذ كانت فرص الترقي تبدو في أغلب الظن مهيأة لهم بنسبة أكثر بكثير من مماليك الطباق[٢٠].

لكن الأمر اختلف مع صرغتمش، فقد تمت تربيته في الطباق كالسواد الأعظم من المماليك، وعلى الرغم من ذلك فقد تدرج في سلك الوظائف، حتى وصل إلى أعلى المناصب بالرغم من أنه لم يكن له خشداشية في أول أمره ولم يتربى في الدور السلطانية، وهذا بدوره يجعل[٢١] الباحث يتساءل هل نال صرغتمش حظه من الأشياء التي تساعد المملوك عادة في التدرج في الوظائف ؟

وظائف صرغتمش :

فقد عُين صرغتمش جمدارًا[٢٢]. حيث كان شعار الجمدار ورنكه الذي اختص به بقجة، فقد اختص سلاطين المماليك والأمراء وكبار رجال الدولة بشارات عُرفت في العصر المملوكي باسم الرنوك[٢٣]. والبقجة غالبًا ما ترسم على هيئة مربع ذي أركان مرتفعة أو معين يمثل قطعة النسيج المربعة التي تطوي أطرافها تجاه الوسط والتي كانت توضع فيها الملابس المعدة للارتداء، وقد يرسم فوق الوسط هذا دائرة صغيرة وهي إما ترسم مفردة أو ترسم مشتركة مع رموز أخرى قد تكون محصورة بين سيفين أو يتضمن الرنك بقجتين إحداهما تعلو الأخرى وهي في الحالة الأخيرة تمثل رنوكا مركبة[٢٤].

وقد ظل صرغتمش بعد ذلك فترة بعيدا عن الأحداث إذ لا تذكر المصادر شيئا عن تاريخه حتى قامت فتنة صاخبة في عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م بين الأمير قوصون[٢٥] نائب السلطنة في عهد الأشرف علاء الدين كجك، وبين المماليك السلطانية، ومنهم الأمير صرغتمش وخداشية شيخون وايتمش[٢٦]. وذلك أن قوصون أرسل يطلب من مقدم المماليك مملوكا من طبقة الزمرذية[٢٧] جميل الصورة فمنعته خشداشيته أن يخرج من عندهم، فتلطف بهم المقدم حتى أخذ المملوك ومضى به إلى قوصون فبات عنده، ثم طلب في اليوم الثاني أربعة مماليك منهم شيخون وصرغتمش وأيتمش، فامتنع خشداشيتهم، وقام مائة مملوك وقالوا :

"نحن مماليك السلطان، وما نحن مماليك قوصون، وخرج الطواشي المقدم على أقبح وجه، وقالوا كيف نترك ابن أستاذنا ونخدم مملوكا مثلنا، فينال غرضه ويفضحنا بين الناس "[٢٨]. ثم اختفى صرغتمش بعد ذلك.

ولما ظهر صرغتمش ـ بعد اختفائه مدة ـ سلم للأمير الطنبغا المارداني[٢٩]. كما سلم غيره إلى شخصيات كبرى من أمراء المماليك[٣٠]. ولما أراد أقسنقر[٣١] أن يمشي صرغتمش في خدمته ـ وكان جميلا مليح الصورة ـ امتنع وقال لبعض الأمراء " أن لم يتركني قتلت نفسي ". ثم ترقى بعد ذلك إلى أن تأمر طبلخاناة[٣٢] ثم تقدمه[٣٣] في عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، لكن السلطان الناصر حسن عزله في عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م من وظيفة الجمدارية التي كان وصل إليها في عهد والده السلطان الناصر محمد بن قلاوون لأنه كان من جملة حاشية الأمير شيخو[٣٤].

ورسم لصرغتمش أن يدخل الخدمة مع الأمراء ثم خرج لكشف الجسور بالوجه القبلي[٣٥]. وما لبث أن أخلع عليه في عام ٧٥٣هـ/١٣٥١م واستقر رأس نوبة كبير[٣٦]. بعناية الأمير طاز[٣٧] ووساطة الأمير مغلطاي[٣٨] وبذلك أصبحت له سلطة كبيرة[٣٩].

وقد لعب صرغتمش دورًا هامًا في نهاية سلطنة الناصر حسن الأولى، إذ بعث به كبار الأمراء ومعه الأمير قطلوبغا الذهبي[٤٠] وغيره في عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م للقبض على الناصر حسن من بين حريمه اللاتي صرخن صراخا عظيمًا، وصاحت الست حدق[٤١] في وجه الأمير صرغتمش نفسه صياحا منكرًا[٤٢]. وقد أخرج السلطان حسن وحبس برواق الايوان، وعاد صرغتمش إلى الأمراء الذي اتفقوا على تولية أخيه الملك صالح بن محمد بن قلاوون[٤٣].

ولما كان صرغتمش من جملة حاشية الأمير شيخو، فقد قام بدور كبير مع الأمير طاز لإعادة شيخو من الإسكندرية إلى القاهرة، وعزل منكلي بغا من نيابة طرابلس[٤٤]. وشارك صرغتمش في عدة معارك من أجل ذلك، وأبدى فيها مهارة فائقة في القتال، إذ هزم كلا من مغلطاي بن عبدالله الناصري، ومنكلي بغا، اللذين فرا هاربين[٤٥]. ولكنه تمكن من القبض عليهما بعد ذلك وحبسا في خزانة شمايل[٤٦]. ثم توجه إلى قبة النصر حيث أخبر السلطان صالح بن محمد بفراغه من أمرهما، فسر السلطان لذلك سرورًا عظيمًا، وكتب بإحضار الأمير شيخون من

لإسكندرية، وكان الأمير صرغتمش قد كتب إليه كتابا في السر يقول له فيه " أقبل لى القاهرة فأنا وطاز معك "[٤٧].

وبعد عودة شيخو من الإسكندرية عظمت منزلة صرغتمش ويشرع في عمارة إسطبل بدرجك بجوار بئر الوطاويط[٤٨] قريبا من الجامع الطولوني ليكون سكنا له، وقد حمل الناس إليه شيئا كثيرا من الآلات لعمارته[٤٩].

وفي عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م خلع السلطان صالح بن محمد بن قلاوون على الأمير صرغتمش واستقر رأس نوبة كبيرة، كما سبق الذكر، باختيار الأمير شيخو وسعيه، وجعل إليه التصرف في أمور الدولة كلها من ولاية وعزل وحكم، ماعدا مال الخاص فإنه كان للأمير شيخو التحدث فيه، وعندئذ قصد الناس بباب صرغتمش لقضاء حوائجهم، فكثرت مهابته[٥٠].

هكذا طال الأمير صرغتمش وتعاظم، وترفع على الناس، فحقد عليه بعض الأمراء وتنكروا له، في الوقت الذي كثرت فيه الأراجيف بوقوع فتنة، وإعادة الملك الناصر حسن إلى كرسي السلطنة، والقبض على الأمير شيخو، إلا أن الأمير صرغتمش تبرأ مما رمى به[٥١].

ويبدو أن الأمير صرغتمش كان معتدا بنفسه عنيدا وعنيفا في سلوكه مع من يقفون موقف النقيض منه ففي نفس العام قبض على الوزير علم الدين عبدالله الشهير بابن زنبور المصري، لخطأ بسيط حدث عند تفرقة التشاريف على أمراء المماليك بالقلعة، فقد غلط الذي أخذ تشريف الأمير صرغتمش ودخل إليه بتشريف الأمير بلبان السناني، فلما رآه تحرك ما عنده من الأحقاد على الوزير وغضب وقال : "هذا شغل الوزير، ولابد من القبض عليه " وخرج فصادف ابن زنبور وعليه الخلعة، فصاح في مماليكه خذوه ونزعوا عنه الخلعة، وأخذوه إلى بيت صرغتمش فسجن في موضع مظلم، ثم قام بعزل ابنه رزق الله وقبض عليه وعلى حاشيته وأتباعه بحيث لا يسمح لأحد منهم بالخروج من القلعة ولم يكتف الأمير صرغتمش بذلك بل أمر بضرب الوزير ابن زنبور عريانا[٥٢].

وقد بعث صرغتمش بمماليكه إلى دوره بمصر القديمة حيث أوقعوا الحوطة على حريمه، وختموا بيوته وبيوت أصهاره، ثم كتب صرغتمش إلى ولاة الأعمال

بالوجهين القبلي والبحري بالحوطة على اله وزراعته، كما وضع يده على موجوده من الأموال ذهبًا وفضة وتحفًا وثيابًا[٥٣].

ثم أخرج صرغتمش ابن الوزير، وهدده وأخذ زوجة ابن زنبور أيضًا وهددها، فدلته على مكان المال، وأخرج من بئر صندوقًا يحتوي على ستة آلاف دينار ومصاغ، كما وجد له عند مشد العمائر ستة آلاف دينار ومائة وخمسين ألف درهم، غير التحف والتفاصيل الحرير وثياب الصوف وغير ذلك، ثم أمر بتحصيل بنات ابن زنبور فنودى عليهن، وتم نقل ما في دور صهري ابن زنبور وسلمه لشاد[٥٤] الدواوين[٥٥].

ثم طلع صرغتمش إلى القلعة حيث طلب جميع الكتاب وعرضهم، وقام بتعيين موفق الدين هبة الله إبراهيم للوزارة، وبدر الدين كاتب يلبغا لنظر الخاص، وعين غيرهم — ممن يطمئن الأمير صرغتمش إليهم في وظائف هامة ورئيسية مثل نظر الجيش ونظر الدولة[٥٦] وشد الدواوين، ومنذ هذه اللحظة أقبل الناس إلى باب الأمير صرغتمش للسعي في الوظائف فولى كثيرًا منهم في وظائف سنية[٥٧].

كذلك باع صرغتمش جميع ما في حواصله من أصناف، ثم نقل من موجوده الكثير من الذهب والجواهر والأقمشة والكتب والأثاث إلى حارة زويلة[٥٨] ليكون ذخيرة للسلطان[٥٩]. فبلغ عدد الحمالين الذين حملوا الأواني الذهبية والفضية والبلور والملابس الرجالي والنسائية واللآلئ والبسط الحرير والمقاعد حوالي ثمانمائة حمال، غير ما حمل على البغال، كما وجد له من أواني الذهب والفضة ستين قنطارًا من الذهب الهرجة[٦٠] مائتي ألف دينار وأربعة آلاف دينار، ومن الحوائص الذهب ستة آلاف حياصة، ومن الكلفتاة الزركش[٦١] ستة آلاف، أما الملابس فبلغ عددها ألفين وستمائة فرجية، ومن الشاشات، ثلاث مائة، والخيول والبغال ألف رأس، ومن معاصر السكر خمسًا وعشرين معصرة، ومن الإقطاعات سبعمائة إقطاع، ووجد له أيضًا مائة عبد وستون طواشيًا[٦٢] وسبعمائة جارية، وسبعمائة مركب في النيل، وذلك سوى ما نهب وما اختلس، وبالأهراء[٦٣] حوالي عشرين ألف إردبًا[٦٤].

ويذكر ابن اياس أن موجود ابن زنبور، من القماش الملون، بلغ ألفين وستمائة قطعة ما بين صوف وجوخ وحرير وبياضات منها مفرى بسمور[٦٥].

ووشق[٦٦] وسنجاب[٦٧] وقماقم[٦٨] حوالي ألف قطعة، كما وجد له عند الناس، ودائع كثيرة، أما الحواصل فوجد بها الكثير من صحون الزبادي الصيني، غير النحاس الأصفر المكفت[٦٩]، ما بين أطباق وأباريق وثريات وغير ذلك[٧٠] والتي تبلغ عدد أربعين ألف قطعة[٧١]. ويبدو أن تضخم ثروة الوزير ابن زنبور قد لفتت انتباه صرغتمش إلى نفوذه مما قد يهدد سلطان صرغتمش.

أما فيما يتعلق بحل أوقاف ابن زنبور، فقد وجد من القضاة من عارض محاولات حل الأوقاف الفردية التي قام بها بعض سلاطين المماليك والأمراء للانتقام من شخص معين، مثال ذلك محاولة الأمير صرغتمش في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م حل أوقاف ابن زنبور بنفس الطريقة التي تم بها حل أوقاف كريم الدين على أساس أن أمواله من أموال السلطان، واحتج صرغتمش بمشاطرة عمر ابن الخطاب لعماله ورد نصف أمولهم إلى بيت المال، فرفض قاضي القضاة عز الدين عبدالعزيز بن جماعة حل أوقاف ابن زنبور على أساس أنه كان يتصرف في ماله الذي اكتسبه من المتجر وغيره، وقد سعي الأمير صرغتمش لدى خوند أم السلطان ووعدها بسبع قاعات من أوقاف ابن زنبور. فبعثت أم السلطان إلى ابن جماعة، تؤكد عليه ألا يعارض في حل أوقاف الوزير، فأجابها بتقبيح هذا العمل وخوفها من سوء العاقبة، فكفت عن ذلك، ولم يجد الأمير صرغتمش أمامه إلا أن يأمر ابن زنبور بالإشهاد على نفسه بأن جميع أمواله من الأملاك والبساتين والأراضي الوقف والطلق جميعها من مال السلطان دون ماله، فأشهد عليه ذلك واستولى على أمواله وأوقافه[٧٢].

وقد حدث كل ذلك لابن زنبور المصري، بالرغم من أنه كان في أوج عظمته، بعد أن جمع من الوظائف أخطرها مثل الوزارة ونظرا الجيش والخاص، حتى كثر حساده وسعوا فيه عند الأمير صرغتمش وأغروه به وأشاعوا عنه أنه باق على دين النصرانية، فما كان من صرغتمش إلا أن فعل به ما فعل إهانة وحبسًا وتعذيبًا، حتى أخرجه إلى قوص في صعيد مصر طريدًا حيث مات بها[٧٣].

وتدفع هذه الأحداث الباحث إلى التساؤل عن الأسباب التي جعلت الأمير صرغتمش يفعل ما فعله مع الوزير ابن زنبور. يذكر أحد الباحثين في هذا الصدد أن رجال الدولة في ذلك الوقت كانوا يتعمدون الكذب على الحكام والظهور أمامهم

بمظهر الفقر والاحتياج، حتى يرقوا لحالهم، ويصرفوا النظر عن التطلع إلى أموالهم ومحاسبتهم، مثل الوزير ابن زنبور، الذي كان دائم الشكوى للسلطان الصالح صالح بأنه خسر في عمله مالا كثيرًا كل عام، وزعم ذلك عندما صودرت أملاكه[٧٤]. والواقع أننا لا نجد تفسيرًا لكل ما حدث سوى الأحقاد التي ملأت صرغتمش نحو ابن زنبور بسبب تضخم ثروته بدرجة قد تحد من نفوذ وسلطان صرغتمش.

ومن مظاهر سطوة صرغتمش وتسلطه على الأخرين أنه عارض رد أملاك الوزير منجك[٧٥]. ثم رضي أن يرد له من أملاكه ما أنعم به السلطان عليه، وقام بالقبض عليه وسجنه بالإسكندرية ثم أفرج عنه في عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م حيث خرج إلى صفد بمساعدة الأمير شيخو[٧٦].

وفي سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م حدث خلاف بين الأمير صرغتمش وطاز ـ رغم محاولات الصلح التي قام بها الأمير شيخو ـ فقد كان كل منهما يتربص بصاحبه ويريد هلاكه، وكان الطامعون في السلطة من أتباع الأمير طاز وأخوته يحرضونه على صرغتمش، واتفقوا معه على أن يخرج للصيد في البحيرة، وركبوا على الأمير صرغتمش وقاتلوه، ولكن شيخو أمر مماليكه السبعمائة بمساعدة صرغتمش الذي هزمهم وقبض عليهم وعلى غيرهم من كبار المماليك من عصبة الأمير طاز وهرب من بقى منهم بعد أن تفرقوا[٧٧].

ولما كان السلطان الملك الصالح بن محمد بن قلاوون يميل إلى الأمير طاز فقد طالب صرغتمش وأنصاره بخلعه من السلطنة المملوكية، وإعادة أخيه الملك الناصر حسن مرة ثانية، ولكن الأمير شيخو اعترض على ذلك فما زالوا به حتى وافق على خلعه وذلك في عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م منتهزين فرصة سفر طاز إلى البحيرة وتم حبسه بالقلعة إلى أن توفى في عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م[٧٨].

ومهما يكن من أمر، فقد كانت الغلبة في عهد السلطان صالح لكل من الأمراء الكبار طاز وشيخو وصرغتمش، فهم أهل الحل والعقد في الدولة المملوكية وإليهم أمورها جميعا[٧٩].

وهكذا اتفق الأمير صرغتمش وشيخو وأنصارهما على خلع الملك الصالح وسلطنة الناصر حسن للمرة الثانية بعد أن اجتمعوا به وشرطوا عليه شروطا قبلها، فبايعوه بالسلطنة في حضرة الخليفة العباسي، وقضاة القضاة الأربعة وذلك في عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م وأخرج الأمير طاز ليتولى نيابة حلب، وبذلك تخلص صرغتمش منه وخلت الساحة له، وقرره السلطان حسن في وظيفة أمير رأس نوبة النوب على عادته(٨٠). بينما صار الأمير شيخو أتابكا للعساكر(٨١). وظل شيخو العمري في منصب أتابك العسكر حتى وافته المنية في عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وحل محله في الأتابكية الأمير صرغتمش.

ومن بين الوظائف التي شغلها صرغتمش الإشراف على البيمارستان المنصوري والجامع الطولوني إلى جانب مباشرته للأوقاف، ففي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٣م خلع السلطان حسن علي صرغتمش واستقر في نظر البيمارستان المنصوري(٨٢) والجامع الطولوني وباشر الأوقاف، فعمرت في مباشرته، ولما تحدث في الأوقاف والبريد خافه الناس(٨٣). فلم يكن أحد يركب خيل البريد إلا بمرسومه، وضع عامل البريد أن يحمل معه قماشا ودراهم على خيل البريد(٨٤).

وقد انفرد الأمير صرغتمش بتدبير أمور الدولة، بعد أن خلع عليه السلطان الناصر حسن وقرره في الأتابكية عوضا عن شيخو، فعظم أمره، واستطال وصار صاحب الحل والعقد في الدولة المملوكية، فأخذ وأعطى وزادت حرمته، وأثرى ثراء فاحشا وكثرت أمواله، وعمل بعد ذلك على التخلص من منافسيه، فأوحى إلى السلطان حسن بالقبض على الأمير طاز نائب حلب في عام ٧٥٨هـ/١٣٥٦م حيث حبس في الإسكندرية ثم قتل دون علم السلطان، فقد كانت هناك عداوة قديمة بين الأمير صرغتمش وطاز كما سبق أن أشرنا(٨٥).

وفي عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م رفعت إلى صرغتمش القوائم الخاصة من ديوان الأحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والأديرة، وكان قدرها خمسة وعشرين ألف فدان، فلما علم بذلك ذهب إلى القلعة وشاور السلطان حسن، الذي كلفه بأن يخرج ذلك من أيدي النصارى، وكتب بذلك مربعات جيشية(٨٦). وأنعم بها على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الأموال جميعها، وأبطل أيضا الأوقاف التي كانت على الأديرة والكنائس(٨٧).

كما عمل الأمير صرغتمش على ابطال العادات التي كان يقوم بها الناس في عيد الشهيد[٨٨]. وهو من أعياد النصارى ويكون في اليوم الثامن من بشنس[٨٩]. أحد الشهور القبطية، ويعتقد النصارى أن النيل لا يزيد في كل عام حتى يلقي النصارى فيه تابوتا به أصبع من أصابع أسلافهم الشهداء[٩٠].

ونظرا لما كان يحدث في هذا العيد من المفاسد وحوادث القتل، أمر الأمير بيبرس الجاشنكير[٩١]. بإبطال عيد الشهيد ومنع الناس من الاجتماع بناحية شبرا وذلك عام ٧٠٢هـ/١٣٠١م ولم يفلح النصاري في إعادته مرة أخرى[٩٢]. إلى أن أمر السلطان حسن بإعادته في عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، ثم أبطل نهائيا في عهد السلطان الناصر حسن على يد الأمير صرغتمش وذلك في عام ٧٥٥هـ/١٣٥٣م، بعد أن هدم والي القاهرة كنيسة النصارى وأحرق التابوت وبداخله الإصبع، وذلك بحضور السلطان الناصر حسن ثم ذري رماده في ا لنهر، فبطل عيد الشهيد نهائيا[٩٣].

ومن الإشارات التاريخية التي تحدو بنا إلى الاعتقاد بأن الأمير صرغتمش أصبح المتحكم الأول في الدولة المملوكية إلى جانب السلطان حسن مستغلا منصبه كاتابك للعسكر وكذا صغر سن السلطان حسن آنذاك، أنه في عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م أمر بضرب " فلوس جدد زنة الفلس منها مثقال، فضرب منها عدة قناطير، وركب والي القاهرة ووالي مصر والمحتسب محملين بالفلوس الجدد، ونودي في الناس بأن يتعاملوا بها، فاستمرت المعاملة بهذه الفلوس "[٩٤]. وقد أصاب الناس ضرر كبير من جراء هذا العمل، الذي أدى إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية بسبب ارتفاع الأسعار وعدم ثبات منسوب مياه النيل بالإضافة إلى اختلاف الأمراء وتصارعهم على السلطة وانتشار الفساد والرشوة في سبيل تولي مناصب الدولة خاصة منصب الحسبة. ويبدو أن المكانة التي وصل إليها صرغتمش في عصر السلطان الناصر حسن، جعلته لا يحسن استخدام سلطاته وبدا به الاستبداد أن قام بعزل قضاة مصر والشام واستبدلهم بنواب من المماليك[٩٥]. وهذا الأمر يثير الدهشة بكل تأكيد ! فكيف يحل النواب المماليك محل القضاة في البت في أمور الدين والدنيا ؟ ولا تمدنا المصادر التاريخية المملوكية بشئ يساعدنا على فهم الغرض الذي من أجله قام صرغتمش بعمل هذا مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن

صرغتمش أراد إحكام قبضته على الرعية في مصر والشام، فحال بينهم وبين القضاة، ذوي الكلمة النافذة في أمور الدين والدنيا، وذلك بإحلال النواب الذين يدينون بالولاء له مكانهم.

منشآت الأمير صرغتمش :

وإذا كان الأمير صرغتمش قد لعب دورًا عامًا في تاريخ دولة المماليك البحرية، فقد عني عناية خاصة بالعمائر من تشييد وتعمير، ففي عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م بدأ صرغتمش في عمارة إسطبل الأمير بدرجك بالقرب من الجامع الطولوني وأدخل فيه دور عدة، وحمل الناس إليه ما يحتاج من رخام وغيره[٩٦]. كما بنى في العام نفسه داره والتي عرفت بدار صرغتمش، والتي تقع بخط بئر الوطاويط بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع أحمد بن طولون من شارع الصليبة، وكان موضعها مساكن فاشتراها صرغتمش وبناها قصرًا وإصطبلا في عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م، وحمل إليه الوزراء والكتاب والأعيان من الرخام وغيرها شيئًا كثيرًا، وهذه الدار[٩٧] ظلت عامرة إلى زمن المقريزي يسكنها الأمراء[٩٨]. وفي نفس العام أيضًا شيد صرغتمش زاوية الشريف بن مهدي بجوار زاوية الشيخ العجمي تحت قلعة الجبل[٩٩].

وفيما يتعلق بالمدرسة الصرغتمشية، فتقع خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد ابن طولون فيما بينه وبين قلعة الجبل، وكان موقعها قديمًا من جملة قطائع ابن طولون، ثم صارت عدة مساكن فأخذها الأمير صرغتمش وهدمها وبدأ في بناء المدرسة في عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، وانتهت عمارتها في عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. وقد جاءت هذه المدرسة من أبدع المباني وأجلها وأحسنها قالبًا وأبهجها منظرًا. ويصف لنا المقريزي الاحتفال بافتتاحها بقوله : " فركب الأمير صرغتمش وحضر إليه الأمير سيف الدين شيخو العمري مدبر الدولة والأمير طاشتمر القاسمي وحاجب الحجاب والأمير توقتاي الدوادار وعامة أمراء الدولة وقضاة القضاة الأربعة، ومشايخ العلم، ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب بن أمير عم العميد أمير غازي، فألقى القوام الدرس ثم مد سماطًا جليلا بالهمة المملوكية، وملئت البركة وبها ماء بسكر، فأكل الناس وشربوا وأبيح ما بقي من ذلك للعامة فانتهبوا. وقد جعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفًا على الفقهاء

الحنفية، ورتب بها درسًا للحديث النبوي وأجرى لهم جميعًا المعاليم من وقف رتب لهم(١٠٠).

وفي هذه المدرسة يقول العلامة شمس الدين محمد بن عبدالرحمن الصايغ الحنفي :

ليهنك يا صرغتمش ما بنيته
لأخراك في دنياك من حسن بنيان
به يزدهي الترخيم كالزهر بهجة
فلله من زهر ولله من بان
وقال النقيب صلاح الدين صلاح
صرغتمش قد شاد يا حبذا
مدرسة بديعة فائقة
كأنها من حسنها جنة
وقد غدت قبابها شاهقة
وقد حكى رخامها روضة
أزهارها من طيبها عابقة(١٠١).

وقد عملت هذه المدرسة كجامع أيضًا إلى جانب مهمتها العلمية، عرف باسم جامع الأمير صرغتمش. وقد نقش على بابها الكبير في الحجر : " أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرفي العالي المولوي العالمي العادل الفاضلي السيفي صرغتمش الملكي الناصري، مربي العلماء ومقوي الضعفاء باني المدارس والمساجد في عام ٧٥٩هـ ". وللجامع باب آخر يؤدي إلى المطهرة، وقد فرش صحنه بالرخام الملون، وفي دائرة عدة خلاو لإقامة المجاورين، وفي وسطه ميضأة أخرى مسقوفة على ثمانية أعمدة من الرخام، وفي جوانبه أربعة ألونة في أحدها القبلة وبحائطها رخام ملون منقوش، وعلى جانبيها لوحان من الرخام يمثلان رنك الأمير صرغتمش نقش في كل منهما " مما عمل برسم المقر العالي السيفي الملكي الناصري صرغتمش أسبغ الله ظلاله "، ويقع في الإيوان المؤخر ضريح شيخ يقال له الشيخ محمد قوام الدين عليه تركيبة رخام كتب بدائرها آية الكرسي، وحوله بناء

لطيف فيه قبلة وقد فرشت أرضه بالرخام الملون. وله منارة تتكون من ثلاثة أدوار. وبه سبيل تحول فيما بعد إلى مكتب، وللمسجد أوقاف تحت نظر الديوان(١٠٢).

ولم تقتصر أعمال صرغتمش ومنشآته المعمارية على القاهرة، فحسب بل امتدت إلى خارجها حيث أنشأ في عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م مدرسة بعمان، كما عمر بمكة المكرمة ميضأة بين رباطا الخليفة والبيمارستان المستنصري، بالإضافة إلى عدة أماكن أخرى بالمسجد الحرام بمكة، كما جدد أيضا المشعر الحرام بها، كل هذا يعد دليلا واضحا على مدى عناية صرغتمش بالعمائر(١٠٣).

نهاية صرغتمش :

وتأتي خاتمة صرغتمش مثيرة للدهشة، بعد ما بلغ من الجاه والسلطان شأنا عظيما، ففي عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م وبالتحديد في ٢٠ رمضان عام ٧٥٩هـ الموافق ٢٦ أغسطس من عام ١٣٥٨م(١٠٤). قبض السلطان الناصر حسن عليه، بعد أن تآمر عليه مع كل من الأمير طيبغا الطويل ويلبغا العمري وغيرهما، وأمسك معه كذلك بعض الأمراء من أصحاب النفوذ والسلطة من حلف صرغتمش، ويقال أن سبب ذلك أن الأمير صرغتمش كان قد عظم أمره بعد موت شيخو، واستبد بأمور الدولة وتدبير الملك، وأشيع أنه يريد الوثوب على السلطان حسن نفسه والجلوس مكانه في دست السلطنة المملوكية، فأشار عليه بعض الأمراء بأن يبادر ويقبض على صرغتمش. ويذكر أحد المؤرخين أن الأمراء قالوا له : " وإن لم تبادر، وتقبض عليه، وإلا يبادر هو ويقبض عليك وتندم بعد ذلك الذي ما بادرت إليه "(١٠٥). فاتفق السلطان مع جماعة من الأمراء على التخلص منه، فقبض عليه عند دخوله على السلطان كما قبضوا على أنصاره من أمراء الطبلخاناة والعشروات وحبسوهم بقلعة الجبل(١٠٦).

ولما بلغ ذلك مماليك صرغتمش وحواشيه، ركبوا بالسلاح واستعدوا للقتال، ووقفوا في سوق الخيل، وبلغ عددهم ثمانمائة مملوك، وكان معهم أحمد بن حمص أخضر فهجم عليهم مماليك السلطان وهزموهم، وقبضوا على أحمد بن حمص، ثم نهبت العوام دار الأمير صرغتمش عند بئر الوطاويط وقاموا بفك الرخام من الحوائط، كما نهبت دكاكين العجم بالصليبة بواسطة الزعر(١٠٧). والحرافيش. ونهبت خانقاته،، وقبض على جماعة من الأعجام الصوفية بمدرسته لأنهم كانوا قد

ساعدوا الطائفة الصرغتمشية، كما قبض على ضياء الدين بن الخطيب شاهد ديوانه، الذي أهين وعذب، كما نهبت بسط المدرسة الصرغتمشية وقناديلها، وحوائج الأعجام الصوفية وأمتعتهم[١٠٨].

ويبدو أن الأمير صرغتمش كان يعظم العجم ويؤثرهم، وكانت " رؤوسهم به مرتفعة " على حد قول ابن حجر، وكان يقرب منه علماء فارس ويجلهم إجلالا زائدا، ويظهر أن عددا منهم قام بالتدريس في المدرسة الصرغتمشية[١٠٩].

وربما يرجع السبب في الاهتمام بالعجم وتفضيلهم عن غيرهم ما تمتعت به طبقة التجار، لاسيما العجم من ثراء وغنى، فقد كانوا طبقة متميزة إلى حد بعيد، فقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة وأحسوا أن طبقة التجار دون غيرهم هي المصدر الأساسي التي يمد الدولة بالمال لاسيما في ساعات الحرج والشدة. ولذلك عمد السلاطين والأمراء إلى تقريب التجار منهم، واصطفوا منهم ندماء وأصحابا[١١٠]. بل أنعموا على بعضهم بإمرة طبلخاناه وقد كان هذا أمرا نادر الحدوث لغير المماليك[١١١].

ولكن يبدو أن ازدياد الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائما مطمع سلاطين المماليك، فغالوا في فرض الرسوم عليهم، كما أكثروا من مصادراتهم[١١٢]. وهكذا بلغ من قسوة هذه المطلوبات الغاشمة أن دعا بعض التجار " على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم "[١١٣].

ويرجح المؤرخ ديفيد ايلون أن هؤلاء التجار كانوا أغرابا وليسوا من أهل البلاد لاسيما وأن أغلبهم كانوا يحملون لقب " الخواجا " الذي يشير على حد قول القلقشندي إلى " أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم " على أنه من الصعب علينا في كثير من الحالات تحديد أوطان بعض هؤلاء التجار وذلك لقلة المعلومات التي وصلتنا عنهم في المصادر المملوكية إذ جرت العادة ألا تشير هذه المصادر إلى اسم تاجر المماليك إلا في بعض الحالات الخاصة مثل أن يكون قد أحضر بعض المماليك الذين استطاعوا فيما بعد أن يشغلوا إحدى الوظائف المهمة في البلاط المملوكي، وحتى إذا ذكرت المصادر اسم تاجر المماليك فإن إشارتها له كثيرا ما تكون موجزة مقتضبة لا تفيد كثيرا في التعرف على أصله وعلى موطنه،

بل كثيرا ما تعني بالإشارة إلى لقبه دون اسمه كاملا ودون الاهتمام بذكر البلد الذي جاء منه، كابن الصواف السابق ذكره[114].

ومن المحتمل أن رغبة صرغتمش في ضمان موارد مهمة لا تنضب لشراء المماليك أدت إلى تعظيم العجم كذلك يبدو إن تاجر المماليك من العجم كان عليه أن يأتي أولا إلى صرغتمش لكي يعرض مماليكه عليه قبل أن يراه أحدا آخر.

ويشير أحد الباحثين إلى عمل العجم في المدرسة الصرغتمشية، فقد تولى التدريس منهم محمد بن قطلوشاه أرشد الدين المتوفى عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م ومحمد بن التلمساني المتوفى عام ٧٨١هـ/١٣٧٩ ومولانا زادة أحمد بن أبي يزيد المتوفى عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م وجلال الدين التبزني المتوفى عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م وعبدالرحمن التفهني المتوفى عام ٨٣٥هـ/١٤٠٩م[115].

على أية حال، نعود ثانية لنستكمل الحديث عن المصير الذي آل إليه الأمير صرغتمش الناصري. فبعد أذان المغرب سكن الأمر وزالت الفتنة التي وقعت بين الناس ونودي بالأمان والبيع والشراء، وقد أسرع السلطان الناصر حسن، بإخراج الأمير صرغتمش وأنصاره مكبلين بالقيود من القلعة، وأرسلهم إلى الإسكندرية، حيث سجنوا بها[116].

ولما حبس صرغتمش بسجن الإسكندرية، كتب إلى السلطان الناصر حسن كتابا يتخضع إليه منه وجاء في أوله :

قلبي يحدثني بأنك متلفي

روحي فداك عرفت أم لم تعرف

ولكن الناصر حسن لم يلتفت إلى كتابه ويقال إنه أمر بخنقه في عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م ثم نقل جثمانه من الإسكندرية حيث دفن في قبة المدرسة التي بناها بجوار جامع ابن طولون بالقرب من بئر الوطاويط[117].

وهكذا أزاح السلطان حسن من أمامه ذلك الأمير القوي صرغتمش، وصار سلطان مصر بلا منازع، وصفا له الوقت، وكان يميل إلى التقرب من " أولاد الناس"[118] من غير المماليك ويميل إلى ترقيتهم إلى الرتب السنية، لا لحبه لهم، بل كان يقول " هؤلاء مأمونو العاقبة وهم في طي علمي، وحيث وجهتهم إليه توجهوا

ومتى أحببت عزلهم أمكنني ذلك بسهولة " ولكن لم يلبث أن وقع تحت وطأة الأمير يلبغا العمري[119].

أما فيما يتعلق بأموال وثروات صرغتمش، فقد وضع السلطان الناصر حسن يده على موجوده من الأموال ذهبا وفضة وتحفا وثيابا، وظهر لصرغتمش مالا ينحصر قدره من مال وسلاح وقماش وغير ذلك، كما يقال في ذلك المعنى :

وإن أمرا دنياه أكبر همه
لمستمسك منها بحبل غرور[120].

وبعد، فلقد كان الأمير صرغتمش عظيما في نفسه رفيع المقام في الدولة، كما كان في سعة من المال، شجاعا، وكانت له دراية بعلوم الفقه والعربية، يكتب جيدا ويقرأ تجويدا، ويحب العلماء وأرباب الفضائل ويكثر من الجلوس معهم، وكان يشارك في كثير من الفضائل ويتعصب لمذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، حتى صارت مدرسته تنسب إلى أبي حنيفة النعمان وفقهه[121].

وكان لصرغتمش جهات بر وأوقاف ولعل خير دليل على المكانة التي تمتع بها الأمير صرغتمش في دولة الناصر حسن تلك الألقاب الرفيعة التي وردت في نص اللوحة التأسيسية لمدرسته، والتي سبق الإشارة إليها. ونظرا لأهميتها التاريخية والتي تشير إلى المكانة السامية التي اعتلاها في المجتمع المملوكي، فسوف يتناولها الباحث بالدراسة والتحليل.

المقر :

لقب أصل استعمل في النقوش في القرن الثامن للهجرة إلى منتصف القرن التاسع للأمراء من العسكريين[122]،، وكان صرغتمش أحد هؤلاء العسكريين الذين شاركوا في تأديب النواب الذين خرجوا عن الطاعة في حلب وطرابلس وحماة وصفد[123] عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م. كما كان هو والأمير طاز والأمير شيخو على رأس العسكر الذي أخرج لتأديب عرب الصعيد[124].

الأشرف :

من " الألقاب التوابع " المتفرعة من أعلى " الألقاب الأصول " التي كانت تستعمل للسلاطين ومن يقربهم في الرتبة، بل استعمل لقبا خاصا لجماعة من

الملوك، وأقبل عليه الكثير من سلاطين المماليك[125]. ومن المعروف أن الأمير صرغتمش قد تمتع بمكانة كبيرة وصلت إلى أنه صادر أملاك الوزير ابن زنبور في أثناء حكم الصالح صالح عام ٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م بغير أمر السلطان[126]. بل أنه بعد عودة السلطان حسن إلى دست السلطنة للمرة الثانية صار صاحب الحل والعقد[127]. ولقد أسرف إلى حد أنه قام بعزل جميع قضاة مصر والشام واستبدلهم بالنواب المماليك مما نبه السلطان حسن إلى ذلك بل ودفعه إلى القبض عليه وسجنه بالإسكندرية[128].

العالي :

من الألقاب الفروع في عصر سلاطين المماليك، وهو مسبوق بلقب تابع "الأشرف " أي أنه صفة للمقر[129].

المولوى :

أصله المولي أو مولانا وأضيف إليه ياء النسب. كان هذا اللقب مستعملا للسلاطين في العصر السلجوقي، بينما استعمل في عصر المماليك ضمن ألقاب كبار رجال الدولة من الأمراء والمدنيين، ومنهم الأمير صرغتمش الذي بلغت مكانته في أواخر حياته أن قام بالقبض على أحد الأمراء دون علم السلطان ثم قتله[130]. وأن يخرج من يد النصارى الأرض الجارية على منافع الكنائس والأديرة[131]. ويقوم بإبطال عيد الشهيد[132]. بل ويتجرأ ويعزل القضاة في مصر والشام ويستبدلهم بالنواب المماليك[133]. وكان صرغتمش أحد الذين تلقبوا بهذا اللقب مضافا إليه ياء النسبة للتفخيم[134]. وتجدر الإشارة إلى أن هذا اللقب ورد أيضا في ثلاث من مشكاواته[135].

العالمي :

تلقب به سلاطين المماليك مجردا من ياء النسبة بينما تلقب به العلماء ورجال الحرب والإدارة مضافا إليه ياء النسبة[136]. وكان الأمير صرغتمش مشتغلا بالعلم يقرأ القرآن، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة وانحاز له، وإذا بحث في اللغة أو الفقه اشتط[137].

العادلي :

لقب تلقب به سلاطين المماليك مجردا من ياء النسبة، بينما استعمل لأكابر العسكريين من النواب ونحوهم مضافا إليه النسبة، ومن المعروف أن الأمير صرغتمش قد وصل إلى أعلى المراتب العسكرية حتى أنه وصل عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م وبعد وفاة الأمير شيخو إلى رأس نوبة وأتابك العسكر(١٣٨) ومن ثم استحق حمل ذلك اللقب.

الفاضلي :

الفاضل خلاف الناقص، وكان من ألقاب العلماء، واستعمل هنا مضافا إليه ياء النسبة للتفخيم(١٣٩).

السيفي :

لقب تعريف خاص نسبة إلى سيف الدين وكان صرغتمش يلقب بسيف الدين كلقب تعريف خاص(١٤٠). وقد ورد هذا اللقب أيضا في ثلاث من مشكاوات صرغتمش(١٤١).

رأس نوبة :

كان هذا اللقب يطلق على الوظيفة التي كان يتولاها الأمير صرغتمش أثناء تشييده للمدرسة في عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦، وكان أصحاب هذه الوظيفة يقومون بالحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، وعددهم في العادة أربعة أمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناة(١٤٢). وكان الأمير صرغتمش من حملة الأمراء الجمدارية في عهد الناصر محمد، وفي عهد المظفر حاجي بن قلاوون ترقى إلى أن تأمر طبلخاناة، ثم تقدمه عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وفي عام ٧٥٢هـ/١٣٥٧م رقي إلى رأس نوبة كبير، وفي عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م صار رأس نوبة النواب وأتابك العسكر(١٤٣).

الملكي :

كان يأتي هذا اللقب أحيانا ضمن ألقاب الملك أو السلطان في التقاليد أو المناشير، وفي هذه الحالة كان يلحق بالنعت الخاص مضافا إلى ياء النسب، وكذلك بلقب التعريف الخاص مضافا أيضا، وقد استعمل هذا اللقب في العصر المملوكي

بعد الوظيفة مضافا إلى ياء النسب بالنسبة للأمراء[١٤٤]. جدير بالذكر أن هذا اللقب ورد مكتوبا في، وهذا ربما يدفع الباحث إلى القول إلى أن اللقبين واحد، وأنه في لوحة المدرسة التأسيسية اختصر الكاتب حرف الألف الواقع بعد صرف الميم ليضع مكانه علامة المد الدالة عليه، إلا أنه ورد بإحدى مشكاوات صرغتمش اللقبين معا، " الملكي " و" المالكي "[١٤٦]. الأمر الذي يشير إلى أنهما لقبين مختلفين صحلبهما صرغتمش.

الناصري :

نعت خاص بالسلطان الناصر محمد الذي اشترى صرغتمش، حينما جلبه ابن الصواف التاجر عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، وصار من جملة الأمراء الجمدارية ثم ترقى إلى أ ن بلغ أعلى المراتب[١٤٧].

مربى العلماء :

يعطينا هذا اللقب فكرة عما عرف عن الأمير صرغتمش من تشجيع للعلم والعلماء[١٤٨].

مقوي الضعفاء :

يشير هذا اللقب إلى فضيلة من الفضائل التي حث عليها المذهب السني الذي عني بنهضته السلاجقة، ومن جاء بعدهم، وقد استمر هذا اللقب في عصر سلاطين المماليك، وهو يشير إلى الانتصار للضعيف وأخذ الحق له[١٤٩]. وإن كان هذا من الناحية النظرية، حيث اختلفت عن الواقع الذي عاش فيه الأمير صرغتمش، الذي لم يكن من منصفي الضعفاء.

باني المدارس والمساجد :

أطلق هذا اللقب على الأمير صرغتمش ويشير هذا اللقب أيضا إلى فضيلة من الفضائل التي عُرف بها المماليك الذين تبنوا المذهب السني وجاهدوا في سبيل نشره وحمايته ضد المعتقدات الشيعية[١٥٠]. ومن المعروف أن العصر المملوكي هو أكثر العصور عناية بتلك المدارس والمساجد بحيث بني في ذلك العصر أكثر مما بني في غيره من العصور.

وإلى جانب هذه الألقاب الواردة في اللوحة التأسيسية لمدرسة الأمير صرغتمش يوجد عدد من الألقاب الأخرى التي حملها هذا الأمير في وثيقة وقف هذه المدرسة، التي لا يتسع المقام هنا لشرحها. ومن المحتمل أن الألقاب الواردة في اللوحة التأسيسية هي أبرز وأرفع الألقاب التي حملها صرغتمش وكانت تمنح للأفراد ذوي المقام الرفيع. أما عن ألقابه الأخرى سواء كانت الفخرية أم الريفية. الواردة في وثيقة وقف المدرسة فهي على النحو التالي : الأميري الكبيري، العضدي، الذخرى، النصيري، المجاهدي، المرابطي، الغوثي، الغياثي، الكهفي، المقربي، المؤتمن، الملاذي، عز الإسلام والمسلمين، ركن الغزاة والمجاهدين، ملجأ القاصدين، ممهد المماليك، عضد الدولة، ظهير السلاطين، كهف الفقراء والمساكين(١٥١). كما تشير بعض مشكاوات صرغتمش إلى أنه حمل لقبين أخرين هما الكريم، المخدوص(١٥٢).

كانت هذه هي الألقاب التي حملها الأمير صرغتمش آنذاك والتي تدل على المكانة السياسية والنفوذ والسلطة التي تمتع بها الأمير صرغتمش إبان العصر المملوكي والتي تنوعت ما بين ألقاب دينية وعلمية وعسكرية وسياسية.

لقد كان الأمير صرغتمش أميرا حازما مليح الصورة، جميل الهيئة، يقرأ القرآن الكريم ويشارك في الفقه على مذهب الحنفية ويبالغ في التعصب لمذهبه، ويقرب العجم ويكرمهم كما ذكرنا أنفا، وإلى جانب تلك الصفات الكريمة كان يجنح إلى الشطط والظلم بل والجبروت في بعض الأحيان، مثلما فعل مع الوزير ابن زنبور أو غيره من الأمراء.

وفي الخاتمة، هناك سؤال يطرح نفسه هل كان الأمير صرغتمش نموذجا فريدا للمماليك الذين تسلقوا سلم المجد من خلال علاقاتهم بسيادتهم أم أنه كان وليد الظروف السياسية آنذاك ؟

الهوامش

- أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أ.د. محمود إسماعيل الذي تفضل بقراءة هذا البحث وتزويده لي بملاحظاته القيمة. كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى أ.د. ليلى عبدالجواد على تفضلها بمراجعة هذا البحث، ونشره بمجلة المؤرخ المصري. وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقي في سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بجامعة عين شمس. فلإدارة السمنار وكل من ساهم بتنقيح هذا البحث كل الشكر والتقدير.

١- البريد في الاصطلاح هو أن يجعل خيلا مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسًا مستريحًا، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة. أما البريد في اللغة فهو مسافة محددة بين مركزين قدرها الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنها أربعة فراسخ أو إثنا عشر ميلا. لمزيد من التفاصيل، انظر سند أحمد سند، البريد في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة عين شمس ٢٠٠٠م، ص١٥، وليس خافيًا على الباحثين والمتخصصين خطورة الإشراف على البريد في ذلك الوقت، ومدى الدور الحضاري والسياسي الذي لعبه في الدولة الإسلامية، بل ازداد أهمية في عصر سلاطين المماليك، حيث كانت الهزائم أو الانتصارات الحربية رهينة صحة الأخبار التي يحملها عمال البريد، بل لعب البريد دورًا مؤثرًا في القضاء على الفتن والثورات التي وقعت داخل الدولة المملوكية، كما كان البريد دورًا فعالا في ضبط الأحوال الاقتصادية للبلاد. سواء بمطالعة سلاطين المماليك بأسعار السلع والبضائع وحالة الأسواق، أو في مراقبة التجار في سائر أنحاء دولة المماليك، ليكون السلاطين على بينة بكل ما يتعلق بالأحوال الاقتصادية للبلاد، كذلك لا يمكن إغفال الدور الذي لعبه البريد آنذاك أيضًا في تنشيط حركة التجارة بين دولة سلاطين المماليك وبين الممالك الإسلامية الأخرى ... الخ.

2- Sauvaget, J., Noms et surnoms de mamelouk, JA, 238 (Paris, 1950). pp. 31-49.

٣- اختصت الخلافة بشارات ثلاث، انفرد بها الخليفة دون غيره من رعاياه وبطانته وسائر رؤساء دولته هي : الخطبة والسكة والطراز، عن شارات الخلافة. انظر، أحمد عبدالرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٠م، ج١، ص٤٦ وما بعدا :

Schultz, W.C., Mamluk Egyptian Copper Coinage before 759/1357-1358: A preliminary Inquiry, MAR.5 (Chicago, 2001), p.25.

٤- الخواجا أو الخواجة، لفظ كان يطلق على المعلم أو الكاتب أو التاجر في العصر المملوكي، انظر: المقريزي، تقي الدين، السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٤١م، ج١، ق٢، ص٥؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٤٣٥.

٥- الحياصة، وجمعها حوائص، وهي الحزام أو المنطقة، انظر : الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق : بربارة شيفر، فيسباون ١٩٧٨م، ص١٥٠،٢٣٥؛ ماير (ل.م) الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبدالرحمن فهمي، ١٩٧٢م، ص٣٥-٤٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٢٢؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، القاهرة ١٩٤٧م، ج١، ص٢٣٨.

Quatremere, E. Histoire de sultans mamlouks de L'Egypte, Paris. 1844, I, p138; Dozy, R.P.A., Dictionnaire detaille des noms des vetements chez les Arabes, Amesterdam, 1845, p. 145.

٦- المسموح وجمعه مسموحات، لفظ جرى في مصطلح الدولة المملوكية على مبلغ من المال يعينه السلطان الأميرين الأمراء المقطعين فوق إقطاعه، ويأخذه الأمير مشاهرة أو مسانية. انظر : المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٩، هامش (٥)، ج٢، ق٢، ص٥٣٦؛ ابن فضل الله العمري، التعريف

بالمصطلح الشريف، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨م، ص١١٤، ١٢٠.

٧- الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق على أبو زيد وآخرون، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص٥٥٦؛ ج٥، ص٩٨؛ المقريزي، خطط المقريزي المعروفة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١٤ جزءًا مطبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٦هـ، ج٢، ص٤٠٤؛ السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٣٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٩٠م، ج٦، ص٤٣٢؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الرياض، ١٩٨٣م، ج١، ص٣٥٣، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مجلدان، حيدر أبان، الهند، ١٣٤٨هـ، ج٢، ص٢٠٦؛ حسين سيد جودة القصاص، المدرسة الصرغتمشية دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٧٣م، ص٣.

٨- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠٦.

9- Ayalon, D., L`esclavage du mamelouk, Oriental Notes and Studies, No.1 Jerualem Israel Oriental Society, 1951, p. 6

١٠- المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٦٣؛ Ayalon, L`esclavage, p. 7.

١١- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، ١٣٥٥هـ، ج١٠، ٢٧٩؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٠٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٣٠؛ Ayalon, L`esclavage, p. 7.

١٢- أحمد عبدالرازق، تاريخ وآثار مصر المملوكية، ص١٤؛ Ayalon, L`esclavage, p. 6.

13- Ayalon, L`esclavage, p. 7.

١٤- أحمد عبدالرازق، تاريخ وآثار مصر المملوكية، ص١٥؛ Ayalon, L`esclavage, p. 6.

١٥- ابن تغري بدري، النجوم الزاهـــرة، ج١٤، ص١٩٨؛ أحمـــد عبدالـــرازق، تاريخ وآثار مصر المملوكية، ص١٥؛ Ayalon, L`esclavage, p. 6.

١٦- الطباق جمع طبقة، وهي ثكنات المماليك بالقلعة، حيث كانت كل طبقة تضـــم أبناء الجنس الواحد من المماليك، وكانت لهذه الطباق تنظيم وأدوار لتربيـــة المماليك، وقد جدد الناصر تلك الطباق الكائنة بساحة الديوان مـــن القلعـــة، انظـــر المقريـــزي، الخطـــط، ج٢، ص٢١٣-٢١٤؛ الســـلوك، ج٢، ق١، ص١٥٦، هامش (٢)؛ لمزيد من التفاصيل انظر لبيبـــة إبراهيـــم مصطفـــى محمد، الرقيق وتجارته في مصر والشام في عصر دولة سلاطين الممـــاليك ٦٤٨-٩٢٣هـــ/١٢٥٠-١٥١٧م، رسالة ماجستير غـــير منشـــورة جامعـــة القاهرة كلية الآداب ١٩٩٣م، ولمزيد من التفاصيل عن تربية المماليك انظر

Ayalon, D. The Eunuchs in the Mamluk Sultanate, Studies inMemory of Gaston Wite, Jerusalem, 1977; idem, On the Eunuchs in Islam. Jerusalem studies in Arabic and Islam I., Jerusalem, 1979; Goitein, S.D. " Slave and Slave girls in Cairo Geniza Records ", in ARABICA, vol.IX, 1962. Lewis, B., Race and Color in Islam, London, 1971; idem, Race and Slavery in the Middle East, Oxford, 1990.

١٧- المماليك السلطانية هم مشتريات السلطان وجلبانه وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه في السلطنة، ومرتباتهم جميعًا كانت من ديوان المفـــرد. انظـــر : سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٧٧.

١٨- أحمد عبدالرازق، تاريخ وآثار مصر المملوكية، ص٢٧.

Larrivaz, F., Les saintes peregrinations de Bernard de Breydenbach, Le Caire, 1904, p. 55, Ayalon, L`esclavagem p. 13.

١٩- المماليك الأحداث هم المماليك حديثو العهد بالخدمة، وربمـــا قصـــد بـــاللفظ المماليك الأرذال أو السفلة. انظر: المقريزي، الســـلوك، ج١، ق٢، ص٦٤٣؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٧٤٦.

٢٠- أحمد عبدالرازق، تاريخ وآثار مصر المملوكيـــة، ص٢٧-٢٨؛ Ayalon, L'esclavage, p. 22-23.

٢١- الخشداشية، جمع خشداش، وهو معرب اللفـــظ الفارســي خوجاتـــاش، أي الزميل في الرق والعتق، والخشداشـــة، أو الخوشداشـــية أو الخجداشـــية أو الخوجداشية في اصطلاح عصر المماليك، تعنـــي الأمـــراء الذيـــن نشـــأوا بوصفهم مماليك عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمـــة، ولـــهذه الرابطة أثر ظاهر في حوادث تاريخ المماليك بمصر، ومثلها فـــي الأهميـــة التاريخية علاقة الأستاذ ــ أو السيد ــ بمماليكه الذين اشتراهم لنفسه، ولعـــل ذلك راجع إلى قلة الروابط الأخرى بين الأمراء، إذ كـــانوا يجلبـــون مـــن مختلف أسواق النخاسة، وليس بينهم من الروابط سوى ما جد عليهم بمصـــر، انظر : المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٨، هامش (٣)؛ لمزيـــد مـــن التفاصيل انظر لبيبة إبراهيم، الرقيق وتجارته في مصر والشـــام، ص١٧٥، هامش (٣).

٢٢- الجمدار، معناه ماسك البقجة التي للقماش، وهـــو الـــذي يتصـــدى لإلبـــاس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله جاما دار فحذفت الألف بعد الجيـــم وبعـــد الميم استثقالا، وقيل جمدار وهو في الأصل مركب مـــن لفظيـــن فارســـيين أحدهما جاما ومعناه الثوب والثاني دار ومعناه ممسك، فيكون المعنى ممسـك الثوب، انظر : ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطـــرق والمســـالك، باريس، ١٨٩١م، ص١١٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشـــاء، القاهرة، ١٩١٤-١٩٢٨، ج٥، ص٤٥٩، المقريـــزي، الســـلوك، ج١، ق١، ص١٢٣، هـــ١؛ علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصـــر والقـــاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، القاهرة، ١٣٠٥هـــ، ج١٢، ص٢٧، انظر أيضا : منى أحمد حامد المصطلحات الإدارية الفارسية في العصر المملوكي " دراسة معجمية دلالية "، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٨-٢٧.

٢٣- الرنك، كلمة فارسية بكاف معقودة كالجيم المصرية، بمعنـــى لـــون، وقـــد استعمل المماليك هذه الكلمة للدلالة على الشارة أو الشعار أو العلامة التـــي يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره وذلك عند تأمير السلطان لـــه،

انظر : أحمد عبدالرازق، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، م٢١، ١٩٧٤م، ص٦٧-٧١.

٢٤- أحمد عبدالرازق، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، ص٦٧-٧١.

٢٥- هو الأمير قوصون الذي قدم إلى مصر عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م في صحبة الجماعة الذين أحضروا خوند بنت أزبك ملك التتار التي تزوجها السلطان الناصر محمد، انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٥٧-٢٥٨.

٢٦- عبداللطيف إبراهيم علي، نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م٢٧، ج١، ج٢، ١٩٦٥م، ص١٢٣.

٢٧- الزمرذية، إحدى طباق المماليك بالإيوان بالقلعة، واشتهرت باسم الذهبية، وخصصت للمماليك الواردين من بلاد الخطا والقبجاق. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٥، هامش(١).

Hugh Kenndy, The Historiography of Islamic Egypt)C. 950-1800), Leiden, 2001, pp. 72-73.

٢٨- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٤.

٢٩- الأمير الطنبغا المارداني، اشتراه الأمير الناصر محمد صغيرًا، فأختص به ورقاه وزوجه بإبنته، وهو الذي عمر الجامع بالتبانة وأنفق عليه مالا كثيرًا. لمزيد من التفاصيل انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٣٧.

٣٠- ابن حجر، الدر الكامنة، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٥ وما بعدها.

٣١- أق سنقر بن عبدالله الناصري، نسبة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، ترقى إلى أمير مائة ومقدم ألف ثم أمير شعار. لمزيد من التفاصيل، انظر : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٩٦ وما بعدها.

٣٢- طبلخاناة، مرتبة حربية خاصة بأرباب السيف، وأطلق عليهم أمراء طبلخاناة، لأحقيتهم في دق الطبول على أبوابهم كما يفعل السلطان وأمراء المئات، ولكن على صورة مصغرة ويظهر أنهم كانوا يسمون بأمراء الطبلخاناة تمييزًا لهم عمن هم أقل منهم في المرتبة، وليس لهم طبلخاناة.

وقد تزيد رتبة أمير أربعين في بعض الأحيان إلى إمرة سبعين أو ثمانين، أي أن يكون في خدمته ما يساوي أحد هذين العددين، وهي من الوظائف التي جرى إسنادها إليهم وظيفة الدوادار الثاني، ووالي القاهرة، ووالي القلعة، ونائب الإسكندرية، ونائب طرابلس وحماه بالشام، انظر : ابن شاهين، زبد كشف الممالك، ص١١١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٢٣٩، هامش (١).

٣٣- تقدمة المماليك، وظيفة كان صاحبها هو المتحكم في المماليك السلطانية وله الحكم عليهم، وكان يعين صاحبها من الخدام، والغالب كان من أمراء الطبلخاناة، وله نائب أمير عشرة.

٣٤- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٢١. أما عن شيخو فيسمى شيخو الناصري أو شيخو العمري الناصري، تقدم في أيام المظفر حاجي واستقر في أول دولة الناصر حسن من رؤس المشورة، لمزيد من التفاصيل انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٩٣-٢٩٤؛ المقريزي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٧٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٢٤.

٣٥- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢، والكاشف بمعنى الوالي وقد ظهرت وظيفة الكاشف بشكل واضح في دولة المماليك، وكان يشغلها أحد العسكريين، وكانت مهمة الكاشف هي تولي أمور الإقليم والحكم فيه والإشراف على أمنه، وحمايته والدفاع عنه، انظر : الخالدي المقصد الرفيع، ص١٤٨، ٢٣١؛ حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، ج٢، ص٩٢٧ وما بعدها.

٣٦- كانت وظيفة رأس نوبة تعتبر الوظيفة الثالثة من الوظائف التي كان يشغلها عسكريون بحضرة السلطان في عصر المماليك البالغ عددها خمسة وعشرين وظيفة، وكان موضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، صاحبها يتحدث على مماليك أو الأمير، وينفذ أمره فيهم، وكان من يشغلها يستقل عادة بتدبير أمور الدولة، وكان يختار لهذه الوظيفة في العادة أمراء من الخاصكية نظرا لأهميتها. وكان كبير رؤس النوب يسمى

رأس النوب أو رأس نوبة النواب أو رأس نوبة كبير أو رأس نوبة النوب الكبرى وأمير رأس نوبة النوب أو رأس نوبة الأمراء وربما نوبة فقط، ولو أن القلقشندي ذكر أن الاسم الأصح هو "رأس رؤس النوب"؛ انظر : ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٥، حسن الباشا، الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية.

٣٧- هو طاز بن قطغاج، الأمير الشهير، كان صعود نجمه في عهد دولة الصالح إسماعيل، ثم زادت وجاهته في عهد السلطان الناصر حسن، عنه انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤١٤-٤١٥.

٣٨- هو الأمير سيف الدين مغلطاي بن عبدالله الناصر، كان من أعيان مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخاصكيته. تولى رأس نوبة ثم أمير شكار ثم تولى الأخورية الكبرى. عنه انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٠٠.

٣٩- عبداللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص١٢٣.

٤٠- عن قطلوبغا، انظر : الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦١٩، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٥٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٦٩.

٤١- هي ست حدق القهرمانية الناصرية التي كان لها نفوذ كبير على نساء الناصر محمد بن قلاوون، وكان يقال لها ست مسكة، وقد توفيت وهي بكر عذراء وكان موجودها شيئا كثيرا؛ انظر : المقريزي، الخطط، ج٢، ص١١٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٩٦، هـ٣؛ ج١٠ ص٢٣١-٢٣٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٧؛

Amalia, L., A Turning Point in Mamluk History, Leiden, 1995, pp.49-86.

٤٢- وقالت له : " هذا جزاؤه منك وسبته سبا فاحشا "، انظر: المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٤١-٨٤٢.

٤٣- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٤١-٨٤٢؛ انظر : ابن تغري بردي، ج١٠، ص٢٣-٢٣١؛ مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٩٧م، ج٢، ص٨٦؛ علي ابراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خلص، القاهرة، ١٩٤٤م، ص١١٠.

٤٤- منكلي بغا، هو منكلي بغا الناصري الفخري، تولى نيابة طرابلس ثم عظمت منزلته في سلطنة الناصر حسن الأولى، وصار من أكبر أمراء المشورة في مصر. تم القبض عليه في عهد الصالح صالح وسجن إلى أن مات. عنه انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص١٣٦-١٣٧.

٤٥- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٥٦، وما بعدها.

٤٦- كانت هذه الخزانة تقع بجوار باب زويلة، وقد عرفت بسجن خزانة شمائل نسبة إلى الأمير علم الدين شمائل والي القاهرة في عهد السلطان الكامل محمد، وقد عرف هذا السجن باسم سجن متولي القاهرة، ويتبين من وصف المقريزي له، أنه كان من أبشع السجون وأقبحها منظرا يحبس فيه من حكم عليه بالإعدام أو القطع من السراق وأصحاب الجرائم الكبيرة، وقد تم هدمه على يد المؤيد شيخ في عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وأقام مكانه مدرسة. انظر : المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٨٨؛ علاء طه رزق، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٩ وما بعدها.

٤٧- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٢.

٤٨- بئر الوطاويط، أنشأ هذا البئر الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل، لينقل منه الماء إلى السبع سواقي، ولما خرجت هذه السواقي، سكنتها الوطاويط، ومن ثم أطلق عليها ذلك الاسم، انظر : المقريزي، الخطط، ج٢، ص٧٤، ١٣٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٧، هـ٢.

٤٩- المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٦٧-٢٦٨؛ عبداللطيف ابراهيم، نصان جديدان، ص١٢٥.

٥٠- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٨؛ عبداللطيف ابراهيم، نصان جديدان، ص١٢٥.

٥١- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٨.

٥٢- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٧-٨٧٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٧٨-٢٧٩؛ ابن ايـاس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٤؛ انظر أيضا : أمال العمري، دراسة لزخارف على لوح من الرخام عثر عليه في مدرسة صرغتمش، مجلة كلية الاثار، جامعة القاهرة، العدد الأول، ١٩٧٥م، ص١٤٦.

٥٣- الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٥٧؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ق١، ص٥٤٤.

٥٤- أقرب مرادف لهذا اللفظ كلمة تفتيش ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد، مضافا إليها جهة الاختصاص، مثل شاد الجوالي وشاد دار البطيخ والفاكهة وشاد مراكز البريد وشاد الزكاة، وكان عمل شاد الدواوين بمصر – أيام الأيوبيين والمماليك – معاونة الوزير في مراقبة الحسابات ومراجعتها، انظر : المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص١٠٥، هامش (٢).

٥٥- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٧٩؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٤.

٥٦- ناظر والجمع نظار، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله، وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأعمال التي قاموا بها، فناظر الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها، وناظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان، وناظر الدولة يشارك الوزير في التصرف عامة، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر النظار أو الصاحب الشريف ومقره ديوان النظر، انظر : الخالدي المقصد الرفيع، ص١٣٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٥-٤٦٦؛ المقريزي، السلوك، ج١،

ق١، ص٥٣، هامش (٤)؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٨٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٠.

٥٧- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٤٥؛ عبداللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص١٢٧.

٥٨- زويلة، طائفة من البربر قدموا مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي فاختطوا داخل القاهرة بهذا المكان وهو بحري القصور إلى الغرب، فعرفت هذه الحارة باسم حارة زويلة، انظر : ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت، ١٨٩٣م، ج٤، ص٣٧؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤.

٥٩- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٠.

٦٠- يرى البعض خطأ أن المقصود بالهرجة هو الدينار المهرج أي الردئ والصحيح أن الهرجة هو الدينار المصنوع من الذهب الخالص، وهو مستدير الشكل على أحد وجهيه شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان، وتاريخ ضربه، واسم المدينة التي ضرب فيها وهي إما القاهرة، أو دمشق أو الإسكندرية، ولكل سبعة مثاقيل منها زنتها عشرة دراهم. انظر : رأفت محمد النبراوي، السكة الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٣٤٥. ويمكن القول أن الدينار الهرجة أو المهرجة هو الدينار الذهب الكامل الوزن الخالص العيار وهو عبارة عن ٩٠٪ من المثقال عادة، كما يفهم من خطط المقريزي، ج٢، ص٢٩٢، ومن خطط علي مبارك، ج٢٠، ص٣٣. وقد ذكر المقريزي الهرجة في كتابه السلوك، ج٢، ق٢، ٢٣٩٣؛ كما ذكرها ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة ليدلل على تمييزه عن الدينار الناقص الوزن الذي ضرب في عهد الناصر فرج عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م وعلى

تمييزه أيضا عن العملة الأجنبية المسماة بالأفلوري أو المشخص. وهذه كلها عملة شاعت على عهد المؤلف. انظر : علي مبارك، الخطط، ج١٠، ص٥١،٤١-٤٢،١٤٢.

٦١- تسمى أيضا كلوته وجمعها كلوتات، غطاء الرأس وهو طاقية تلبس وحدها أو بعمامة. انظر : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٣٠، هامش (١)؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٥٥.

٦٢- الطواشي، والجمع طواشية، وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية، وفي الحريم السلطاني " وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، ويعد شيخهم من أعيان الناس "؛ انظر : المقريزي، الخطط ج٤، ص٢١٩؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٥٥.

٦٣- الأهراء، المخازن والشون التي تخزن فيها الغلال، والأهراء السلطاني الخاصة بالسلطان، ولا تفتح إلا في حالات الشدة والمجاعات؛ انظر : ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٢٢ وما بعدها؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤١٥.

٦٤- المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٨٠-٨٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨١-٢٨٢.

٦٥- السمور بفتح السين والميم المشددة المضمومة حيوان بري يشبه السنور، وزعم بعض الناس أنه النمس، وهو حيوان جرئ ليس في الحيوانات أجرأ منه على الإنسان، لا يؤخذ إلا بالحيل ولحمه حار، والترك يأكلونه، وجلده لا يدبغ كسائر الجلود، انظر : كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ط٢، القاهرة، ١٣١٣هـ، ص٢٨؛ ويتخذ منه نفيس الفراء التي يلبسها الملوك وأكابر الأعيان لحسنها ودفئها، انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٩.

٦٦- الوشق نوع من فراء الذئاب، انظر، الدميري، حياة الحيوان، ج٢، ص٣٢٤.

٦٧- السنجاب حيوان أكبر من الفأره وشعره في غاية النعومة يتخذ من جلده الفراء الذي يلبسه المتنعمون، وهو شديد الحيل، إذا أبصر الإنسان صعد

الشجرة العالية، وفيها يأوى، ومنها يأكل. ويوجد كثيرًا في بـــلاد الصقالبـــة والترك، وهو سريع الحركة عن الإنسان وأحسن جلـــوده الأزرق الأملـــس، انظر : الدميري، حياة الحيوان، ص٢٨-٢٩.

٦٨- القماقم، حيوان يشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجًا وأرطب ولـــهذا هـــو أبيض اللون، ويشبه جلده جلد الفنك وهو أعز قيمة من الســـنجاب، ويؤخـــذ منه الفراء الذي يستعمل في الزينـــة عنـــد الأغنيـــاء كســـلاطين الممـــاليك وأمرائهم، انظر : المقريـــزي، الســـلوك، ج٢، ص٩٨؛ الدمـــيري، حيـــاة الحيوان، ج٢، ص٩٧.

٦٩- الكفت، التطبيق أو التكفيت : طريقة في الزخرفة قوامها حفر رســـوم علـــى سطح معدن ثم ملاء الشقوق التي تؤلف هذه الرسوم بقطع أخرى من مـــادة أغنى قيمة. انظر: زكي حسن، فنون الإسلام، ط١، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٥٣٠.

٧٠- ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٤٤-٥٤٥.

٧١- المقريزي، الخطط، ج٢، ق٣، ص٨٨١، هامش (١).

٧٢- المقريزي، الخطط، ج٢، ص٥٩ وما بعدها؛ الســـلوك، ج٢، ق٣، ص٨٨٨؛ محمد محمد أميـــن، الأوقـــاف والحيـــاة الاجتماعيـــة فـــي مصـــر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، دراســـة تاريخيـــة وثائقيـــة، القـــاهرة ١٩٨٠م، ص٣٦٧-٣٦٨.

٧٣- المقريزي، الســـلوك، ج٢، ق٣، ص٨٨١،٨٨٢،٨٨٣،٨٨٧؛ ابـــن تغـــري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٢-٢٨٤؛ ابن اياس، بدائع الزهـــور، ج١، ق١، ص٥٤٧.

٧٤- البيومي إسماعيل الشربيني، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصـــر سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين، ع١١١، القـــاهرة ١٩٩٧م، ج٢، ص٥٤-٨٥.

٧٥- منجك اليوسفي تدرج في الوظائف فتولي رتبة سلاح دار ثم اســـتقر حاجبـــا بدمشق عام ٧٤٨هـ ثم أعيد واستقر وزيرًا واستادار فباشر بحرمة ومهابـــة وتمكن من الدولة، وفتح باب الأخذ على الولايات والنزول عن الاقطاعـــات

مما ترتب عليه مفاسد كثيرة منها وصول الأوباش إلى المراتب، وصرف عن الوزارة ثم قبض عليه وسجن بالإسكندرية ثم أفرج عنه وأعيدت له أملاكه واستقر في نيابة طرابلس حتى مات في عام ٧٧٦هـ، انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص١٣٠-١٣١.

٧٦- حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٦.

٧٧- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٦؛ عبداللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص١٢٧-١٢٨.

٧٨- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٦؛ عبداللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص١٢٨.

٧٩- ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج٢، ص٩٠، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٧؛ عبداللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص١٢٨؛ محمد عبدالغني الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر من عام ٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) سلسلة تاريخ المصريين، عدد ١٥٨، القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٤٥.

٨٠- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٧.

٨١- يتألف هذا اللقب من لفظين مركبين، وهما أطا بمنى أب، وبك بمعنى أمير، وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير من أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعده على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيرا ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية، ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر، على مقدم العسكر أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعا، وكان يسمى أتابك العساكر، انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص١٤٦، هـ١.

٨٢- عن وظيفة نظر البيمارستان انظر : ليلى عبدالجواد، بعض أضواء على وظيفة ناظر البيمارستان المنصوري، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث، م١، ١٩٩٥م، ص٢٠٦، ٢٥٥.

٨٣- المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٠٥.

٨٤- نفس المصدر والصحفة.

٨٥- الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٥٧؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٠٥؛ السلوك، ج٢، ق١، ص٣٥؛.

٨٦- والمربعات الجيشية هي التي يصدرها ديوان الجيش، والمربعات تكتب بالأقطاعات لتخرج المناشير على نظيرها، وقد جرت عادت ديوان الجيش أنه إذا عين ناظر الجيش المثال أو القصة أو الإشهاد على أحد من كتاب ديوان الجيش، يخلد الكاتب ذلك عنده ثم تكتب به مربعة من ديوان الجيش، وتكمل بالخطوط وتجهز إلى ديوان الإنشاء فيعينها كاتب السر على من يكتب بها منشوراً؛ انظر : القلقشندي، ج٤، ص٢١٧، ج٦، ص٢٠١-٢٠٢، ج٢١، ص١٥٣-١٥٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٥٣؛ مجدي عبدالرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٨٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ١٧٠، ١٩٩٩م، ص٤٨ وما بعدها.

٨٧- ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٦؛ عبداللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص١٢٩.

٨٨- ابن أبي حجلة، سكردان السلطان، ط١، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٦٣-٢٦٤، ففي يوم الاحتفال بذلك العيد كان يتوافد النصارى من مختلف أنحاء البلاد إلى شبرا الخيام حيث ينصبون الخيام على ساحل النيل، وقد صور لنا المقريزي يوم عيد الشهيد بقوله " ولا يبقى مغن ومغنية، ولا صاحب لهو ولارب ملعوب، ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد ". ويفهم مما ذكره المقريزي هنا أن جميع الطبقات كانت تشارك النصارى في الاحتفال بهذا العيد في عصر سلاطين المماليك.

٨٩- الشهر المقابل لبشنس هو شهر مايو وهو من الشهور " الأيليوسية " الميلادية ويعد من شهور الصيف، أحمد رمضان، تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٩م، ص٧١.

٩٠- معنى الشهداء عند قبط مصر، الشهداء هم رجال الكنيسة القبطية الذين قاموا بدور هام في بناء الكنيسة وتحملوا صنوفا عديدة من العذاب ببسالة نادرة كما تعرضوا لنار الاضطهاد وكانوا نموذجا للبذل والتضحية مظهرين اسمى منزلة للتفاني المقترن بالفرح مستعينين بقوى عجيبة مصدرها الروح الإلهية. انظر : ايريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٥٢م، ص١٥١؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، ١٩٦٧، ج٢، ص١٧١.

٩١- بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير، كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى إلى أن وصل إلى وظيفة جاشنكير وهو اسم وظيفة مركبة من لفظين فارسين : أحدهما جاسنا أو جاشني ومعناه الذوق، والثاني كير ومعناه المتعاطي لذلك، أي أن المعنى الإجمالي وهو الذي يتذوق الطعام، والجاشنكير موظف مهمته أن يتذوق الطعام والشراب قبل أن يتناوله السلطان خشية أن يكون مسموما، ولذلك كان له حق الإشراف التام على إعداد الطعام والشراب ومراقبة من يقومون بذلك والتأكد من إخلاصهم. انظر : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٦٠؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ص٣٤٣؛ وكان بيبرس أشقر اللون مستدير اللحية، ولما خرج الناصر إلى الحج استبد بالملك وتلقب بالمظفر، ولم يستمر في السلطنة مدة طويلة. انظر : ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٥٠٢ وما بعدها.

٩٢- المقريزي، تاريخ الأقباط، ص٢٥١-٢٥٢.

٩٣- المقريزي، الخطط، ج١، ص٦٨-٦٩؛ قاسم عبده، دراسات في تاريخ مصر، ص١١٠.

٩٤- المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٣٩، ومن المعروف أن سك العملة من شارات الملك والسلطان.

٩٥- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٦٢؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٧-٨.

٩٦- حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٩.

٩٧- اندثرت هذه الدار، ومكانها اليوم دار راشد باشا حسني المعروف بأبي شنب فضة، رقم ٩ بشارع الصليبة بالقاهرة، وقد آلت هذه الدار إلى ولده أحمد بك احسان وهي بالقرب من جامع صرغتمش ويشغلها اليوم كلية الشريعة الإسلامية أحد أقسام الجامعة الأزهرية، انظر : سعاد ماهر، مساجد مصر، ج٣، ص٢٦٩-٢٧٠.

٩٨- سعاد ماهر، مساجد مصر، ج٣، ص٢٦٩؛ وانظر الأشكال الملحقة بالبحث.

٩٩- المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٣٢.

١٠٠-المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٨؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ج٣، ص٢٦٨؛ انظر أيضاً : ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٣٥٣؛ أحمد فكري، تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، ص١٣٦، ١٦١.

١٠١-المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٩، تجدر الإشارة إلى أن مدرسة صرغتمش بما ازدانت به من تحف رخامية بأروع الأمثلة من النقوش النباتية والحيوانية على الرخام في عصر المماليك، تعتبر المثل الإسلامي الوحيد من الرخام المزين بزخارف حيوانية في عمارة دينية لا في مصر فحسب بل في العالم الإسلامي أجمع. انظر : أمال العمري، درساً لزخارف، ص١٥٣.

١٠٢- علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج٥، ص٩٣.

١٠٣-ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٣؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٩-١٠؛

Mayer, L.A. Saracenic Heraldry, Oxford, 1933. P. 209.

104- Mayer, Saracenic Heraldry, p. 209

١٠٥-ابن حبيب، تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٦م، ج٣، ص٢١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص٣٠٨-٣٠٩؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧٠؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٣٠٥؛ مورد اللطافة، ج٢، ص٩٢.

١٠٦-ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٢١٣؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٤٢-٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٠٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧٠ وما بعدها.

١٠٧-الزعر أو الزعرة أو الزعارة، جمع زاعر وهو اللص أو المحتال، والزعر بالضم تعني الخوف أو الفزع، عن المعاني المختلفة لهذا الاسم، انظر : المقريزي،، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨م، ج١، ص١٤، هـ٤؛ ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٢٦، ج٣، ص١٥٠٢؛ محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨١م، ص٩؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين، ٢١٥٢، القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٠٦-٢٠٧.

١٠٨-ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٣؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٩.

١٠٩-

١١٠-الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣٥.

١١١-ابن قاضي شهبة، الاعلام بتاريخ، ج٤، ص٣٣.

١١٢-سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص٣٥.

١١٣-المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص٩٧.

١١٤-أحمد عبدالرازق، تاريخ وآثار مصر المملوكية، ص٧.

١١٥-سعاد ماهر، مساجد مصر، ج٣، ص٢٧٥؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص١٥.

١١٦-ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص١٧٥١؛ محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، ص٢٠٤.

١١٧-ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣١١؛ المنهل الصافي، ج٦، ص٣٤٤؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧١؛ حسن القصاص،

المدرســة الصرغتمشــــــية، ص٨-٩؛ Mayer, L.A. Saracenic Heraldry, P. 209.

١١٨- استخدم مصطلح أولاد الناس في العصـــر المملوكـــي ليشــير إلـــى أبنـــاء السلاطين والأمراء المماليك الذين ولدوا بمصـــر، وكـــانت نظـــم تربيتـــهم وتعليمهم مختلفة عن أولئك القادمون من خلال اسواق المماليك بالقاهرة. كما كانت تشير إلى فرقة منهم بالجيش المملوكي، انظر : المقريزي، الســـلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٠، هــ٢؛ ابراهيم حسن سعيد، الجيش في عصر سـلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، القـاهرة، ١٩٧٥م، ص١٠٥-١٠٩؛ إلا ان هذا المصطلح كان يعني ايضا المصريون الذين صاروا أمراءا وكـان يميل إليهم الأمير صرغتمش. انظر : ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهــرة، ج١٠، ص٣٠٩، هــ١.

١١٩- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٠٩ ومـــا بعدهـــا؛ المنـــهل الصافي، ج٦، ص٣٤٣-٣٤٤.

١٢٠- ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٢١٣؛ ابن كثير، البداية والنهايـــة، ج١، ص٢٦٢؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧١.

١٢١- ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٢١٣، ابن أبي حجلة، سكردان السـلطان، ص٣٧-٣٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠٧؛ المقريزي، السـلوك، ج٣، ق١، ص٤٤؛ عبداللطيف ابراهيم، نصان جديدان، ص١٣٢.

١٢٢- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٦٠؛ حســـن الباشـــا، الألقـــاب الإسلامية، ص٤٨٩ وما بعدها. عن الألقاب الواردة في اللوحـــة التأسيســـية لمدرسته، انظر الأشكال أرقام ٢ ، ٤ ، ٤؛ انظر أيضا :

Hiba Ali Yusuf, L`Eclairage a L`epoque, Mamluke en Egypte, 648-923/1250-1517, These de doctorate, Universite de Paris IV, Sorbonne, Paris, 2001, tome, II, Plate LXVI; Mayer, Saracenic Heraldry, p, 209-210.

١٢٣- المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص٨٦٥.

١٢٤-ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٥١؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٧٧؛ انظر أيضًا : حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٨٩م، ص٤٩١؛ Berchem, Materiaux, I, No. 191-162

١٢٥-حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١٦٠-١٦١.

١٢٦-المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٧٧-٨٧٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٧٨ وما بعدها؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٤.

١٢٧-المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٣٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٠٢، وما بعدها.

١٢٨-ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٢١٣؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢، ٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٠٨؛ انظر أيضًا: حسن الباشا، الألقاب، ص١٦٠-١٦١.

١٢٩-العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٦٥؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٩، ٣٩١ وما بعدها؛ انظر أيضًا :

Hiba Ali, L'Eclairage PL.LXVI: Mayer, Saracenic Heraldry, pp. 209-210.

١٣٠-الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٥٧؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٠٥؛ انظر أيضا : ;Hiba Ali, L'Eclairage PL.LXVI.

١٣١-ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٦.

١٣٢-المقريزي، الخطط، ج١، ص٦٩-٦٩؛ قاسم عبده، دراسات في تاريخ مصر، ص١١٠.

١٣٣-ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٦٢.

١٣٤-العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٧٣، ٢١٠؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٣٨٨، ٣٩٠؛ ص٥١٨-٥١٩.

135- Mayer, Saracenic Heraldry, pp. 209-210

١٣٦- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٣٩٠.

١٣٧- الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٥٥؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٤٣-٣٤٤؛ انظر أيضا : حسن الباشا، الألقاب، ص٣٩٠.

١٣٨- المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٣٣؛ انظر أيضا : حسن الباشا، الألقاب، ص٣٨٨.

١٣٩- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤١٦؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٨٠.

١٤٠- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٦٤؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٨٠؛ حسن الباشا، الألقاب، ص٣٤١ وما بعدها؛

Hiba Ali, L'Eclairage PL.LXVI.

141- Mayer, Saracenic Heraldry, pp. 209-210.

١٤٢- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨.

١٤٣- حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٨٠؛ Mayer, Saracenic Heraldry, pp, 209

١٤٤- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٧، ٥٠؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٥٠١-٥٠٢؛ انظر أيضا:

Hiba Ali, L'Eclairage PL.LXVI.

145- Mayer, Saracenic Heraldry, p. 209.

146- Mayer, Saracenic Heraldry, p. 209.

١٤٧- حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٨١؛ حسن الباشا، الألقاب، ص٥٢٥ وما بعدها؛ Mayer, Saracenic Heraldry, pp, 209.

١٤٨- ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٢١٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠٧؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، حسن الباشا، الألقاب، ص٤٦٨؛ Berchem, Materiaux, I, No 161.

١٤٩- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٩٤-٤٩٥.

١٥٠- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٩٤-٤٩٥، ص٢٢٢ وما بعدها؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص٨٢؛

Berchem, Materiaux, I, No 161.

١٥١- حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية، ص١٣٥؛ عن هذه الألقاب انظر الملحق الثاني من البحث، وعن تاريخية هذه الألقاب ومدلولها انظر : حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١٨٧، ٢٩٢، ٣٠٤، ٣٨٧، ٤٠١، ٤٠٣-٤٠٤،، ٤١٣-٤١٤، ٤٤٠، ٤٦٧، ٤٩٥، ٥٠٩، ٥٣٠؛ انظر أيضًا :

PL. LXVI ff. Hiba Ali, L'Eclairage.

152- Mayer, Saracenic Heraldry, pp. 209.

الملاحق

الملحق الأول

مدرسة الأمير صرغتمش الناصري[1]

وصف تاريخي

تقع هذه المدرسة بمنطقة السيدة زينب ١٠ شارع الخضيري على يمين القادم من ميدان السيدة زينب متجهًا إلى القلعة حيث تلصق جامع ابن طولون؛ وهذه المدرسة مسجلة تحت رقم ٢١٨ أثر.

ويشير المقريزي أن الابتداء في عمارة هذه المدرسة كان في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، والانتهاء منها كان في جمادي الأولى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م وجعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفًا على فقهاء الحنفية وكذلك لتدريس الحديث.

ويظهر في عمارة هذه المدرسة الكثير من التأثيرات الفارسية ويبدو أن المحتمل أن مهندسًا فارسيًا أنشأ هذه المدرسة.

وقد افتتح صرغتمش هذه المدرسة في عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م بحضور الأمير سيف الدين شيخون العمري وزير الدولة، والأمير طاشتمر القاسمي حاجب الحجاب وعامة أمراء الدولة وقضاة القضاة الأربعة ومشايخ العلم حتى وصلوا إلى المدرسة حيث مد سماطًا جليلا.

---

١ - أعد الباحث هذا الملحق اعتمادًا على المصادر والمراجع التالية :
المقريزي، الخطط المقريزية، طبعة لبنان، ١٩٥٩م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٨٢-١٩٨٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٢٩٩هـ؛ حسن عبدالوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة، ١٩٧٠م؛ حسن القصاص، المدرسة الصرغتمشية.

ويوجد ثبت بأسماء الذين قاموا بالتدريس في هذه المدرسة نذكر منهم شـريف الدين يحيى بن عبدالله الشهير بالرهوني، محمد بن احمد التلمساني، جلال الدين ابـو احمد يوسف التبزيتي، محمود بن قطلو شاه الشهير بأرشد الدين، واحمد بـن أبـي يزيد بن محمد السراي الحنفي الشهير بمولانا زاده، جلال بن أحمـد بـن يوسـف القباني، محمود بن أحمد عبدالله الشهير بالقيصري، بدر الدين محمود بـن عبـدالله الشهير بالكلستاني، عبدالرحمن بن علي بن عبدالرحمن الشهير بالتفهني.

وللمدرسة بابان : أحدهما كبير مربع، وهذا الباب يعلق عليه زوج أبواب مـن خشب الجوز وعلى جانبي الباب مصطبتان من الحجر، وفيما بين المسطبتين سـاحة كانت مفروشة بالرخام الملون الذي فقد الكثير من لونه الآن[1].

يؤدي الباب إلى دهليز كان مفروشا بالرخام، وينتهي الدهليز بباب علـى زوج أبواب يؤدي إلى صحن المدرسة، وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية عـام ١٩٤٤م بإعادة تركيب بلاط الدهليز.

وتشتمل المدرسة على أربعة أواوين متقابلة أحدهما : وهو الايـوان القبلـي، وبه المحراب، وهو محراب مرخم مذهب بكل من جانبيه عمود رخام وقـد جـدد المحراب حديثا[2].

أما الضريح فكان مفروشا بالرخام الملون، يعلوه قبه مبنية بالطوب والجبـس وبالجهة البحرية منه مدفن، وبه شبابيك وطاقات على الطريق المذكور[3]. وبتوسـط الصحن تركيبة رخامية عليها زخارف وكتابات، كما شيدت القبة على مثال القبـاب السمرقندية.

ويتوسط الصحن فسقية[4]، عبارة عن مثمن من الحجر بداخله مثمـن أخـر، والمثمن الأخير أكثر ارتفاعا يرتكز عليه ثمانية أعمدة، وهذه الفسقية كانت مسـقوفة بسقف خشبي مسطح، ويتوسط الفسقية مثمن صغير، وحول الصحـن يوجـد سـتة

---

١ - انظر الشكل رقم ١ و ٢.
٢ - انظر الشكل رقم ٧.
٣ - انظر الشكل رقم ٩.
٤ - انظر الشكل رقم ٦.

عشر بابا، وقد حليت عقد تلك الأبواب بصنج من الرخام الأبيض والأسود، وتلك ميزة انفردت بها تلك المدرسة.

وتشتمل هذه المدرسة على مجموعة من الكتابات الأثرية ذات الأساليب المختلفة على أنواع مختلفة من المواد فمنها ما هو على الرخام، ومنها ما هو على الجص، وما هو على الخشب، كذلك تختلف هذه الكتابات من ناحية العصر الذي كتبت فيه، فمنها ما يرجع إلى تاريخ إنشاء المدرسة، ومنها ما يرجع إلى العصر العثماني. وتنقسم الكتابات في هذه المدرسة إلى ثلاثة أنواع من النصوص :

أولا : نصوص تأسيسية.

ثانيا : نصوص دعائية.

ثالثا : نصوص قرآنية وتشتمل على آيات قرآنية.

كان هذا وصفا تاريخيا موجزًا للأثر الوحيد الباقي للأمير صرغتمش الناصري، لنقف من خلاله على مدى المجهود الذي بذل لعمارة هذه المدرسة؛ واهتمام صرغتمش بالمنشآت والمباني، حتى استحق لقب " باني المدارس والمساجد"[1].

---

١ - انظر الشكل رقم ٤.

الملحق الثاني

ألقاب الأمير صرغتمش كما وردت في وثيقة وقف مدرسته[1]

" بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه. هذا كتاب وقف صحيح شرعي وحبس صريح دايم مرعى لا ينتسخ حكمه ولا يندرس رسمه، ولا ينقطع ثوابه وأجره ولا يضيع عند الله الكريم جزاءه وبره اكتتبه المقر الشريف العالي المولوي الأميري الكبيري العضدي الذخري النصيري المجاهدي المرابطي الغوثي الكهفي المقربي المؤتمن الملاذي السيفي عز الإسلام والمسلمين ركن الغزاة والمجاهدين ملجأ القاصدين ممهد الممالك عضد الدولة ظهير السلاطين كهف الفقراء والمساكين صرغتمش الناصري رأس نوبة الأمراء الجمدارية الملكية الناصرية تقبل الله منه أعماله وبلغه من خيري الدارين أماله وأشهد على نفسه الكريمة وهو في حال صحته وسلامته أنه وقف وحبس وأبد وسبل وحرم وتصدق بجميع ما هو له وفي يده وملكه وتصرفه واختصاصه وحيازته فمن ذلك جميع المكان المستجد الانشا والعمارة وما هو من حقوقه أرضا وبنا المعروف بأنشائه وعمارته وذلك بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابي زويلة بخط الكبش وبير الوطاويط على يمنه السالك من الكبش وتربتي المقر العالي السيفي سلار والمقر العالي العلمي سنجر الجاولي طالبا بير الوطاويط... ".

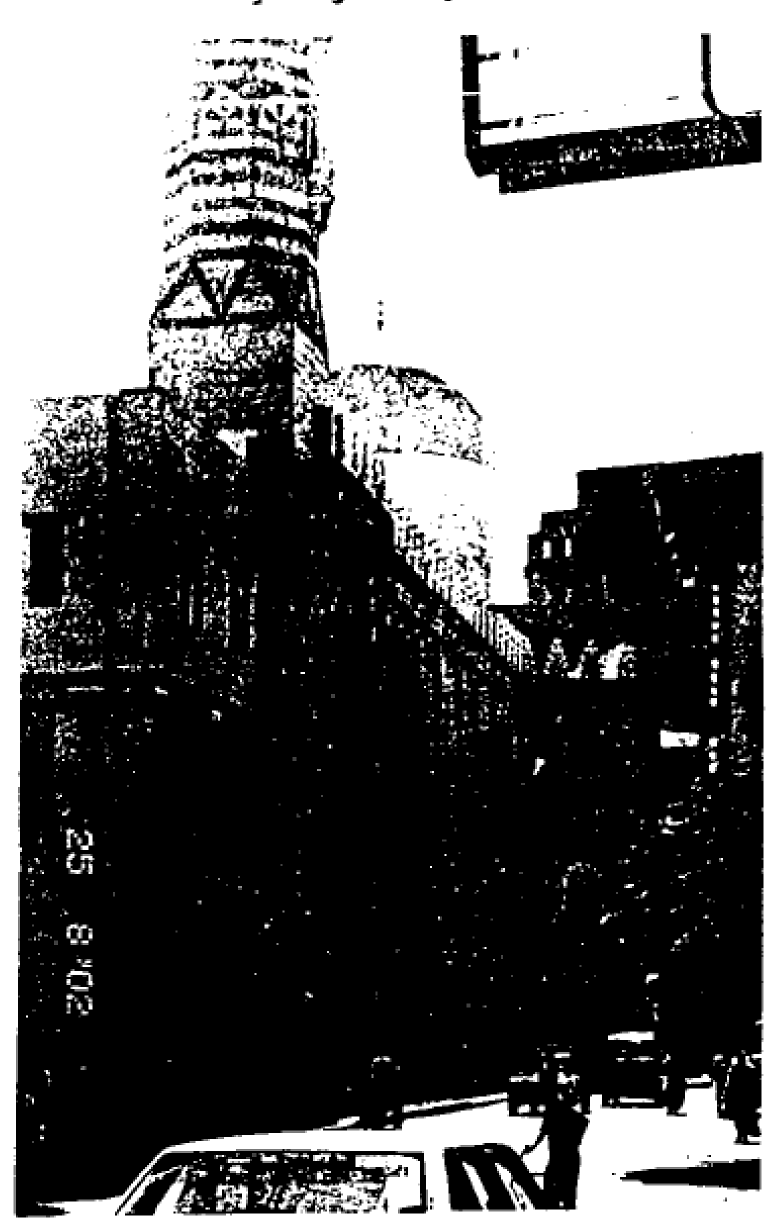
---

[1] نقلا عن حسن القصاصي، المدرسة الصرغتمشية، ص١٣٥.

الأشكال

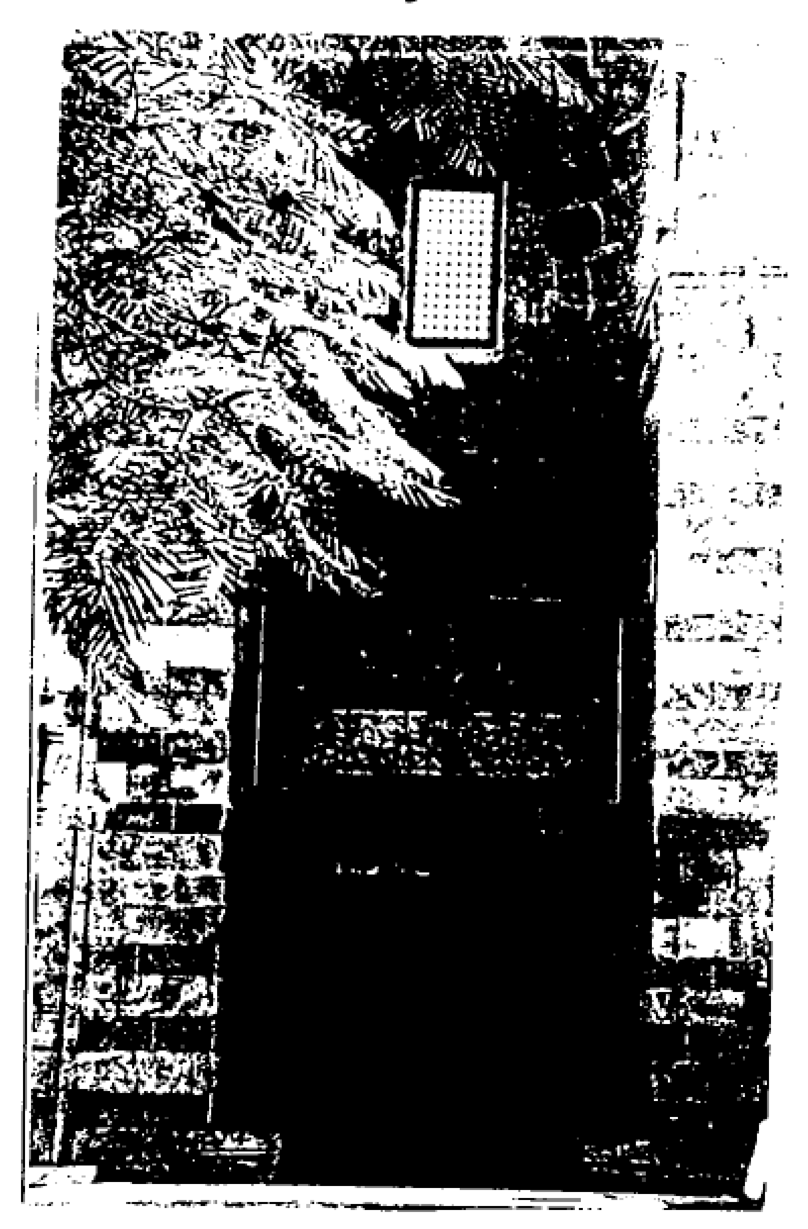
شكل رقم (١)

المدرسة الصرغتمشية



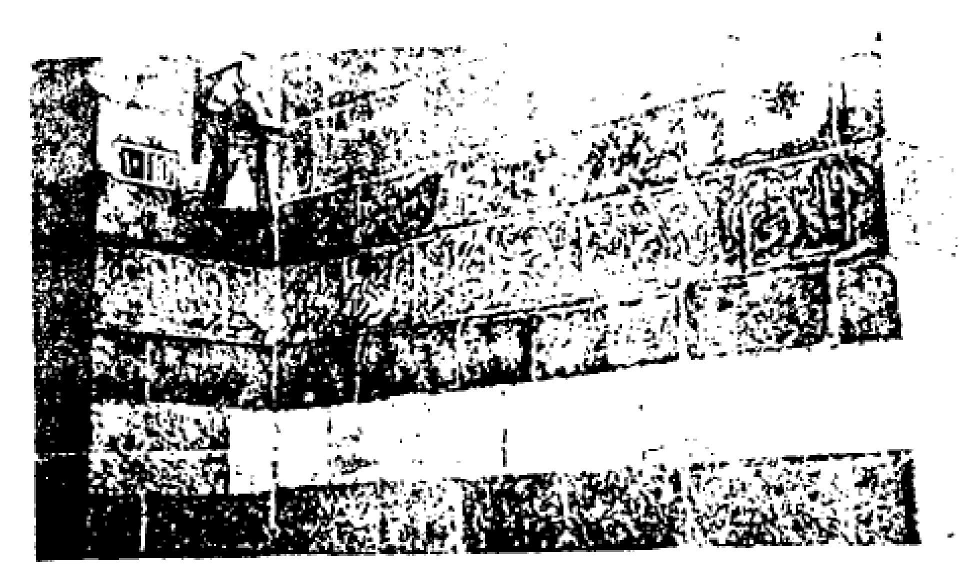
شكل رقم (٢)

المدخل الرئيسي لمسجد ومدرسة الأمير صرغتمش الناصري ويظهر على يمين ويسار المدخل اللوحة التأسيسية للمدرسة والمصطبة اليمنى واليسرى للمدخل



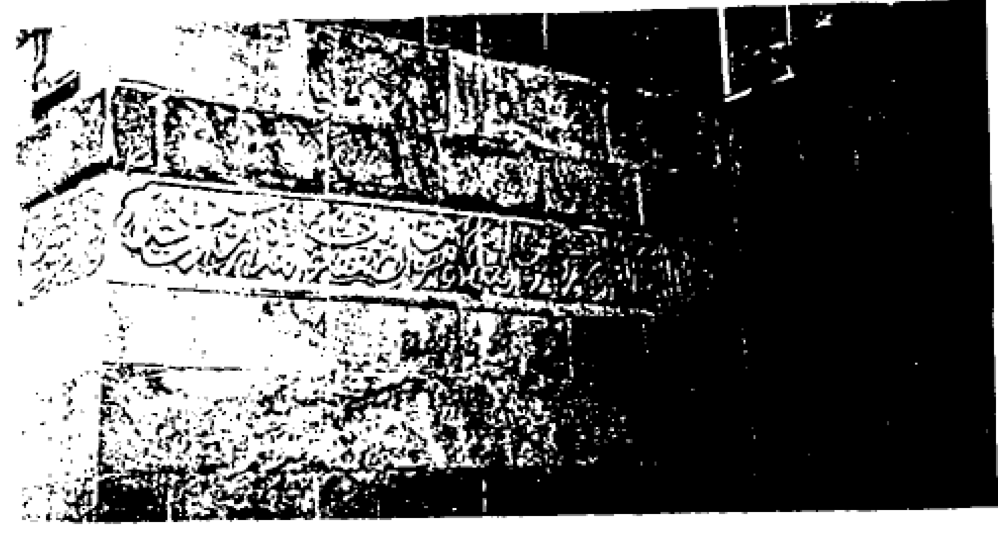
شكل رقم (٣)

العضادة اليمنى للوحة التأسيسية للمدرسة الصرغتمشية



شكل رقم (٤)

العضادة اليسرى للوحة التأسيسية للمدرسة الصرغتمشية



النص : السيفي صرغتمش رأس نوبة الملكي الناصري مربى العلماء مقوى الضعفاء باني المدارس والمساجد في ربيع الآخر سنة سبع وسبعماية وخمسين.

شكل رقم (٥)

مئذنة المدرسة الصرغتمشية المكونة من ثلاثة طوابق

نموذج للعمارة المملوكية



شكل رقم (٦)

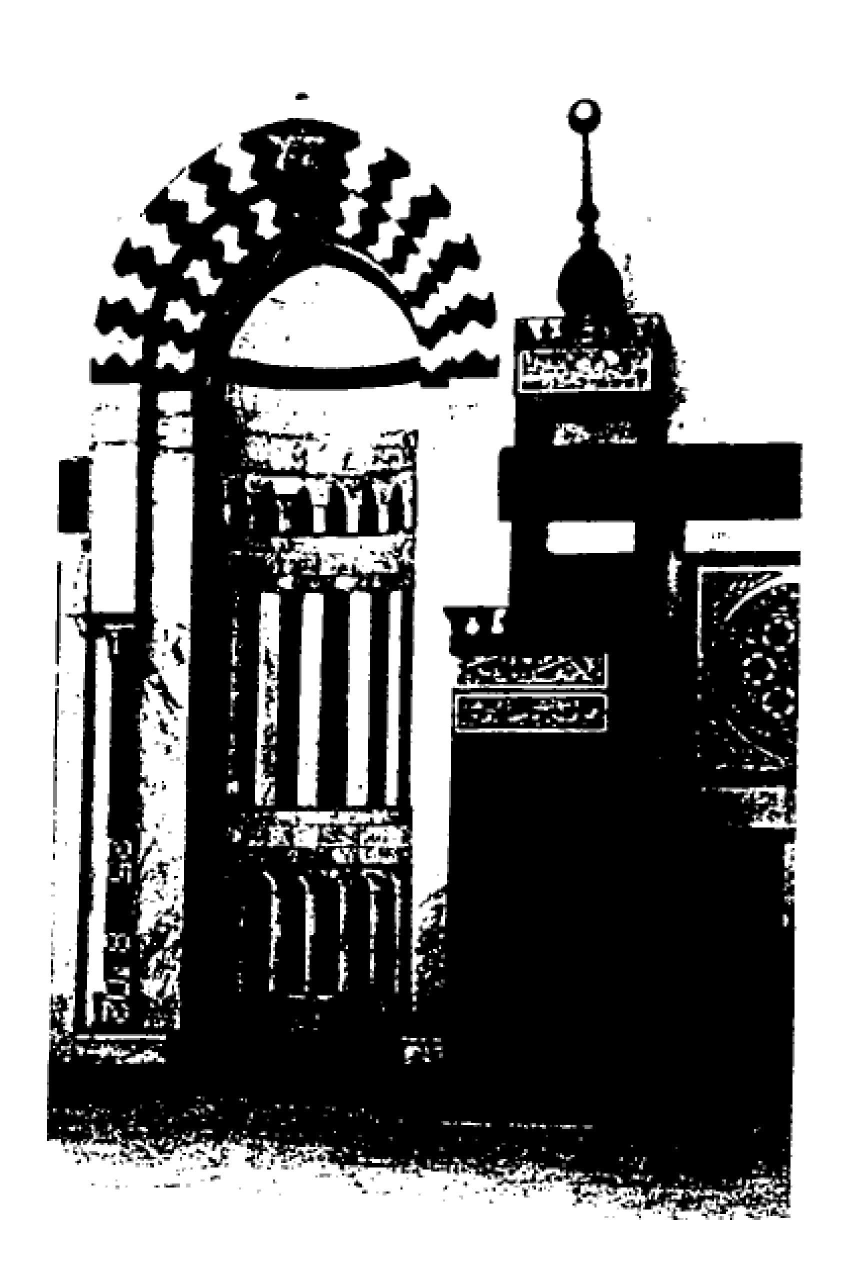
صحن المدرسة الصرغتمشية ويظهر في اللوحة بعض الأبواب الداخلية والفسقية التي جددت قبتها وأعمدتها حديثا



شكل رقم (٧)

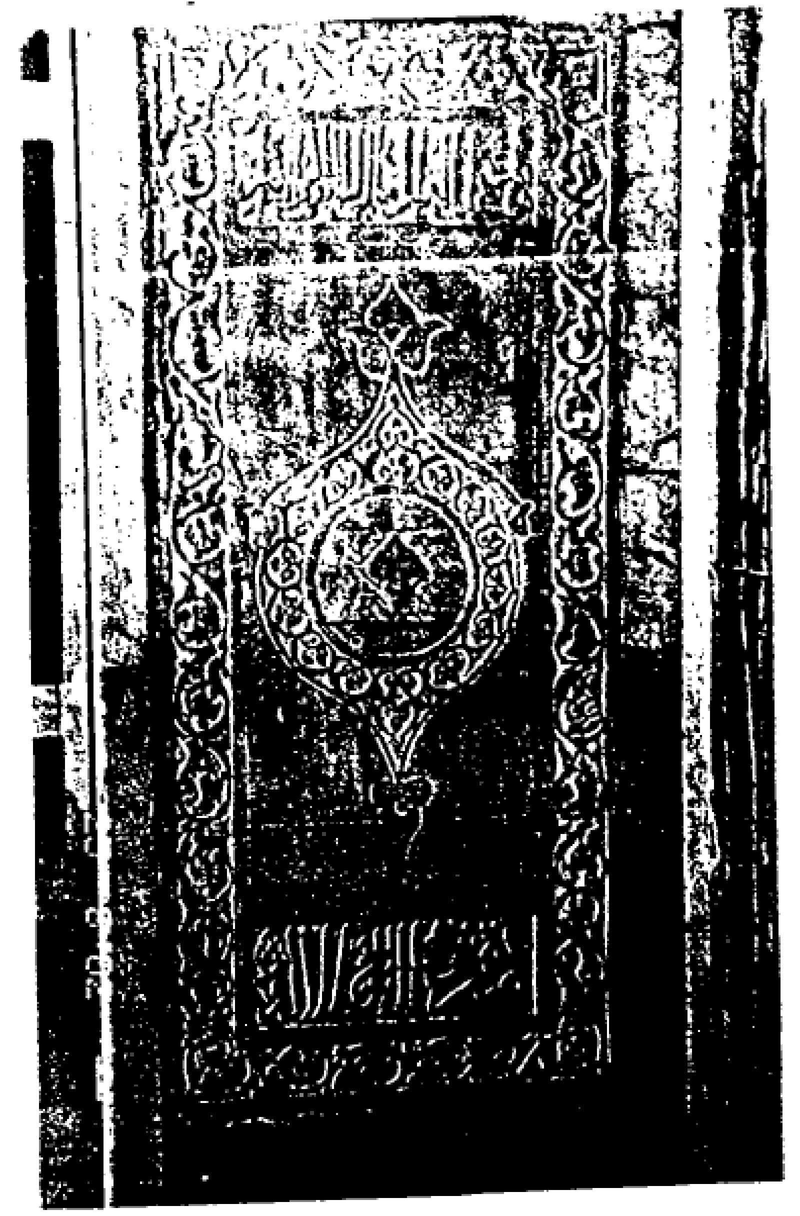
محراب ومنبر مسجد ومدرسة الأمير صرغتمش

ويقع على يمينه ويساره رنك الأمير صرغتمش رمز الجمدار



شكل رقم (٨)

رنك الأمير صرغتمش الناصري



السطر العلوي : مما عمل رسم المقر العالي السيفي الملكي الناصري.
السطر السفلي : صرغتمش أسبغ الله ظلاله.

شكل رقم (٩)

ضريح الأمير صرغتمش الناصري



قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- الخالدي :

- المقصد الرفيع المنشا إلى صناعة الانشا، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٤٥.

- ابن أبي حجلة شهاب الدين :

- سكردان السلطان، ط١، القاهرة، ١٩٥٧م.

- ابن اياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) :

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، خمسة أجزاء، ط٢، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٢-١٩٨٤م.

- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية حتى [illegible]، ج١٣، تحقيق : محمد فهيم شلتوت، ج١٤، تحقيق : جمال محرز فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٧١م، ج١٥، تحقيق: إبراهيم طرخان، القاهرة، ١٩٧١م.

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج١-٢، تحقيق : محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م؛ ج٣، تحقيق : نبيل محمد عبدالعزيز، ١٩٨٦م؛ ج٤، تحقيق : محمد محمد أمين، ١٩٨٦م؛ ج٥، تحقيق : نبيل محمد عبدالعزيز، ١٩٨٨م؛ ج٦، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٩٠م.

- الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : محمد فهيم شلتوت، منشورات مركز البحث العلمي، الرياض، ١٣٧٥هـ .

- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق : نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٩٧م.

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :
  - تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، ج١-٢-٣، تحقيق : محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٦م، ١٩٨٢م، ١٩٨٦م.
- ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) :
  - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط حيدر أباد، ١٩٥٤م.
- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي ت ٨٠٦هـ/١٤٠٦م) :
  - الانتصار لواسطة عقد الأمصار، طبعة بيروت، ١٨٩٣م.
- ابن شاهين :
  - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩١م.
- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ت ٧٤٩هـ/١٤٩م) :
  - التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسن شمس الدين، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ/١٩٧٢م) :
  - البداية والنهاية، ط١، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ابن منظور :
  - لسان العرب، طبعة بولاق، ١٣٠١هـ، وطبعة بيروت، ١٩٢٦م.
- الدميري كمال الدين الدميري :
  - حياة الحيوان الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ.
- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر عثمان السخاوي ت٩٠٣هـ/١٤٩٧م) :
  - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءا، القاهرة، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :
  - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ١٢٩٩هـ.

- الشجاعي (شمس الدين الشجاعي) :

- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق : بربارة شيفر، فيسبادن، ١٩٧٨م.

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):

- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، ط١، القاهرة، ١٩٩٨م.

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءا، نسخة مضورة عن المطبعة الأميرية، القاهرة، د.ت.

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة لبنان، ١٩٥٩م.

- السلوك لمعرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى، ج١، ج٢، ستة أقسام نشره سعيد عاشور، ج٣، ج٤، في ستة أقسام عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠م، ١٩٧٢م، ١٩٧٣م.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق : جمال الشيال، القاهرة، ١٩٤٨م.

- تاريخ الأقباط المعروفة بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي، دراسة وتحقيق: عبدالمجيد دياب، القاهرة، ١٩٩٨م.

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم حسن سعيد :

- الجيش في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، مكتبة الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م.

- أحمد رمضان أحمد :

- تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٩م.

• أحمد عبدالرازق :

- الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، م٢١، ١٩٧٤م.
- الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٠م.
- تاريخ وآثار مصر المملوكية، القاهرة، بدون تاريخ.
- الرنوك الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١م.

• أحمد فكري :

- تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

• أمال العمري :

- دراسة لزخارف على لوح من الرخام عثر عليه في مدرسة صرغتمش، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الأول، ١٩٧٥م.

• إيريس حبيب المصري :

- قصة الكنيسة القبطية، القاهرة، ١٩٥٢م.

• ترتون :

- أهل الذمة في العصور الوسطى، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٧م.

• حسن الباشا :

- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٨٩م.
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٨٩م.

• حسن سيد جودة القصاص :

- المدرسة الصرغتمشية .. دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٧٣م.

• رأفت محمد النبراوي :

- السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجراكسية، القاهرة، ١٩٩٣م.

• زكي حسن :

- فنون الإسلام، ط١، القاهرة، ١٩٤٨م.

- سعاد ماهر :
  - مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، ١٩٧٩م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور :
  - العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، القاهرة، ١٩٧٦م.
- سند أحمد سند :
  - البريد في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م.
- علي إبراهيم حسن :
  - دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر بوجه خاص، القاهرة، ١٩٤٤م.
- علي مبارك :
  - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ١٩٨٠م.
- عبدالمنعم ماجد :
  - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، ١٩٦٧م.
- عبداللطيف إبراهيم علي :
  - نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م٢٧، ١٩٦٥م.
- علاء طه رزق :
  - السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- قاسم عبده قاسم :
  - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ليلى عبدالجواد :
  - بعض أضواء جديدة على وظيفة ناظر البيمارستان المنصوري، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث، م١، ١٩٩٥م.

• ماير (ل.م) :

- الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبدالرحمن فهمي، القاهرة، ١٩٧٢م.

• مجدي عبدالرشيد بحر :

- القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧، سلسلة من تاريخ المصريين، رقم ١٧٠، القاهرة، ١٩٩٩م.

• محاسن محمد الوقاد :

- الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٥٢، القاهرة، ١٩٩٩م.

• محمد رجب النجار :

- حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م.

• محمد محمد أمين :

- الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة، ١٩٨٠م.

• محمد رمزي :

- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.

• محمد عبدالغني الأشقر :

- نائب السلطنة المملوكية في مصر من عام ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين، عدد ١٥٨، القاهرة، ١٩٩٩م.

• محمود رزق سليم :

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي .. الأدبي، القاهرة، ١٩٤٧م.

• منى أحمد حامد :

- المصطلحات الإدارية الفارسية في العصر المملوكي : دراسة معجمية دلالية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

ثالثا : المراجع الأجنبية ومختصرتها :

- Amalia, L, A Turuning Point in Mamluk History, Leiden, 1995.
- Ayalon, D., l'esclavage du Mamelouk, Oriental Notes and Studies, No 1, Jerusalem, Israel oriental Socity, 1951.
- The Eunchs in the Mamluk Sultanate, Studies in Memory of Gaston Wite, Jerusalem, 1977.
- On the Eunuchs in Islam, Jerusalem studies in Arabic and Islam 1., Jerusalem, 1979.
- Berchem, M., Materiaux pour un corpus Inscriptorun Arbicorum. Egypte, 1., Paris, 1903.
- Dozy, R.P.A., Dictionnaire detaille des noms des vetements chez les Arabes, Amesterdam, 1845.
- Goitein, S.D.;
  - Slave and Slave girls in Cairo Geniza Records, in ARABICA, vol. IX, 1962.
  - Hiba Ali Yusuf, L.'Eclairge a l'epoque Mamluke en Egypte, 648-923/1250-1517, These de doctorat. Universit de Paris IV, Slrbonne, Paris, 2001, 2 tomes.
- Kennedy, H., Th Historiography of Islamic Egypt (c. 950-1800). Leiden, 2001.
- JA = Journal Asiatiaqu.
- Larrivaz, F., Les saintes Peregrinations de Bernard de Breydenbach. Le Caire, 1904.
- Lewis, B.;
  - Race and Color in Islam London, 1971.
  - Race and Slavery in the Middle East, Oxford, 1990.
  - Mayer, L.A., Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.

- Quatremere. E., Histoire de sultans mamlouks de l'Egypte, Paris, 1844-1845.
- Sauraget. J., Noms et surnoms de mamelouk, Journal Asiatique 238 (Paris, 1950).
- Schultz, W.C., Mamluk Egyption Copper Coinage before 759 AH. 1357-1358 AD : A preliminary Inquiry, Mamlouk Studies Review. 5. (Chicago, 2001).



الوضع السياسي الداخلي في الدولة المظفرية

في عهد الشاه شجاع (٧٦٠ : ٧٨٦هـ) (١٣٥٨ : ١٣٨٤م)

د. هويدا عبدالمنعم سالم إدريس
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة القاهرة

المقدمة :

ظهرت فى أنحاء إيران فى الفترة التى أعقبت وفاة السلطان أبى سعيد بهادرخان – آخر سلاطين الدولة الإيلخانية – أسر حاكمة مستقلة ، منها: سلاطين آل كرت فى شرقى خراسان وهراة، وآل السربدار فى سبزوار وغربى خراسان، وأتابكة لرستان فى لركوجك، وآل جلاير أو الأيلكانيون فى أذربيجان والعراق العربى، والجوبانيون فى أرمنستان وكرجستان.

كانت أسرة آل المظفر إحدى هذه الأسر الحاكمة التى امتد حكمها ٧٧ عاما من ٧١٨ هـ: ٧٩٥ هـ/ ١٣١٨م: ١٣٩٢م ، وشملت مناطق نفوذها: يزدوكرمان، وفارس، وخوزستان ولرستان، وأصفهان، كما امتدت مرتين لفترة قصيرة إلى قزوين، وزنجان، وعدة أيام فقط إلى أذربيجان.

اعتلى العرش من أفراد هذه الأسرة سبعة حكام، كان أولهم مبارز الدين محمد مؤسس الأسرة، وبفضل جهوده أصبحت الدولة قوية فى عصره. ولكن قوتها هذه سرعان ما استحالت إلى شقاء بسبب انقلاب أبنائه عليه، وقيامهم بخلعه من الحكم، وسمل عينيه، فكانت هذه الحادثة بداية لنزاع طويل بين أعضاء الأسرة.

خلف الشاة شجاع – ثانى حكام الأسرة المظفرية – والده على الحكم فى فترة تاريخية تتسم بالاضطراب الشديد فى جميع مناحى الحياة، فارتبط اسمه بميادين القتال، وساحات الوغى، وبإحراز الانتصارات، وتلقى الهزائم، وأمضى حياته وسط أسرة ملكية يسودها الصراع المرير على الحكم والتكالب على السلطة، ولا غرو

فقد ساءت العلاقات بين أفرادها من أبناء وآباء وأقارب، واستمر هذا التطاحن العائلى مدة طويلة ولم ينتهِ الخلاف بين حكام بيته إلا بقيام تيمورلنك بإخماد جذوته بالقضاء على آل المظفر، والاستيلاء على ملكهم عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢م.

قيام الدولة المظفرية :

يرجع أصل الأسرة المُظفرية إلى أمير خراسانى يدعى "حاجى غياث الدين" يُقال إن أجداده نزحوا من الأراضى العربية، وجاءوا إلى ايران فى أوائل الفتوحات الإسلامية، وعاشوا فى "خواف"[١] بخراسان. وعندما قدم المغول خراسان سمع هذا الأمير بما كانوا يرتكبونه من أهوال وشدائد، فآثر ترك موطنه واتجه إلى مدينة يزد[٢].

كان للأمير غياث الدين ثلاثة أبناء، هم: أبو بكر، ومحمد، ومنصور. فالتحق كل من أبى بكر، ومحمد بخدمة أتابكة يزد. وعندما توجه هولاكو خان صوب مدينة بغداد أرسل يطلب المدد من حاكم يزد[٣]، فأمده بثلاثمائة فارس يقودهم أبو بكر بن حاجى. وبعد ذلك أنفذهم هولاكو خان إلى حدود مصر، حيث قتل أبو بكر على يد عرب بنى خفاجة[٤] وحل محله أخوه محمد، ولكنه رحل عن الدنيا أيضا دون أعقاب كأخيه أبى بكر[٥].

أما الابن الثالث منصور فكان يعيش فى ميبذ[٦] بالقرب من يزد، وبقى عنه ثلاثة أبناء هم: شرف الدين مُظفر، وزين الدين على، ومبارز الدين محمد. ويقال إن شرف الدين مظفر رأى فى منامه أن أبناء أسرته سوف يتولون الحكم. لذلك سعى إلى ذلك، وأعلن عن نفسه مبكرا - أى فى فترة شبابه - عندما أبدى من مظاهر الشجاعة والبطولة الكثير فى الحروب التى خاضها ضد جماعة اللصوص الذين جاءوا إلى يزد للسلب والنهب[٧]. وفى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م توجه إلى كرمان، ودخل فى خدمة الأمير سيورغتمش القراخطائى. وبعد ذلك تولى خدمة أربعة من سلاطين الدولة الإيلخانية هم: أرغون، وكيخاتو، وغازان، وأولجايتو[٨]. وأخذ شأنه يزداد قوة وخطرا حتى كانت سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م. حيث ولاه أولجايتو حكومة أبرقوة وميبذ، بالإضافة إلى المحافظة على الطرق فى كردستان وكرمانشاه، وهراة، ومرو. واستمر المظفر فى خدمة أولجايتو حتى خرج بأمره

عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م لمحاربة بعض العصاة في لاشبانكاره" لكنه أصيب بالمرض، وتم نقله إلى ميبد. وبعد ثلاثة أشهر فارق الحياة، ودفن في المدرسة التي كان قد أنشأها بنفسه. وكان له من الأبناء ولد واحداً وابنتان[٩].

كان الأمير مبارز الدين محمد في الثالثة عشرة من عمره عند وفاة والده. وعلى الرغم من حداثة سنه فإن أولجايتو ولاه مكان أبيه، وبخاصة فيما يتعلق بالمحافظة علي الطرق. وبعد وفاة أولجايتو حظى الأمير مبارز الدين بمكانة عظيمة لدى السلطان أبي سعيد بهادرخان الذي قام بإقراره في منصب والده، وفوض إليه حكومة يزد عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م[١٠].

أخذت قوة الأمير مبارز الدين في الازدياد عقب رحيل السلطان أبي سعيد عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، وذلك بسبب ضعف الدولة الإيلخانية، وتقلص الحكومة المركزية، واستئثار الأمراء بما في حوزتهم من ممالك. وكان من بينهم مبارز الدين الذي أعلن نفسه ملكا في يزد[١١]. وقام بالاستيلاء على كرمان[١٢] عام ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وذلك بعد انتصاره على حاكمها الشيخ أبي أسحق اينجو الذي لحقت به العديد من الهزائم حتى هرب في آخر الأمر إلى أصفهان. وفي عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م هاجم الأمير مبارز الدين مدينة أصفهان، وضمها إلى حوزته وتمكن من أسر الشيخ أبي أسحق وتم قتله[١٤]. وبعد ذلك تطلع إلى مدينة تبريز[١٥]، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد انتصاره في معركتين خاضهما ضد جنود "أخى جوق"[١٦].

وهكذا تمكن الأمير مبارز الدين من القضاء علي معارضيه وامتدت حدود الدولة في عهده فشملت يزد، وكرمان، وفارس[١٧]، وأصفهان، وتبريز، والأطراف المتاخمة لهم. لكن ما لبث أن انقلب عليه الزمان، وتم القبض عليه، وخلعه من الحكم على يد أبنائه[١٨].

أعقب الأمير مبارز الدين خمسة أبناء، هم: الشاه شجاع، والشاه مظفر، والشاه محمود، والسلطان أحمد، والأمير أبو يزيد. وعقب حادثة خلعه جلس ابنه الشاه شجاع على عرش المملكة[١٩].

الشاه شجاع: نشأته، ووصوله إلى الحكم :

ولد جلال الدين شاه شجاع فى صباح يوم الأربعاء الموافق الثانى والعشرين من جمادى الآخرة عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م[٢٠] وأمه هى "قتلغ خان" ابنة السلطان قطب الدين شاه جهان بن السلطان جلال الدين سيورغتمش القراخطائى – تزوجها الأمير مبارز الدين محمد بعد وفاة زوجته الأولى[٢١]. وقد عرفت قتلغ خان بأنها أم السلاطين.

توفرت رسائل التعليم والثقافة للشاه شجاع كأمير خرج إلى الحياة فوجد أمور الحكم قد استقرت لأبيه كحاكم ليزد وميبد، ومسئول عن حفظ الأمن، وحراسة الطرق، وملك يتمتع بإنعامات سلاطين الإيلخانيين وإكرامهم[٢٢] وكان لاستعداد الشاه شجاع الشخصى الذى ظهر منذ نعومة أظفاره أثر واضح فى اكتسابه علوم عصره، ومعارفه الشاملة حيث قام بتحصيل العلوم وهو فى سن السابعة من عمره على يد "معين الدين بن جلال الدين المُعلم اليزدى[٢٣] صاحب كتاب المواهب الإلهية" وعندما بلغ التاسعة أتم حفظ القرآن الكريم، كما حصل مقدمات الأدب واللغة العربية[٢٤]، وعرف عنه حسن الخط. وقد وصفه لنا ابن حجر العسقلانى[٢٥] بقوله: "إنه كان يقرئ الكشاف، وكتب منه نسخة بخطه الفائق ورأيت خطه وهو غاية فى الجودة".

وبعد جلوس الشاه شجاع على كرسى الحكم ظل حريصا على تحصيل العلوم، وعقد المجالس العلمية[٢٦] يقول الكتبى[٢٧]: "واشتغل بالفضائل العلمية، ووصل فى العلوم والمعارف إلى درجة كان الفضلاء والعلماء معها يتواجدون دائما فى مجلسه الرفيع وكانوا يفيدون من لطائف خواطره الهامة، وبلغت قوة ذاكرته أنه كان يحفظ ثمانية أبيات عربية دفعة، ويشتهر نظمه[٢٨] ونثره العربى والفارسى ومكاتباته ورسائله فى أنحاء العراق. ولعلماء العصر، وفضلاء الدهر شروح عليها. وكان دائما يوقف همته الملكية ويوجهها لتعظيم السادات المشهورين وإعزاز العلماء الأجلاء، ونشر العدل ورعاية الرعية".

كذلك عاصر الشاه شجاع عددا من شعراء إيران الكبار المشهورين، وكان من الطبيعى أن يتصلوا ببلاطه ويمدحوه، لما عُرف عنه من تشجيع للعلماء

والفضلاء، والشعراء، ومن أهم الشعراء الذين قاموا بمدحه : عماد فقيه الكرماني المتوفى عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م. وكان من جملة فقهاء كرمان وشعرائها، ويقال إنه كان هناك تقارب شديد بينه وبين الشاه شجاع. كذلك كان حافظ الشيرازى المتوفى عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م من أعظم الشعراء الذين مدحوا الشاه شجاع فى كثير من غزلياته. ويرى الكثيرون أن مدح حافظ لهذا الحاكم هو الذى خلد ذكره، وأسبغ أهمية خاصة على تاريخه وتاريخ أسرته، وذلك لمكانة حافظ السامية بين شعراء ايران(٢٩).

وإلى جانب شغف الشاه شجاع بتحصيل العلوم، حرص أيضا منذ بداية حياته على تعلم فنون الحرب والقتال(٣٠)، وشارك فى العديد من الحروب التى خاضها والده من أجل توسيع ملكه. وكان آخرها فتح مدينة تبريز. فعندما واتت الفرصة للأمير مبارز الدين محمد كى يفتح هذه المدينة أعطى ميمنة جيشه لابنه الشاه شجاع، وميسرته للشاه محمود، ووقف هو فى القلب ومعه حفيده "الشاه يحيى" الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره. فلما نشب القتال تمكن الأمير مبارز الدين والشاه يحيى من هزيمة "أخى جوق" حاكم تبريز. لكن ما لبث أن تغلب هذا الحاكم على جنود الشاه محمود، واتجه خلف قلب الجيش، لكن الأمير مبارز الدين تصدى له، وحارب ببسالة فائقة ومعه الشاه يحيى، واستطاعا هزيمة الأعداء واضطرارهم إلى الفرار(٣١).

أرسل الأمير مبارز الدين ولديه فى أثر الجيش الهارب، ولكنهما عندما وصلا إلى "نخجوان" وأعجبهما هواؤها كفا عن تعقب العدو، وشغلا هناك باللهو ثلاثة أيام وعندما عادا أنبهما الأمير مبارز الدين بكلمات عنيفة، ومنح الشاه يحيى مكافأة الحرب. وظل يذكر بطولته وشجاعته فى رسائل النصر التى كان يرسلها إلى الأنحاء، ولم يعر الشاه محمود، والشاه شجاع أى اهتمام قط، بل كان يؤنبهما فى السر والعلانية(٣٢).

كانت هذه الأفعال سببا فى ظهور العداء بين الأب وولديه، وفى تلك الأثناء تواترت الأنباء بأن جيشا جرارا يتجه من بغداد إلى تبريز بقيادة السلطان أويس الجلايرى(٣٣) فرأى الأمير مبارز الدين أن من الأصوب له أن يتراجع عن تبريز لأنه لم تكن لديه القدرة على مقاومته، وسار بجيشه صوب العراق. وفى أثناء

الطريق ظل يهدد دائما بالإيهام بالقبض على البعض وسمل وقتل البعض الآخر.
فظن الابنان أنهما المقصودان بهذا الوعيد، لأن والدهما يريد التخلص منهما ليعهد بولاية العهد إلى ابنه الأصغر "بايزيد" الذى وُلد له من الأميرة "بديع الجمال" فصارحا الشاه سلطان[٣٤] "ابن شقيقة الأمير مبارز الدين" بمخاوفهما – وكان هو الآخر فى مقدمة من ألمح الأمير مبارز الدين بمعاقبتهم – وعندما تيقن الشاه سلطان من هذه المخاوف اتفق معهما على القبض على أبيهما عقب وصولهم إلى أصفهان[٣٥].

وعندما وصل الأمير مبارز الدين إلى أصفهان فى منتصف شهر رمضان عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م، ولم يمض على وصوله يومان حتى أقبل الشاه سلطان فى منتصف الليل إلى منزل الشاه شجاع، وأخبره بأنه مصمم على الهرب لأن الأمير مبارز الدين علم بالمؤامرة التى دبروها ضده. فصحبه الشاه شجاع، وسارا سويا إلى الشاه محمود، وأجمعوا على التخلص منه، وبالفعل نفذ المتآمرون مخططهم، وقبضوا على الأمير مبارز الدين وحبسوه فى بداية الأمر فى قلعة طبرك.

وفى ليلة الجمعة الموافق التاسع عشر من شهر رمضان قام الشاه سلطان بسمل عين الأمير بأمر من الشاه شجاع[٣٦]. ويصف لنا محمود الكتبى[٣٧] تنفيذ هذه المؤامرة بقوله: "كان الأمير مبارز الدين يقوم بتلاوة القرآن، فتركوا الشاه محمود فى دهليز بالخارج، ووقف الشاه شجاع والشاه سلطان أمام باب الغرفة التى كان الأمير مبارز الدين يتلو داخلها القرآن، وارسلوا عدة رجال مع حارس الطريق إلى الداخل ليقبض على الأمير مبارز الدين. فدخل الحارس مع هذه الجماعة، وعندما شاهدهم الأمير مبارز الدين أدرك أن واقعة قد حدثت وأراد أن يستل حسامه، وبالصدفة لم يكن السلاح فى متناوله فقبض عليه هؤلاء القادة، وكبلوه، وفى اللحظة نفسها ذهب الشاه سلطان وقتل خواجه برهان الدين، وفى الليل حملوا الأمير مبارز الدين إلى قلعة طبرك. وفى ذات الليلة تكحلت بصيرة دنياه بكحل السمل "إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار"[٣٨].

وعقب الانتهاء من هذه المؤامرة[٣٩] اعتلى الشاه شجاع عرش السلطنة، واتخذ من مدينة شيراز حاضرة لدولته[٤٠]. وفوض أخاه الشاه محمود فى حكومة أصفهان وأبرقوه، وأخاه السلطان أحمد فى حكومة كرمان، واستبقى إلى جواره

"الشاه سلطان" يدبر معه أمور الجيش والملك فى شيراز. كذلك قام بالقبض على الشاه يحيى - الذى كان موضع اهتمام الأمير مبارز الدين - وحبسه فى قلعة قهندز بشيراز، وسلم وزارته للخواجه قوام الدين محمد صاحب عيار[٤١].

وبعد أن فرغ الشاه شجاع من هذه المهام أمد جيشه واتجه إلى الجنوب لقمع قبائل الجرمائيين[٤٢] والأوغانيين الذين أعلنوا العصيان فى بداية حكمه بولاية كرمان. قصد الشاه شجاع مدينة جيرفت فتحصن الأوغانيون والجرمائيون فى قلعة منوجان الواقعة فى ناحية رودبار[٤٣]. وعلى الرغم من امتداد الحرب بين الطرفين مدة ثلاثة أشهر. فإن القلعة لم تُفتح. ولكن قتل العديد من هاتين القبيلتين، وتعرض الباقون للهجوم والإغارة. وفى أخر الأمر عجزوا عن المقاومة، وطالبوا بالصلح والهدنة، وقاموا بتفويض سماحة الشيخ "صدر الدين عبد العزيز[٤٤] ليشفع لهم فى جرائمهم[٤٥]. فعفا عنهم الشاه شجاع ودخل أمراء الجرمائيين، والأوغانيين فى خدمته وأصبحوا موضع رعايته. وقام الشاه شجاع بتفويض حكومة كرمان للسلطان أحمد كما كانت وعاد هو إلى شيراز[٤٦].

النزاع السياسى بين أمراء الأسرة المظفرية فى عهد الشاه شجاع:

لم يكد الشاه شجاع ينعم بالراحة والهدوء فى حاضرته حتى تعرض لخطر أشد وأقوى بأساً من جانب شقيقه الشاه محمود. ومما لا شك فيه أن الشاه شجاع كان مسئولا عن إيجاد هذا الخطر عندما قام بتقسيم المملكة بينه وبين أخوته الذين طمع كل منهم فى مملكة الآخر، وسرعان ما دب الخلاف، واحتدم الصراع بينه وبين الشاه محمود الذى كان ذا طموح زائد، وكان يتطلع إلى الحكم، خاصة وإن فارق السن لم يكن كبيرا بينهما، إذ إن الشاه شجاع لم يكن يكبره إلا بأربع سنوات فقط. ومع غياب شخصية الأب المهيمنة على تلك الطموحات كان من الطبيعى أن يتصاعد الخلاف ويجد المفسدون ما يوقعون به بين الأخوين لتظل نيران الحرب مستعرة بينهما حتى وفاة الشاه محمود عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م.

بدأ الخلاف بين الشاه شجاع وشقيقه الشاه محمود على أثر قيام عمال الشاه شجاع بالاستيلاء على جزء من أموال أبرقوه التابعة للشاه محمود، وذلك نظرا لبعض المتطلبات الملكية، لكن الشاه محمود غضب لهذا الأمر وقرر معارضة

أخيه[٤٧]. وقد بذلت عدة محاولات للصلح والتوفيق بين الجانبين لكن دون جـــدوى. وفى نهاية الأمر قام الشاه شجاع بمحاولة لتهدئة أخيه ورأب الصدع. فأرسل إليـــه رسالة بمصاحبة "الشيخ معين الدين يزدى" وعلى أثرهـــا تـــم عقـــد الصلـــح بيـــن الاخوين[٤٨]. لكن هذا الصلح لم يدم طويلا فما لبث أن زحف الشاه محمود بجيشـــه إلى يزد واستولى على تلك المدينة – فى مقابل الأموال التى أخذت منه فى أبرقـــوه – وقام بتعيين "خواجه بهاء الدين قورجى" حاكما عليها[٤٩]. ثم عاد إلـــى أصفـــهان وهناك راودته فكرة تشكيل دولة مستقلة، وعلى أثر ذلك قام بإســـقاط اسـم الشـــاه شجاع من الخطبة فى ولايته[٥٠].

وعندما علم الشاه شجاع بهذا الأمر توجه بجيش منظم إلى أصفـــهان، فتقـــدم الشاه محمود لمواجهته، واستمر القتال عدة أيام، وفى آخـــر الأمـــر تقـــهقر الشـــاه محمود، وتحصن داخل أصفهان، أما الشاه شجاع فقد نزل على مشارف تلك المدينـــة وبدأ حصارها، وأخذ الشاه محمود يشن هجومه بين الحين والآخر[٥١]. وفى إحـــدى المرات قام جنوده بإعداد كمين خارج بوابة أصفهان تمكنوا به من إســـقاط الشـــاه سلطان فى قبضة الشاه محمود. وقد تنكر هذا الأمير لصلة القرابـــة التـــى تربطـــه بالشاه سلطان وأمر على الفور بسمل عينيه، فنال بذلك نفس الفعلة التـــى كـــان قـــد فعلها مع خاله الأمير مبارز الدين محمد، وبهذه المناسبة نظم الشيخ صـــدر الديـــن العراقى أحد أنصار الأمير مبارز الدين هذا الرباعى يقول فيه:-

دار الـــزمـــان وسملـــوا عينيـــك	ولم يظهر عيب واحد فى ذاتك الشريفة
ذلك الشخص الذى أطفأ نور عينيك	قـــد نـــال هو الآخر نفس الجزاء[٥٢].

وبعد عدة أيام سعى السفراء بين الطرفين، وبفضل جهودهم عُقد الصلح بيـــن الأخوين على أن يظل الشاه محمود حاكما على أصفهان وأن يقرأ الخطبـــة ويســـك العملة باسم الشاه شجاع، وقنع الشاه شجاع بهذا الاتفاق وعاد إلى مقر حكومته[٥٣].

وعلى الرغم من موافقة الشاه محمود على هذا الاتفاق فإنه لم يكـــن صافيـــا لأخيه ، وكان يرغب فى استئصال شأفته بأى طريقة ممكنة ، والاستيلاء على مُلـــك والده. لذلك قام بمراسلة السلطان أويس الجلايرى ملـــك آذربايجـــان وحـــذره مـــن طموحات شقيقه الشاه شجاع القائمة على احتلال تبريز بعد أصفهان. ولهذا الســـبب

طلب الشاه محمود المدد من السلطان الجلايرى حتى يتمكن من إخضاع ولاية فارس تحت قبضته، وفى مقابل ذلك وعده بالتزام الطاعة والخضوع له طوال حياته[٥٤].

وفى أثناء هذه الأوضاع اتفق الشاه يحيى[٥٥] الذى كان محبوسا مع مجموعة من الأشخاص فى قلعة قهندز على رفع راية العصيان، فقاموا بالقبض على حاكم القلعة واستولوا عليها وتحصنوا بداخلها. وعندما بلغ الشاه شجاع هذا الحدث كلف فرقة من الجيش بمحاصرتهم، وبعد عدة معارك بين الطرفين اضطر الشاه يحيى إلى تقديم الاعتذار، وفوض الشفعاء ليطلبوا من عمه الصفح له عن جريمته، فعفى عمه عنه، وبادر الشاه يحيى إلى خدمته[٥٦].

قام الشاه شجاع بإرسال الشاه يحيى إلى حكومة يزد[٥٧] لعله بهذه الطريقة يرضيه وفى نفس الوقت يقوم بإخراج هذه المدينة من قبضة الشاه محمود. وبالفعل تغلب الشاه يحيى على الخواجة "بهاء الدين قورجى" - حاكم المدينة - واستقر فى حكومة يزد. غير أنه سرعان ما تنكر للجميل، وثار على عمه. وبعد أن وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الشاه شجاع غادر على الفور شيراز ومعه أحد الجيوش وعندما وصل إلى مدينة أبرقوه كلف وزيره الخواجة قوام الدين محمد صاحب عيار بمحاصرة يزد. ولما رأى الشاه يحيى أنه عاجز عن المقاومة بعث الرسل إلى أبرقوه ليطلبوا العفو من عمه، وذلك من خلال رسالة كتبها له، فصفح عنه[٥٨] للمرة الثانية، وأمر الخواجة قوام الدين بفك حصاره، ثم عاد إلى شيراز[٥٩].

ماكاد الشاه شجاع يفرغ من أمر الشاه يحيى حتى أخذ يفكر فى الذهاب إلى أصفهان ليلزم الشاه محمود جادة الصواب، وعندما خرج بجيشه إلى "قصر زرد" قامت مجموعة من الحاقدين على وزيره قوام الدين محمد صاحب عيار بتقبيح أفعاله واتهموه بالخيانة. فأسرع الشاه شجاع بالعودة إلى شيراز. وعندما ثبت له بعد البحث والتحرى صدق أقوالهم قام بتعذيبه، ومصادرة أمواله، ثم أمر بقتله فى منتصف ذى القعدة عام ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، وأعطى وزارته للأمير كمال الدين حسين الرشيدى[٦٠].

وعندما علم الشاه شجاع بأن الشاه محمود طلب المدد من السلطان أويس حاكم بغداد وتبريز، وأنه أخذ يجمع حوله النافرين من آل المظفر، والحاقدين على ملكهم رأى الشاه شجاع بأن استعانة شقيقه بأعداء المظفرين القدماء إنما يدفع بالمظفرين جميعا إلى الهاوية حيث لا تبقى منهم باقية، فأخذ يرسل الرسل إلى الشاه محمود كى يثنيه عن عزمه، ويرجعه عن الاستعانة بالجلائريين[٦١].

ولكن الأمور فى ذلك الحين كانت قد أفلتت من يد شقيقه بعد موافقة السلطان أويس على طلبه بالاستيلاء على شيراز[٦٢]، وقيامه بإرسال جيش إلى أصفهان تحت قيادة مجموعة من الأمراء على رأسهم الأمير الشيخ على إيناق الذى كان واقفا على مداخل ومخارج تلك المملكة[٦٣]. وعندما اقترب هذا الجيش من العراق العجمى قام الشاه محمود باستقبالهم، ومنح كبار قادة الجيش الخلع الثمينة، والسيوف المرصعة، والجياد العربية الأصيلة، واختار لهم المنازل الجميلة، وأعد ما يحتاج إليه الجنود من خزانته الخاصة. وبعد شهر من وصولهم توجهوا إلى مدينة شيراز، وقد ساعد الشاه محمود فى هذا الزحف أيضا حكام اللر الصغير وقم، وكاشان، وأوه، وساوه. كما أقنع الشاه محمود الشاه يحيى حاكم يزد بالتحالف معه بعد أن وعده بالحصول على حكومة أبرقوه[٦٤].

ولما علم الشاه شجاع بخبر زحف الشاه محمود إلى شيراز كتب رسالة منظومة لأخيه يحذره فيها من عواقب اللجوء إلى السلطان أويس الوخيمة[٦٥]. يقول خواندمير[٦٦]: "عندما علم الشاه شجاع بكثرة أعداد ذلك الجيش سلك طريق المشورة مع خواصه ومقربيه، ثم استدعى كاتب البلاط للمثول أمامه، وقال له اكتب لمحمود:

- أيها العزيز الغالى.
- قد أذيت أخاك الكبير.
- ليس محمود الذى آراه يأتى للحرب.
- ونتقابل أنا وأنت بالسيف.
- تخيل أيها الملك الشهير.
- لو تصالح كلانا وصرنا أحبابا.

- أو سحبنا الجيوش من أمام بعضنا البعض.
- فمن يجرؤ على الزحف بجيوشه أمامنا.
- عندما ما يعلم حقيقة أحوالنا ... ".

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى الشاه محمود كتب إليه بالرد، فعلم الشاه شجاع أن نار فتنة أخيه لن تخمد إلا بحد السيف البتار. وبناءً على ذلك قام بتجميع جيش جرار من كرمان وبم وسيرجان وأبرقوه واللر الكبير وانضم إليه أيضاً الأوغانيون وعرب ربيعة. وتوجه بهم إلى بيضا. وكذلك تحرك الشاه محمود بجنوده إلى ناحية شيراز(٦٧). وحدث في تلك الأثناء أن قامت مجموعة من أنصار الشاه شجاع بخيانته، وأقاموا علاقات سرية مع الشاه محمود، وكان من بينهم وزيره الأمير كمال الدين حسين الرشيدى الذى كتب عدة رسائل في الخفاء وأرسل بها إلى الشاه محمود أطلعه فيها على أحوال الشاه شجاع. كما أن السلطان أحمد(٦٨) الذى حضر من كرمان لمساعدة أخيه الشاه شجاع قد ضاق به، وانضم إلى شقيقه الآخر في القتال. كذلك اعترضت مجموعة من جنود الشاه شجاع عليه وانضمت إلى معسكر أخيه.

وعلى الرغم من ذلك فقد قام الشاه شجاع بمحاربة أخيه في صحراء سرجاهان إلا أنه سرعان ما عاد إلى شيراز وتحصن بها(٦٩). فتوجه إليه الشاه محمود بمصاحبة جنود السلطان أويس وانضم إليه الشاه يحيى – الذى كان قد هرب إلى ناحية يزد أثناء الحرب – وقاموا جميعا بمحاصرة المدينة(٧٠).

وفي الوقت الذى كان فيه الشاه شجاع محاصراً داخل مدينة شيراز خشى من قيام بعض أتباع الخواجة قوام الدين محمد صاحب عيار بإثارة الفتنة نظراً للحقد الذى كان في صدورهم ضده. لذلك قام بإخراج تلك الجماعات من المدينة، الواحد تلو الآخر بأى حجة أو ذريعة، ومن هؤلاء الأتباع "ملك محمد"، و "دولتشاه" اللذان أرسلهما إلى كرمان لتحصيل الأموال وإحضارها إلى شيراز للإنفاق على اعداد الجيش. وفي ذلك الحين كان يتولى حكومة كرمان(٧١) السلطان "شبلى بن الشاه شجاع" ونظراً لصغر سنه فقد عجز عن إدارة شئون الحكم(٧٢). فلما وصل دولتشاه وملك محمد إلى تلك الولاية، وشاهدا اضطراب أحوال فارس والعراق

طمعا فى كرمان. وقام دولتشاه بحبس السلطان شبلى، وقضى على أعوانه، وجلس على كرسى الحكم فى كرمان معلنا استقلاله عن الحكومة المركزية بشيراز، لذلك قاد بفتح أبواب الخزانة، ودعا جميع الفقراء للطعام. وفى فترة قصيرة استطاع أن يجمع جيشا كبيرا، ويعد لوازم الحرب والقتال لاستخلاص بقية الولايات وتنفيذ مشروع السلطنة، ومن أجل ذلك تظاهر بإعلان الطاعة للشاه محمود وجعل الخطبة والعملة باسمه(٧٣). وعندما وصل هذا الخبر إلى الشاه شجاع اضطربت أحواله، وأمر بأن يتوجه ابنه "السلطان أويس" مع خاله "الأمير سيورغتمش الأوغانى" بصحبة خمسة آلاف فارس إلى كرمان للقضاء على دولتشاه. لكن هذه القوة فشلت فى تحقيق هدفها، وعادت إلى شيراز فقوى مركز دولتشاه فى كرمان(٧٤).

وخلال هذه الأحداث كان الشاه محمود، وجنود الجلائريين لا يزالون يفرضون حصارهم على مدينة شيراز مما أدى إلى ظهور آثار الضعف على جنود الشاه شجاع، فأخذوا يخرجون عن طاعته، وينضمون إلى معسكر أخيه حتى أنه لم يعد معه من الأمراء المقربين سوى عدد محدود. لذلك رأى من الحكمة أن يبعث إلى أخيه كى يفتح معه أبواب المصالحة على أن يقسما المملكة بينهما بالتساوى(٧٥). لكن الشاه محمود أجاب أخاه الأكبر بأن وجود الأمراء الأجانب الذين قدموا لمساعدته من بغداد وتبريز جعلوا زمام الأمور يفلت من قبضته ورأى أنه من الخير للشاه شجاع أن يخرج إلى أبرقوه فيبقى فيها شهرا أو شهرين حتى يتدبر الأمر مع هؤلاء الأمراء كى يعيدهم إلى موطنهم بالقناعة والرضا(٧٦).

فوافق الشاه شجاع على اقتراح أخيه، وبعث إليه برسالة تتضمن موافقته وحرصه على صلة الدم، وطلب منه المقابلة. وبالفعل تقابل الأخوان على بوابة قلعة فهندز. وعندما أطمئن لقول أخيه عقد النية على الرحيل عن شيراز، وسلموا إليه قلعة "سربند" حتى يذهب بطريقها إلى أبرقوه. وقبل مغادرة الشاه شجاع لحاضرة ملكه قام بزيارة ضريح الشيخ "أبى عبد الله بن خفيف الشيرازى"(٧٧) مع بعض أتباعه ثم انصرف مسرعا إلى خارج المدينة وهو مشتت البال لدرجة أنه نسى ابنه "سلطان زين العابدين" فى المزار، وفى الطريق سأل عن حاله فعلم أنه بقى فى المزار فرجع "الأمير اختيار الدين حسن" وأحضره سالما إلى والده(٧٨).

خرج الشاه شجاع عن حدود شيراز، ولم يسلك طريق "شولستان" المتفق على أخذه، وإنما سلك طريق "قصر زرد". وقد برهنت الأيام على بُعد نظره وصواب رأيه، لأن أعداءه تعقبوه عبر هذا الطريق، وأرادوا الإيقاع به وبمن معه، لكنهم عادوا خائبين، ووصل الشاه شجاع سالما إلى مدينة أبرقوه(٧٩). وبدأت فترة جديدة من حياته استمرت سنتين تقريبا من عام (٧٦٥هـ: ٧٦٧هـ) (١٣٦٣م/ ١٣٦٥م) حُرم فيها من ملكه. لكنه حاول جاهدا استعادة ما ضاع منه(٨٠).

وعقب رحيل الشاه شجاع عن مدينة شيراز (حاضرة ملكه) دخلها الشاه محمود بكل عظمة معلنا انتصاره على أخيه. وعلى الفور قام بإرسال أخبار هذا النصر مع التحف والهدايا إلى السلطان أويس الجلايرى(٨١).

أما الشاه شجاع فكان لحسن حظه أن حاكم أبرقوه "الخواجه جلال الدين تورانشاه" كان معينا من قبله لذلك أسرع لاستقباله، وأحسن وفادته، وقدم له يد العون والمساعدة(٨٢)، وبعد فترة رأى الشاه شجاع أن بقاءه في أبرقوه محفوفٌ بالمخاطر من جانب أخيه وأمراء الجلائريين(٨٣). لذلك فكر في عدم الاستسلام للهزيمة والطرد من عاصمته بل عزم على استعادة قوته من جديد، ففكر في فتح كرمان وجعلها قاعدة له ليتمكن بها من استرداد عاصمته(٨٤).

زحف الشاه شجاع بثلاثمائة فارس من أبرقوه إلى ناحية كرمان لاستئصال جذور فساد دولتشاه. وفي الطريق انضم إليه "سليمان شاه" شقيق الشاه سلطان ومعه مائتا فارس. أيضا انضم إليه بعض أمراء العرب ومعهم خمسمائة فارس(٨٥).
وعندما سمع دولتشاه بخبر هجومه خرج إليه بمصاحبة أربعة آلاف فارس، والتقى الجمعان في مدينة سيرجان. وفي أثناء المعركة انضمت مجموعة من جيش كرمان إلى الشاه شجاع فأثر ذلك على دولتشاه، وعجز عن المقاومة، ولحقت به الهزيمة فاضطر إلى الفرار والتحصن بقلاع كرمان، فحاصره الشاه شجاع حتى اضطره إلى الخضوع والاستسلام وطلب الصلح(٨٦). فأحسن الشاه شجاع معاملته، وعفا عنه، ثم دخل كرمان محاطا بهالة من الاحترام والتعظيم. لكن دولتشاه لم يسترح لوجوده، فتآمر مع بعض قواده على الغدر به وقتله. يقول خواندمير(٨٧): "اتفق دولتشاه مع إحدى الجماعات على أن يتسللوا ليلا داخل مخدع الملك ويلوثوا السيف البتار بدماء ولى النعم، فعلم الأمير درسون" بهذا الخبر واطلع الشاه شجاع على

المؤامرة، فأمر بقتل هذا الخائن والمتآمرين معه". وبقتلهم تخلص الشاه من عدو قديم وثب عليه في فترات ضعفه.

كان نصر الشاه شجاع في كرمان وقضاؤه على دولتشاه مقدمة لانتصارات اخرى توالت عليه فيما بعد، فقد أخذ نجمه يشرق، وحظه يقبل، وبدأ يتطلع إلى استعادة عاصمته وحاضرة ملكه شيراز[٨٨]. وشجعه على ذلك إقبال حكام الأقاليم واشراف البلاد عليه، وإمداده بالمال والجند - كالأمير سيورغتمش الأوغاني وحاكم شبانكاره وغيرهم - لذلك أمل في استرداد شيراز بهذا الجيش[٨٩]. لكن سرعان ما وقع الخلاف بين جنوده، وخرج الأمير سيورغتمش من المعسكر مع طوائف الجرمانيين والأوغانيين. فاضطر الشاه شجاع إلى العودة مرة أخرى إلى كرمان كي يعد جيشه مرة ثانية ويقمع الخارجين عليه. وبالفعل نجح في مطاردتهم حتى اضطروا إلى طلب المساعدة من الشاه محمود الذي كان يتحين الفرصة في ذلك الحين كي يستخلص كرمان لنفسه[٩٠].

وعلى الفور قام بإرسال الشاه يحيى لإمداد هذه الطوائف، والاستيلاء على كرمان بمساعدتهم، لكن الشاه يحيى سرعان ما دخل في طاعة عمه الشاه شجاع وتزوج من ابنته الكبرى "سلطان بادشاه" وعاد إلى يزد[٩١]. أما الشاه شجاع فقد تمكن من إخضاع الأمير سيورغتمش وسائر رؤساء الطائفة الأوغانية والجرمانية وأدخلهم في طاعته. وبعد ذلك قصد الاستيلاء على شيراز، وبخاصة أن الظروف قد تهيأت لذلك[٩٢]. وسرعان ما أقبلت عليه الرسل من شيراز يخبرونه بأن الشيرازيين متمسكون بملكهم القديم، وأنهم مازالوا على عهده، وأنهم سئموا هذه الوجوه المغولية التي كان يتكون منها الجيش الجلائري. وأنهم على استعداد لفتح أبواب المدينة له متى بدت راياته من وراء الأسوار. وبهذا التشجيع عقد الشاه عزمه على أن يخرج في نهاية عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م لفتح مدينة شيراز[٩٣].

أناب الشاه شجاع على حكومة كرمان ابنه "السلطان "جهانكير" وفوض ابنه الآخر "السلطان زين العابدين" على حكومة سيرجان[٩٤]، واصطحب معه ولديه "السلطان أويس" و "السلطان شبلي". وفي الطريق انضم إليه ابن أخيه "الشاه منصور بن مظفر" وبهذا الجيش الجرار توجه إلى مدينة شيراز، وعندما وصل إلى

"بول بسا" تقابل مع جيش أخيه الشاه محمود واشتد القتال. فاضطر الشاه محمود إلى العودة بجيشه إلى شيراز فلحق به الشاه شجاع[٩٥].

ولما علم أهالى شيراز بقدوم ملكهم القديم أقبلوا عليه، ورحبوا به، وعلى الفور أدرك الشاه محمود قوة هذا التحالف، ورأى أنه لم يجد أمامه سوى مغادرة المدينة. وبالفعل تركها تحت جُنح الظلام، وخرج إلى أصفهان بعد أن تخلف عنه السلطان أحمد الذى التحق بخدمة شقيقه الأكبر الشاه شجاع.

دخل الشاه شجاع حاضرة ملكه بكل عظمه وافتخار[٩٦]. يقول خواندسير[٩٧]: "وصل الشاه شجاع إلى حاضرة الملك بكل حشمة، وعظمة فزين عرش السلطنة بوجوده المبارك ومنح الناس بشارة الأمن والأمان، وفتح أبواب العدل والإحسان".

ولا شك أن المدة التى قضاها الشاه شجاع خارج حاضرة ملكه قد أوحت إليه برأى آخر فى الحياة لم نعهده فيه من قبل. فقد ابتعد عن مجالس اللهو والشراب، وحظر على الناس شرب الخمر، وأخذ يدعو إلى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وشارك فى مجالس العلماء. كذلك اتجه إلى تنظيم شئون الدولة، واختار رجالاً اشتهروا بالصلاح والتقوى، فعين للقضاء "الشيخ بهاء الدين عثمان كوه كيلونى" وكان من علماء الشافعية. وسلم الوزارة "لقطب الدين سليمانشاه بن محمود كمال" كذلك قام بإرسال مولانا "الشيخ كمال الدين كيتى" إلى مكة المكرمة، وزوده بما يلزم من المال ليبنى له قبرا ورباطا عُرفا فى ذلك الحين بمرقد الشاه شجاع[٩٨]. بالإضافة إلى ذلك فقد أراد أن يصبغ على حكمه صفة الشرعية مثلما فعل والده فسعى إلى أخذ البيعة لأمير المؤمنين القاهر بالله محمد بن أبى بكر العباسى، وأدخل اسمه فى الخطبة[٩٩].

وبعد أن قضى الشاه شجاع فترة فى شيراز أراد الخروج لتأديب أخيه الشاه محمود، والاستيلاء على أصفهان - فى أواخر عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م - بجيش جرار. وعندما سمع أخوه بمقدمه أرسل إليه الرُسل يستميله ويتودد إليه فأجابه إلى طلبه[١٠٠]، بشرط أن تكون الخطبة والعملة باسمه، ثم عاد إلى شيراز[١٠١]. ولم يكد يمضى على هذا الصلح بضعة أشهر حتى أرسلت زوجة الشاه محمود "خان سلطان بنت الأمير كيخسرو اينجو" إلى الشاه شجاع رسولا مزودا بالعديد من الهدايا،

وبرسالة خاصة تخبره فيها بأنه إذا وصل إلى أصفهان فسوف تسلمه المدينة وتقبض على الشاه محمود، وتسلمه له مكبلا بالأغلال. ولم يغب عن هذه السيدة اظهار نوع من المودة والتحالف مع الشاه شجاع ضمن رسالتها[١٠٢].

كان الباعث على تصرفات "خان سلطان" هو رغبتها فى الانتقام من آل المظفر الذين شردوا أقاربها، وقتلوا بعض أفراد أسرتها من آل اينجو. هذا بالإضافة إلى مشاعر الغيرة التى ملكت قلبها، فقد ساءها أن تسمع عن رغبة زوجها فى الزواج من أميرة جلائرية أخرى. وبالفعل خدع الشاه شجاع بكلامها، وقصد أصفهان. لكن الشاه محمود أعلن التزامه بالطاعة، وعدم العصيان[١٠٣]. فعاد الشاه إلى شيراز وانشغل ببعض الأمور وقام بعزل وزيره "الخواجه قطب الدين سليمان شاه"[١٠٤] وحبسه، وعين الخواجة "ركن الدين حسين" بدلا منه[١٠٥].

ومرة أخرى فتحت "خان سلطان" - التى ظلت تسيطر عليها فكرة الإطاحة بآل المظفر، وإطفاء نيران الثأر لأسرة اينجو - باب المراسلة مع الشاه شجاع، وبذلت جهدا كبيرا لدرجة أنه قصد أصفهان مرة ثانية لاستئصال شأفة أخيه، وقد زحف هذه المرة بحجة المطالبة بجزء من أموال أصفهان. وعندما علم الشاه محمود من أحد جواسيسه بمصدر تلك الفتنة وأن زوجته "خان سلطان" كانت السبب الرئيسى فى تحريض أخيه عليه أمر على الفور بقتلها[١٠٦]. وبعث إلى أخيه وأزال أسباب تلك الفتنة[١٠٧]. وقنع الشاه شجاع بملكه فى شيراز، واكتفى الشاه محمود بملكه فى أصفهان، ولكن التنافس القديم لم يهدأ بينهما فى فترة من الفترات.

أخذ الأخوان يفكران فى تدعيم موقفهما أحدهما تجاه الآخر، فعندما تأكد الشاه محمود أن شقيقه لن يصرف نظره عن احتلال أصفهان فكر فى طلب المساعدة مرة أخرى من السلطان أويس الجلائرى، ولما علم الشاه شجاع بنية أخيه سعى هو الآخر فى فتح باب الصداقة مع السلطان الجلائرى، ومن الطريف حقا أن كلا الشقيقين فكرا فى وقت واحد فى مصاهرة هذا السلطان، فقد تقدم كل منهما بطلب الزواج من ابنته، طمعا فى الاستعانة بهذه المصاهرة على مواجهة أخيه[١٠٨].

وعلى الرغم من تفوق الشاه شجاع على شقيقه محمود فى السن واتساع الملك وشوكة الدولة فإن السلطان أويس فضل عليه الشاه محمود، وذلك لرغبته فى بسط

نفوذه على مدينة أصفهان المجاورة لأملاكه[١٠٩]، وإن كانت المصادر التاريخية تذكر أسباباً أخرى لترجيحه إياه، فتقول إن الشاه محمود نجح في اختيار مبعوثه[١١٠]. وأنه كان أكثر تأدبا في توجيه الخطاب إليه حينما ختمه بقوله "عبدكم وخادمكم"، أما الشاه شجاع فقد وقع رسالته بقوله "أخوكم المشتاق"، الأمر الذى نفر منه السلطان أويس وجعله يُعلن صراحة أنه لن يزوج ابنته للأخ المشتاق، وإنما سيزوجها للعبد الخادم، وعلى هذا الأساس وافق على خطبة ابنته للشاه محمود[١١١].

وبعد عقد الزواج أرسل السلطان أويس جيشا إلى أصفهان لمساعدة صهره فتقوى الشاه محمود، وراودته فكرة الاستيلاء على شيراز مرة ثانية، وبالفعل تحرك بهذا الجيش صوب شيراز فتقدم إليه الشاه شجاع ومعه الشاه منصور، والسلطان أحمد، وفى ضواحى تلك المدينة دارت المعركة بين الطرفين، ولكنها لم تُحسم بشكل نهائى فاضطر الشاه شجاع إلى الدخول فى مدينة شيراز، أما الشاه منصور فقد تسلل من خلف جنود الشاه محمود وعاد بكثير من الغنائم إلى شيراز، وحاول مرة أخرى محاربة الشاه محمود، لكن الشاه محمود فضل العودة إلى أصفهان[١١٢].

كان لهذه الواقعة أثر سئ على الشاه شجاع، وزادت رغبته فى التخلص– قبل كل شئ– من أخيه وأعوانه الجلائريين الذين أفسدوا عليه كل شئ، وباتوا يقلبون عليه كل من استطاعوا الوصول إليه من أخوة وأقارب وابناء وأعوان. ونجحوا بالفعل فى ضم بعضهم إلى معسكرهم، ومنهم "أويس بن الشاه شجاع" الذى انحاز الى عمه الشاه محمود.

وكان أويس بن الشاه شجاع قد أرسله والده إلى ناحية "جرون" بندر عباس الحالية" ليجمع له أموالها. فما كاد يصل إليها حتى أراد الاستقلال بملكها وساعده على ذلك خاله الأمير سيورغتمش. وبقى أويس مدة فى تلك الناحية حتى ضاق منه والده ووجه إليه أخاه الآخر "سلطان شبلى" ليحضره إليه. لكن هذا الابن العاق خشى من العقاب، ورأى سلامته فى الفرار شمالا صوب أصفهان، حيث احتمى بعمه "الشاه محمود"، أما الأمير سيورغتمش فقد احتمى فى إحدى القلاع، وطلب العفو من الشاه شجاع، فعفا عنه[١١٣].

كذلك تنافس وزراء "الشاه شجاع" فيما بينهم، فأخذوا يدبرون المكائد، ويلتمسون كافة الوسائل للإيقاع بعضهم ببعض ومنهم "الخواجة حسن بن معين الدين" الذى تولى الوزارة بعد "قطب الدين"، وعلى الرغم من أن هذا الوزير كان يجمع بين شرف النسب(١١٤) وكمال الحسب إلا أنه كان رجلا مغرورا ومتكبرا لم يعر أى شخص من الإشراف أو الأعيان اهتماما. وعقب قيامه بمهام الوزارة حاول التخلص من منافسين خطيرين له، هما: "الخواجة جلال الدين تورانشاه" و "الخواجة همام الدين محمود"، نظرا للخوف الذى كان يساوره من ناحيتهما، فضلا عن أنهما كانا من الأمراء المقربين للشاه شجاع(١١٥). فاتهمهما لدى الشاه بأنهما على اتفاق مع أخيه الشاه محمود وأطلعه على رسالة بخطهما تتضمن وعدهما له بفتح أبواب شيراز أمامه متى تحرك وقصد المدينة وعلى ظهر هذه الرسالة إجابة بخط الشاه محمود يخبرهما بيوم وصوله. وعلى الفور استدعى الشاه شجاع هذين الشخصين، وعرض عليهما الرسالة، فأجابا بأن الخط يشبه خطهما، ولكنهما، لا يعلمان شيئا عن هذه الرسالة، وطلبا منه أن يأمر بفحص الكتابة، والتحقيق فى هذه القضية. فكلف الشاه شجاع "الأمير إختيار الدين حسن قورجى" بالتحقيق فى هذا الأمر(١١٦). وقد كشف هذا الأمير بعد التحقيق أن القضية كلها مدبرة وأن الوزير حسن كلف أحد الخطاطين- ممن اشتهروا بتقليد الخطوط- بأن يزيف هذه الرسالة حتى يتمكن من الإيقاع بهذين الرجلين. وعندما علم الشاه شجاع بحقيقة الأمر قبض على وزيره "الشاه حسن" وأمر بمصادرة أمواله وقتله(١١٧). وعقب ذلك سلم وزارته إلى "الخواجة جلال الدين تورانشاه(١١٨). وقد ظل فى منصبه حتى آخر حكم الشاه شجاع(١١٩).

وعقب هذه الحادثة ظل الشاه شجاع يتطلع إلى اليوم الذى يدخل فيه مدينة أصفهان ويكفى نفسه شر الفتن التى يدبرها له شقيقه، وإلى الساعة التى يصل فيها إلى تبريز، فينتقم لنفسه من السلطان أويس الجلايرى، ويشفى صدره من ثأر دفين ينوء بحمله(١٢٠).

وكاد الشاه شجاع ينفذ عزمه ويخرج بجيشه شمالا لولا أنه تعرض لأزمة جديدة حيث أعلن واحدٌ من أتباعه العصيان والتمرد عليه فى ولاية كرمان(١٢١). وكان الشاه شجاع قد فوض حكومة كرمان من قبل إلى "بهلوان أسد بن طغانشاه

الخراساني" وقد عرف هذا الرجل بتدينه وولائه للشاه شجاع، لكن ما لبث أن نـال منه المفسدون وأوغروا صدره حتى تمرد على سيده. وفي بداية الأمر كان "بـهلوان أسد" يخفي أمر عصيانه نظراً لوجود "مخدومشاه" والدة الشاه شـجاع فـي ولايـة كرمان، وبعد اطلاع هذه السيدة على تصرفاته أدركت سوء نيتـه. وعلـى الفـور أخذت ترسل إلى ابنها لتحذره من هذا الحاكم وتطلب منه عزله. لكـن الشـاه لـم يستجب لهذا التحذير(١٢٢). وعندما شعرت "مخدومشاه" بأثار تمـرد بـهلوان أسـد، ويأست من جانب ابنها خرجت من مدينة كرمان، وتوجهت إلـى سـيرجان وبـهذا العمل مهدت الطريق لبهلوان أسد كي يعلن تمرده على الملأ. وبالفعل أخـذ يشـعل نيران الظلم والطغيان في كرمان، ويستولي على قلاعها الواحدة تلو الأخرى(١٢٣).

وعندما تأكد الشاه شجاع من عصيانه خرج بجيش كبير إلى كرمـان، وظـل يحاصرها فترة حتى وصلته رسالة من "بهلوان خرم"- الذي كان ينوب عنـه فـي إدارة شئون شيراز- يحذره فيها من خوفه أن يتفق أهالي شيراز مع الشاه محمـود والشاه يحيى أثناء غيبته. فأدرك الشاه خطورة الموقف، وقرر العودة إلـى شـيراز بعد أن كلف شقيقه "السلطان أحمد" بمحاصرة كرمان، وقطع الإمدادات عن الولايـة، وعندما ساءت أحوال الرعية أرسل إليه "بهلوان أسد" رسولا يبلغه بندمه علـى مـا فعل ويطلب منه التوسط لدى الشاه شجاع على أن يسلمه الأمـوال والخزائـن وأن يسك العملة باسمه، ويخطب له بشرط أن يظل محتفظا بولاية كرمان(١٢٤).

لم يستجب الشاة شجاع لهذا الشرط، واستمر "السلطان أحمد" فـي محـاصرة الولاية. وبعد مرور ثمانية أشهر على هذا الحصار أصيبت الولاية بقحـط شـديد، وعندما شعر السلطان أحمد باقتراب فتحها أرسل إلى أخيه الشاه شجاع يطلب منـه تفويضه على حكومة كرمان بعد الاستيلاء عليها، فرد عليه برسالة امتدح فيها جهده العظيم، لكنه لم يعده بشيء، مما أصابه بالضيق، فتم استدعاؤه إلـى شـيراز(١٢٥). وأرسل الشاه شجاع باثنين من القادة بدلا منه، هما: "بهلوان خرم" و"بـهلوان علـى شاه" فواصلا حصار المدينة، وعندما نفد مخزونها لم يجد "بهلوان أسد" بـدا سـوى الاستسلام وطلب الصلح. فتصالحا معه وأدخلا المدينة مرة أخرى في حوزة الشـاه شجاع بعد حصار دام تسعة أشهر وعشرين يوما. ثم دبرا مكيـدة "لبـهلوان أسـد"

واستطاعا الإيقاع به وقتله. وبعد وفاته فوضت حكومة كرمان "للأمير اختيار الدين حسن قورجى" وقد ظل يحكمها حتى وفاة الشاه شجاع[١٢٦].

كانت سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م من أكثر السنوات إقبالا على الشاه شجاع، فقد استطاع أن يتخلص من حاكم كرمان الثائر "أسد بهلوان" فى منتصف شهر رمضان. وقبل ذلك بقليل وردت إليه الأخبار بوفاة السلطان أويس الجلائرى[١٢٧]. وبعد أشهر قليلة اشتد المرض بالشاه محمود[١٢٨] وعندما رأى نفسه على مشارف الموت اختار لخلافته "السلطان أويس بن الشاه شجاع" الذى كان يقيم عنده- وذلك لعدم إنجابه ولدا يرثه فى الحكم- وكتب رسالة إلى الشاه شجاع يطلب منه العفو والصفح. وبعد ذلك رحل عن الدنيا فى التاسع من شوال عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. وعندما بلغ الشاه شجاع نبأ وفاة أخيه أقام مراسم العزاء فى مدينة شيراز[١٢٩].

أصبحت مدينة أصفهان بعد وفاة الشاه محمود فريسة للفتن والثورات، وانقسم الأهالى إلى فريقين: فريق موالٍ للشاه شجاع ويطالب بسلطنته، وفريق أخر يطالب بسلطنة ابنه "السلطان أويس". وعندما علم الشاه شجاع بهذا الحال توجه إلى أصفهان، واستولى عليها بسهولة، ودخل السلطان أويس[١٣٠] فى خدمة والده، وصار موضع اهتمامه. ولم تمض عدة أيام على إقامة الشاه شجاع بأصفهان حتى توفى ابنه "السلطان أويس"[١٣١] وعقب وفاته سلم حكومة أصفهان لابنه الأخر "السلطان زين العابدين"[١٣٢].

وفى أثناء إقامة الشاه شجاع بأصفهان أقبل عليه حكام وأمراء بعض المناطق المجاورة يحملون إليه التحف والهدايا، ويعلنون دخولهم فى طاعته[١٣٣].

وفى الوقت الذى وصل فيه الشاه شجاع إلى أوج قوته وسطوته أخذ يتطلع إلى تحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على ولاية أذربايجان وإخضاع تبريز عاصمة الدولة الجلائرية[١٣٤] وقد تهيأت له الفرصة عندما اعتلى عرش الجلائريين "السلطان حسين بن أويس" الذي ما لبث أن عجز عن التصدى لأمور الحكم كما ينبغى، مما أدى إلى اضطراب أمور الولاية وسخط أهلها عليه، وقيام بعضهم بمراسلة الشاه شجاع، وشجعوه على الزحف إليهم[١٣٥].

تحرك الشاه شجاع من أصفهان على رأس جيش كبير صوب أذربايجان لملاقاة السلطان حسين الجلايرى الذى استعد أيضا للقائه، والتقى الجيشان فى معركة عند ضواحى "جرماخواران" تمكن فيها الشاه شجاع من هزيمة خصمه ودخول تبريز والجلوس على عرشها، وعلى الفور قام بتولية الأمراء من قبله على سائر الأنحاء فى أذربايجان(١٣٦).

مكث الشاه شجاع فى تبريز حوالى أربعة أشهر، لكن ما لبث أن عجز أمراؤه عن الاحتفاظ بما فى أيديهم، وقام الأعداء بمداهمتهم من كل ناحية، وأوقعوا بعضهم فى الأسر. وفى ذلك الحين وردت الأنباء أيضا من "يزد" تعلن أن "الشاه يحيى" ابن شقيق الشاه شجاع وزوج ابنته قد استغل غيابه، وطمع فى أملاكه، وأخذ يغير عليها فى فارس والعراق. هذا فضلا عن إصابة الشاه شجاع بألام شديدة فى قدمه من أثر البرودة، فكان ذلك كافيا لأن يقنع الشاه شجاع بالإسراع للعودة إلى شيراز(١٣٧). وعقب عودته وصل السلطان حسين الجلايرى إلى تبريز وفتح معه باب المصالحة. وبالفعل تم عقد الصلح بين الطرفين، وقاموا بتبادل الأسرى، وتوج هذا الصلح بزواج "دلشاد خاتون" أخت السلطان حسين من "زين العابدين" بن الشاه شجاع(١٣٨).

قرر الشاه شجاع عقب عودته إلى شيراز إرسال جيش لمحاربة وتأديب ابن أخيه وصهره الشاه يحيى الذى رفع يد العصيان عليه. وعقب وصول هذا الجيش إلى أبواب مدينة يزد تقدم الشاه يحيى للقائه، ودارت بينهما عدة حروب. ولما شعر الشاه يحيى بحرج موقفه لجأ إلى المكر والحيلة، واستطاع فى إحدى المرات أن يخدع جيش عمه فأدخل فى روعه أنه على أبواب المفاوضة فى عقد الصلح فاطمئن إليه القادة والجند لكنه فجأة أغار عليهم، وهزمهم هزيمة منكرة غنم فيها كثيرا من الأسلاب والغنائم(١٣٩).

وعندما بلغ الشاه شجاع نبأ هذه الهزيمة أراد الخروج بنفسه، لكن ابن أخيه الآخر "الشاه منصور" شقيق الشاه يحيى طلب إليه أن يوجهه إلى يزد ليدفع شر أخيه بالحسنى أو بالقتال. ولم يكد الشاه منصور يصل إلى يزد لإخضاع أخيه حتى توسطت أمهما بين الأخوين واستطاعت أن تعقد الصلح بينهما، وعقب ذلك غادر

الشاه منصور مدينة يزد بأمر أخيه الذى رفض بقاءه معـــه فـــى المدينـــة، وكلفـــه بالذهاب إلى حاكم مازندران(١٤٠).

عندما علم الشاه شجاع بخيانة ابن أخيه الأخر، وتفرق جنـــده، عـــزم علـــى النهوض بشخصه إلى مدينـــة يزد لفتحها والقبض على الشـــاه يحيـــى ومعاقبتـــه. وبالفعل استبسل الشاه شجاع فى القتال حتى شعر ابن أخيه بأنه لا قبل له بمحاربتـــه فبعث إليه زوجته "سلطان شاه" ابنة الشاه شجاع وابنه "جهانكير" وعددا من أقاربـــه. وقام هؤلاء بإقناعه بالعودة إلى شيراز وقدموا له مزيدا من الإعتذار والتوسل، فعفـــا عنه. ولكنه أقسم بأنه لو صدرت منه أى معصية أخرى فإنه لن يغادر يـــزد حتـــى ينتقم منه، ثم عاد إلى شيراز بعد هذا القرار عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م(١٤١).

وفى عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م علم الشاه شجاع أن "عادل أقا" حاكم سلطانية من قبل السلطان حسين الجلايرى قد جمع جيشا كبيرا، ويرغب فى الاعتداء على مملكة فارس، فتوجه إليه الشاه شجاع، وتمكن من الانتصار عليه، واضطره إلـــى طلـــب الصلح والمهادنة(١٤٢). وبمرور الوقت ارتفع شأن عادل أقا فى السلطانية، وتمكـــن عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨١م من رفع "بايزيد بن السلطان أويس الجلايرى" على كرســـى المملكة بعد إعلان السلطان أحمد بن أويس التمرد والعصيان على أخيـــه الســـلطان حسين وقتله، ونظرا لإعلان عادل أقا تبعيته للشاه شجاع فقد طلب مساعدته لتثبيـــت السلطان بايزيد على العرش(١٤٣).

لم يكد الشاه شجاع يبتعد مرحلة أو مرحلتين عن شيراز حتى لحق بـــه ابنـــه "السلطان شبلى" وأراد أن يعرض جيشه أمام والده، فسعى به جماعة من المفســـدين، وأوغروا صدره عليه حتى ملأوه بالوحشة والحقد، وصوروا له أنـــه كـــان أســـرع الأمراء إلى الخروج فى رفقته لأنه يريد الثورة عليه، والتمرد والاستقلال بـــالأمر. فخشى الشاه شجاع أن يصنع ابنه ما صنعه هو بأبيه. فأمر بالقبض عليه وحبسه فـــى قلعة أقليد بفارس. وبعد يومين أو ثلاثة أصدر أوامره وهو مخمـــور بســـمل عيـــن ابنه(١٤٤).

عندما علم "الخواجه جلال الدين تورانشاه" وزير الشاه شجاع بـــهذا الخـــبر– وكان أنذاك فى تبريز – أرسل مبعوثا من قبله إلى الشاه يلتمس منه العفو عن ابنـــه

فوافق على طلبه، وأصدر أمرا بعدم المساس بعين الأمير. ولكن عندما وصلت هذه الرسالة إلى القلعة كان الأمير شبلى قد سمل. ويقال إن هذه الفعلة الشنعاء كانت شؤما على الشاه شجاع حيث توفيت فى نفس هذا العام والدة السلاطين "مخدومشاه" كما توفى أيضا الشاه حسين ابن أخيه - شقيق الشاه يحيى[١٤٥].

وعلى الرغم من تلك الأحداث المحزنة فإن الشاه شجاع تمكن من عقد الصلح بين ابنى السلطان أويس، وإنهاء النزاع الذى وقع بينهما[١٤٦]. ثم اتجه بعد ذلك لتأديب ابن أخيه الشاه منصور الذى كان قد خرج عليه، واستولى على شوشتر بمساعدة السلطان أحمد بن أويس الجلايرى. وعندما وصل الشاه شجاع إلى هذه المنطقة خرج إليه الشاه منصور، وأعلن الطاعة والولاء له[١٤٧].

ثم اتجه الشاه شجاع إلى شيراز، وفى الطريق ساءت حالته الصحية نظرا لإفراطه فى شرب الخمر، فكان لا يترك الكأس من يده، وعزف عن تناول الطعام، وأخذت قواه تضعف، وفشل الأطباء فى معالجته. ولما علم بدنو أجله أعد لوازم جنازته، وأمر عشرة من الحفاظ بأن يلازموه كى يختموا القرآن قراءة على رأسه كل يوم[١٤٨].

الصعوبات التى واجهت الشاه شجاع قبيل وفاته:

وفى هذه الأيام العصيبة من حياته لم يعفه قدره أن يشهد بعينه فتنة خطيرة بين ابنه "زين العابدين" وأخيه "السلطان أحمد" من أجل التنافس على العرش الذى لم يكن قد خلا بعد من صاحبه[١٤٩]، كما بلغته الأنباء أيضا بما أدخل الرعب فى قلبه من أن "تيمورلنك" يغير بجيوشه الكثيفة على مازندران، وأنه بعد قليل مقبل على أملاكه، ومغير على عشيرته وأبنائه، فتنبه من غفوته قليلا، وقد أحس الخطر يهدد آل المظفر فجمعهم حول مضجعه، وقسم ملكه بينهم، فعهد بخلافته فى شيراز إلى ابنه "السلطان زين العابدين" ومنح حكم كرمان "للسلطان أحمد" ونصب "الشاه يحيى" على يزد، و "أبا يزيد" على أصفهان، و "الشاه منصور" على شوشتر[١٥٠]. ثم طلب ابنه "السلطان زين العابدين" وأوصاه بعدة وصايا، وقد أورد لنا محمود الكتبى[١٥١]. نصيحة الشاه شجاع لابن، قائلا: "يابنى إن النصيحة بهذا الحد كافية، لقد تهيأت لدعوة الحق وجلست منتظرا. لست أنا بالرجل الذى يخيفنى العدم، ولست أنا أفضل

من أن يلحقنى العدم. لى روح عارية من الله أسلمها عندما يحين وقت التسليم. إننى أسمع إنك سوف تثير فتنة، فحذار لا تفعل ذلك لأنه طالما وُجد بينكم الاتفاق والاتحاد لن يظهر الأعداء الألداء الذين كانوا ينتظرون مثل هذا اليوم للشماتة".

ثم طلب الشاه شجاع أخاه السلطان أحمد، فلما أدخلوه عليه أجهش بالبكاء بحيث تعذر عليه الحديث فأخرجوه من حضرته. وبعث إليه الشاه شجاع برسالة[١٥٢] يحذره فيها من الفتنة والفساد، وفى ختام رسالته طلب من أخيه أن يذكره بالدعاء. أيضا كتب برسالة[١٥٣] أخرى إلى "تيمورلنك" يوصيه فيها خيرا بآله ويستعطفه ويترضاه أن يكون رحيما بأولاده وأقاربه. وبعد أن فرغ الشاه شجاع من هذه الوصايا توفى فى يوم الأحد الثانى والعشرين من شهر شعبان عام ست وثمانين وسبعمائة[١٥٤]. ودفنوه بموجب وصيته فى حافة جبل "جهل مقام" خارج بوابة أصطخر بفارس. وقبره قائم فى مكانه إلى اليوم، وقد جدد عمارته "كريم خان زند" عام ١١٩٢م[١٥٥].

أثر النزاع بين أمراء آل المظفر فى ضعف الدولة وسقوطها:

كان تقسيم الدولة الذى قام به الشاه شجاع للمرة الثانية قبيل وفاته إيذانا بانهيار دولة آل المظفر، حيث اشتد النزاع بين أمراء هذه الأسرة الذين لم يرضوا بتلك القسمة ، وطمع كل منهم بما فى أيدى الآخرين. وكان لهذا التطاحن العائلى أثر كبير فى الإسراع بنهايتهم على يد تيمورلنك الذى أخذ فى إيفاد مبعوثيه - منذ العام التالى لوفاة الشاه شجاع - إلى هؤلاء الأمراء، وطالبهم بإعلان الولاء والطاعة له.

انقسم أمراء آل المظفر على أنفسهم، فقام أكثرهم بإعلان رغبتهم فى الخضوع لتيمور، أما البقية القليلة فقد صممت على عدم الخضوع والإذعان له[١٥٦]. وعندما وصل تيمور إلى مدينة شيراز سارع أمراء الأسرة المظفرية فى إعلان الطاعة، وضرب العملة وقراءة الخطبة لاسمه. فكافأهم على هذا الخضوع بأن أقطعهم الولايات التى دخلت فى حوزته، فصارت شيراز من نصيب الشاه يحيى، وأصفهان من نصيب ابنه الأكبر الشاه محمد، وكرمان من نصيب السلطان أحمد،

وسيرجان من نصيب السلطان أبى اسحق بن اويس. وبعد هذا التقسيم توجه تيمورلنك إلى مدينة سمرقند(١٥٧).

أما الشاه منصور حاكم شوشتر فقد رفض هذا الضعف الذى بدا من أمراء اسرته أمام تيمور، وسارع بالحضور إلى مدينة شيراز، وتمكن من استخلاصها من يد شقيقه الشاه يحيى. وعندما شعر أمراء ال المظفر بخطره عليهم تعاهدوا فيما بينهم على القضاء عليه، لكن الشاه منصور استطاع التخلص من السلطان زين العابدين ثم توجه للقضاء على السلطان أحمد والشاه يحيى، واغار على يزد وكرمان وخرب هاتين الولايتين، وكاد يقضى عليهما لولا سماعه بخبر وصول تيمور الذى حضر إلى شيراز لتأديبه لما فعله بأمراء ال المظفر المعينين من قبله(١٥٨).

وفى عام ٧٩٥/ ١٣٩٢م توجه تيمورلنك بصحبة ثلاثين ألف جندى لمحاربة الشاه منصور الذى لم يكن معه سوى أربعة آلاف جندى. والتقى الجيشان على مسافة عدة فراسخ من شيراز، وفى هذه المعركة أبدى الشاه منصور كثيراً من الشجاعة لدرجة أنه أصاب تيمور بعدة ضربات غير قاتلة، وفى نهاية الأمر تمكن تيمور من إلحاق الهزيمة بالشاه منصور وإجباره على الفرار. وفى أثناء هروبه تعرض له أحد أتباع تيمور وأسقطه من فوق جواده وقام بقطع رأسه(١٥٩). ثم اخذ جنود تيمور يقتلون أتباع الشاه منصور ويأسرونهم حتى استولوا على فارس بأكملها. أما بقية آل المظفر فقد سارعوا باعلان خضوعهم وتجديد عهدهم، لكن تيمور قام بالقبض عليهم وعلى بقية ال المظفر أجمعين، ثم أمر بقتلهم فى العاشر من شهر رجب عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م وبذلك قضى على أمراء أسرة ال المظفر الذين هدموا بأنفسهم دعائم دولتهم(١٦٠).

الخاتمة :

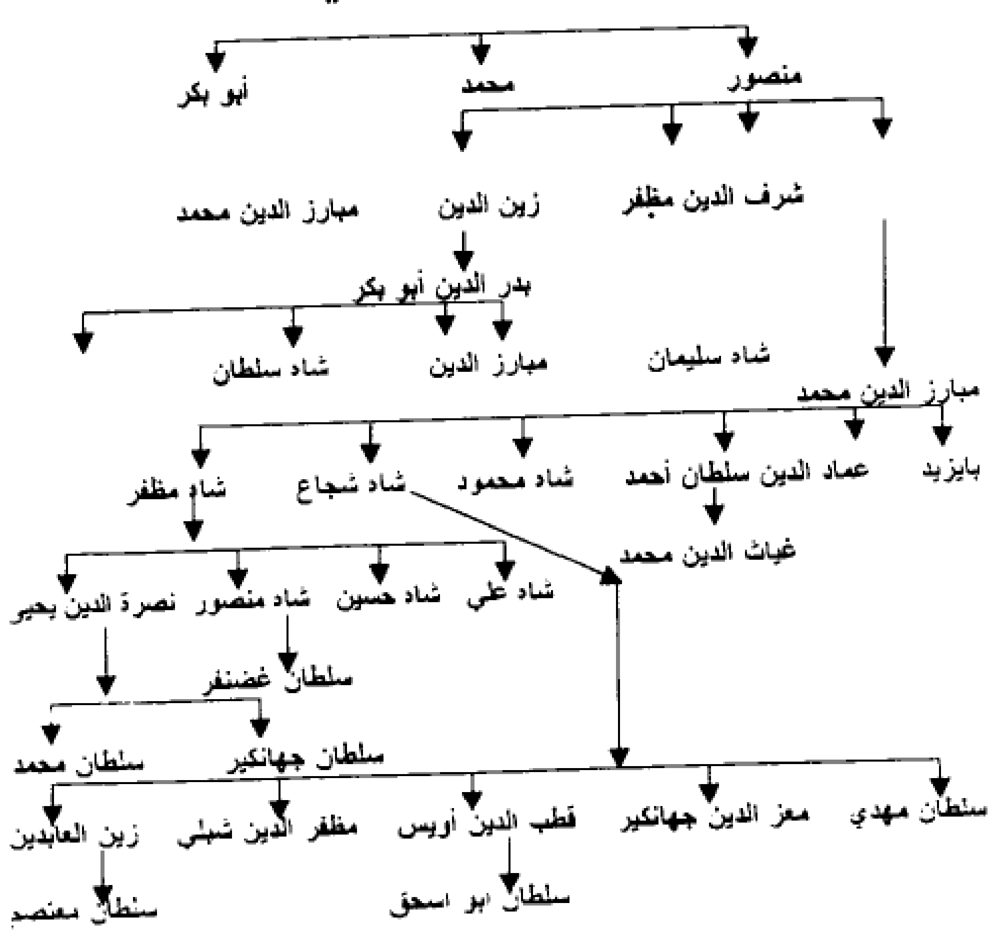
- نشأت الدولة المظفرية قوية بفضل جهود الأمير مبارز الدين محمد الذى تمكن من القضاء على منافسيه وتوسيع حدود دولته. ولم يكد هذا الأمير ينتهى من تأسيس هذا المُلك العريض الذى كان يبشر بمستقبل عظيم حتى نكب على يد أبنائه.
- كانت الفترة التى أعقبت القبض على الأمير مبارز الدين وسمل عينيه على أيدى أولاده من أنكد الفترات على الدولة المظفرية. فتاريخها يعكس بوضوح التناحر والصراع بين أفراد الأسرة الواحدة من أجل التكالب على السلطة والنفوذ وقد استبيح فى هذا الصراع كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة من قيادة الجيوش والاستعانة بأعداء الدولة إلى سمل أعين الآباء والأبناء والأقارب.
- انعكس سوء العلاقة بين أمراء آل المظفر على وزرائهم فأخذوا يدبرون المكائد ويلتمسون كافة الوسائل للإيقاع ببعضهم البعض فضلا عن هروب بعض الوزراء من خدمة أحد الحكام والتحاقهم بخدمة عدوه.
- كان للمرأة دورا فى إثارة الفتن والمنازعات بين أفراد الأسرة فتآمرت وخانت كما فعلت مخدومشاه زوج الشاه محمود عندما راسلت الشاه شجاع واستدعته للمجئ إلى أصفهان وتعهدت له بأن تسلمه الشاه محمود مكبلا فى الأغلال، وكان هدفها من وراء تلك الفتنة الانتقام من آل المظفر الذين شردوا أقاربها من آل أينجو.
- لم يستفد الشاه شجاع من تجربته الأولى فى تقسيم المملكة بينه وبين أخوته والتى أدت إلى قيام النزاع بينهم طوال مدة حكمه وقام بتكرار نفس الخطأ قبيل وفاته عندما قسم المملكة مرة ثانية بين أمراء أسرته فطمع كل منهم بما فى أيدى الآخرين واشتد التناحر بينهم وكانت النهاية الحتمية لذلك التفكك الذى ساد اسرة آل المظفر هو سقوطها على يد تيمورلنك الذى قام بالقضاء على جميع أفرادها قضاء مبرما.

بنو المظفر : [فارس ، كرمان ، كردستان]

١- مبارز الدين محمد بن المظفر................................ ذو القعدة سنة ٧١٣هـ
٢- قطب الدين شاه محمود، (بأصبهان حتى ٧٧٦) .... رمضان ٧٥٩هـ
٣- جلال الدين أبو الفوارس شاه شجاع .... ٣٠ ربيع الأول ٧٦٥هـ
٤- مجاهد الدين علي زين الدين .... شعبان ٧٨٦هـ
عزله تيمور ٧٨٩هـ
٥- عماد الدين أحمد، (كرمان).. ٧٨٦هـ
٦- نصرة الدين يحيى، (يزد) ٧٨٩هـ
٧- شاه منصور، (أصبهان) ٧٨٩هـ
(حتى ٧٩٥) ....

شجرة نسب آل المظفر

حاجي غياث الدين خراساني



الهوامش

(١) خواف: بفتح أوله، وآخره فاء. قصبة كبيرة من أعمال نيسابور بخراسان ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان مج ٢، بيروت ١٩٨٤م، ص ٣٩٩.

(٢) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، ترجمة وتعليق ملكة على التركى، القاهرة دار الزهراء للنشر ١٩٩٢م، ص ص ٢٠-٢١.

- عبد الله رازى: تاريخ كامل ايران، دار نشر إقبال، تهران د.ت، ص ٣٣٦.
- براون (إدوارد جرانفيل): أزسعدى تاجامى، طهران، جابخانه بنك ملى ايران، ١٣٢٧هـ، ص ١٧٨.

(٣) المقصود به علاء الدولة سلغرشاه من أتابكة يزد (٥٣٦: ٧١٨هـ) وهو من سلالة أبى جعفر علاء الدولة كاكويه الديلمى.

(٤) كان بنو خفاجة من أهم قبائل العراق العدنانية أيام الإيلخانيين وقد امتدت ديارهم من الفرات إلى البادية وكانت هذه القبيلة تعمل على الاستفادة من النزاع الناشئ بين الإيلخانيين والمماليك لكسب المغانم لأنفسهم فيميلون إلى أى من الطرفين حسب ما تقتضيه مصالحهم. (محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، ص ٢٢-٢٣، حاشية رقم (٢).

(٥) عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد أول، طهران ١٣١٢ هـ.ش، ص ٤١٢.

(٦) بالفتح ثم السكون، وضم الباء الموحدة وذال معجمة. بلدة من نواحى أصبهان، (ياقوت الحموى. معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٤٠).

(٧) محمود الكتبى: تاريخ ال المظفر، ص ٢٣.

- عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤١٣.

(٨) براون: أز سعدى تاجامى، ص ١٢٨.

(٩) عبد العظيم رضايى: تاريخ ده هزار ساله ايران، جلدسوم، دار نشر إقبال. تهران ١٣٧٣، ص ٢١٢.

• ابراهيم أمين الشواربي: حافظ الشيرازي، دار المعارف بمصـــــر، ص ص ١٢٠-١٢١.

(١٠) عبد الله رازي: تاريخ كامل ايران، ص ٣٣٦.

• عبد العظيم رضايي: تاريخ ده هزار ساله ايران، جلدسوم، ص ٢١٢.

(١١) بوسورث (كليفورد ادموند): سلسلة هاى إسلامى، ترجمة فريدون بــدره اى. انتشارات بنياد فرهنك ايران، د.ت، ص ص٢٤٢.

• الشواربي: حافظ الشيرازي، ص ١٢٢.

(١٢) كرمان: يحيط بها من جهة الغرب حدود فارس، ومن الجنوب بحـــر فــارس ومن الشرق أرض مكران، ومن الشمال الصحراء التي تقـــع بيــن فــارس وكرمان.

• أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل صاحب حمات ت ٧٣٢هـ/ تقويــم البلــدان باريس ١٤٨٠ هـ/ ص ٣٣٤.

(١٣) شيراز: حاضرة إقليم فارس في العصر الإسلامي، وحلت في ذلك العهد محل مدينة اصطخر التي كانت العاصمة في عهد ملوك الفرس الساسانيين.

• Hudud Al-Alam: Translated and explained by V.V Barthold, London 1937, p. 126.

• على تقى بهروزي: خـــال رخ هفــت كشـــور، جابخانـــه موســـوى شـــيراز ١٣٣٤هـ، ص ٣١.

(١٤) عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ص ٤١٥/٤١٦.

• عبد الله رازي: تاريخ كامل ايران، ص ٣٣٦.

(١٥) تبريز: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وكسر الراء، وياء ســـاكنة أشـــهر مـــدن أذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة (يـــاقوت الحمـــوى: معجـــم البلدان، مج٢، ص ١٣).

(١٦) عبد العظيم رضايي: تاريخ ده هزار ساله ايران، جلدسوم، ص ٢١٢، ٢١٣.

(١٧) فارس (Persia) جزء من بلاد ايران تشكل إقليما يقع في الجنوب الغربي.

- (على أكبرد دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٧، تهران ١٣٢٥ هـ.ش، ص ١٠).
- (Percy Sykes: A History of Persia, vol. 2, London 1969, p. 64.)

(١٨) عبد الله رازى: تاريخ كامل ايران، ص ٣٣٦.
- براون: أز سعدى تاجامى، ص ١٨١.
- Sykes (Percy): Ten Thousand Miles in persia, London 1902, p. 63.

(١٩) عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٦.

(٢٠) معين الدين بن جلال الدين محمد معلم يزدى، مواهب إلهى، باتصحيح ومقدمة سعيد نفيسى، جلد اول، از انتشارات كتابخانه وجابخانه إقبال، طهران ١٣٢٦ هـ، ص ٨١.

(٢١) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ٤٢.

(٢٢) ملكة على التركى: الشاه شجاع شاعرا، دار الزهراء للنشر بالقاهرة ١٩٩٢، ص ٥.

(٢٣) كان من علماء عصره، حظى بمكانة عظيمة فى بلاط آل المظفر تعلم الشاه شجاع على يديه اللغة العربية والأدب والعلوم الإنسانية، ويعتبر كتاب مواهب إلهى أقدم مؤلف عن أسرة آل المظفر، توفى معين الدين عام ٧٦٧ هـ.
- (أنظر كتاب مواهب إلهى).

(٢٤) حسينقلى ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، انتشارات دانشكاه تهران ١٣٤٧ هـ.ش، ص ٢١١.
- عبد العظيم رضايى: تاريخ ده هزار ساله ايران، جلد سوم، ص ٢١٤.

(٢٥) الدرر الكامنة، الجزء الثانى، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة د.ت، ص ٢٨٤.

(٢٦) أبو القاسم جنيد شيرازى: شد الأزار فى حط الأوزار عن زوار المزار، تصحيح محمد قزوينى وعباس إقبال، طهران ١٣٢٨ هـ، ص ص ٤٥٦-٤٥٧.

(٢٧) تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ص ١٣٠-١٣١.

(٢٨) أنظر شاه شجاع: روح العاشقين، مخطوط بجامعة القاهرة رقم ٦١٣ فارس).

(٢٩) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات ايران، جابخانه أرمان، ١٣٦٩هـ، ص ٣٠٩.

- حسينقلى ستوده: تاريخ آل المظفر، جلد اول، ص ص ٢١٣-٢١٤.
- سعيد نفيسى: نظم ونثر در ايران ودرزبان فارسى تاپايان قرن دهم هجوى، جلد اول، جابخانه ميهند، ص ٢٠٢، ٢٠٥.

- Jan Rypka: History of Iranian Literature, P. 264.

(٣٠) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٣٣.

(٣١) عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٣.

- ابراهيم أمين الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٣١.

(٣٢) عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٤.

- إبراهيم الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٣١.

(٣٣) السلطان أويس الإيلكانى بن الشيخ "حسن بزرك" أى حسن الكبير مؤسس الأسرة الجلايرية التى هيأت لها الظروف أن تكون وارثة لملك الإيلخانيين فى شمال ايران وغربها بعد وفاة السلطان أبى سعيد بهادرخان.

- (فؤاد عبد المعطى الصياد. الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بالدوحة، ١٩٨٧م، ص ص ٤٥٨-٤٥٩).

(٣٤) كان الشاه سلطان حانقا من الأمير مبارز الدين محمد لأنه لم يكافئه على فتح العراق بل اتهمه بتحريض وزيره برهان الدين فتح الله بالتصرف بغير حق فى أموالها.

- (الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٣٢).

(٣٥) ميرخواند (محمد خاوندشاه): روضة الصفا، جلد جهارم، طبعة بمباى ١٢٧١هـ، ص ١٤٧.

- إبراهيم أمين الشواربى: المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٣٦) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٧.

- عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٤.
- رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ترجمة محمد موسى هنداوى، دار الفكر العربى ١٩٤٧، ص ١٧٣.

(٣٧) تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٢٧.

(٣٨) سورة آل عمران: آية ١٣.

(٣٩) عقب الانتهاء من هذه المؤامرة قام الأبناء بإرسال والدهم الأمير مبارز الدين إلى القلعة البيضاء بفارس وبعد ذلك شعر الأبناء بندم شديد على فعلتهم بأبيهم فحاولوا استرضائه وأحضروه إلى شيراز وقرأوا الخطبة باسمه وأخذوا يستشيرونه من جديد فى أمور الملك. لكن مالبث أن فسدت العلاقة مرة أخرى حيث قام الأمير مبارز الدين بتدبير مؤامرة مع بعض المفسدين أراد بها التخلص من ابنه الشاه شجاع ورفع السلطان أبى يزيد بن مبارز الدين على العرش، وتكليف الشاه يحيى بقيادة الجيش وعندما علم الشاه شجاع بهذه المؤامرة أصدر أوامره بقتل تلك الجماعة المفسدة ونقل الأمير مبارز الدين إلى إحدى قلاع إقليم كرمسير فى فارس وبعد مدة أشتدت عليه العلة بسبب حرارة الجو فأمر الشاه شجاع بنقله إلى قلعة بم ولكنه مات فى الطريق فى أواخر ربيع الأخر عام ٧٦٥هـ فنقلوا جثته إلى "ميبذ" ودفنوه إلى جوار والده فى المدرسة المظفرية.

- (ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ص ١٤٧، ١٤٨).
- (عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ص ٤٢٤-٤٢٥).

(٤٠) حسينقلى ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٣٤.

(٤١) خواندمير (غياث همام الدين الحسينى، ت ٩٤٢هـ): تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر، جلد سوم، أزانتشارات كتابخانه خيام، ١٣٣٣هـ. ش، ص٢٩٥.

- قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول تهران، ١٣٦١هـ، ص ١٩٢.

• محمد علاء الدين منصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩م، ص ٥٣٤-٥٣٥.

(٤٢) طوائف الجرمانيين والأوغانيين: كانوا قبائل من المغول، جاءوا إلى كرمان في عهد سلطنة أرغون خان (٦٨٣هـ-٦٩٠هـ) بناء على طلب السلطان جلال الدين سيورغتمش الملك القراخطائي بكرمان للمحافظة على تلك المدينة، وأقاموا هناك، وقد تزوج منهم شاه جهان القراخطائي اخر ملوك هذه الأسرة وأنجب والدة السلاطين "قتلغ مخدومشاه" التي تزوجت مبارز الدين محمد، ولهذا السبب عندما تولى مبارز الدين أمر كرمان عام ٧٤١هـ ارتقى شأن هذه الطوائف، ثم تزوج منهم بعد ذلك الشاه شجاع أيضا. وعلى الرغم من ذلك فقد أكثروا التمرد والتعرض لأموال المسلمين وأملاكهم.

• (خواندمير: تاريخ حبيب السير، جلد سوم، ص ص ٢٩٥-٢٩٦).

(٤٣) نفس المصدر، جلد سوم، ص ٢٩٦.

• حسينقلى ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد أول، ص ١٣٦.

(٤٤) كان من أسرة برهان الأقطاب الشيخ شهاب الملة والدين توران بشتي رحمه الله (محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٣٤).

(٤٥) خواندمير: حبيب السير، جلدسوم، ص ٢٩٦.

• ستودة: تاريخ آل المظفر، جلد اول، ص ١٣٦.

(٤٦) خواندمير: حبيب السير، جلدسوم، ص ٢٩٦.

• عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٦.

(٤٧) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٢٩٦.

• قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد اول، ص ١٩٥.

(٤٨) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٨.

• ستوده: تاريخ آل المظفر، جلد اول، ص ١٣٧.

(٤٩) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٣٦.

• قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد اول، ص ١٩٦.

(٥٠) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٨.

• ستودة: تاريخ آل مظفر، جلد أول، ص ١٣٧.

(٥١) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٨.

(٥٢) خواندمير: حبيب السير، جلدسوم، ص ٢٩٦.

(٥٣) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٨.

(٥٤) نفس المصدر، ص ١٤٨.

• عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٧.

(٥٥) وصف ميرخواند الشاه يحيى بقوله "كان ملكا شجاعا وحاكما جديرا وفارسا ماهرا غير أن سياسته كانت قائمة على المكر والحيلة والخداع ودائما ماكان يثير الفتن وينشر الفساد".

• (روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٩).

(٥٦) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٣٦.

• ستودة: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٣٧.

(٥٧) ذكر الشواربى (أن سبب إرسال الشاه شجاع بابن أخيه إلى حكومة يزد إلى أن يضرب به عدوه الأخر (الشاه محمود) وأنه ربما أراد أن يتخلص من الإثنين معا فيصفوا له الجو بعد كدر وتتكشف أمامه السماء بعد غيومها). (حافظ الشيرازى، ص ١٣٥).

(٥٨) ذكر ميرخواند أن سبب صفح الشاه شجاع عن خطأ ابن أخيه الشاه يحيى يرجع إلى أنه رأى أخاه الشاه مظفر فى المنام يقول له عاهدنى على ألا تحاول استئصال شأفة أسرتى، وقد عاهد الشاه شجاع أخاه المتوفى فى المنام. وبناء على هذا فكلما صدرت من أولاده أى تجاوزات كان يتغاض عنها الشاه شجاع، ويستمر فى رعايتهم وتربيتهم (روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٩).

(٥٩) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٣٧.

(٦٠) خواندمير: دستور الوزراء، ترجمة حربى أمين سليمان، تقديم فؤاد عبد المعطى الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠، ص ٣٢٣.

• رحمت الله مهراز: بزركان شيراز، تهران ١٣٤٨هـ، ص ١١:٤.

(٦١) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٤٩.

• شيرين بياني: تاريخ آل جلائر. تهران ١٣٤٥هـ، ص ٣٧.

(٦٢) ابراهيم أمين الشواربي: حافظ الشيرازي، ص ١٣٧.

(٦٣) عبد الرازق السمرقندي: مطلع السعدين ومجمع البحرين، ترجمة ودراسة أحمد رياض، رسالة ماجستير، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٩١-٤٩٢.

(٦٤) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٢٩٧.

• قاسم غني: بحث در آثار، وأفكار، وأحوال حافظ، جلد أول، ص ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٦٥) ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٤٣.

(٦٦) حبيب السير، جلد سوم، ص ٢٩٧.

(٦٧) ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٤٤.

• قاسم غني: بحث در آثار، وأفكار، وأحوال حافظ، ص ٢٠٩.

(٦٨) ذكر الكتبي أن سبب ضيق السلطان أحمد يرجع إلى قيام الشاه شجاع بجمع أمرائه للتشاور معهم، ولم يدع السلطان أحمد إلى مجلسه فتملكه الغضب ولحق بأخيه محمود. (تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٣). أما ميرخواند فأرجع السبب إلى أنه لم يلق الاستقبال اللائق في بلاط الشاه شجاع بل أنهم أساءوا حضرته فانضم في نفس الليلة إلى الشاه محمود. (روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٠).

(٦٩) محمود الكتبي: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٣.

(٧٠) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٠.

• ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٤٥.

(٧١) قام الشاه شجاع بإرسال ابنه السلطان شبلي لحكم كرمان بعد ضيق السلطان أحمد وانضمامه إلى أخيه الشاه محمود.

• ستوده: المرجع السابق، جلد اول، ص ١٤٥.

(٧٢) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٥.

● عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين ومجمع البحرين، الترجمة العربيـة، ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٧٣) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٠.

● قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد اول، ص ٢١٣.

(٧٤) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٦.

(٧٥) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥١.

(٧٦) الكتبى : تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٧.

● عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٨.

(٧٧) كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى عالما كبيرا وإماما مرضيـا وصاحب كرامات، وكان شيخ مشايخ الصوفية فى ولاية فارس فى القرنيـــن الثالث والرابع الهجريين، وقد قام بتأسيس فرقة الخفيفية إحدى فرق الصوفيـة التى انتشرت فى فارس وغيرها من الولايات الإسلامية، وكانت وفاته عـــام ٣٧١هـ/ ٩٨١م). عن ترجمة هذا الشيخ أنظر:

● السمعانى (أبو سعد عبد الكريم بن محمد ت ٥٦٢هـ): الأنســـاب، تقديـم وتعليق عبد الله عمر البارودى، ج ٣، دار الجنان، بـيروت ١٩٨٨، ص ٤٩٢.

● أبو الحسن على بن محمد الديلمى: سيرة الشيخ الكبير (أبـــو عبـــد الله بـن خفيف الشيرازى) القاهرة ١٩٧٧م، ص ٨٧.

● فرصت شيرازى: آثار العجم، بمبى ١٣١٤هـ، ص ٤٦٠.

● حسين بحر العلومى: كارنامه أنجمن آثار ملى أزاغازتا ٢٥٣٥ شاهنشـاهى، ص ٦١٧.

(٧٨) عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين ومجمـــع البحريـــن، ح١، الترجمـة العربية، ص ٥١٣.

● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٤٨.

(٧٩) محمود الكتبى: تاريخ ال المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٩.
● قاسم غني: بحث در اثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول، ص ٢١٧.
(٨٠) الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٣٩.
(٨١) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥١.
● شيرين بياني: تاريخ ال جلاير، ص ٣٩.
(٨٢) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٤٩.
(٨٣) عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين ومجمع البحرين، ص ٥٠٦.
● الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٣٩.
(٨٤) ملكة على التركة: الشاه شجاع شاعرا، ص ٢٠.
(٨٥) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥١.
(٨٦) نفس المصدر، ص ١٥١.
(٨٧) خواندمير: حبيب السير، ص ٣٠٠.
● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٥٠.
(٨٨) إبراهيم الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٤٠.
(٨٩) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٢.
(٩٠) نفس المصدر: جلد جهارم، ص ١٥٢.
● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٥١.
(٩١) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٥٣.
● قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، ص ٢٢٧-٢٢٨.
(٩٢) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠١.
● عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٢٩.
(٩٣) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠١.
● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٥٣.
(٩٤) سيرجان: مدينة بين كرمان وفارس، (ياقوت الحموى: معجم البلدان، مـج ٣، ص ٢٩٥).

(٩٥) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٥٧.

• عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد اول، ص ١٥٥.

(٩٦) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٥٨.

• الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٤١.

(٩٧) حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٢.

(٩٨) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٣.

(٩٩) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٢.

• عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد اول، ص ٤٣٠.

(١٠٠) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ص ١٥٩-١٦٠.

(١٠١) ستودة: تاريخ آل مظفر، جلد أول، ص ١٥٦.

(١٠٢) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٦١.

(١٠٣) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٣.

(١٠٤) هرب هذا الوزير من سجنه وتوجه إلى أصفهان فأسند إليه الشاه محمود منصب الوزارة رغما عن أخيه. (خواندمير: دستور الوزراء، الترجمة العربية، ص ٣٢٤).

(١٠٥) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٣.

(١٠٦) ندم الشاه محمود على قتل زوجته فيما بعد ندما شديدا فكان يبكيها كثيرا حتى قيل أنه عندما وصلت عروسه من تبريز وشاهدت حزن الشاه محمود على "خان سلطان" وقلة معاشرته لها اشتعلت نيران الغيرة فانتهزت فرصة غياب الشاه محمود وأمرت بإخراج جثة (خان سلطان) من قبرها، واشتعلت فيها النيران. (ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٤).

(١٠٧) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٣.

• ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ص ١٦٣-١٦٤.

(١٠٨) عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين ومجمع البحرين، الترجمة العربية، ص ٥٤٧.

● ملكة على التركى: الشاه شجاع شاعرا، ص ١٢.

(١٠٩) عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين ومجمع البحرين، ص ٥٥٠.

● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٦٧.

(١١٠) كان مبعوث الشاه محمود إلى السلطان أويس هـو الخواجـه (تـاج الديـن مشيرى) مستشاروه ووزيره وكان يتمتع بسداد الرأى وحسن التدبـير، وقـد نجح فى سعيه لدى السلطان أويس. (خواندمير: حبيب السير، جلد سـوم، ص ص ٣٠٣-٣٠٤).

(١١١) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٤).

● شيرين بيانى: تاريخ آل جلاير، ص ص ٤٥-٤٦.

(١١٢) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ص ١٥٤-١٥٥.

● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ص ١٦٩-١٧٠.

(١١٣) عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين، الترجمة العربية، ص ٥٣٤.

(١١٤) ذكر خواندمير: أن الوزير شاه ركن الدين حسن يمتد نسبه إلى أسرة الرسـول الكريم (ص). (أنظر حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٤).

(١١٥) خواندمير: دستور الوزراء، الترجمة العربية، ص ٣٢٤.

● ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٥٩.

(١١٦) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٦٥.

(١١٧) خواندمير: دستور الوزراء، الترجمة العربية، ص ٣٢٥.

● رحمة الله مهراز: بزركان شيراز، ص ٤٥٩.

(١١٨) قام هذا الوزير بإرساء قواعد الحكم والإدارة فى الدولة ومن أعماله العظيمـة قيامه بوقف أجزاء القرآن الكريم التى كتبت بخط يحيى بـن جمـال الديـن الصوفى عامى ٧٤٥، ٧٤٦هـ على مسجد الجامع العتيق بمدينـة شـيراز، ولما كان هذا المسجد على وشك الإنهيار فقام بنقل القران إلى ضريح ميرسيد محمد (خواندمير: دستور الوزراء، الترجمة العربية، ص ٣٢٤).

(١١٩) نفس المصدر، ص ٣٢٤.

• قاسم غني: بحث در اثار وافكار واحوال حافظ، جلد اول، ص ٢٦٨.

(١٢٠) الشواربي: حافظ الشيرازي، ص ص ١٤٤، ١٤٥.

(١٢١) نفس المرجع، ص ١٤٥.

(١٢٢) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٥.

• ستوده: تاريخ ال مظفر، جلد اول، ص ١٧١.

(١٢٣) قاسم غني: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، ص ٢٧٩.

(١٢٤) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٥، ١٥٦.

• ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٧٣ وما يليها.

(١٢٥) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٧.

(١٢٦) الكتبي: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٧٥.

• ستوده: تاريخ ال مظفر، جلد اول، ص ١٧٧.

(١٢٧) عندما تأكد الشاه شجاع من خبر وفاة السلطان أويس منح الشخص الذى بلغه هذا الخبر مبلغ عشرة آلاف دينار وجواد وخلعة. (ميرخوند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٨).

(١٢٨) عاش الشاه محمود ثمان وثلاثين سنة وخمسة أشهر وتسعة أيام وحكم أصفهان سبع عشرة سنة منها عامين فى فارس. (الكتبي: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٧٦).

(١٢٩) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٨.

(١٣٠) ارسل السلطان أويس برسالة إلى والده تحمل معنى الاعتذار والتأسف فعفا الشاه شجاع عنه. (أنظر خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٩).

(١٣١) ذكر أنه قتل بالخمر المسمومة عام ٧٧٧ هـ.

• (ميرخوند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٥٨).

(١٣٢) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٩.

• ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٨٠.

(١٣٣) نفس المرجع، ص ١٨١.

(١٣٤) أربرى (أرثر): شيراز مدينة الأولياء والشعراء، ترجمة سامى مكارم، بيروت ١٩٦٧م، ص ٢١٩.

• الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٤٦.

(١٣٥) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣٠٩.

• قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول، ص ٢٩٣.

(١٣٦) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ص ١٥٨، ١٥٩.

• عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد أول، ص ٤٣٢.

(١٣٧) شيرين بيانى: تاريخ آل جلاير، ص ص ٦٠، ٦١.

• عبد الله رازى: تاريخ كامل إيران، ص ٣٣٧.

(١٣٨) الكتبى: تاريخ آل المظفر، ص ١٨٠.

• قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول، ص ٣٠٠.

(١٣٩) الكتبى: تاريخ آل المظفر، ص ١٨٠، ١٨١.

• ستودة: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٨٧.

(١٤٠) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣١٢، ٣١٣.

(١٤١) نفس المصدر: ص ٣١٣.

• عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، جلد اول، ص ٤٣٣.

(١٤٢) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٨٤، ١٨٥.

• ستودة: تاريخ ال مظفر، جلد اول، ص ١٩٠.

(١٤٣) حافظ أبرو: تتمة جامع التواريخ الرشيدى، باهتمام دكتر خانبابا بيانى، طهران ١٣٥٠ هـ، سلسلة انتشارات أنجمن آثار ملى، ص ٢٦٧، وما والاها.

• محمد علاء الدين منصور: تاريخ ايران بعد الإسلام، ص ٥٣٧.

(١٤٤) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٦١.

• الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٤٨.

(١٤٥) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٦١.

(١٤٦) خواندمير: حبيب السير، جلد سوم، ص ٣١٣.

(١٤٧) ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٩٧.

(١٤٨) الكتبى: تاريخ آل المظفر، ص ص ١٩٣-١٩٤.

(١٤٩) ميرخواند: روضة الصفا، جلد جهارم، ص ١٦٢.

- ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد اول، ص ١٩٧.

(١٥٠) اربرى: شيراز مدينة الأولياء والشعراء، الترجمة العربية، ص ٢٣٥.

- الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٤٩.
- محمد علاء الدين منصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٥٣٨.

(١٥١) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ١٩٥.

(١٥٢) أنظر رسالة الشاه شجاع إلى أخيه السلطان أحمد فى كتاب تاريخ آل المظفر، لمحمود الكتبى، ص ١٩٦-١٩٧.

(١٥٣) أنظر نص الرسالة فى كتاب عجائب المقدور فى نوائب تيمور لابن عربشاه، تحقيق أحمد فايز، بيروت ١٩٨٦م.

(١٥٤) الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ٢٠٢.

- Howorth. H.: History of the Mongols, Part 3, London 1888, p. 704.

(١٥٥) الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٥٢.

(١٥٦) نفس المرجع، ص ١٥٨.

(١٥٧) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ٢١١.

- الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ١٥٩.

(١٥٨) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

- محمد علاء الدين منصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٥٤١.
- أربرى: شيراز مدينة الأولياء والشعراء، الترجمة العربية، ص ٢٣٦.

- Howorth. H.: History of the Mongols, Part 3, London, pp. 709-710.

(١٥٩) محمود الكتبى. تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ٢٢٦ وما والاها.
- عبد الله رازى: تاريخ كامل ايران، ص ٣٣٨.
- الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ٢٦١.

- Sykes: The Thousand Miles in Persia, p. 64.

(١٦٠) محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، الترجمة العربية، ص ٢٣٠-٢٣١.
- الشواربى: حافظ الشيرازى، ص ٢٦١.
- محمد علاء الدين منصور: تاريخ ايران بعد الإسلام، ص ٥٤٣.

- Howorth. H.: History of the Mongols, Part 3, p. 715.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات :

١- شاه شجاع: روح العاشقين، مخطوط رقم ٦١٣ فارس، مكتبة جامعة القاهرة.

ثانيا : المصادر والمراجع الفارسية :

٢- براون (إدوارد): أزسعدى تاجامى: تاريخ أدبى ايران أزنيمة قرن هفتم تـــاخر قرن نهم هجرى عصر استيلاى مغول وتاتار، ترجمة وحواشـــى على أصغر حكمت تهران ١٣٢٧ ش/ ١٩٤٨م.

٣- بوسورث (كليفورد أدموند): سلسلة هاى إسلامى، ترجمة فريـــدون بـــدره أى تهران د.ت.

٤- حافظ أبرو: ذيل جامع التواريخ رشيدى، شامل وقـــايع (٧٨١-٧٠٣) هجـــرى قمرى، باهتمام دكتر خانبابا بيانى، تهران ١٣٥٠ هـــ.ش.

٥- حسين بحر العلومى: كارنامه أنجمى آثار ملى أز أغازتـــا ٢٥٣٥ شاهنشـــاى سلسلة انتشارات أنجمن آثارملى، تهران ١٣٠١ هـــ.ش.

٦- حسينقلى ستوده: تاريخ آل مظفر، جلد أول، انتشارات دانشكاه تـــهران ١٣٤٧ هـــ.ش.

٧- خواندمير (غياث الدين محمد بن همام الحسينى ت ٩٤٢ هـــ): تـــاريخ حبيـــب السير فى أخبار أفراد البشر، جلد سوم، تهران ١٣٣٣ هـــ.ش.

٨- ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات درايران، جلدســـوم، تـــهران جابخانـــه راميـــن ١٣٧٢هـــ.

٩- رحمت الله مهراز: بزركان شيراز، سلسلة إنتشارات إنجمن آثـــارملى، تـــهران ١٣٤٨ هـــ.ش.

١٠- سعيد نفيسى: نظم ونثر درايران ودرزبان فارسى تاپايان قرن دهم هجـــرى، جلد أول تهران ١٣٤٤ هـــ. ش.

١١- شيرين بيانى: تاريخ آل جلائر، تهران ١٣٤٥ هـــ، ش.

١٢- عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران (أز استيلاى مغول تا اعلان مشـــروطيت) جلد أول، مطبعة مجلس، طهران ١٣١٢ هـ. ش.

١٣- عبد العظيم رضايي: تاريخ ده هزارسالة ايران، جلد سوم، دار نشـر إقبـال، تهران ١٣٧٣ هـ.

١٤- عبد الله رازى: تاريخ كامل ايران، دار نشر إقبال، تهران د.ت.

١٥- على أكبر دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٧، تهران ١٣٢٥ هـ. ش.

١٦- على تقى بهروزى: خال رخ هفـت كشـور، جابخانـه موسـوى، شـيراز ١٣٣٤هـ.ش.

١٧- فرصت شيرازى: أثار العجم، بمبى ١٣١٤ هـ.

١٨- قاسم غنى: بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلـد اول : تـاريخ عصـر حافظ يا تاريخ فارس ومضافات وإيالات مجاورة در قرن هشـتم بانضمام حواشى وفهارس سه كانه بعلاوة مقدمـة بقلـم اسـتاذ علامة فقيد محمد قزوينى تهران ١٣٢١ هـ. ش.

١٩- معين الدين بن جلال الدين محمد معلم يزدى: مواهب إلـهى (در تـاريخ آل مظفر) با تصحيح ومقدمة سعيد نفيسى، مجلد أول طـهران، أز انتشارات كتابخانه وجابخانه إقبال، ١٣٢٦ هـ.

٢٠- ميرخواند (محمد بن سيد برهان الدين خاوندشاه): روضة الصفا، جلد جهارم، طبعة بمباى ١٢٧١ هـ.

ثالثا: المصادر والمراجع الفارسية المعربة :

٢١- خواندمير (غياث الدين همام الحسينى): دستور الوزراء، ترجمة حربى أميـن سليمان، تقديم فؤاد عبد المعطى الصياد، الهيئة المصرية العامـة للكتاب ١٩٨٠.

٢٢- رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنـداوى، دار الفكر العربي، ١٩٤٧م.

٢٣- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام (٢٠٥هـ: ١٣٤٣هـ) (٨٢٠م: ١٩٢٥م) (من بداية الدولة) الظاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية) ترجمة محمد علاء الدين منصور، مراجعة السباعي محمد السباعي، دار الثقافة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٩م.

٢٤- عبد الرازق السمرقندى: مطلع السعدين ومجمع البحرين، ترجمة ودراسة أحمد رياض (رسالة ماجستير) القاهرة ١٩٩٧م.

٢٥- محمود الكتبى: تاريخ آل المظفر، ترجمة وتعليق ملكة على التركى، القاهرة، دار الزهراء للنشر ١٩٩٢م.

رابعا: المصادر والمراجع العربية والمعربة:

٢٦- ابراهيم أمين الشواربي: حافظ الشيرازى (شاعر الغناء والغزل فى إيران) مطبعة المعارف بمصر د.ت.

٢٧- آربرى (آرثر): شيراز مدينة الأولياء والشعراء، ترجمة سامي مكارم، بيروت ١٩٦٧م.

٢٨- ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد ت ٨٥٢هـ): الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة حققه وقدم له محمد سيد جاد الحق، ج٢، القاهرة د.ت.

٢٩- ابن عربشاه (أبو العباسى شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى): عجائب المقدور فى نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى، بيروت ١٤٠٧هـ.

٣٠- أبو الفداء (إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة" ت ٧٣٢هـ): تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.

٣١- الديلمى (أبو الحسن على بن محمد): (سيرة الشيخ الكبير أبى عبد الله محمد ابن خفيف الشيرازى) ترجمها إلى الفارسية ركن الدين يحيى بن جنيد الشيرازى، وأعاد ترجمتها إلى العربية إبراهيم الدسوقى شتا. القاهرة د.ت.

٣٢- السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ) الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، الجزء الثالث. بيروت ١٩٨٨م.

٣٣- ملكة على التركي: الشاه شجاع شاعرا (ثاني حكام أسرة آل المظفر بايران ٧٦٠: ٧٨٦هـ) القاهرة، دار الزهراء للنشر، ١٩٩٢م.

٣٤- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت ١٩٨٤م).

خامسا: المراجع الأجنبية :

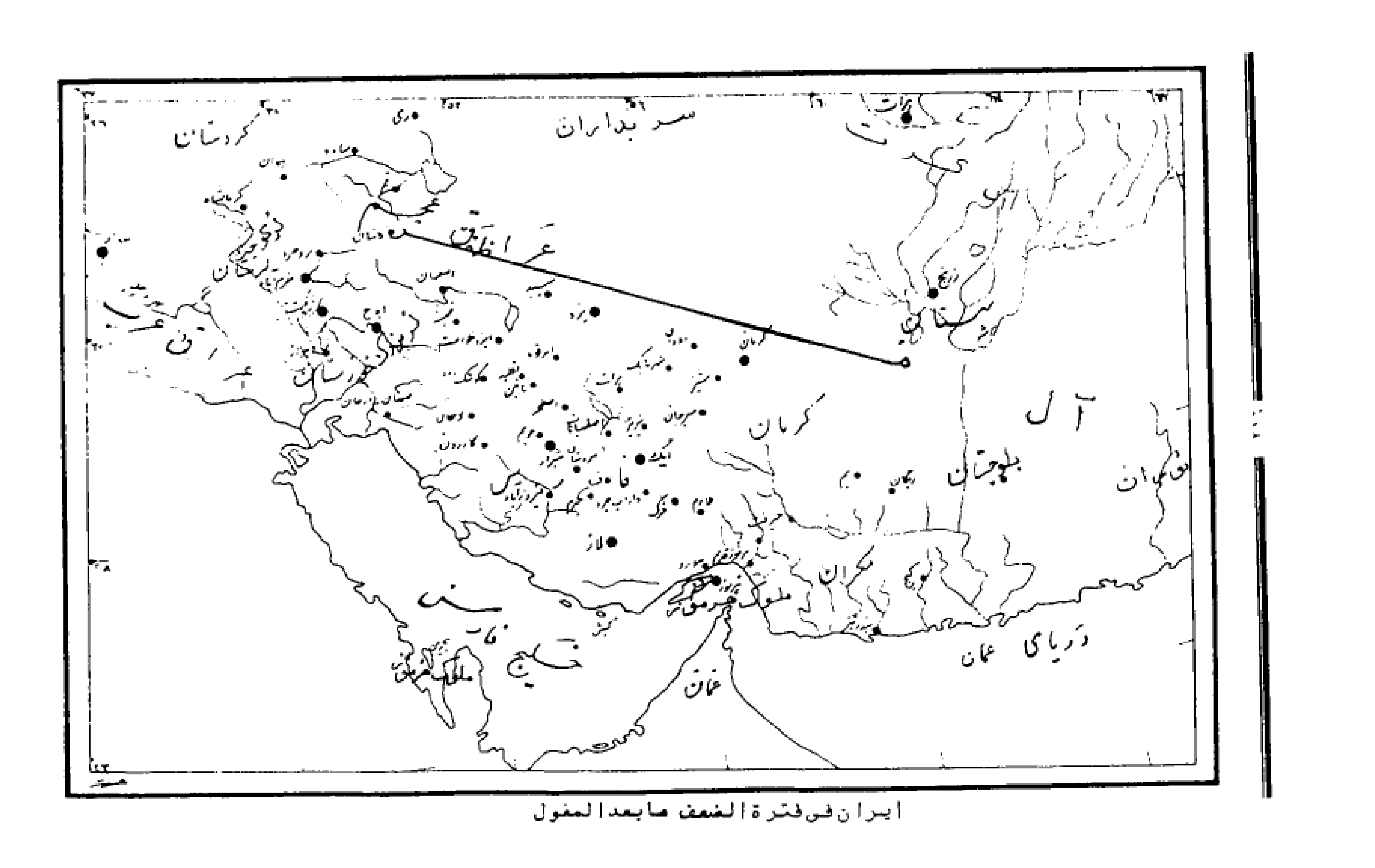
35- **Howorth: Henry H.:** History of the Mongols, part 3, London 1888.

36- **Hudud Al-Alam:** "The Region of the world" "Apersion geography" Translaled and Explained by V. minorsky, with the preface By v.v. Barthold, London 1937.

37- **Rybka, Jan:** History of Iranian Literature, Edited by: Karl John, Holand 1968.

38- **Sykes: Sir Percy:** A History of persia, v.2, London 1969.

39- **Sykes: Sir Percy:** Ten Thousand Miles in Persia or Eight [illegible] 1902



ايران فى فترة الضعف مابعد المغول

الصراع بين المماليك البحرية والقوى الأوربية في البحر المتوسط (٦٦٩هـ/١٢٧٠م - ٧٨٧/١٣٨٥هـ)

د. خالد بن خلفان بن ناصر الوهيبي
جامعة السلطان قابوس

إن الصراع بين القوى البحرية الإسلامية والقوى الأوربية فى البحر المتوسط ليس وليد العصر المملوكي، وإنما يرجع إلى عصر الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام ومصر، حينما التحمت القوتين الإسلامية والبيزنطية،في أول معركة بحرية بينهما، في شرق البحر المتوسط تجاه ساحل ليكيا بآسيا الصغرى سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥-٦٥٦م حينما أحرز فيها المسلمون نصرا باهرا على الأسطول البيزنطي، والتى عرفت فى المصادر العربية بمعركة ذات الصوارى.[١] ثم استمر الصراع البيزنطى الإسلامى يتزايد حتى امتدت غارات الأسطول الإسلامي، لتشمل كثير من جزائر البحر المتوسط، بل أقدم الأمويون على حصار القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية من البحر فى زمن معاوية، والذى استمر مدة سبع سنوات (٥٤هـ/ ٦٧٣- ٦٠هـ/ ٦٧٩- ٦٨٠م) وسليمان بن عبدالملك الذى حاصرها برا وبحرا مدة تزيد على السنة (٩٩هـ/ ٧١٧-٧١٨م -١٠٠هـ / ٧١٨-٧١٩م) مما يؤكد على قوة الأسطول الإسلامي وعظمته فى الفترة الأموية.[٢]

ولقد بلغ هذا الصراع أوجه فى القرن التاسع الميلادى عندما استولى المسلمون الأندلسيون على كريت سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م حيث استمروا يلعبون دورا قويا ونشطا ضد الأهداف البيزنطية ما يقارب القرن والنصف حتى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م عندما استرد البيزنطيون الجزيرة.[٣] أما صقلية فقد بدأ المسلمون فى فتحها سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م حيث أخذوا في الاستيلاء على مدنها ومعاقلها حتى كمل فتحها كلها سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م عندئذ صارت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط شبه كاملة.[٤] ومع مجئ بدايات النصف الثاني من القرن العاشر، تغيرت

موازين القوى البحرية، ففقد المسلمون كريت سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م حيث استولى عليها البيزنطيون،كما فقدوا صقلية فى نهايات القرن ٥هـ/ ١١م لصالح النورمان سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، وبذلك فقد المسلمون سيطرتهم على البحر المتوسط. (٥)

وفى القرن الثانى عشر الميلادى، ظهرت قوى بحرية جديدة على مسرح الأحداث في البحر المتوسط، متمثلة فى المدن البحرية الإيطالية بيزا، جنوه، البندقية، التى عملت على مساعدة الحملات الصليبية الغازية لبلاد الشام، ووفرت الدعم المادى لبقاء الصليبيين لمدة قرنين من الزمان، مقابل الحصول على امتيازات تجارية، تخولها السيطرة على التجارة مع الشرق الإسلامى. (٦) وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية فى مصر كانت تملك أسطولا جيدا فى القرن ٤ هـ / ١٠ م إلا أنها كانت تمر بفترة ضعف سياسى وعسكرى منذ نهايات القرن ٥هـ / ١١م وازداد هذا الضعف فى القرن ٦هـ / ١٢ م عندما واجهت القوى الصليبية المدعومة بالأساطيل الأوروبية مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على المدن الساحلية فى فلسطين وسوريا. (٧)

فلما انتهت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م أعيد الاهتمام بالأسطول، الذى قدم مساهمة فعالة، فيما أحرزه صلاح الدين من انتصارات بحرية ضد محاولة أرناط السيطرة على تجارة المحيط الهندى، وتهديد الأماكن المقدسة فى الحجاز سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م، كما ساهم الأسطول فى استرداد المدن الساحلية فى فلسطين، والدفاع عنها بعد معركة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. (٨) إلا أن هذا الأسطول، لم يلبث أن دخل فى طور من النسيان والإهمال الشديد بعد وفاة صلاح الدين، كما ذكر ذلك المقريزى بعبارات مؤثرة "... فلما مات صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال فى الأسطول قليلا، ثم قل الاهتمام به، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه، طلب له الرجال، وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا فى السلاسل نهارا، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا، ولا يصرف لهم إلا شئ قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شئ، كما يفعل بالأسرى من العدو، فصارت خدمة الأسطول عارا يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل فى مصر أسطولى غضب غضبا شديدا، بعدما

كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس ...". (٩)

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة، التي تركها المقريزي للأسطول المصري وبحارته بعد صلاح الدين، إلا أن الأسطول الأيوبي في عهد السلطان الكامل، ساهم في هزيمة الجيوش الصليبية سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م (الحملة الصليبية الخامسة) التي حاولت عن طريق الاستيلاء على دمياط، واستخدام فروع نهر النيل للزحف على القاهرة والاستيلاء على مصر.(١٠) وفي أواخر العهد الأيوبي شهدت اهتماما جديدا بالأسطول بعد هجوم لويس التاسع على دمياط سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، حيث قامت سفن الأسطول الأيوبي بمهاجمة السفن الصليبية في مياه النيل، وكانت أحد أسباب انتصار المسلمين على هذه الحملة الصليبية ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م. (١١) غير أن الاهتمام به قد قل نتيجة انتهاء الخطر الصليبي على مصر، وانهماك المماليك في تأسيس دولتهم، والقضاء على التمرد الداخلي، والأخطار الخارجية المتمثلة في الأيوبيين والتتار (قوى برية) ودون حدوث احتكاك فعلي مع الصليبيين في الشام، الذين كانوا يعانون من ضعف وخلاف داخلي شديد في الفترة الممتدة من (٦٤٩هـ/ ١٢٥١- ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م). (١٢) فلما تولى السلطنة الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م دخل الأسطول في طور جديد من القوة كما سوف نرى في الصفحات التالية. (١٣)

هناك الكثير من الدراسات حول البحرية الإسلامية مرورا بمختلف الحقب التاريخية، منذ العهد الراشدي وحتى العصر الأيوبي، والعلاقات التجارية بين الشرق والغرب. (١٤) إلا أن أقدم الدراسات الحديثة حول البحرية المملوكية بوجه خاص دراسة دايفيد أيلون "القوة البحرية المملوكية، الوجه الآخر للصراع بين الاسلام وأوروبا المسيحية"؛ وضع فيها ايلون تصوره للبحرية المملوكية ودورها. وهي دراسة عامة غير مفصلة ولا تعطي صورة شاملة عن البحرية المملوكية طوال العصر المملوكي. إلا أنها تحتوي على بعض الأفكار، التي اعتبرها كثير من الدارسين للتاريخ المملوكي، معادلات رياضية، قادرة على تفسير ضعف البحرية المملوكية أمام القوى الأوروبية، غير قابلة للنقاش؛ مثل تأكيد المؤلف على أهمية

طابع الفروسية فى ابتعاد المماليك عن الانخراط فى الأسطول، وعلى ندرة مصـادر الخشب والحديد فى الدولة المملوكية، وإلى عدم وجود أسطول ثابت لدى المماليك، وإن ضعف الدولة الأيوبية والمملوكية من بعدها فى القوى البحرية، أدى بها إلى تدمير جميع الحصون والموانئ الساحلية فى بلاد الشام، لكى لا يتخذها الصليبيون قواعد لغزو بيت المقدس مرة أخرى. (١٥)

أما دراسة إبراهيم حسن سعيد "البحرية فى عهد سلاطين المماليك"، وهى دراسة عامة للبحرية المملوكية التجارية والحربية فى البحرين المتوسط والأحمر ونهر النيل طوال العهد المملوكى، إلا أنها لم تتناول بشكل مفصل الصراع المملوكى الأوروبى فى البحر المتوسط، كما أنها اعتمدت فى تقييمها لدور البحرية المملوكية على نفس استنتاجات أيلون السابقة. (١٦)

كذلك قام المستشرق الألمانى Albrecht Fuess بكتابة مقال تحت عنوان "Rotting Ships and Razed Harbors: The Naval Policy of the Mamluks" أو "السفن المنهوبة والموانئ المدمرة: السياسة البحرية للمماليك". هذه الدراسة مختصرة من رسالته للدكتوراه والمنشورة باللغة الألمانية تحت عنوان "Auswirkungen mamlukishcher seepolitik auf Beirut und die syropalastinensische kuste (1250- 1517 A.D" (١٧)

هذه الدراسة التى لم أطلع عليها، لأنها كتبت باللغة الألمانية، ذكرت محتوياتها فى ملخص إصدارات دار بريل الهولندية لفصل خريف ٢٠٠١م، بأنها تناقش تاريخ الساحل الفلسطينى- السورى بعد طرد أخر الفلول الصليبية منه، والسياسة البحرية المملوكية الفاشلة، كما تقدم وصفاً للتاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى للساحل الفلسطينى- السورى فى العصر المملوكى. (١٨) وهى كما تبدو دراسة عامة حول السياسة البحرية المملوكية مركزة النقاش حول الساحل الشامى، وهذا ما يعكسه أيضاً الجزء المختصر منها الذى تحدث عن عدة محاور: أولها: تدمير الحصون الساحلية الفلسطينية – اللبنانية. ثانياً : محاولات السلاطين المماليك غزو قبرص ورودس، وقيام ملك قبرص بغزو الإسكندرية، وتصدى المماليك للخطر البرتغالى. ثالثاً : حاول المؤلف الإجابة عن لماذا لم تستطع الدولة المملوكية

ان تكون قوة بحرية؟. وهو كما يبدو من خلال قراءة هذه المقالة لا يوافق أيلون في الكثير مما طرحه من أفكار حول تقييمه لدور البحرية المملوكية. (١٩) وعلى الرغم من عدم توفر نسخة مطبوعة باللغتين العربية أو الإنجليزية لهذه الدراسة القيمة، يمكن من خلال قراءتها إعطاء تقييم أفضل لإسهام المؤلف، فإنها تعتبر من بين أهم الدراسات الأكاديمية حول السياسة البحرية المملوكية.

وتكمن صعوبة هذا الموضوع في ندرة المعلومات وتفرقها في المصادر العربية، وعدم وجود وثائق، تتناول القرصنة الأوروبية في البحر المتوسط، في مدة الدراسة، ذات مصدر أوروبي حتى يمكن مقارنتها بالمعلومات المتوافرة في المصادر العربية.

ونظرا للطابع الشمولي والعام لدراسة الصراع بعمق، لذا تركز النقاش في هذا البحث حول الصراع البحري المملوكي الأوروبي في فترة محددة (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م- ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) من تاريخ الدولة المملوكية، شهدت فيها الدولة أوج ازدهارها وقوتها دون ما قدرة على صد خطر القرصنة الأوروبية. وقد جاءت هذه الدراسة متناولة هذا الصراع بعمق، محاولة سبر أغوار الأحداث لتقييم دور القوة البحرية الحربية المملوكية في هذا الصراع، ومناقشة الأسباب الكامنة وراء القرصنة الأوروبية من ناحية، وأسباب عجز الدولة المملوكية عن القضاء عليها، على الرغم من قوتها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر من ناحية أخرى. وكذلك مناقشة وتحليل للآراء والأفكار السابقة التي طرحها المستشرقون حول البحرية المملوكية .

١-بيبرس وغزو قبرص سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠- ١٢٧١م :

كان لنشوء الدولة المملوكية أثر كبير في تاريخ المشرق العربي، وذلك لما احدثته من تأثير في كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. ولقد بدأت هذه الدولة في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عهدها بصراع مع الأيوبيين في الشام خرجت منه منتصرة، لتنشغل في صراع داخلي على السلطة بين أجنحة الحكم، انتهى بهروب قسم كبير من المماليك البحرية في الشام، إلا أن الخطر المغولي وحدهم مرة أخرى، واستطاع قطز هزيمة

المغول فى عين جالوت. وبذلك قضى المماليك على أهم خطر هدد دولتهم الناشئة، غير أن قطز لم يهنأ بهذا الانتصار، إذ اغتاله بيبرس البندقدارى عن طريق مؤامرة دبرها مع الأمراء المماليك وبتوليه السلطة تدخل الدولة المملوكية فى عهده طورا من التوسع والقوة والبناء الداخلى.

من المعلوم أن هزيمة الصليبيين فى حطين تمثل مفترق طرق بالنسبة للوجود الصليبى فى بلاد الشام إذ أنها تشكل بداية النهاية لهذا الوجود خاصة فى فلسطين على الرغم من بقاء بعض المدن الساحلية بأيديهم إلا أن أوضاعهم فى القرنين الثانى عشر وبداية الثالث عشر، اتسمت بالضعف والصراع الداخلى، خاصة بين المدن الإيطالية على المصالح والامتيازات التجارية. أما بالنسبة للمماليك فإن انتصارهم على الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع على مصر وهى أحد أكثر مبررات شرعية حكمهم قوة. إلا أن الدولة المملوكية التى عانت فى بداية عهدها من الخطر الأيوبى والصراع الداخلى والخطر المغولى لم تجد الفرصة السانحة للتدخل فى الصراع الصليبى الإسلامي فى بلاد الشام أو مد نفوذها فى الشام على حساب كل من الصليبيين والمسلمين، ولم يتحقق ذلك إلا بعد عين جالوت حينما أصبح الطريق سهلاً لبسط السيطرة على الممتلكات الأيوبية فى بلاد الشام مما جعل المواجهة بين المماليك والصليبيين أمرا محتما فى عهد بيبرس الذى خلف قطز فى منصب السلطنة خاصة وأن بعض الصليبيين كانوا قد تعاونوا مع المغول ضد المسلمين. وبما أن المواجهة البرية مع الصليبيين فى بلاد الشام ليست موضوع دراستنا فإن الحديث سيتركز على الصراع البحرى فى البحر المتوسط الذى هو امتداد فعلي للصراع الصليبى الإسلامى فى بلاد الشام.

تعد محاولة السلطان بيبرس البندقدارى غزو قبرص أول تحرك للقوة البحرية المملوكية فى البحر المتوسط إذ أن المصادر المملوكية المعاصرة لا تذكر أى تحرك ملموس لهذه القوة قبل سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م بل أن المقريزى يشير إلى تعرض الأسطول للإهمال فى السنوات الأولى لقيام الدولة المملوكية (شجرة الدر، عز الدين أيبك، قطز). [٢٠] وتعد محاولة بيبرس فى جوهرها حلقة من حلقات الصراع بين المسلمين والصليبيين واستمرارا للمواجهة فى الشام إذ أن ملك قبرص هيو الثالث لوزجنان (١٢٦٩- ١٢٧٦م) كان قد آل إليه تاج مملكة بيت المقدس

الصليبية، التي كان مركزها عكا في ٢٧ محـــرم ٦٦٨ هـــ/ ٢٤ ســبتمبر ســنة ١٢٦٩م وهو أكبر شخصية في أوساط الصليبيين في الشرق.(٢١)

وفي سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م قامت السفن الصليبية بمهاجمة الإسكندرية علـى دفعتين حيث دخلت السفن الصليبية الميناء في المرة الأولى في أواخر شهر رجــب ٦٦٨هـ/ فبراير ١٢٧٠م واستولت على سفينتين للمسلمين، أما في المرة الثانيـــة فقد قامت ١٢ سفينة للصليبيين في الشهر التالي بمهاجمة ميناء الإسكندرية ونـــهبت إحدى السفن التجارية الراسية في الميناء، بينما كان قائد البحريـــة المملوكيـــة فـــي الإسكندرية في مهمة كلف بها من قبل السلطان بيبرس.(٢٢) فأراد بيبرس أن يســتغل فرصة وجود هيو الثالث ملك قبرص في بلاد الشام لحل الخلافات بين الصليبيـــن، وتدبير أمور مملكته في الشام للإغارة على مملكته في قبرص، وإنزال أكــبر قــدر من الخسائر بها، وذلك من أجل منع هيو الثالث مـــن تقديـــم أي مســـاعدة عمليـــة للصليبيين في الشام ومغادرة عكا. (٢٣) بل وهناك من المصادر من يشـــير إلـــى أن هدف بيبرس من غزو قبرص كان الاستيلاء على الجزيرة نفســـها. (٢٤) علـــى أن المعلومات المتوفرة حول قلة القوة المهاجمة للجزيرة، وعـــدم اشـــتراك العنصـــر المملوكي في هذه الغزوة، كما سوف نرى مما يؤكد على أن الهدف الأساسي، كـــان منع ملك قبرص من تقديم أي عون فعلي للصليبيين في بـــلاد الشـــام، أو القيـــام بغارات القرصنة، أو إنزال أكبر قدر من الدمار والنهب في هذه الجزيرة. (٢٥)

بدأت الاستعدادات لهذا الغزو في بدايات سنة ٦٦٩هـ/ أواخر ســـنة ١٢٧٠م حيث تم الانتهاء من إنشاء الأسطول، وتزويده بالمعدات والمؤن في حـــدود نهايـــة شهر رجب ٦٦٩هـ/ فبراير ١٢٧١م. هذه الحقيقة نابعة من أن بيبرس أمر بإرسال أسطول لغزو قبرص وهو على حصار حصن الأكراد وقد تم حصار الحصن في ٩ شعبان ٦٦٩هـ/ ٢٣ مارس ١٢٧١م مما يعني أن الاستعدادات قد تم إنجازها فـــي موعد لا يتعدى نهاية شهر رجب/ فبراير وأن الأسطول قد غادر الموانئ المصريـــة في شهر شعبان ٦٦٩هـ/ مارس ١٢٧١م. (٢٦) تكون أسطول الغزو من ١٧ ســفينة حربية (شيني).(٢٧) وإذا عرفنا أن هناك ١١ شيني من هذا الأسطول قد تحطم وتـــم

أسر ١٨٠٠ بحاراً[٢٨] فإن متوسط عدد البحارة والمقاتلة في كل شيني من هذا الأسطول كان أكثر من ١٦٣ فردا على اعتبار الغرقاء في الحسبان.

نستنتج من ذلك أن أسطول الغزو كان يتكون من ١٧سفينة حربية كبيرة لحمل المقاتلة إضافة إلى سفن مصاحبة برسم حمل الخيل والمؤن والسلاح كالحراريق[٢٩]، والطرائد[٣٠]، والسلالير[٣١]، وهي مما ذكر من السفن التي أنشأها الظاهر بيبرس. [٣٢] وهذه السفن كانت مستخدمة في البحر المتوسط في نفس الفترة الزمنية، كما تؤكده دراسة الدكتور إبراهيم حسن سعيد حول البحرية المملوكية[٣٣]. إلا أن المقريزي قد انفرد دون سائر المؤرخين، فذكر أن عدد السفن الحربية بلغ أكثر من أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فإن عدتها كثيرة. [٣٤] ولا يمكننا قبول ما أورده المقريزي لأنه يناقض نفسه حينما أشار إلى تحطم جميع سفن الأسطول كلها، في نفس الوقت الذي ذكر فيه رسالة ملك قبرص التي أشارت إلى تكسر ١١ سفينة فقط.[٣٥] لذا سوف يتم استبعاد ما ذكره المقريزي من المناقشة على الرغم من اعتماده على مصدر لم يصلنا حتى الآن.

كان أفراد هذا الأسطول مكونين من أكثر من ٢٧٨٢ فرداً ما بين رماة[٣٦]، قواد[٣٧]، صناع[٣٨]، وستة من قادة الأسطول (الرؤساء)[٣٩] بالإضافة إلى البحارة. وكان كل رجال الأسطول من مصر، إذ لم تدخل موانئ الشام بعد تحت السيطرة المملوكية، خاصة أولئك الذين جاءوا من الإسكندرية ودمياط ومن غيرها من موانئ مصر على البحر المتوسط.[٤٠] كذلك من المرجح أيضا أن يكون المشتغلون بالملاحة النيلية قد اشتركوا في هذه الغزوة. ولقد سكتت المصادر المملوكية التي تحدثت عن هذه الغزوة عن الإشارة إلى اشتراك المماليك والقوى الفاعلة في الجيش المملوكي فيها بل أن بيبرس في معرض رده على رسالة ملك قبرص يصف رجال الأسطول بالفلاحين والرعاع.[٤١] كل ذلك يدل على عدم اشتراك المماليك في هذه الغزوة.

غادرت هذه السفن الموانئ المصرية على البحر المتوسط (الإسكندرية، دمياط) في شهر شعبان وبالتحديد بعد التاسع منه/ بعد ٢٣ مارس ١٢٧١م أو في شهر شوال ٦٦٩هـ/ ١٣ مايو ١٢٧١م، وذلك بعد ما طليت بالسواد، وعلقت عليها

أعلام بصلبان للتمويه، بإشارة من ابن حسون، الذى كان علـــى مـــا يبـــدو قـــائدا لأسطول الغزو أو أحد قادته الكبار.[٤٢] إلا أن هذا الأسطول المكون من ١٧ســـفينة حربية تعرض لرياح هوجاء عاتية عندما اقترب ليلا من ميناء ليمسول (النمســـون) القبرصى فتحطمت بفعل الرياح ١١ سفينة منها.[٤٣] أما بيبرس المنصـــورى فإنـــه ذكر أن سبب تحطم هذه السفن يرجع إلى دخولها ميناء ليمسول فى وقت الظـــلام؛ فتكسرت على صخور الميناء الواحدة تلو الأخرى دون أن يشعر أحدهـــا بمصيبـــة الآخر. [٤٤] بينما أورد المقريزى أن ابن حسون قائد الأسطول هـــو الـــذى أراد أن يفاجأ القبارصة بهجوم ليلى على الميناء إلا أنه فشـــل وتكســـرت الشـــوانى علـــى الصخور. [٤٥] ويمكن التوفيق بين هذه الروايات المتضاربة شكلا المتكاملـــة حقيقـــة على أن قائد الحملة ابن حسون أراد القيام بهجوم ليلى مفاجئ على الجزيـــرة إلا أن الرياح الهوجاء وعدم الخبرة بجغرافية المكان ساهمتا فى وقوع الكارثة.

وصلت بيبرس أنباء الكارثـــة فـــى ١٠ ذى القعـــدة ٦٦٩هـــ/ ٢٠ يونيـــو ١٢٧١م.[٤٦] مما يوحى بأن الكارثة قد حدثت فى شوال ٦٦٩هـــ/ مـــايو- يوليـــو ١٢٧١م. [٤٧] أدى تحطم الأسطول إلى غرق عدد كبير من الرجال وأسر ما يقـــارب ١٨٠٠ بحار ومقاتل. فما كان مـــن بيبرس إلا أن أمر باسترداد المأسورين. فقســـم من هؤلاء البحارة تم ابتياعهم من ميناء صور الصليبى فى بلاد الشام. [٤٨] وقســـم من الذين أسروا (القواد، الرماة) اشتراهم الصليبيون فى الشام من القبارصة وقـــادوا بهم أسراهم الذين أسرهم بيبرس فى حروبه بالشام. [٤٩] وأما رؤساء الأسطول، وهم ستة نفر منهم رئيس الإسكندرية ودمياط وأبو العباس المغربى وغـــيره فقـــد طلـــب الصليبيون أموالاً باهظة لإطلاق سراحهم من الأسر، مما حدى ببيبرس إلى إعمـــال حيلة لتخليصهم من السجن فى عكا، ووصلوا سالمين إلى القاهرة ســـنة ٦٧٣هـــ/ ١٢٧٤م إلا أن بعضا منهم توفى فى الأسر. [٥٠]

ولم يكن سوء حظ هذا الأسطول محبطا لبيبرس، إذ أن أوامره صدرت ببنـــاء ٢٠ شينيا، وإحضار خمس شوانى من قوص ساعة علمه بتحطم الأســـطول علـــى سواحل قبرص.[٥١] يشير ابن شداد، إلى أنه من شدة اهتمـــام بيـــبرس ببنـــاء هـــذا الأسطول قيامه بالإشراف على عملية البناء بنفسه مقدمـــا الكثـــير مـــن الحوافـــز

للصناع، حتى أنجز ٣٣ شينيا في وقت قصير جدا (... حتى فرغت في الأيام القليلة التي لا يمكن أن يفرغ من واحد منها فيها). [٥٢] وأرسلت هذه السفن في المحرم ٦٧٣هـ/ يوليو ١٢٧٤م من القاهرة مكان صنعها إلى دمياط.[٥٣] فهل كان بيبرس ينوي القيام بغزو جديد لقبرص ؟ إن اهتمام بيبرس الشديد ببناء أسطول جديد، يدل على نيته القيام بعمل حربي ما ضد قبرص، خاصة أنه أشار على ملك قبرص بالحذر في رده على رسالته، لكن انشغاله في صراعه ضد المغول والصليبيين في الشام في أواخر أيامه، وفقدان عنصر المفاجأة حالا دون ذلك. [٥٤]

توفي بيبرس سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م تاركا أسطولا يقدر ٣٣ شينيا، في حين بلغت النفقات على بناء السفن في إحدى سنوات عهده ١٠٠,٠٠٠دينارا ذهبيا. [٥٥]

ويعد عهد بيبرس من العهود الزاهية، في تاريخ البحرية المملوكية، من حيث الاهتمام بالأسطول ورجاله، قياسا لعهود غيره من سلاطين المماليك، كما يدل استخدامه الكبير للبحر كميدان للصراع ضد الوجود الصليبي في الشام على بعد نظره، إلا أنه لم يتخلص من النظرة المتعالية نحو البحر والبحارة والموروثة من العهد الأيوبي، مما جعل اشتراك المماليك، وصفوة الجيش المملوكي في الأسطول أمرا مستبعدا في عهده، وكذلك قيام قوة بحرية مملوكية ضاربة في البحر المتوسط.

أما عهد قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هـ / ١٢٧٩- ١٢٩٠م) فإن المصادر المملوكية لا تشير إلى أي اهتمام بالأسطول ربما لانهماك قلاوون في صراعه مع المغول والصليبيين في بلاد الشام، سوى استخدام بعض قطعه في مكافحة القرصنة الجنوية في البحر المتوسط حيث أشار بيبرس المنصوري إلى أنه قد قام بأسر إحدى السفن التي كانت تحاول القرصنة في البحر ومعه دون المائة من الجنوية بعد معركة قتل فيها عدد منهم. [٥٦]

وفي عهد السلطان الأشرف خليل (٦٨٩- ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩٣م) تجدد الاهتمام بالأسطول، فقد أمر هذا السلطان وزيره ابن السلعوس[٥٧] في سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢- ١٢٩٣م أي بعد استيلائه على عكا وقضائه على آخر فلول الصليبيين بالشام- ببناء ستين شينيا في دار الصناعة بالقاهرة، وشحنها بالعدد والات الحرب، وتم تجريبها في النيل، ولم يذكر المقريزي الذي أورد ذلك السبب وراء بناء هذه السفن، أو الهدف الذي توخاه السلطان منها، سوى قوله أن ملوك

السفن، أو الهدف الذى توخاه السلطان منها، سوى قوله أن ملوك الفرنج قد بلغهم أمر هذه الاستعدادات، فسارعوا إلى تقديم الهدايا وطلب الصلح[٥٨].

أما العينى فإنه أشار إلى أن سبب إنشاء ٦٠ شينيا فى أيام قلاون هو أن السلطان الأشرف خليل (اشتهى أن يتفرج على لعب الشوانى فى البحر). ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره المقريزى فى خططه بقوله " ركب السلطان من قلعة الجبل إلى جزيرة الروضة ، وأقام احتفالا كبيرا لاستعراض سفن الأسطول، وأقبل الناس من كل صوب وحدب لمشاهدة مناورات هذا الأسطول بعد إتمامه ... ".[٥٩] ولعل السبب الحقيقى، يكمن فى قيام الملك هنرى ملك قبرص بمحاولة الإغارة على الإسكندرية، حيث أرسل سنة ٦٩١هـ- ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م خمس عشرة سفينة، تساندها عشر سفن من لدى البابا، لكنها لم تحقق أى نتائج تذكر سوى عزم السلطان الأشرف خليل على فتح قبرص مما يفسر إهمال ذكرها فى المصادر المملوكية. [٦٠] مهما يكن فإن القدر لم يمهل السلطان من استخدام هذه السفن استخداما جديا إذ قام الأمراء المماليك باغتياله فى المحرم ٦٩٣هـ/ ديسمبر ١٢٩٣م. [٦١]

وبعد عشر سنين من ذلك التاريخ فى عهد الناصر محمد فى المحرم ٧٠٢هـ/ سبتمبر ١٣٠٢م أرسلت الشوانى للاستيلاء على جزيرة أرواد القريبة من أنطرطوس، وكان بها بقايا الصليبيين، كما أنها كانت تابعة لقبرص. واشترك فى هذه الغزوة أجناد الحلقة وأجناد الأمراء عن حساب رجلين عن كل أمير مائة[٦٢] ورجل واحد عن كل أمير طبلخاناه[٦٣] وأمير عشرة[٦٤] بالإضافة إلى عدد غير محدد من أجناد طرابلس. وبعد قتال ضار قتل فيه أكثر أهلها وأسر منهم ٢٨٠ أسيرا استطاع الأسطول المملوكى الاستيلاء على الجزيرة فى ١٨ صفر ٧٠٢هـ/ ١٢-١٣ أكتوبر ١٣٠٢م حيث تم هدم أسوارها.[٦٥] وهذه الغزوة على الرغم من محدودية نتائجها بالنسبة إلى الصراع المملوكى الصليبى إلا أنها تشير لأول مرة إلى اشتراك القوى الفاعلة فى الجيش المملوكى المتمثلة فى أجناد الأمراء فى غزوة بحرية مما يوحى أن الحاجز النفسى والاجتماعى اللذان كانا يمنعان المماليك من الانخراط فى الأسطول بدأ بالتهاوى أمام ضرورات الحرب وأن مساهمتهم فى

تال البحرى من هذا التاريخ أصبحت أمرا مسلما به كما أن هذا الانتصار يمثل نهاية الأخيرة للوجود الصليبى فى بلاد الشام.

٢- القرصنة الأوروبية فى البحر المتوسط من ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧- ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦- ١٣٩٧م :

على الرغم من أن ظاهرة القرصنة الصليبية على مصر ترجع إلى العصر الأيوبى إلا أن الوضع العسكرى فى البحر المتوسط بعد رحيل الظاهر بيبرس وحتى نهاية القرن ٨هـ/ ١٤م اتسم باتساع ظاهرة القرصنة الأوروبية ضد الدولة المملوكية من جهة ومحاولة الأخيرة مكافحتها والتصدى لها فى البر والبحر من جهة أخرى. فهناك إشارات فى المصادر المملوكية حول قيام السفن الأوروبية بالقرصنة فى البحر والتعدى على الموانئ والسواحل المصرية والشامية وهى بطبيعة الحال لا ترصد كل محاولات التعدى التى حدثت منذ وفاة بيبرس ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م وحتى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى لذا ظلت بعض حالات القرصنة بغير تسجيل كما أنه لا يوجد مصدر أوروبى يمكن الاعتماد عليه فى رصد هذه الظاهرة. فقد سجلت المصادر المملوكية هجمات السفن الأوروبية على السفن الإسلامية والموانئ والسواحل المصرية مرات عدة فى أعوام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٣م [٦٦]، ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م[٦٧]، ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م[٦٨]، ٧٦٩هـ/ ١٢٧٠م[٦٩]، ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م[٧٠]، ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م[٧١]، ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢- ١٣٩٣م[٧٢] كذلك هاجمت السفن الأوروبية السفن والموانئ الشامية فى أعوام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م[٧٣]، ٧٥٧هـ/ ١٣٥٤م[٧٤]، ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م[٧٥]، ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م[٧٦]. وفى سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م أسر القراصنة الجنوية جماعة من أقارب السلطان برقوق الجراكسة فى البحر وهم فى طريقهم إلى مصر من بلاد الشام إلا أنهم أطلقوهم بعدما تدخلت الدولة المملوكية وقبضت على التجار الجنوية فى الإسكندرية والإحاطة على أموالهم. [٧٧] وفى شهر رمضان ٧٩٥هـ/ ١١ يوليو ١٣٩٣م قام القراصنة الفرنج بالهجوم على إقليم نستراوه فى مصر على سواحل البحر المتوسط فى أربعة غربان وأقاموا ثلاثة أيام يسلبون وينهبون هذا الإقليم دون أن تقوم الدولة المملوكية بردعهم.[٧٨]

ولقد مارس عملية القرصنة معظم المدن البحرية الأوروبية في البحر المتوسط أمثال قبرص، رودس، مالطة، مرسيليا، كذلك المدن البحرية الإيطاليه كجنوه، البندقية والتي كانت بينها وبين الدولة المملوكية علاقات تجارية اشتركت بعض سفنها في عملية القرصنة.(٧٩) ويعد الهجوم على الإسكندرية أكبر عملية قرصنة أوروبية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

٢(أ) الهجوم على الإسكندرية ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م :

تولى العرش في قبرص سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م بطرس الأول وكان على درجة كبيرة من الحماس لخوض حرب مقدسة ضد المسلمين. وفي سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م قام بطرس الأول بجولة في أوربا للدعوة لحملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس ، فطاف رودس والبندقية وجنوه وفرنسا وإنجلترا. وقد لقي تعاطفا حارا من ملك فرنسا كما أن البابا دعا إلى حرب صليبية مقدسة ضد المسلمين. وعلى الرغم من أن الهدف الذي من أجله حشد بطرس ملك قبرص هذه الجموع هو استرداد بيت المقدس إلا أن محاولة استرداد بيت المقدس أصبحت عملية صعبة لعدم وجود قاعدة في سواحل سوريا وفلسطين يمكن اتخاذها ركيزة لهذا الغرض لذا اتجهت أنظار الصليبيين إلى السواحل المصرية وبالتحديد للإسكندرية الغنية بتجارتها وصناعتها للاستيلاء عليها ومن ثم الزحف على القاهرة للاستيلاء على مصر خاصة بعدما أدركوا فشل الهجوم على دمياط في الاستيلاء على مصر مثل ما حدث في الحملة الخامسة والسابعة. أضف إلى ذلك أن مدخل ميناء دمياط قد أغلق بالصخور الكبيرة لمنع أي غزو من هذه الناحية منذ أيام الظاهر بيبرس .

وعلى الرغم من أن أعداد العساكر لم تصل إلى المستوى المطلوب إذ لم يشترك فيها أحد من كبار النبلاء في فرنسا وإنجلترا إلا أن عدد كبير من صغار فرسان أوربا وصغار نبلائها قدموا للاشتراك في هذه الحملة واجتمعت القوات من قلب القارة في البندقية بعد ذلك أبحرت الحملة إلى رودس حيث اجتمع الأسطول الصليبي القادم من الغرب بالأسطول القبرصي وأسطول الإسبتارية وبلغ عدد سفن الأسطول ١٦٥ سفينة ما بين شينيات وسفن نقل تجارية وزوارق.(٨٠) ويشير المقريزي إلى اشتراك سفن البنادقة والجنوية وأهل رودس من الأسبتارية

والفرنسيون (الفرنسيس) وأهل قبرص فى هذه الغزوة وإن كان اشتراك البنادقة وأهل قبرص أكثر أهمية من غيرهم.[٨١]

ونظرا لقلة أعداد الجيش الصليبى الغازى بالنسبة للجيش المملوكى فإن هدف الحملة قد تم تقزيمه إلى النهب والسلب والإحراق والسبى لإنزال أكبر قدر من الخسائر فى صفوف المسلمين وبالدولة المملوكية وتحقيق أكبر قدر من المكاسب دون تحمل عبء الحرب مع المسلمين. وقد اختار بطرس الوقت الملائم إذ كان يتولى عرش الدولة المملوكية صبى لم يتجاوز الحادية عشر من العمر هو الأشرف شعبان وكانت السلطة الحقيقية فى يد أحد الأمراء المماليك الكبار ويدعى يلبغا الخاصكى وكان والى الإسكندرية خليل بن عرام متغيبا فى الحج ونائب عنه فى حكم الإسكندرية أمير صغير من الأمراء العشرات واسمه جنغرا وكانت حامية المدينة ضئيلة العدد غير قادرة على الدفاع عنها.[٨٢]

وعلى الرغم من أن أهل الإسكندرية كانوا على علم منذ أشهر بنية الفرنج بغزوهم وأن والى الإسكندرية خليل بن عرام قد أبلغ يلبغا بهذا الخبر إلا أنه لم يجد أى التفات من يلبغا لمقابلة هذا الخطر.[٨٣] وصل الأسطول الصليبى قبالة الإسكندرية مساء ٢٠ محرم ٧٦٧هـ/ ٩ أكتوبر ١٣٦٥م ولعدم تجهز المدينة للدفاع وبسبب عنصر المفاجأة استطاعت جموع الصليبيين أن تشق طريقها داخل الإسكندرية ٢٢ محرم ٧٦٧هـ/ ١١ أكتوبر ١٣٦٥ على الرغم من المقاومة التى أبداها جنغرا وأهل الإسكندرية وظل الصليبيون يقتلون ويسلبون وينهبون ويحرقون ويسبون لمدة خمسة أيام. بعدها حملوا غنائمهم فى السفن ومعهم خمسة ألاف أسير مسلم لبيعهم رقيقا ولم تسلم ممتلكات التجار الأوربيين من النهب كما أن المسيحيين المحليين واليهود قاسوا هم ايضا من عنف هذا الهجوم.[٨٤]

وعلى الرغم من أن الملك بطرس حاول عبثا إقناع بقية الصليبيين بالاحتفاظ بالمدينة إلا أنه فشل إذ أصروا على الرحيل لخوفهم من قدوم الجيش المملوكى من القاهرة فى الوقت نفسه التى فاضت أيديهم بالغنائم الوافرة فأقلعوا راجعين إلى أوطانهم.

كانت هذه الحملة الصليبية حسب كل المقاييس أشبه ما تكون بعملية قرصنة كبيرة كما أنها لم تحقق هدفها باسترجاع الأراضى المقدسة وكان من أهم نتائجها أن التجارة بين الشرق والغرب تعرضت لأضرار بالغة كما أنها أنزلت أبلغ الأضرار بالإسكندرية، ومنذ ذلك الوقت ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م بدأت المدينة تفقد أهميتها الاقتصادية كمدينة مزدهرة. (٨٥)

أما بلاد الشام فقد تعرضت هى الأخرى لعدة هجمات من القراصنة الأوروبيين ولعل أقدم محاولة هى التى قام بها الفرنج سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨-١٢٩٩م للهجوم على بيروت فى ثلاثين بطشة(٨٦) فى كل بطشة ٧٠٠ نفر أى ما مجموعه ٢١٠٠٠ مقاتل وهو رقم لا شك أنه مبالغ فيه. ولم يستطع هذا الأسطول من تحقيق أى نتيجة ملموسة بسبب الرياح العالية التى أدت إلى تغريقه وغرق بعض قطعه. (٨٧) كما قام الفرنج سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦- ١٣٥٧م بالإغارة على طرابلس وصيدا وقتلوا وأسروا ونهبوا ثم رجعوا دون تحقيق أية نتائج ملموسة.(٨٨)

وبعد الهجوم على الإسكندرية بأربع سنوات قام الملك بطرس الأول ومع الأسبتاريه فى رودس بالهجوم على طرابلس فى أواخر المحرم أو بداية صفر ٧٦٩هـ/ ٢٧ سبتمبر ١٣٦٧م فى ١٣٠ مركبا واستطاع ملك قبرص ومن معه من القراصنة اقتحام المدينة ونهب بعض أسواقها إلا أن المسلمين من أهالى المدينة وفى غيبة النائب أخرجوهم منها بعد ما قتلوا منهم نحو ألف واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلا. (٨٩) كذلك هاجم هذا الأسطول المهزوم مدينة أياس التى استولوا عليها بسهولة نظرا لفرار أهلها منها إلا أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها وذلك لقدوم نائب حلب لنجدتها. (٩٠)

وفى جمادى الآخرة سنة ٧٨٥هـ/ أغسطس ١٣٨٣م هاجم الفرنج بيروت فى عشرين مركبا إلا أن سرعة تحرك الأمير اينال اليوسفى أدت إلى هزيمة قوات القراصنة وأسر ١٦ مركبا من مراكبهم . (٩١) كذلك تعرضت محاولة القراصنة غزو طرابلس سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م أو ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م للفشل وغنم المسلمون منهم ثلاث مراكب.(٩٢)

٣- استمرار الصراع بين الدولة المملوكية والقوى البحرية الأوروبية :

٣(أ) استمرارا الحروب الصليبية :

مما لا شك فيه أن الصراع البحرى بين الدولة المملوكية الأولى والقوى الأوروبية هو امتداد للصراع الصليبى الإسلامى فى بلاد الشام، والذى بدأ منذ أيام الظاهر بيبرس الذى أراد بمحاولته غزو قبرص تحقيق نصر على أكبر قوة صليبية فى الشرق بعد سقوط مملكة بيت المقدس على يد صلاح الدين فى حطين كذلك ازدادت أهميتها بعدما آل تاج مملكة بيت المقدس إلى آل لوزجنان. فلما نجح المماليك فى دحر بقايا الصليبيين من آخر معاقلهم فى عكا سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م انتقلت المواجهة بين الدولة المملوكية والصليبيين إلى قبرص التى هاجر إليها من هرب من الشام من فلول الصليبيين كما أنها أصبحت الحكومة المسيحية الوحيدة التى امتد اهتمامها بالأراضى المقدسة لا أن ذلك أيضا نقل الصراع الصليبى الإسلامى من بر الشام إلى البحر المتوسط[٩٣]. كما أن الاسبتارية استطاعوا الحصول على موطئ قدم فى البحر المتوسط بعدما وجدوا أنفسهم مقيدين فى قبرص فقاموا بالاستيلاء على جزيرة رودس سنة ٧٠٧هـ- ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م من البيزنطيين وتحصينها وجعلوا من ميناءها أمنع حصن فى شرق البحر المتوسط ومنها استأنفوا غاراتهم على السفن الإسلامية وعلى سواحل بلاد الشام ومصر منفردين أو بالاشتراك مع جزيرة قبرص.[٩٤]

وتجلت الطبيعة الصليبية لقبرص ورودس ليس فقط فى نشأتهما الصليبية الخالصة وإنما بالدور الذى قاما به ضد المسلمين فى مصر والشام وليس أدل على الروح الصليبية التى كيفت هذا الصراع من تلك الحملة التى قادها الملك بطرس لوزجنان ملك قبرص ضد الإسكندرية التى اشترك فيها سائر القوى البحرية الأوروبية فى البحر المتوسط بالإضافة إلى مقاتلين من فرنسا وإنجلترا وغيرها من البلاد الأوروبية. وهى تمثل آخر المشاريع الصليبية الكبيرة التى وضعت حيز التنفيذ لاسترداد بيت المقدس من المسلمين فى العصور الوسطى. إلا أن البابوية استمرت فى عدائها الصليبى من خلال محاولتها فرض الحصار الاقتصادى على

الدولة المملوكية لإضعاف اقتصادها بمنع الجمهوريات الإيطالية من تصدير السلع الاستراتيجية كالخشب والحديد والسلاح أو المتاجرة معها.(٩٥)

٣-(ب) أدى استرداد المسلمين لطرابلس وعكا وباقى الموانئ على الساحل السورى أدى إلى خسارة الجمهوريات الإيطالية لامتيازاتها فى هذه الموانى وحرمانها من الثروة التى جنتها من احتكارها للتجارة مع أوربا ومن أجور نقلها للحجاج والمقاتلين والأسلحة إلى الصليبيين فى بلاد الشام فى الوقت الذى فرضت فيه البابوية قيوداً شديدة عليها للمتاجرة مع المسلمين فى سلع أولية كالحديد والخشب والعبيد وهى المواد المطلوبة للمجهود الحربى المملوكى. وعلى الرغم من أن المدن الإيطالية لم تلتزم تماما بالحظر البابوى على الدولة المملوكية إلا أن التجارة لم تكن فى اوج ازدهارها مما جعل بعض من التجار والبحارة يعانون من الكساد خاصة المتدينين منهم الذين تمسكوا بالحظر البابوى أو الذين لم يجدوا الوسائل الكافية لاختراقه. وهذا الوضع ربما يفسره إلى حد كبير إقدام السفن الجنوية والبندقية على الاشتراك فى القرصنة فى الوقت نفسه الذى كانت فيه التجارة مستمرة مع الدولة المملوكية وهى بالتأكيد لا تعكس الخط العام الذى انتهجته سياسة هذه الجمهوريات.(٩٦)

٣ (ج)- صعوبة مراقبة السواحل الطويلة المطلة على البحر المتوسط التابعة للدولة المملوكية فى كل من مصر والشام مما أغرى بعض الأوروبيين بممارسة القرصنة.

٤- محاولات الدولة المملوكية القضاء على ظاهرة القرصنة :

ومهما كانت دوافع عمليات القرصنة فإن الذى لا شك فيه واعتمادا على الإشارات المبثوثة في المصادر المملوكية على الرغم من أنها لا تعطى صورة كاملة عن الوضع الذى كان سائداء إلا أنها تدل على مدى قوة وقدرة الأساطيل البحرية الأوربية فى مقابل عجز واضح من قبل الدولة المملوكية عن مواجهتها.

لم تقف الدولة المملوكية موقفا سلبيا من القرصنة الأوروبية إذ سعت إلى القيام بجهود لمكافحتها. وتعد محاولة الأمير يلبغا الخاصكى إنشاء أسطول ضخم لمحاربة ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان ردا على مهاجمته للإسكندرية فى ٢٢

محرم ٧٦٧هـ/ ١١ أكتوبر ١٣٦٥م أعظم تحرك مملوكي في القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى. لقد أضرت هذه الغزوة إضرارا بالغا بهيبة وقوة الدولة المملوكية ككل كقوة إسلامية عظمى فى الشرق وهيبة يلبغا الخاصكى المسير لأمورها مما جعلها تستعد لاسترجاع هذه المكانة بسرعة رافضة فى الوقت نفسه مساعدة العثمانيين لها فى حربها ضد قبرص حتى لا تظهر عجزها أمام القوى الأوروبية بأهميتها كقوة عظمى فى المنطقة. (٩٧)

أسند يلبغا الخاصكى عملية بناء الأسطول إلى كل من الوزير ماجد بن قروينه والأمير علاء الدين طيبغا العلائي وبهاء الدين بن المفسر الذين تصدوا للعمل ليل نهار وبذلوا مجهودا ضخما لإنجازه. (٩٨) بدأ العمل بعد ٢٢ محرم ٧٦٧هـ/ ١١ أكتوبر ١٣٦٥م فى الجزيرة الوسطى القريبة من القاهرة واستخدم فى إنشائه كميات كبيرة من الأخشاب والحديد مما يدل على توفرهما في الدولة المملوكية خصوصا فى مصر ربما يدل على استمرارية انسياب التجارة فى هذين العنصرين الهامين لصناعة السفن من أوربا على يد المدن الإيطالية. (٩٩) كذلك أمر يلبغا الخاصكى موانئ الشام بإنشاء سفن حربية وجمع البحارة والمقاتلين لغزو قبرص. (١٠٠)

وفى ربيع الأول ٧٦٨هـ/ ٥ نوفمبر ١٣٦٦م كملت عملية بناء الأسطول وتم إنشاء ١٠٠ سفينة حربية بين غربان وطرائد وشحنت بالآلات والأسلحة والمؤن. (١٠١) واستخدم يلبغا لهذا الأسطول الجديد مغاربة(١٠٢) وتراكمين(١٠٣) وصعايده(١٠٤) وجعل فيهم رؤساء (قباطنة) ونقباء وأنفق فيهم المعاليم المقررة (النفقة الحربية). (١٠٥) فرقت بعد ذلك السفن على الأمراء المماليك وتم استعراضها فى النيل بالأعلام والطبول والأبواق وعليها المماليك بكامل أسلحتهم(١٠٦) وأمر يلبغا هؤلاء الامراء بالمسير فيها للغزو إذا سارت مما يدل على أن يبلغا كان حريصا على اشتراك العنصر المملوكى فى عمليات الأسطول الحربية بالإضافة على أجناد الحلقة. (١٠٧)

غير أن الصراع الداخلى بين يلبغا ومماليكه من جهة ثم بينه وبين السلطان الأشرف شعبان أدى إلى مقتل يلبغا. (١٠٨) كل ذلك جعل محاولة غزو قبرص تدخل

غياهب النسيان ليدخل الأسطول الذى أنشاه يلبغا فى طور من الإهمال إلا أن بعض سفنه استعملت فى مكافحة القراصنة الأوروبيين فى البحر المتوسط.[١٠٩] وهكذا أدى إخفاق مشروع يلبغا إلى استمرار عمليات القرصنة.

وبعد عشرين عاما من إنشاء أسطول يلبغا الخاصكى قام الأمير الطنبغا الجوبانى بإنشاء عشرين مركبا سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م استخدمت فى مكافحة القرصنة الأوروبية فى البحر المتوسط.[١١٠] كما أشار ابن اياس إلى قيام السلطان المملوكى برقوق بإنشاء شواني حربية سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م استخدمت كغيرها فى مكافحة القراصنة.[١١١]

وهكذا انتهى القرن الثامن والدولة المملوكية عاجزة عن مكافحة القراصنة الأوروبيين فى البحر المتوسط أو تحطيم قوتهم فى عقر دارهم فى قبرص ورودس على الرغم من محاولات يلبغا الخاصكى والطنبغا الجوبانى إذ اعترى أسطول يلبغا الإهمال بعد وفاته وبقيت محاولة الطنبغا مجرد محاولة فردية لم تلق التشجيع من الدولة المملوكية.

٥- تقييم لسياسة المماليك البحرية :

لقد ظهر بوضوح من خلال المناقشة أن هناك تفوق أوروبى فى مجال القوى البحرية على الدولة المملوكية متمثلا فى استمرار حركة القرصنة على السفن الإسلامية والموانئ والمناطق الساحلية فى مصر والشام طوال القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى وعجز المماليك عن التصدى لها. فما هى الأسباب الكامنة وراء هذا العجز؟ وما هى السياسة التى اتبعتها الدولة المملوكية تجاه البحر والأسطول؟

إنه لمن المسلم به أن الدول التى قامت فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى غلب عليها الطابع الإقطاعى الذى يعتمد أساسا على الفارس المحارب ولم تكن الدولة المملوكية بمعزل عن ذلك. وإذا كانت مكانة الفارس المحارب قد غلبت على غيرها من أفرع القوات البرية فإنه من البديهى أن يكون العاملون فى البحر أقل درجة فى سلم المكانة فى الجيوش المحاربة فى ذلك الوقت. وهذه المكانة التى حظى بها الفارس المملوكى الذى نشأ على استخدام الفرس والضرب بالسيف والرمح كما أن ميدان القتال الأساسى كان بريا محضا ضد الصليبيين والمغول.

وكان من الطبيعي أن يحتل الفارس هذه المكانة العظيمة في أوساط الجيش المملوكي خاصة في بداية عهد الدولة عندما كان الصراع مع المغول والصليبيين محتدما لهذا حاول بيبرس التقليل من النصر الذي أحرزه ملك قبرص بأسره بحارة وقباطنة السفن الإحدى عشر التي تحطمت على شواطئ ميناء ليمسول واصفا إياهم بالفلاحين والعوام فقد كان يعبر عن نظرة اجتماعية سائدة لهم في أوساط المجتمع المملوكي خاصة النخبة الحاكمة. كل ذلك لم يمنع بيبرس من تخليص رؤساء الأسطول من الأسر وتوجيه أوامره بإنشاء أسطول جديد مما يؤكد على حسن سياسته وبعد نظره. إلا أن هذه النظرة إلى الأسطول والبحر بدأت في التغير حيث تشير المصادر المملوكية إلى اشتراك المماليك في غزو جزيرة أرواد في عهد الناصر محمد كذلك فإن مشاريع الأشرف خليل ويلبغا الخاصكي لغزو قبرص قد أخذت بعين الاعتبار اشتراك العنصر المملوكي في القتال كذلك في محاولة الطنبغا الجوباني. هذا التوجه استمر في التنامي مدفوعا بالضغط الأوروبي إلا أنه وصل ذروته في نجاح المماليك في عهد برسباي في الاستيلاء على قبرص وإقدامهم على حصار معقل الاسبتارية في رودس في عهد السلطان جقمق.

أما إذا كان الحديث عن اشتراك المماليك ونخبة الجيش المملوكي كبحارة وملاحين فإن ذلك لم يحصل قط نظرا لطبيعة مكانة الفارس في ظل النظام الإقطاعي سواء من ناحية التدريب العسكري أو المكانة الاجتماعية وهو عين ما كان سائدا عند أهم القوى الأوروبية المعادية في البحر المتوسط مثل قبرص ورودس ذات الطابع الإقطاعي حيث كان المقاتلة يمثلون فريقا متميزا في سفنها المهاجمة.

وبعد أن رأينا أن تفوق الأساطيل الأوربية على الدولة المملوكية في البحر المتوسط لا يمكن عزوه إلى سيادة نظام الفروسية في أوساط الجيش المملوكي وهي الخاصية التي اشتركت فيها الدولة المملوكية مع غيرها من القوى الأوربية في زمانها وإنما هي أسباب أخرى. من بينها ندرة المواد الأولية اللازمة لصناعة السفن. في البداية يجب أن نقرر أن الغابات في مصر والشام قد اختفت قبل سنين من نشأة الدولة المملوكية إلا أنه كان هناك مساحات من غابات أشجار الصنوبر والأرز في جبال لبنان وجبال شمال سوريا ما تزال موجودة كذلك كانت هناك أشجار معينة تنبت بكثرة في مصر في الوجه القبلي وسيناء استخدمت أخشابها

لصناعة السفن كالسنط، واللبخ، والجميز، والطرفاء، كانت موجـــودة فـــي العـــهد الأيوبي محتكرة للدولة إلا أن هذا الوضع بدأ بالتغير في أواخر الدولة الأيوبية حيث قطعت أشجاره من قبل الأفراد للاستخدامات المدنية المختلفة وعدم قدرة الدولة على السيطرة على عمليات قطع الأشجار المخصص خشبها لصناعة السفن منـــذ بدايـــة القرن السابع الهجري.(١١٢)

أضف إلى ذلك أن الإنتاج المحلي من الخشب لم يكن يكفي حاجة الاســتهلاك المحلي، كذلك لا يوجد مصدر مهم للحديد في أنحاء الدولة المملوكية غير منجم فـــي بيروت وكان لا يصلح الاعتمـــاد عليـــه فـــي تلبيـــة جميـــع حاجـــات الأســطول والاستخدامات المدنية الأخرى لذا نشطت عمليات الاستيراد للمواد المستخدمة فـــي صناعة الأسطول من أوربا عن طريق الجمهوريات الإيطالية أو من مصادر أخـرى مما يشير على الدولة المملوكية كانت قادرة على الحصول علـــى المـــواد الأوليـــة لصناعة الأسطول سواء من مصادر داخلية أو خارجية كما أن تقنية بنـــاء الســفن الحربية كانت متوفرة ولا تقل عن مثيلاتها الأوروبية. (١١٣) إلا أن هذا النقص فـــي المواد الأولية وغلاء تكاليف بناء السفن مقارنة بمثيلاتها الأوروبية لم يمنع الممـــاليك من بناء ثلاث أساطيل في عهد الظاهر بيبرس والأشرف خليل ويلبغا الخاصكي مما يدل على أن النقص في المواد الأولية لم يشكل عاملا ثانويا فقط جعل مـــن عمليـــة إنشاء الأساطيل أكثر تكلفة وصعوبة ولم يكن حائلا بين الدولة المملوكية التي كـــانت تمر بفترة ازدهار وقوة وبين بناء أساطيل قوية. (١١٤)

وتجلت أهم جوانب السياسة البحرية المملوكية تجاه التفـــوق الأوروبـــي فـــي البحر في تدمير الموانئ والاستحكامات الساحلية التي اتبعتها الدولة المملوكية والتـــي بدأها صلاح الدين عندما أمر بتدمير عسقلان سنة ٥٨٧هـــ/ ١١٩١م. وعلى نفـــس المنوال كان مصير أرسوف، وقيصريه، وعثليت، وعكا، وصور، وحيفا، ويافا، ولـــم يبق على الساحل الفلسطيني اللبناني إلا بيروت. أما طرابلس الصليبية فقـــد دمـــرت وتم بناء مدينة جديدة إلى الداخل. وبقيت هاتان المدينتان الميناءين الوحيديـــن لبـــلاد الشام في العصر المملوكي.(١١٥) ونظرا لأهمية تعرض الساحل الفلسطيني لـــهجمات صليبية فإن الحكومات المتعاقبة من أيوبية ومملوكيـــة قـــامت بتدعيـــم الدفاعـــات الساحلية بتوطين مجموعات بشرية ذات طبيعة قتالية مثل الخوارزمية والتركمـــان،

والمغول الوافدين على الدول المملوكية فى عهود بيبرس وقلاوون والناصر محمد(١١٦). ولعل الهدف الذى توخاه كل من الأيوبيين والمماليك من تدمير المدن الصليبية المحصنة فى الساحل الفلسطيني هو منع الأوروبيين الصليبيين من اتخاذها مراكز ينطلقون منها لإعادة السيطرة على بيت المقدس وإقامة ممالك صليبية فى فلسطين خاصة حيث ان سيطرتهم البحرية على البحر المتوسط كانت شبه كاملة(١١٧).

أما توطين الوافدين فكان الهدف منه مراقبة السواحل من أى خطر أوروبى قد يأتى إلى الساحل اللبنانى الفلسطينى وتلقى الصدمة الأولى لأى غزو يأتى عن طريق البحر إلى أن تخرج جيوش المماليك لصده بالإضافة إلى سد النقص السكانى فى هذه المناطق نتيجة لتوالى الحروب فيها. فى نفس الوقت احتفظت السواحل المصرية بما لديها من موانئ وتحصينات وذلك لعدة أسباب منها بعد مصر وموانئها عن بيت المقدس والأهمية الاقتصادية لهذه الموانئ لتصدير حاصلات الشرق إلى أوربا بالنسبة لكل من الدولة المملوكية والأوروبية كما أن الدولة المملوكية كانت قادرة على صد أى عدوان عليها نظرا لتمركز قواتها فى مصر.(١١٨)

إذا سلمنا جدلا بضعف القوة البحرية المملوكية كسبب وحيد لسياسة تدمير الموانئ الساحلية الفلسطينية اللبنانية فإننا يجب أن نتذكر أن إبقاء أسطول كامل فى البحر بصفة دائمة لمراقبة السواحل الشامية المصرية البالغة الطول على البحر المتوسط امرا مكلفا وصعب التنفيذ كما أن عدم وجود أسطول دائم خاصية اشتركت فيها معظم الدول فى العصور الوسطى وكذلك ابقاء حاميات قوية فى هذه الحصون والموانئ الساحلية لصد الهجمات الخاطفة للصليبيين خاصة وأن حدة الحرب قد خفت عما كانت عليه فى العصر الأيوبى وبالتالى فإن شحن الحصون الساحلية بهذه الصفة أمرا غير مجدى من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية لعظم التكلفة من جهة وعدم وجود خطر انى متجدد وملاحظ من ناحية أخرى كما أن استيلاء الصليبيين على هذه المواقع يجعل مهمة إخراجها منها أمرا مكلفا وبالغ الصعوبة بالاضافة إلى سعى الدولة المملوكية للسيطرة على تجارة الشرق مع أوروبا سيطرة مركزية بتقليل عدد الموانئ المهيأة للتجارة الخارجية كما أن هذه الإجراءات كانت كافية لردع الهجوم الصليبى فى مواقع أنهكت حربيا فى الوقت الذى كان فيه عدد السكان المسلمين فيها قليل. إن التفوق الأوروبى البحرى والذى تجلى فى عمليات

القرصنة فى البحر المتوسط خلال مدة الدراسة فإن ذلك لا يعود إلى طابع الفروسية الذى تميزت به الدولة المملوكية أو إلى النقص فى المواد الأولية كالخشب والحديد أو كان سببا فى سياسة تدمير الموانئ والحصون الساحلية وإنما يعود أساسا الى عدم وجود القيادة الواعية بأهمية البحر بعد السلطان بيبرس وإلى الفوضى السياسية التى حدثت بعد وفاة السلطان محمد بن قلاوون وامتدت إلى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادى.

ومن الجدير ذكره أن معظم حوادث القرصنة المسجلة تعود إلى الفترة الممتدة من بعد وفاة السلطان الناصر محمد وحتى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى أى عندما كانت الدولة المملوكية تعانى من الفوضى المترتبة على الصراع بين كبار الأمراء على السلطة ووصول سلاطين ضعاف إلى كرسى السلطنة.(١١٩) هذه الفترة من الفوضى غلب عليها الاهتمام بالشأن الداخلى لأهميته فى صنع الأحداث وبالتالى تقليل الاهتمام بعمليات القرصنة خاصة إذا كان ذلك لا يصل إلى درجة التهديد بالخطر فى وقت كان السلام هو السائد بين الدولة المملوكية وجيرانها فى آسيا وأفريقيا.

إذا كان الوضع السياسى غير مهيأ لدور سلطان قوى على قدر من الوعى بأهمية البحر فى ظل دولة برية الطابع وفى وضع يتصارع فيه الأمراء على السلطة والثروة والقوة وفى وقت عصف فيه طاعون سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م (الوباء الأسود) بمصر والشام متسببا فى القضاء على أعداد كبيرة من السكان وخفض الإنتاج الزراعى والصناعى وتدهور اقتصادى ونقص فى القوة المحاربة وتغيرات اجتماعية حادة.(١٢٠) فى مثل هذا الوضع كان من المستحيل على الدولة المملوكية أن تقوم بأى عمل جدى لمواجهة القوى الأوروبية فى البحر المتوسط خاصة أن هجمات القرصنة لم تشكل خطرا جديا على سلامة أراضى الدولة كما أن حجم التجارة الخارجية مع أوروبا لم يكن كبيرا فى فترة الدراسة كما أن اعتماد الدولة المملوكية على التجارة الخارجية فى فترة الدراسة كمصدر مهم جدا للدخل كان أقل بكثير عن ما كان عليه الحال فى أيام السلطان الأشرف برسباى الذى اتخذ إجراءات صارمة لجمع المال لصد النقص فى ميزانية الدولة وبالتالى كان حافزا كبيرا له للقضاء على القرصنة القبرصية.

الهوامش :

(١) العرينى، السيد الباز، الدولـــة البيزنطيـــة (٣٢٣- ١٠٨١م)، (بـــيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٢م)، ص ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٨، ١٨٩.

(٣) للتوسع في معرفة الدور الذى لعبه المسلمون في كريت والبحر المتوسط. انظر:

Vassilios Christides, The conquest of Crete by the Arabs (Ca. 824): A turning point in the struggle between Byzantium and Islam, (Athen, 1984).

(٤) انظر. للتوسع حول موضوع دور المسلمين فى صقلية وجنـــوب إيطاليـــا فـــى الصراع مع البيزنطيين فى البحر المتوسط. انظر. العرينى، الدولة البيزنطيـــة، ص ص ٢٦٨- ٢٧٣، ٢٨٧- ٢٨٩، ٣٠٣- ٣٠٤، ٣٣٥- ٣٣٧، ٣٨٠- ٣٨١، ٤٢٦- ٤٤٨، ٤٩٠- ٤٩٦، ٥٣٩- ٥٤١، ٥٩١- ٥٩٨، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧١٢، ٨٠٠- ٨٠٧، ٨٦٦.

(5) Curtis, E., Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy (1016-1154), (New York, 1912), pp. 62- 84

(٦) انظر مشاركة المدن البحرية الإيطالية وغيرها مـــن الموانـــئ وغيرهـــا مـــن الموانئ الأوروبية فى المجهود الحربى الصليبى. انظر. رنسـيمان، ســتيفن. تاريخ الحروب الصليبية، ٣ ج، ترجمة: العرينى. السيد الباز، (بـــيروت: دار الثقافة، ١٩٨٠م). انظر أيضا:

Cahen, C. "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin III. Orient Latin et Commerce du Levant" Bulletin de la Faculte des Lettres de Strasbourg 29 (1951), PP. 328-416; Hillenbrand. Carole., The Crusades: Islamic Perspectives, (Edinburgh: 1999), pp. 561, 562, 575.

(٧) حول المجهود البحرى الفاطمى ضد الوجود الصليبى. انظر.

Hillenbrand, C. The Crusades, pp. 562, 563, 564.

(٨) للمزيد من التوسع حول دور الأسطول فى زمن السلطان صلاح الدين يوسـف الأيوبى. انظر:

Ehrenkreutz, A.S. "The Place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea in the middle ages," JAOS, 1xxv (1955), pp. 100- 16.

(٩) المقريزى، أحمد بن على (ت. ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢ج، (القاهرة: بولاق، ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣- ١٨٥٤م)، ج٢، ص ١٩٤.

(١٠) عن دور الأسطول الأيوبى فى مواجهة الصليبيين فى دمياط. انظر. ابن واصل، محمد بن سالم بن واصل (ت. ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ٥ج، تحقيق: جمال الدين الشيال وحسنين محمد ربيع، ط١، (القاهرة: دار الكتب، ١٩٥٣- ١٩٧٧م)، ص ص ١٦، ٣٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧؛ ابن أيبك الدوادارى، أبى بكر بن عبدالله بن أيبك (ت. بعد ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب)، تحقيق:سعيد عبدالفتاح عاشور، (القاهرة: المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة، ١٩٧٢م)، ص ٢١؛ النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (ت. ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الإرب فى فنون الأدب، ٣١ج، تحقيق: مجموعة من المحققين، (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٢٣- ١٩٩٢م)، ج ٢٩، ص ص ١٠١، ١١٦؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ص ٢٦٩- ٣٠٣.

(١١) لمزيد من التفاصيل عن مساهمة الأسطول الأيوبى فى المعارك النيلية. انظر. ابن أيبك الدوادارى، الدر المطلوب، ص ص ٣٧٧، ٣٨٧؛ أبى الفداء، إسماعيل بن على (الملك المؤيد)؛ (ت. ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر فى أخبار البشر، ٤ج، ط١، (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٣/ ١٩٠٥م)، ج٣، ص ص ١٨٠، ١٨١؛ المقريزى، أحمد بن على (٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ج (١٢ قسم)، تحقيق:محمد مصطفى زيادة؛ سعيد عبدالفتاح عاشور،(القاهرة: ١٩٣٦-١٩٧٣م)، ج١، قسم ٢، ص ص ٣٥٣، ٣٥٤؛ ابن تغرى بردى، يوسف بن تغرى بردى، (ت. ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ج،

(القـــاهرة: دار الكتـــب؛تراثنـــا، ١٩٢٩- ١٩٧٢م)، ج٦، ص ٣٦٥؛ ســـعيد عبدالفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصـــــر والشـــام، (القـــاهرة: دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ١٣٤.

(١٢) عن وضع الأسطول فى فترة التأسيس. انظر: المقريزى، الخطـــط، ج٢، ص ١٩٤. حول وضع الدولة المملوكية فى مرحلة التأســـيس أنظـــر. عاشـــور، الأيوبيين والمماليك، ١٨٠- ٢٠٠؛ العبادى، أحمد مختار.، قيام دولة المـــاليك الأولى في مصر والشام، (بيروت:دار النهضـــــة العربيـــة، ١٤٠٦/١٩٨٦م)، ص ص ١١٥- ١٧٥. عن أوضاع الصليبيين بالشـــام، انظـــر: رنســـيمان. الحروب الصليبية، ج٣، ص ص ٤٨٦- ٤٩٨، ٥٣٣، ٥٣٤- ٥٣٥، ٥٣٦.

(١٣) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤.

(١٤) بالإضافة إلى ما سبق انظر. النخيلى. درويش، السفن الإسلامية على حـــروف المعجم، (القاهرة: [ب.د]، ١٩٧٤)؛ العبادى. أحمد مختار والسيد عبدالعزيـــز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشـــام، (بـــيروت: دار النهضـــة العربية، ١٩٨١م)، لويس. أرشيبالد. ر، القوى البحرية والتجارية فى حـــوض البحر المتوسط (٥٠٠- ١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، محمد شـــفيق غربال، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠).

(15) Aylon. D "The Mamluk and Naval power: A phase of the struggle between Islam and Christian Europe", Studies on the Mamluks of Egypt (1250- 1517), (London, 1977), 6, PP. 1-12.

Aylon. D "Bahriyya", The Encyclopedia of Islam, Vol. I. Leiden, 1986, pp. 945, 946.

(١٦) سعيد إبراهيم حسن، البحرية في عصر ســـلاطين الممـــاليك، (القـــاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م).

(17) Fuess. Albrecht, Verbranntes Ufer: Auswirkungen mamlukishcher Seepolitik auf Beirut und die syro-palastinensische kuste (1250-1517A.D), Leiden, 2001.

(18) New From Brill 2001, p. 32.

(19) Fuess. Albrecht. "Rotting ships and razed harbors: The naval policy of the Mamluks", Mamluk studies review, vol. 5, (2001), pp. 47-71.

(٢٠) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤.

(٢١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ص ٥٦١- ٥٦٦.

(٢٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص ١٤٨- ١٤٩.

Fuess "Rotting ships and razed harbors", Mamluk studies review, vol. 5, (2001), p. 50.

(٢٣) ابن عبدالظاهر، محى الدين، أبو الفضل، عبـداالله (ت. ٦٩٢هـ/ ١٢٩١م)، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظـاهر، تحقيـق: عبدالعزيـز الخويطـر، (الرياض، {ب.د}، ١٩٧٦م)، ص ٣٨٦؛ اليونينى، موسى بـن محمـد (ت. ٧٢٦/ ١٣٢٦م).، ذيل مرآة الزمان، نسخة حيدر أباد، ج٢، ط٢، (القـاهرة، دار الكتب الإسلامى، ١٩٩٢)، ص ٤٥٣. انظر أيضا.

Fuess "Rotting ships and razed harbors", Mamluk studies review, vol5 (2001), P. 50.

انظر أيضًا : سرور، محمد جمال، دولة الظاهر بيبرس في مصـر، القـاهرة، دار الفكر العربي (د.ت)، ص٨٨.

(٢٤) يشير بيبرس فى معرض رده على رسالة التقريع التى بعثها ملك قبرص إليـه بأنه لو سلمت السفن الغازية لكانت استولت على الجزيرة. قال بيبرس: "قل له "قل له يا رسول ملك قبرص" لا تفرح بهذا فما أخذتها بسـيفك ولـو سـلمت كانت أخذت جزيرتك...". ابن أيبك الدوادارى، أبوبكر بن عبـداالله (ت. بعـد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م).، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق: هارمـان، (القاهرة، {ب.د}، ١٩٧١، ص ١٦٢.

(٢٥) يشير الخويطر في دراسته عن بيبرس أن هدف إرسال الأسطول إلى قبرص هو (... لهذا رأى أن فى هجوم أسطوله على قبرص ما يصرف نظر أفرنـج

عكا عن القيام بهجوم فى البر...). وهذا الاستنتاج غير موفق لأن حملة الأمير أدورد كانت حملة صغيرة كما أن موقف الصليبيين اتسم بالضعف الشديد فى هذه الفترة. انظر. الخويطر. عبدالعزيز بن عبدالله. الملك الظاهر بيبرس، ط١، (الرياض، {ب.ن}، ١٩٧٦، ص ١١٤.

(٢٦) العينى، محمد بن أحمد بن موسى (ت. ٨٥٥ هـ/١٤٥١م).، عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان، ج٢، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧-١٩٩٢م)، ص ص ٧٢، ٧٣، ٧٤.

(٢٧) وقد عرف النخيلي الشيني بأنه السفينة الحربية الكبيرة وكذلك قال أيضا أن كل سفينة حربية شيني تحمل اسما معينا يدل على وظيفتها فمنها : الغراب، الطريده، الجفنه، الحراقه ... الخ. كذلك فإنه ذكر أيضا أن كل شيني قادر على حمل مئة وخمسين مقاتلا سوى البحارة. النخيلي ، السفن الإسلامية . ص ص ٨٣،٨٤.

(٢٨) ابن أيبك، الدوادارى، الدرة الزكية، ص ١٦٢؛ اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٤٥٣؛ العينى، عقد الجمان، ص ص ٧٢، ٧٣.

انظر. إبراهيم حسن سعيد، البحرية فى عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢.

(٢٩) الحراريق جمع حراقة وهي سفينة من سفن الاسطول أصغر من شيني. كانت تستخدم بكثرة في مياه البحر المتوسط.

(٣٠) الطرائد هى جمع طريدة، سفينة مجهزة لحمل الخيل تصل حمولتها إلى أربعين فرسا.

انظر. إبراهيم حسن سعيد، البحرية فى عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢.

(٣١) السلاليز جمع سلارية أو سلورة وهى مركب متوسط الحجم له ثلاث أشرع و ٤٠ مجدافا .

انظر. إبراهيم حسن سعيد، البحرية، ص ٢٢٧.

(٣٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٨٣.

(٣٣) إبراهيم حسن سعيد، البحرية، ص ص ٢٢٠- ٢٤٤.

(٣٤) المقريزى، الخطط، ج٢،ص ١٩٤.
(٣٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٤.
(٣٦) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٣.
(٣٧) المصدر السابق نفسه، ص٤٣.
(٣٨) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٤٥٤.
(٣٩) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٤٣؛ بيبرس المنصورى (ت. ٧٢٥هـ/١٣٢٤م).، التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، (القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م)، ص ٧١.
(٤٠) ابن أيبك الدوادارى، الدرة الزكية، ص ١٦٢؛ اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٤٥٣، ٤٥٤.
(٤١) يقول بيبرس فى معرض رده على رسالة ملك قبرص: (ولا شك أن العين لها الحق والحمد لله الذى فدى عسكرى بالفلاحين ورعاع الناس). ابن أيبك الدوادار، الدرة الزكية، ص ١٦٢.

Ayalon Daivid "Bahriyya", EI 2, vol. I, pp. 945, 946.

(٤٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦؛ حول قادة أسطول الغزو. انظر. ابن شداد، محمد بن على بن ابراهيم (ت٦٨٤/ ١٢٨٥م).، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: محمد حطيط (ويسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٨٣م)، ص ١٠٣.
(٤٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ص ٣٨٦، ٣٨٧؛ اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٤٥٤؛ ابن أيبك الدوادارى، الدرة الزكية، ص ١٦٢؛ العينى،عقد الجمان، ج٢، ص ص ٧٢، ٧٣، ٧٤؛ بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ٧١.
(٤٤) بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ٧١؛ العينى (نقلا عن كتاب آخر لبيبرس المنصورى)، عقد الجمان، ج٢، ص ص ٧٣، ٧٤.
(٤٥) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤.
(٤٦) أيبك الدوادارى، الدرة الزكية، ص ١٦٢.

(47) Fuess, "Rotting ships and razed harbors", Mamluk studies review. vol. 5, (2001), p. 50.

(٤٨) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٣٠.

(٤٩) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣٠.

(٥٠) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٣٠؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٠٣.

(٥١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨٧.

(٥٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣١٢؛ المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤.

(٥٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٠٠.

(٥٤) ابن أيبك الدوادارى، الدرة الزكية، ص ١٦٢.

Fuess, "Rotting ships and razed harbors". Mamluk studies review, vol. (2001), p. 50, 51.

(٥٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٨٣.

(٥٦) بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ١٤٢.

(٥٧) لمزيد من التفاصيل عن ابن السلعوس، انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٧، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٨٩.

(٥٨) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٩٤، ص ١٩٥.

(٥٩) العينى، عقد الجمان، ج٣، ص ١٨٥٠؛ وانظر أيضا: المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٩٥.

(٦٠) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٣٥.

(٦١) العينى، عقد الجمان، ج٣، ص ٢٠١- ٢٠٥، ٢٠٦؛

Fuess, "Rotting ships and razed harbofs", Mamluk studies review, vol. 5, (2001), P. 51.

(٦٢) أمير مائة هو ذلك الأمير الذي يؤهله إقطاعه في الحضور إلى ميـــدان المعركة ومعه ما لا يقل عن ١٠٠ مملوك أو فارس جاهزين للحـــرب وقــد يزيد عدد مماليكه أو فرسانه عن ذلك بـ١٠ إلى ٥٠ فارسًا أو مملوكًا.

(٦٣) أمير طبلخانه هو ذلك الأمير الذي يؤهله إقطاعه للإنفاق على ٤٠ فارسًـا أو مملوكًا جاهزين للحرب وقد يزيد عدد فرسانه بالعشرة أو بالعشرين.

(٦٤) أمير عشرة هو ذلك الأمير الذى يؤهله اقطاعه للإنفاق على ١٠ فرســـان أو مماليك جاهزين وقت الحرب.

(٦٥) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٩٥؛ أبى الفداء، المختصر فى أخبار البشـــر، ج٤، ص ٤٧.

(٦٦) بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ١٤٢.

(٦٧) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ١، ص ٥١.

(٦٨) المصدر السابق نفسه، ص ص ١٠٥، ١٠٦.

(٦٩) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ١، ص ١٥٩.

(٧٠) المصدر السابق نفسه، ص ٥٣٣.

(٧١) ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على (ت. ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)،. إنباء الغمـــر بأبناء العمر، ج٢، تحقيق: عبدالله أحمد المديهج، (حيدر أباد، دائرة المعـــارف العثمانية، ١٩٨٦م)، ص ٢٨٧.

(٧٢) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ٢، ص ٧٨٧.

(٧٣) الدواداري، الدرة الزكية، ص٢١٠.

(٧٤) المقريزي، السلوك، ج٣، قسم١، ص٢٧٠.

(٧٥) ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٧٠هـــــ/١٤٠٥م)، تـــاريخ الـــدول والملوك (تاريخ ابن الفرات)، ج٩، قسم١، تحقيق: قسطنطين زريق ونجـــلاء عز الدين، (بيروت، (ب.د)، ١٩٣٦-١٩٤٢م)، ص٧٠.

(٧٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٢٨٩.

(٧٧) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٢٨٧؛ ابن الفرات، تـاريخ، ج٩، قسـم ١، ص ٣٣.

(٧٨) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم٢، ص ٧٨٧.

(٧٩) بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية، ص ١٤٢؛ المقريـزى، السـلوك، ج٢، قسم ١، ص ص ١٠٦، ١٠٧، ٥٣٣؛ ابن حجـر، إنبـاء الغمـر، ج٢، ص ٢٨٧.

(٨٠) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ص ٣٧٩٠، ٧٤٠- ٧٤٣.

(٨١) النويرى الإسكندرانى، محمد بن قاسم (ت. بعد ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، الإلمـام بالإعلام فى ما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعـة الإسـكندرية، ١٤ج، تحقيق: عزيز سوريال عطية، (حيدر اباد: دائرة المعارف العثمانيـة، ١٩٧٨م)، ج٣، ص ص ٢٣١- ٣٤؛ المقريزى، السلوك، ج٣، قسـم١، ص ص ١٠٥- ١٠٧. انظر كذلك تقييم المحقق للمعلومات التى أوردها النويـرى الإسكندرانى حول هذه الغزوة.

Atiya. Aziz. S, A fourteenth century Encyclopedist fromAlexandria: A critical and analytical study of Al-Nuwairy al-Iskandarani's" Kitab al-Ilmam", Research monograph no. 7. University of Utah, (Salt lake city, 1977), pp. 28- 36.

(٨٢) النويـرى الإسـكندرانى، الإلمـام، ج٣، ص ص ٢٣١- ٣٤؛ المقريـزى، السلوك، ج٣، قسم ١، ص ص ٨٣، ١٠٤.

(٨٣) النويـرى الإسـكندرانى، الإلمـام، ج٣، ص ص ٢٣١- ٣٤؛ المقريـزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٠٥

(٨٤) المقريزى، السلوك، ج٣، قسـم٢، ص ص ١٠٥- ١٠٦، ١٠٧؛ رنسـيمان، الحروب الصليبيـة، ج٣، ص ص ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧. حـول مزيـد مـن التفاصيل، انظر :

Makhairas. Leontios (d.after 1432). Recital concerning the sweet land of Cyprus ed. And trans. By Dawkins. R.M (Oxford,(1932), vol. 1,

pp.171- 73; Edbury. P. 2, The kingdom of Syprus and the Crusades (1191- 1374), (Cambridge, 1991), P. 166; Aziz. S.Atya. the Crusade in the Later Middle Ages, (London, 1938), pp. 345- 78.

(٨٥) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ١، ص ص ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

(٨٦) بطشة أو بطسه سفينة عظيمة الحجم وظيفتها حمل الغلال والأقـــوات وآلات الحرب والرجال في حدود الثلاثمائة وسبعمائة مقاتل. انظر النخيلي، الســـفن الإسلامية، ص ص١٤، ١٥.

(٨٧) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٢.

(٨٨) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ١، ص ٢٧.

(٨٩) المصدر السابق نفسه، ص ص ١٤٩، ١٥٠.

(٩٠) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٥٠.

(٩١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ١٢٧.

(٩٢) ابن الفرات، تاريخ، ج٩، قسم١، ص ٤٧؛ ابن حجر، إنبـــاء الغمـــر، ج٢، ص ٢٨٩.

(٩٣) رنسيمان، الحروب الصليبيـــــة، ج٣، ص ص ٧٣٤، ٧٣٥. انظـــر أيضـــا. زيتون. عادل.، تاريخ المماليك، (دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٦)، ص ٢٠٦.

(٩٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٣٠.

(٩٥) زيتون، تاريخ المماليك، ص ٢٠٦، انظر أيضا.

Ashtor. E, A social and economic history of the Near East in the Middle Ages, (London, 1976), p. 298.

(٩٦) حول موقف الجمهوريات الإيطالية من التجارة مع الشرق الإسلامي. انظـــر: رنسيمان، الحروب الصليبيـــة، ج٣، ص ص ٦٠٦، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤. كذلك انظر إلى تقييم أشتور المعمق للتجـــارة بيـــن جنـــوب أوربـــا والدولـــة المملوكية.

Ashtor, A social and economic history, pp. 297, 298-300, 301.

(٩٧) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٢٠.

(٩٨) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١١٣؛ ابن اياس، بدائع، ج١، قسم٢، ص ٢٧٠.

(٩٩) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ١، ص ١١٣؛ ابن اياس، بدائع، ج١، قسم ٢، ص ٢٧.

(١٠٠) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١١٣.

(١٠١) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٢٩. ابن إياس، بدائع، ج١، قسم٢، ص ٤٤.

(١٠٢) المغاربة: هم سكان المغرب العربي وقد سكن بعض منهم الإسكندرية وكانوا يمثلون خيرة بحارتها. انظر : المقريزي، السلوك، ج٣، قسم١، ص١٢٩.

(١٠٣) تراكمين: يقصد بهم التركمان النازلين سواحل الشام والذين كلفوا بحفظ سواحل فلسطين ولبنان من الهجمات الأوربية، والذين قد اكتسبوا خبرة في مجال البحر كما يبدو. انظر المقريزي، السلوك، ج٣، قسم١، ص١٢٩.

Ayalon, "Bahriyya " E12, Vol. 1, 946

(١٠٤) هم سكان جنوب مصر (الصعيد) ولا يقصد بهم هنا جميع السكان في الجنوب وإنما المشتغلون منهم بالملاحة النيلية. انظر.المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٢٩.

(١٠٥) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٢٩.

(١٠٦) المصدر السابق نفسه، ص١٢٩.

(١٠٧) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٢٩.

(١٠٨) المصدر السابق نفسه، ص ص ١٣٠، ١٣١– ١٣٥، ١٣٦.

(١٠٩) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ١٥٩.

(١١٠) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم١، ص ص ٥٣٢، ٥٣٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ١٨٧؛ ابن إياس، بدائع، ج١، قسم ٢، ص ٣٦٠.

(١١١) ابن اياس، بدائع، ج١، قسم ٢، ص ٣٦٦.

(١١٢) ابن مماتي، الأسعد بن مهذب ابن مماتي (ت. ٦٠٦/ ١٢٠٩م).، قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، (القاهرة، {ب.د}، ١٩٤٣)، ص ص ٣٧، ٣٣٤؛ النابلسي، عثمان بن ابراهيم الصفدي (ت. ٦٦٠/ ١٢٦١م).، لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية.

Ed. Becker. C and Cahan. Claude, "Bulletin d'Etudes Orientales XVI (1958- 1960) (Damas, 1961), P. 48. cf. Cahen. C "Quelques aspects de administration Egyptienne Medievale vus par de ses foncitionnaires". Bulletin de la faculte des Letttres de Strasbourg, 26 annee (1948), pp. 97- 118.

المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٨٥، ج٢، ص ٤٤٧؛ العبادي. أحمد مختار والسيد عبدالعزيز سالم. تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، (بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م)، ص ٢٩٥؛ إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ص ٤٠، ٤١.

(١١٣) أحمد محمد عدوان، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، (الرياض، دار عالم الكتاب، ١٩٨٥م)، ص ص ٩٩- ١٠٥؛ إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ص ٣٢- ٤٥؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٠٤.

Aylon, "Bahriyy ",E12, Vol. 1,94: Ashtor, A social and economic history, pp. 297, 298-300, 301.

(114) Fuess, "Rotting ships and razed harbors", Mamluk studies review, vol. 5, pp. 67, 68; Aylon, "Bahriyy", E12, Vol. 1, P. 946.

(١١٥) القلقشندي، أحمد بن علي (ت. ٨٢١/ ١٢٨٣).، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ج، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ج٤، ص ص ١٤٨، ١٨٤. Aylon, "Bahriyy", E12, Vol. 1, 946

(116) Aylon, "Bahriyy", E12, Vol. 1, 946

(١١٧) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ص ١٤٨، ١٨٤.

(118) Ayalon, "Bahriyya " E12, Vol. 1, 947.

(١١٩) حول وصف عام عن الأحوال السياسية بعد الناصر محمد قلاوون. انظـر. سعيد عبدالفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ص ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٥؛ سرور. محمد جمال الدين، دولة بنى قلاوون فى مصر: الحالـة السياسـية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص، (القاهرة، دار الفكـر، ١٩٤٧م)، ص ص ٥٣- ٦٦.

Holt. P.M, The age of the Crusades: The Near East from the eleventh century to 1517, (London, 1986). PP. 121- 129; Irwin. Robert. The Middle East in the middle ages: The early mamluk Sultanate 1250-1382, (London, 1986), pp. 125- 149.

(١٢٠) حول تأثير الطاعون بشكل عام على الدولة المملوكية بعد الناصر محمد بـن قلاوون. انظر :

Dols. Michael. W, The Black Death in the Middle East, (Princeton, 1977)
Irwin., The Middle East in the Middle Aes, pp. 134, 135- 137, 138.

قائمة المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية :

١-ابن اياس، محمد بن أحمد بن اياس (ت. بعد ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م).
بدائع الزهور فى وقائع الدهور. ٧ج. تحقيق: محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢- ١٩٨٤.

٢-ابن تغرى بردى، يوسف بن تغرى بردى، (ت. ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. ١٦ج. القاهرة: دار الكتب- تراثنا، ١٩٢٩- ١٩٧٢م.

٣-ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على. (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م). إنباء الغمر بابناء العمر ٩ج. تحقيق: عبدالله أحمد المديهج. حيدر أباد: دائرة المعارف العثمانية ١٩٨٦.

٤-ابن شداد، محمد بن على ابراهيم (ت. ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م). تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط. ويسبادن: فرانز شتاينر، ١٩٨٣م.

٥-ابن عبدالظاهر، محى الدين، أبو الفضل، عبدالله (ت. ٦٩٢هـ/ ١٢٩١م).
الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر. تحقيق: عبدالعزيز الخويطر الرياض: {ب.د}، ١٩٧٦م.

٦-ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت. ٨٧٠هـ/ ١٤٠٥م). تاريخ الدول والملوك. ج٧- ج٩، تحقيق: قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين. بيروت: الجامعة الأمريكية، ١٩٣٦- ١٩٤٢م.

٧-ابن مماتى، الأسعد بن مهذب ابن مماتى (ت. ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م). قوانين الدواوين. تحقيق: عزيز سوريال عطية. القاهرة: {ب.د.}، ١٩٤٣.

٨-ابن واصل، محمد بن سالم بن واصل (ت. ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م). مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب. ٥ج. ط١. تحقيق: جمال الدين الشيال وحسنين محمد ربيع. القاهرة: دار الكتب، ١٩٥٣- ١٩٧٧م.

٩-أبى الفداء، إسماعيل بن علـــى (الملــك المؤيـــد)، (ت. ٧٣٢هـــ/ ١٣٣١م). المختصر فى أخبار البشر، ٤ج،ط١. القاهرة: المطبعة الحســـينية المصريــة، ١٣٢٣/ ١٩٠٥م.

١٠- بيبرس المنصورى (ت. ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م).

(أ) التحفة الملوكية فى الدولة التركية. تحقيق: عبدالحميد صـــالح حمـــدان. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م.

(ب) مختار الأخبار. تحقيق: عبدالحميد صالح حمـــدان. القـــاهرة: الـــدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣م.

١١- الدوادارى، أبوبكر بن عبدالله بن أيبك (ت. بعد ٧٣٦هـــ ١٣٣٥م). كـــنز الدرر وجامع الغرر.

- ج٧، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب. تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشـــور، القاهرة: المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة، ١٩٧٢م.

- ج٨، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية. تحقيـــق: هارمـــان. القـــاهرة: {ب.د}، ١٩٧١.

- ج٩، الـــدر الفـــاخر فـــى ســـيرة الملـــك النـــاصر. تحقيـــق: رويمـــير. القاهرة:{ب.د}، ١٩٦٠م.

١٢- العينى، محمد بن أحمد بن موسى (ت. ٨٥٥هـــ/ ١٤٥١م). عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٤ج. تحقيق: محمـــد محمـــد أميـــن. القـــاهرة: الهيئـــة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧- ١٩٩٢م.

١٣- المقريزى، أحمد بن على (ت. ٨٤٥هـــ/ ١٤٤٢م).

(أ) المواعظ والاعتبار بذكـــر الخطـــط والآثـــار. ٢ج. القـــاهرة: بـــولاق، ١٢٧٠هـــ/ ١٨٥٣- ١٨٥٤م.

(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك :

ج١-ج٢ (٦ أقسام). تحقيق: مصطفـــى زيـــادة. القـــاهرة: دار الكتـــب المصرية، ١٩٣٤- ١٩٥٨م.

ج٣-ج٤ (٦ أقسام). تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٠- ١٩٧٣م.

١٤- النابلسى، عثمان بن إبراهيم الصفدى (ت. ٦٦٠/ ١٢٦١م). لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية، انظر :

Ed. Becker. C. and Cahan. Claude. "Bulletin d'Etudes Orientales XVI (1958- 1960) (Damas, 1961), P. 48. cf. Cahen. C "Quelques aspects de l'administration Egyptienne medievale vus par de ses fonctionnaires", Bulletin de la faculte des Lettres de Strasbourg, 26 annee(1948), pp. 97-118.

١٥- النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (ت. ٧٣٣هـ/ ١٣٢٢م). نهاية الإرب فى فنون الأدب. ٣١ج. تحقيق: مجموعة من المحققين. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومى والهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٢٣- ١٩٩٢م.

١٦- النويرى الإسكندرانى، محمد بن قاسم (ت. بعد ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م). الإلمام بالإعلام فى ما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية. ١٤ج. تحقيق: عزيز سوريال عطية. عطية. حيدر أباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٨م.

١٧- اليونينى، موسى بن محمد (ت. ٧٢٦/ ١٣٢٦م). ذيل مرآة الزمان. (منقولة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية). ج. ط٢. القاهرة: دار الكتاب الإسلامى، ١٩٩٢م.

٢- المراجع العربية والمعربة :

١- ابراهيم.حسن سعيد. البحرية فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

٢- الخويطر. عبدالعزيز بن عبدالله. الملك الظاهر بيبرس. ط١. الرياض: {ب.د}، ١٩٧٦م.

٣- رنسيمان. ستيفن. تاريخ الحروب الصليبية، ٣ج، ترجمة: السيد الباز العرينى، بيروت دار الثقافة، ١٩٨٠م.

٤- زيتون. عادل. العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب. دار دمشق، ١٩٨٠م.

٥- سرور. محمد جمال الدين. دولة بنى قلاوون فى مصر: الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص القاهرة: دار الفكر، ١٩٤٧م.

٦- سرور. محمد جمال الدين. دولة الظاهر بيبرس في مصر. القاهرة: دار الفكر العربي. {ب.ت}.

٧- عاشور. سعيد عبدالفتاح. الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.

٨- العبادى، أحمد مختار والسيد عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، (بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م).

٩- عدوان. أحمد محمد. العسكرية الإسلامية فى العصر المملوكى. الرياض: دار عالم الكتاب، ١٩٨٥م.

١٠- العرينى، السيد الباز، الدولة البيزنطية (٣٢٣- ١٠٨١م)، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٢م.

١١- لويس. أرشيبالد. ر، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠- ١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، محمد شفيق غربال، (القاهرة، مكتبة النهضة الأوروبية، ١٩٦٠م).

١٢- النخيلى. درويش السفن الإسلامية على حرف المعجم، القاهرة. {ب.د}، ١٩٧٤م.

٣- المراجع الأجنبية :

1- Ashtor. E. A Social and Economic history of the Near East in the Middle Ages. (London. 1976).

2- Atiya. Aziz. S. A fourteenth century Encyclopedist from Alexandria: A critical and analytical study of Al-Nuwairy al-Iskandarani' s "Kitab al-Ilmam". Re search monograph no. 7. University of Utah,(Salt lake city. 1977).

3- Atiya Aziz.S, The Crusade in the Later Middle Ages, (London ,1938).

4- Aylon. D. " The Mamluk and Naval power: A phase of the struggle between Islam and Christian Europe ", Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517),(London, 1977), 6,pp.1-12.

"Bahriyya",The Encyclopedia of Islam ,vol. 1 ,Leiden ,1986, pp.945, 946.

5- Cahen, C."Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin et Commerce du Levant"Bulletin de la Faculte des Lettres de Strasbourg 29 (1951),pp. 328 -416.

6- 6-Curtis, E. Roger of Sicily and the Normans in lower Italy(1016- 1154), (NewYork. 1912) ,pp. 62-84.

7- Dols.Michael. W, The Black Death in the Middle East (Princeton, 1977).

8- Edbury .P.w, The kingdom of Syprus and the Crusades (1191-1374), (Cambridge, 1991).

9- Ehrenkreutz,A.S.The place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea in the Middle Ages. Journal of the Amrican Oriental Society, lxxv(1955),pp. 100-16.

10- Fuess.Albrecht, "Rotting ships and razed harbors The naval policy of the Mamluks", Mamluk studies review, vol. 5, (2001), pp.47-71.

11- Fuess.Albrecht, Verbranntes Ufer:Auswirkungen Mamlukishcher seepolitik auf Beirut und die syro- palastinensische kuste AD 1250-1517A.D ,(Leiden, 2001).

12- Hillenbrand.Carole., The Crusades : Islamic Perspectives. (Edinburgh: 1999).

13- Holt. P.M, The Age of the Crusades: The Near East from the eleventh century to 1517, (London, 1986).

14- Irwin.Robert, The Middle East in the Middle Ages: The early Mamluk Sultanate 1250- 1382, (London ,1986).

15- Makhairas. Leontios (d. after 1432), Recital concerning the sweet land of Cyprus ed. And trans. by Dawkins.R.M (Oxford, 1932).

16- Vassilios Christides , The conquest of Crete by the Arabs (Ca.824): A turning point in the struggle between Byzantium and Islam ,(Athen, 1984)

أصول هندسية وفنية

أثرت في بناء الشخصية الفنية الإسلامية

د. عصام عرفة

كلية التربية الأساسية - جامعة الكويت

أهداف البحث :

- الكشف عن الأصول الهندسية والمصادر العلمية التي أثرت في تحديد معالم الشخصية الفنية الإسلامية.
- تبيان أثر دراسة الفنان المسلم وتطبيقه للقوانين الهندسية كمدخل مؤثر في تحديد سمات الشخصية الفنية الإسلامية وإثرائها.
- بيان أثر القيم الدينية، وكذلك أثر القيم الفنية للحضارات المحيطة في بناء الطابع العام للفنون الإسلامية.

حدود البحث :

- تناول البحث الأصول التي أثرت في بناء الطابع العام للفنون الإسلامية منذ مهد الحركة الفنية الإسلامية بالقرن الأول الهجري، وحتى عصر المماليك البحرية بالقرن الثامن الهجري.

منهج البحث :

- يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي للمصادر العلمية الهندسية التي أثرت الفكر الهندسي عبر العصور الإسلامية، بصفتها مصادر كانت موجهة لكل من الفنان والمهندس.
- تحقيق وتحليل بعض العمليات الهندسية الواردة بالمصادر المخطوطة والتي تعد من أهم الأصول الهندسية للفكر الفني الإسلامي.

- التعرض بالتحليل للدور العقدي للقيم الدينية، وللدور الجمالي للقيم الفنية لفنون الحضارات المجاورة، كمؤثرات تأسس عليها فكر الفنان المسلم ومن ثم تكويناته الزخرفية الإسلامية.

إن النهضة الفنية العظيمة للفنون الإسلامية ومدارسها ومختلف مجالاتها لم تنشأ من فراغ عبر الولايات الإسلامية وخلال الأزمنة المتعاقبة، بل كانت هناك عوامل أساسية أثرت على الحياة الفنية وأسهمت إسهامًا كبيرًا في إنعاش تلك الحياة حتى وصلت إلى ما هي عليه من مستويات إبداعية عظيمة.

ولقد أثرت هذه العوامل تأثيرًا مباشرًا في القائمين على هذه النهضة الفنية وعلى رأسهم المعمار، والفنان. هذه العوامل التي كانت بمثابة المؤثر الفعال في إنماء وتوجيه فكر ووجدان هؤلاء الفنانين، وذلك إما تأثيرًا إيجابيًا وإما تأثيرًا سلبيًا، وذلك وفق طبيعة ما كانت عليه إمكانات كل عصر، ومستوى وكم ما توافرت فيه عوامل مؤثرة.

وكان للفنان عبر العصور والولايات الإسلامية دور كبير في إبراز وتأكيد الشخصية الفنية[1] الإسلامية ذات السمات المتميزة بين فنون الحضارات المختلفة، وإن اختلفت بعض الخصائص الفنية من ولاية إسلامية إلى أخرى، لكنها كانت في مجموعها ذات طابع يجسد وجدان وفكر الفنان المسلم.

إن الملامح الخاصة للشخصية الفنية الإسلامية هي الركيزة التي تميزها عن غيرها من فنون الحضارات المختلفة السابقة عليها أو اللاحقة لها، فهي الشخصية الفنية التي تميزت عبر عصوره المختلفة بالطابعين الهندسي والتجريدي، والذي انعكس بدوره خلال تعبيرات الفنان المسلم وعبر تكويناته الفنية الهندسية وحتى النباتية منها وتلك التي ضمت أشكال الكائنات الحية.

وإذا كانت الشخصية الفنية الإسلامية قد صبغت بهذا الطابع العام، فلا بد وأن تكون قد أثرت فيها مؤثرات وأصول هندسية وفنية خلال عصورها المختلفة وعبر ولاياتها المتعددة، جعلتها تنحو نحو هذا الاتجاه.

وقدر ما يتوافر للفنان وغيره من أبناء المجتمع من علوم -بمختلف العصور- بقدر ما يستفيد وينمو ويضيف ما يفيد إلى فنونه المختلفة.

لقد كانت أشد العلوم قربا وتماسا مع مختلف الفنون بالعصور الإسلامية هو علم الهندسة الذي كان له الأثر الأكبر في صبغ فكر الفنان ومن ثم تكويناته الزخرفية المختلفة بالطابع الهندسي. فضلا عن أثر ذلك في تميز هذه التكوينات بالدقة المتناهية بين أبعاد عناصرها، وفي كيفية تصميم وتنفيذ كل عنصر. بالإضافة إلى التزام الأسس الدقيقة الهندسية عند بناء التكوين الزخرفي فلقد أسهم في بناء الشخصية الفنية الإسلامية الأصول الهندسية والفنية التالية :

أولاً : المصادر العلمية وانتقال المعرفة :

لقد كان الشاغل الأكبر لبعض حكام المسلمين[٢] هو توفير مختلف المصادر العلمية وذلك انطلاقا من حث الإسلام على العلم، وإيمانا بقول الله تعالى : [اقرأ باسم ربك الذي خلق][٣]، يقول الله تعالى [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات][٤]. وقول الله تعالى : [إنَّما يخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ][٥]. فلقد تدافع الحكام كل منهم تجاه بعث علوم السابقين والمحافظة عليها ــ منذ القرن الأول الهجري ــ[٦] من خلال ترجمتها ثم جعلها في متناول كل من له الرغبة في الاستزادة والتعلم[٧]. ولم تكن الترجمة إلا مرحلة تخطاها المسلمون إلى مراحل البحث والتصحيح والإضافة ثم التأليف[٨].

ومن أهم العلوم التي كان لها دور فعال في توجيه فكر الفنان المسلم، والتأثير على أعماله هو علم الهندسة[٩] الذي اهتم به علماء المسلمين وألفوا فيه العديد من المخطوطات والرسائل الهندسية التي كانت على درجة كبيرة من الأهمية، والتي كان بعضها موجهًا إلى الصانع أو المهندس أو العامل أو الكاتب فمؤلفات[١٠] البوزجاني تعد من أهم المؤلفات التي بحثت ــ بصورة مباشرة ــ في قضايا علمية كانت تهم الفنان المسلم، وتعد هذه المؤلفات من أهم المصادر الخاصة بالحلول النظرية والعملية للمشكلات الهندسية والفنية.

إن اكتشاف وتطور الأفكار العلمية بصفة عامة أثر تأثيرًا مباشرًا في فروع المعرفة المختلفة فإن اكتشاف كثير من النظريات الرياضية كان نتيجة مباشرة لاكتشاف ظواهر فيزيائية. وإن اختراع كثير من الحركات الميكانيكية كان نتيجة لتأمل حركات كثير من مخلوقات الله، كما أن كثير من الأسس الهندسية الخاصة

بالتكوينات الزخرفية كانت ناتجة عن مزاوجة الفنان لفكرة الفني وأحاسيسه الجمالية مع الفكر الهندسي لعلماء المسلمين[11].

لقد كان لدعم الدولة ولسيادة روح الإسلام وتعاليمه على الحكام – في كثير من الأحيان – أثره الكبير في اتجاههم نحو دعم العديد من المجالات الدينية كإنشاء العمائر الدينية مثل المساجد والمدارس كدور للعبادة والتعليم، ولما كان الاهتمام بالغا بهذه العمائر، فقد كان لذلك انعكاسه على منهدسيها ومصممي زخارفها ومنفذيه. إن الدعم المادي والأدبي من قبل الخلفاء والأمراء عبر الزمان والمكان كان يعد بمثابة الدافع القوي للمهندس والفنان والخطاط نحو الإبداع والحافز نحو استلهام تلك الأعمال الفنية التشكيلية والمعمارية التي خلدها التاريخ كدليل مادي للحضارة العربية الإسلامية.

إن ذلك الدعم من قبل الدولة كان مقرونا دائمًا بقدر المكانة الاقتصادية للدولة على اختلاف وامتداد العصور، فتارة كان الدعم جامحًا وبلا حدود، وأخرى كان الدعم فيها ضعيفا، ففي عصور الازدهار الاقتصادي، كانت الثروات التي جمعها الحكام[12] سببًا في المبالغة في إقامة المنشآت الدينية والمدنية والعسكرية، والمبالغة في تعظيم مساحتها وفي تغطيتها بأبدع وأدق التكوينات الجدارية الزخرفية، التي ... للعصر بالبراعة في العمارة والتشييد والزخرفة، فلقد وصلت العمارة والفنون عصر المماليك البحرية – كعصر يشهد له بالازدهار الاقتصادي – إلى مستويات ...عية راقية حتى أطلق على هذا العصر العصر الذهبي لازدهار العمارة ...سلامية.

كما كان لانتقال المعرفة من ولاية إسلامية لأخرى أثره الكبير في نشر العلوم المختلفة وفي وقوف كل ولاية على ما توصلت إليه الأخرى من علم ... تحصيل معرفي. فلقد كانت المعرفة تتنقل بين مختلف الولايات الإسلامية بتناقل أصحابها ومكتشفيها[13] أو بتناقل من تعلمها وبحث فيها، وفي ذلك إتصال بالمعرفة ... اصل بين الشعوب. ويقول ابن خلدون " ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم ... هو بالقاهرة .. لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ... استحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم .. وأرتحل إليها الناس في ... طلب العلم من العراق والمغرب وتفننت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها "[14].

كما كانت توضع المؤلفات باسم بعض الخلفاء أو الأمراء الأمر الذي حفز العلماء والفنانين على التسابق والإتقان في هذه المؤلفات[١٥] بل وعلى الاطلاع عليها ودراستها وكان ذلك ردًا لفضل بعض هؤلاء الحكام أمثال الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي رعى العلم والعلماء والفنانين وجعل مصر في عهده منارة لمختلف العلوم والفنون، فلقد كانت " له اليد الكبرى على الفنون الجميلة وأهلها، والذي له الفضل الأول في اتساع دائرة الأدب بظهور أكبر الموسوعات العربية بديار مصر في عهده، ونعني بها : " نهاية الأرب في فنون الأدب " للنويري، و" مسالك الأبصار في ملوك الأمصار "، لابن فضل الله العمري، و" صبح الأعشى في صناعة الانشا " في العلوم والأدب والفنون للعلامة القلقشندي "[١٦]. من ثم لقد كان المناخ العام الذي كان يعيش فيه الفنان والعالم والأديب هو مناخ فني وعلمي وأدبي. وكانت تتناقل فيه أنواع المعرفة بين الولايات الإسلامية المختلفة، وكانت تدعمه لقاءات مختلف العلماء من مختلف الولايات، ومنتديات بين الحكام وبين العلماء. والفنانين والأدباء والفلاسفة يمثل دعم الدولة لهم في إطار من الحب ومناخ من التنامي العلمي الذي كان المجتمع في حاجة ماسة إليه فضلا عن توفير المصادر العلمية لذلك، وكان أثره في فكر أفراده وخاصة الفنان المسلم الذي دعم فكره ــ نظريًا وتطبيقيًا ــ بالنظريات والحلول الفنية والهندسية وأثره في صبغ تكويناته بالطابع الهندسي شديد الدقة والانتظام، الذي أثرى ــ بدوره ــ شخصيته كفنان وأسهم في تحديد طابعه العام الذي امتد من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه، ووصل بهذا الأسلوب إلى مستويات إبداعية خلدته عبر العصور وميزت أسلوبه عن أساليب مختلف فنون الحضارات الأخرى.

إن الدراسة الدقيقة للتكوينات الزخرفية الأثرية الإسلامية تؤكد أن ما وصل إليه الفنان المسلم من دقة هندسية وتجريد هندسي لابد وأن يكون قد تأسس على دراسة دقيقة متعمدة للتراث الهندسي الرياضي، وهو ما تعكسه بصورة واضحة تلك التكوينات الزخرفية وخاصة الهندسية منها، وما تميزت به مختلف التكوينات الهندسية والنباتية والكتابية وغيرها، من دقة هندسية وتعامل مع أجزاء السنتيميتر مهما تعاظم حجم التكوين سواء كان على تحف منقولة أو على جدران العمائر.

فالتراث الهندسي الرياضي يمثل أساسًا هامًا للتكوينات الزخرفية عامة ، وكان لشيوعه وانتشاره ــ منذ فترة مبكرة بالعصور الإسلامية ــ أثره الهام في صياغة الفكر الفني القائم على الأسس الهندسية عند التصميم وعند التنفيذ، وهذا الانتشار للتراث الهندسي كان بفضل فكر المعاصرين وبفضل الترجمات الواسعة التي تمت، على عهود متتابعة.

إن لشيوع الفكر الهندسي الفضل الكبير على صياغة أسلوب الفنان المسلم بمختلف الولايات ومن ثم على توجيه وتوحيد الطابع العام لتكويناته الزخرفية المختلفة نحو المنهج التجريدي الذي امتد عبر العصور والولايات الإسلامية المختلفة، على الرغم مما كان ينتهجه هذا الأسلوب من قرب نحو الطبيعة ــ في بعض الفترات الزمنية ــ أو من بعد عنها في فترات أخرى، تأثرًا ببعض الفنانين الوافدين أو ببعض العناصر الفنية الوافدة والتي انحصرت في تكوينات محدودة[١٧] والتي ما لبثت في تلك الفترات وأن ذابت في العناصر والأصول الزخرفية العربية الإسلامية.

إن التراث الرياضي له فضل على صياغة الرؤية الجمالية، وكان علم الهندسة أكثرها أثرًا على الفنان وتصميماته الزخرفية[١٨] لقد كان للمصادر القديمة التي ترجمها المسلمون أثرها الكبير في نقل أصول علم الهندسة والحفاظ عليه، والإضافة إليه. ولما كانت لهذه المصادر أهميتها، وخاصة كتاب " اقليدس " فقد ترجمت إلى العربية، ودرسها العرب .. وادخلوا فيها قضايا جديدة لم يعرفها القدماء، فقد وضع ابن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩م) كتابًا على هذا الطراز[١٩]، كما ألف محمد البغدادي رسالة موضوعها تقسيم أي مستقيم إلى أجزاء متناسبة[٢٠]، وهو موضوع له أهميته التطبيقية في كيفية بناء التكوينات الزخرفية الإسلامية، فقد شاع ببعض هذه التكوينات الأجزاء المتناسبة للمستقيم، أو للمستقيمات المترددة بالتكوين، كما وجدت تكوينات أقامها المصمم على أساس تناسب المثلثات المتداخلة (ش١)، وأخرى على أساس المربعات المتداخلة (ش٢)، وترجع أهمية رسالة البغدادي في أنها قد ضمت سبع فرضيات في تناسب المثلث، وتسع في المربع، وست في المخمس.

كما أن للعرب مؤلفات كثيرة في المساحات والحجوم وتقسيم الزوايا إلى أقسام متساوية وفي كيفيات رسم الأشكال الهندسية المضلعة المنتظمة، وفي رسم الدائرة.

كما كان لأبو الوفا البوزجاني (٩٤٠-٩٩٨م) ـ أحد أعظم علماء الرياضيات عند العرب ـ أثره الكبير في تقدم علم الرياضيات، وفي إثراء فنون الرسم والتصميم، فقد وضع رسالة عرفة باسم (Geometrical Construction) وفي هذه الرسالة طرق خاصة ومبتكرة لكيفية الرسم واستعمال الآلات اللازمة لذلك، وفيها أيضًا طرق لإنشاء الأجسام المنتظمة كثيرة السطوح حول الكرة، ولاشك أن هذه الطرق ـ كما يقول أكبر علماء الغرب ـ دفعت بأصول الرسم خطوات إلى الإمام[٢١]، ويمتاز أبو الوفا البوزجاني عن غيره من علماء العرب ومؤلفيهم بوضع مؤلفات للخاصة ولمختلف الطبقات .. فمن كتبه ورسائله ما وضعه لغير الرياضيين، ليستفيد منها العمال وأصحاب الصناعات وكان لهذا قيمة كبرى .. في عصر البوزجاني، والعصور التي تليه[٢٢].

فكان لهؤلاء العلماء ولمؤلفاتهم الفضل العظيم في نقل العلم والمعرفة إلى فئات المجتمع المختلفة من مهندسين وصناع وعمال وغيرهم. ومن ثم كان لهم دورهم في النهوض بفكر هؤلاء علميا وعمليا. وجعلهم يتأثرون بما حوته هذه المصادر من نظريات هندسية وطرق بناء الأشكال الهندسية المختلفة. فالبحث في الهندسة العقلية يؤدي إلى الحذق في الصنائع العملية[٢٣].

إن القرن الثالث الهجري قد شهد بداية شيوع التطبيقات الهندسية بمختلف التصميمات والتكوينات على جدران العمائر والتحف المنقولة (حيث تمثل في سامراء بالعراق وفي مصر بالعصر الطولوني وفي إيران بجامع نايين) نتيجة لتأثر الفنانين والمصممين بهذا الفكر الهندسي الذي أصبغ أعمالهم بتأثيرين أساسيين تمثلا في :

١- التزام الدقة المتناهية في بناء التكوينات الزخرفية وتعامل الفنان مع أجزاء السنتيمتر في أنحاء تكويناته.

٢- شيوع التجريد الهندسي الذي غدا ــ بعد ذلك ــ أهم ما يميز الطابع العام للتكوينات الزخرفية النباتية وغيرها من تكوينات الكائنات الحية.

وجدير بالذكر أنه عندما حاول الفنان الحديث دراسة النظريات الهندسية والتزام تطبيقها في أعماله الفنية، قد تحولت أسس تصميماته وتكويناته إلى الأشكال الهندسية المنتظمة (ش٣) وغير المنتظمة (٤)، ودفع شدة تأثر وحب وتكيف الفنان معها إلى تفننه في إستيحاء أشكال الطبيعة من خلال الأشكال الهندسية. فتأثير علم الهندسة كان ولا يزال من العوامل الهامة التي لها القدرة على صبغ فكر وإنتاج الفنان بالروح الهندسية، وهو مناخ رياضي هندسي عاش مثله الفنان المسلم، نتيجة ما وصله من ترجمات ومؤلفات لمخطوطات ورسائل هندسية تفيض بالنظريات والرسوم الدقيقة. فكان لذلك أثره في تشبع فكر الفنان ووجدانه بالطابع الهندسي وفي انعكاس هذا الطابع على سائر التكوينات الزخرفية.

ثانيًا : دراسة وتطبيق القوانين الهندسية :

إن ما وصل إليه الفنان المسلم من دقة وتجريد هندسي لابد وأن يكون قد تأسس على دراسة دقيقة، متعمدة للتراث الرياضي الهندسي وهو ما تعكسه بصورة واضحة مختلف التكوينات التي خلفها الفنان المسلم على التحف المنقولة والعمائر المختلفة. ومهما صغر حجم التكوين أو تعاظمت أبعاده. فقد اتسم دائمًا بالطابع الهندسي في صياغة عناصره حتى النباتية منها، وفي دقة توزيع هذه العناصر وفق أبعاد هندسية قائمة على أجزاء السنتيمتر أن التكوينات الزخرفية وخاصة الهندسة منها لتمثل دليلا قاطعا على الدراسة المتأنية لمختلف قوانين التراث الهندسي، وعلى التطبيق الإبداعي لهذه القوانين والأسس الهندسية.

إن صياغة العناصر الزخرفية وتوزيعها وفق دقة هندسية متناهية لتدل على دراسة وفهم خصائص الأشكال الهندسية ونظرياتها المختلفة وعلى اعتقاد الفنان بأن هذه الأشكال وقوانينها إنما هي أساس لكل الموجودات، بل وتمثل أساسها الهندسي الذي يمكن أن يترسب إليه كل شكل من أشكال الطبيعة.

إن المناخ الهندسي العلمي الذي عاشه الفنان المسلم كان له أثره في صياغة ونظم عناصره وفق هذا الأسلوب الهندسي المجرد، وهو المناخ الذي أمد هذا

الفنان بإنتاج علمي هندسي تمثل في تراث السابقين عليه، وهو التراث الذي وصل إليه من خلال الترجمات والمؤلفات المخطوطة والتي اختصت بتحليل مختلف الأشكال الهندسية من خلال شروح مستفيضة كانت موجهة إلى ذوي الاختصاص من فنانين أو صناع وعمال.

وقد تمثلت أهم هذه المصادر في مخطوطة لأبي الوفا البوزجاني المهندس[٢٤] (ت: ٣٨٧هـ/٩٩٧م)، حيث يتحدث ببساطة علمية موجهة إلى المتخصص وغير المتخصص، تضمنت المفاهيم الهندسية التالية :

١- كيفية رسم محيطات المسطحات : حيث يقول " ينبغي أن نعلم أن السطح إما أن يحيط به خط واحد مثل : الدائرة، والشكل البيضي، وهو المعروف بالقطع الناقص، وأما أن يحيط به خطان وهو مثل : قطع الدائرة، والأشكال الهلالية، وإما أن يحيط به ثلاثة خطوط مثل المثلث والقطاع، وإما أن يحيط به أكثر من ثلاثة خطوط مثل المخمس، والمسدس[٢٥].

٢- كيفية رسم الأشكال الهندسية منفردة أو متداخلة : ذكر " البوزجاني " في مخطوطة له[٢٦] كيفية رسم الأشكال الهندسية، مخصصًا لها بابًا تحت عنوان " في عمل الأشكال الهندسية المتساوية الأضلاع "، وهو الباب الثالث من هذه المخطوطة، موضحًا فيه كيفيات وطرق رسم الأشكال المختلفة أي كيفيات عمل المثلث، وعمل المربع، وعمل المخمس، وعمل المسدس، وعمل المسبع، وعمل المثمن، وعمل المتسع، وعمل المعشر. ومستكملا هذه الرسوم في الباب الرابع[٢٧] تحت عنوان " في عمل الأشكال في الدوائر " (ش٥-٩)، محللا المؤلف كيفية تداخل الأشكال الهندسية بعضها في بعض برسوم هندسية دقيقة، مؤكدًا المؤلف أهمية هذا الموضوع بتخصيص بابًا آخر له تحت عنوان " في عمل الأشكال بعضها في بعض "، وهو الباب السابع[٢٨]، مثل عمل مثلث في مربع (ش١٠) بعدة طرق مختلفة، وعمل المثلث على المربع أي يحيط بالمربع (ش١١)، وعمل مثلث متساوي الأضلاع على مثلث مختلف الأضلاع، وكيفية عمل مثلث

متساوي الأضلاع وعمل مربع في مخمس (ش١٢)، وعمل مربع على مخمس وعمل مخمس على مربع (ش١٣)، وعمل مثمن في مربع (ش١٤). وهي تمثل في مجملها حلولاً هندسية شديدة الأهمية للمصمم والفنان من أجل عمل تكوين زخرفي متداخل الأشكال. وقد خصص " البوزجاني " الباب الثامن[٢٩] من هذه المخطوطة لدراسة المثلث بمفرده، وكيفية تقسيمه إلى أقسام متساوية ومتعددة، وإثبات ذلك هندسيًا بأكثر من طريقة،و هي طرق تفيد ولاشك كل من المصمم والمنفذ في كيفية تقسيم أي مسطح أو جدار مثلث الشكل إلى أقسام متعددة (ش١٥).

٣- الأشكال الهندسية المنتظمة : تمثلت هذه الأشكال المنتظمة منفردة أو مجتمعة بمعظم التكوينات الهندسية عبر الولايات والعصور الإسلامية ومنذ عهد انتشارها على جدران العمائر والتحف المنقولة، الأمر الذي يؤكد دراية الفنان المسلم وعلمه بها وتطبيقه لأسسها الهندسية. وهي أشكال هندسية لها قوانينها التي أحكم الفنان استخدامها، وكان لها أثرها وأهميتها في بناء التكوينات الزخرفية عبر العصور، وقد تمثلت هذه الأشكال المنتظمة في : المثلث المنتظم، والمربع، والمسدس المنتظم.

المثلث المنتظم :

أسهمت مختلف المخطوطات التي كانت موجهة للمصمم أو الفنان المسلم في إثراء فكرهم هندسيًا وفنيًا، وقد تمثل ذلك في مخطوطة "رسائل الصفا وخلان الوفا" حيث ذكر " أن الشكل المثلث أصل لجميع الأشكال المستقيمة الخطوط، كما أن الواحد أصل لجميع الأعداد، والنقطة أصل للخط، والخط أصل للسطوح، والسطح أصل للأجسام (ذات الأبعاد الثلاثة)، وذلك أنه إذا أضيف إليهما شكل مثلث إلى شكل أخر مثله، حدث من جملتها شكل مربع .. وعلى هذا القياس تحدث الأشكال المستقيمة الخطوط الكثرة الزوايا من الشكل المثلث إذا ضم بعضها إلى بعض. وتتزايد دائمًا بلا نهاية.. [٣٠]. كما ذكر البوزجاني[٣١] " إن المثلث ينقسم من حيث زواياه إلى ثلاثة أقسام وهي : قائمة الزاوية، ومنفرج الزاوية، وحاد الزاوية "[٣٢]، وأن المثلث ينقسم من حيث أضلاعه إلى ثلاثة أقسام : متساوي الأضلاع، ومختلف

الأضلاع، ومتساوي الساقين "[٣٣]. وربما استمد هـذا الشكل قدرته على الانتشـار بين الفنانين ـ في تكويناتهم الجدارية وعلى التحف المنقولة ـ نتيجـة لطواعيتـه وقدرته على التحور من مضلع لآخر، الأمر الذي جعله من أكثر العناصر الزخرفية انتشارا (ش١٧). فمن المعروف هندسيا أن أي مثلث يمكن أن يشغله مـن الداخـل عشر دوائر متساوية، هذه الدوائر إذا وصلت مراكز الفراغات التي بينها، تحولـت إلى مسدسات متماسة، وبتوصيل مراكز المسدسات يمكن أن ينشـأ عنـها مثلثـات متماسة مرة أخرى. ولقد كان لهذا الشكل المثلث آثاره الجمالية بالتكوينات الزخرفيـة الإسلامية منذ مهد الحركة الفنية الإسلامية. فلقد تمثل في واجهـة قصـر المشـتى (١٢٣-١٣٣هـ/٧٤٠-٧٥٠م) حيث مثل هذا الشكل بتكراراتـه المختلفـة أساسـا هندسيا لتكوينات زخرفية نباتية ممتدة بامتداد الواجهة (ش١٨) كما وجـد بمصـر بالجامع الطولوني (٢٦٥هـ/٨٧٨م) متمثلا بنوافذ الجدار الشرقي منه، على هيئـة مثلثات متماسة تحصر بينها أشكالا مسدسة. وظل هذا الشـكل مسـتخدما كعنصـر زخرفي أو كأساس هندسي، أو كإطار لتكوينات عبر الزمان والمكان.

الأشكال الرباعية المنتظمة وغير المنتظمة :

اختصت العديد من المخطوطات بالذكر، الشكل المربع كشكل منتظـم إلـى جانب غيره من الأشكال الرباعية غير المنتظمة من أجل أن يتأسس فكر الفنان على الأسس العلمية لبناء الأشكال الهندسية خاصة الرباعية منها حيث يقول البوزجـاني "ينبغي أن نعلم أن ذوات الأضلاع منها ما له نظام، ومنها ما ليس له نظام، فأما مـا له نظام فهو ينقسم إلى أربعة أقسام، وهي المربع، والمستطيل، والمعيـن، والشـبيه بالمعين (متوازي الأضلاع)، فأما المربع فهو أن تكون أضلاعـه كلـها متسـاوية، وزواياه قائمة "[٣٤] (شكل١٩)، كما خصص البوزجاني في مخطوطة أخرى لـه[٣٥] بابا كاملا حول قسمة المربعات، وبابا آخر[٣٦] حول قسمة المربعـات وتأليفـها أي تركيبها وكيفية عمل أشكال مركبة منها وفيما يختص بقسمة المربعات أو الأشـكال الرباعية فقد عرض " البوزجاني " إلى كيفيات تقسيم مربع إلى نصفين بعدة طـرق، وتقسيم منحرف إلى نصفين وتقسيم متوازي أضلاع إلى نصفيـن، وغيرهـا مـن الأشكال وبأكثر من طريقة، وهي طرق هامة تيسر على الفنان الإبداع فـي كيفيـة تقسيم مساحاته داخل أي تكوين إلى مساحات أو أشكال هندسية.

أما فيما يختص بقسمة الأشكال الرباعية وتأليفها أو تركيبها، فقد ذكر "البوزجاني" أنه قد بين في " الأبواب التي تقدمت من هذا الكتاب عمل الأشكال بعضها في بعض وبعضها على بعض، وقسمتها على أنواع مختلفة. وما يكثر استعمال صناع لها، بما أرجو أن تكون فيه كفاية لمن له أدنى فهم ورياضة .. فأما في هذا الباب فأنا نذكر تقطيع الأشكال التي يكثر استعمال الصناع لها .. وهو قسمة المربعات وتأليفا وما يتركب منها، ونجعل لها قوانين يرجع إليها، فإن جميع ما يستعمله الصناع في هذا الباب بلا أصول يعمل عليها وجعل أولئك يقع عليهم الغلط فيما يقسمونه ويرتبنه "[٣٧]. كما ذكر البوزجاني طرقا أخرى في كيفية تقسيم المربع مثلا إلى عدة مربعات متساوية مثل : تسعة مربعات، أو أربعة مربعات، كما ذكر طرقا أخرى لصف وتداخل المربعات المتجاورة بطرق مختلفة وكيفية تشكيل تكوينات هندسية منها. وربما كانت هذه الطرق هي ذاتها التي كانت متبعة حين كانوا يعملون التكوينات الهندسية للمساحات المتجاورة ببلاطات رخام الوزارات. خاصة وأن هذه المخطوطة كانت موجهة ــ مع غيرها ــ إلى الصناع وذوي الصلة، حيث يقول البوزجاني : " إذا أردنا أن نعمل مربعا من ست عشرة أجرة، صففنا أربع أجرات في صف، وضممنا الباقي إليها حتى تصير مربعا واحدا "[٣٨] (ش ٢٠)، كما يذكر المؤلف طرقا أخرى فنية وبسيطة في كيفية تحويل الشكل الهندسي إلى شكل آخر حيث يذكر " أنا أردنا أن نعمل من أجرتين مربعا، قطعنا كل واحدة منها على قطرها فتصير أربعة مثلثات متساوية الأقطار، فإذا ركبت المثلثات على الزوايا القائمة صارت مربعا، ضلعه أقطار المثلثات[٣٩] وعند شرح كيفية عمل تكوين آخر من التكوينات الشائعة بالتكوينات الهندسية الزخرفية، يقول البوزجاني : " فإذ أردنا أن نعمل من ثمان مربعات متساويات مربعا، (يؤلف من الثمانية مربعات، مربعين، وبكل مربع منهما أربعة مربعات) .. ثم قطعناها على أقطارها فيصير أربعة مثلثات متساوية، فيعمل منها مربعا "[٤٠] وفي مثال آخر هام يبدو فيه الإبداع بصورة تطبيقية والفهم العميق لإحدى نظريات فيثاغورث، وكذلك القدرة على الابتكار في كيفية تحويل الأشكال الهندسية، وعمل تكوين مبتكر منها، حيث يقول " إذا أردنا أن نعمل من ثلاثة عشر مربعا، (مربعا واحدا)، فيكون مستطيلين (منها) مربعين من ستة مربعات، ثم قطعناها على قطريهما (ش ٢١)،

فيصير لنا أربعة مثلثات، طول كل مثلث منهما ثلاثة، وعرضه اثنان، وقطره جـــذر ثلاثة عشر (أي : ٣ + ٢ = ١٣)[٤١]، ويبقى من المربعات واحد، فإذا جعلناه فـــي الوسط وضممنا إليه المثلثات ويكون الجانب الأطول منهما إلى جانب المربـــع "[٤٢] صار الشكل كاملا.

وغير ذلك من الأمثلة التطبيقية الموجهة للصانع والمهندس والفنان المصمـــم أو المنفذ، والمتمثل بعضها في عمل مربع بثمانية عشر مربعـــا متســـاويات[٤٣]. أو عمل مربعا واحدا بعشرين مربعا[٤٤] (ش٢٢).

فلا شك أن هذه الدراسات الهندسية الخاصة بتقسيم المساحات المصنعة مـــن خامات مختلفة ثم تأليفها كانت ولا تزال موضع دراســـة هامـــة للفنـــان والمصمـــم والمنفذ، بل وتمثل طرقا مثالية تفيد في تقسيم المســـطحات الرخاميـــة أو الحجريـــة المكونة من بلاطات كبيرة أو صغيرة فيلجأ إلى تقطيع الكبير منها، أو إلى تجميـــع الصغير منها لعمل مسطحات كبيرة متعددة الأشكال والألوان. إن لجوء المصمـــم أو الصانع لمثل هذه المخطوطات تعد وسيلة هامة للحصول علـــى الحلـــول الهندســـية التطبيقية، الجمالية لأعماله الجدارية والفنية وحول الأهمية التطبيقيـــة لمثـــل هـــذه التطبيقات يذكر البوزجاني أنه : " قد غلط جماعة من المهندسين، والصناع في أمـــر هذه المربعات وتركيبها، أما المهندسون فلقلة درايتـــهم للعمـــل (التطبيقـــي)، وأمـــا الصناع فلخلوهم من علم البراهين (علم الهندسة) .. فإن الصانع غرضه ما يقـــرب عليه العمل، فتظهر له صحة ما يراه في الحس والمشاهدة ولا يبالي بـــالبراهين .. على أننا لا نشك في أن جميع ما يراه الصانع إنما هو مأخوذ مما يعملـــه المـــهندس أو لا. وأقام له البرهان على صحته، فإن الصانع والماسح إنما يـــأخذ مـــن الشـــيء زبدته "[٤٥].

فالأشكال الرباعية المنتظمة منها وغير المنتظمة كانت موضوع دراسة دقيقـــة بمختلف المخطوطات، وبصورة تطبيقية أفاد منها الفنان والصانع والمنفذ، منذ مـــهد الحركة الفنية التشكيلية الإسلامية بل أن هذه المخطوطات قد أفـــاضت كذلـــك فـــي الحلول التطبيقية " لذوات الأضلاع "، حيث يقول البوزجاني : " ينبغي أن نعلـــم أن ذوات الأضلاع الكثيرة، منها ما له نظام وترتيب، ومنها ما ليس له نظام وترتيـــب (أي غير منتظمة)، فأما ما له نظام وترتيب فهو : المتساوي الأضلاع، والمتســـاوي

الزوايا، وقد يمكن أن يعمل عليه دائرة (أي حوله)، وفيه دائرة، (أي بداخله)، فأما الذي ليس له نظام وترتيب فهو المختلف الأضلاع والمختلف الزوايا[٤٦].

الدائـــرة :

تعد الدائرة من الأشكال الهندسية ذات الأهمية الخاصة بإحكام وضبط التصميمات والتكوينات الهندسية عبر العصور وحتى العصر الحديث، الأمر الذي يؤكد دراسة المصمم والمنفذ المسلم لخواصها الهندسية، وهو ما يتأكد وينعكس بوضوح على تكويناته المختلفة منذ انتشارها على هيئة عناصر أو تكوينات وأهمية الدائرة كشكل هندسي ربما كانت الدافع لعلماء الرياضيات إلى الاستفاضة في دراستها، وإلى نشر هذه الدراسات عبر مخطوطاتهم. ففي دراسة لأبي الوفا البوزجاني المهندس يذكر أن : " الدائرة هي شكل يحيط به خط واحد في داخل نقطة (هي المركز)، وكل الخطوط الخارجية منها إليه متساوية (أي أنصاف الأقطار الممتدة من المركز إلى المحيط) وتلك النقطة يقال لها مركز، وذلك الخط يقال له محيط الدائرة ، وقطر الدائرة هو خط يمر بمركز الدائرة وينتهي في الجانبين إلى محيط الدائرة، وهو يقطع الدائرة لنصفين، (و الوتر) هو خط يقطع الدائرة ولا يمر بمركزها .." [٤٧]. كما يخص " البوزجاني " الدائرة بمزيد من الدراسة في مخطوطة أخرى[٤٨]، حول الدائرة وعلاقاتها بالأشكال الهندسية الأخرى تحت عنوان "عمل الأشكال في الدوائر" متضمنًا هذا الباب حلولاً هامة لكيفيات ضبط الأشكال الهندسية ورسمها بدقة تامة رغم اختلاف أشكالها وهو ما يشاهد شائعًا، بل يعد سمة دائمة للتكوينات الزخرفية المنتشرة على الآثار المختلفة ، فالدائرة كانت ولا تزال من أهم وسائل ضبط الأشكال هندسيًا، خاصة المنتظمة منها[٤٩].

وفي مخطوطة أخرى أحدث من مخطوطة البوزجاني تؤكد الأهمية الشديدة للدائرة عند رسم أي مضلعات، بعنوان " رسالة في أن الأشكال كلها من الدائـرة "، حيث يقول مؤلفها[٥٠] : " أن الدائرة سبب الأشكال والأشكال كلها موجودة فيها .. ينبغي أن نعرف أن الأشكال بخواصها كلها من الدائرة، والدليل على ذلك أن الدائرة مؤلفة من الأشكال ومن مقوماتها، أعني النقطة والخط والسطح، إذ النقطة مركزها، والخط هو .. بحركته مع ثبات أحد طرفيه وبحركة الطرف الآخر على سطح، إلى

أن يعود إلى موضعه تتكون الدائرة ". كما ذكر المؤلف أن الدائرة إذا لفت حول محورها يتكون الشكل الكروي، وأن الشكل الاسطواني يكون بدوران خط مستقيم على محيط دائرتين متوازيتين(٥١). وغير ذلك من الأشكال الناتجة عن حركة الدائرة أو المشتقة عن الدائرة، وكيفيات ذلك.

ويذكر أن جذور الاهتمام بالدائرة ترجع إلى قرون بعيدة حيث يقول إقليدس(٥٢)، " الدوائر المتساوية هي التي أقطارها مساوية لبعض "، وقد تضمنت مخطوطة(٥٣) إقليدس دراسة دقيقة لطرق رسم أشكال هندسية داخل وخارج الدائرة مثل طريقة عمل مربع داخل وخارج دائرة وغيرها من الأشكال متعددة الأضلاع(٥٤).

وحينما يشاهد المرء مختلف التكوينات الزخرفية الإسلامية، وما تمتاز به من دقة هندسية، مهما كان موقعها، سواء على التحف المنقولة الدقيقة الحجم، أم على جدران العمائر عملاقة الأبعاد، فإنه ينطبع لدى المتلقي أن هذه الدقة الهندسية التامة وما بها من فكر هندسي عميق، لابد وأن تكون قد تأسست ونفذت بأدوات هندسية متعددة حققت لها هذه الدقة الهندسية، وطوعت لها هذا الفكر الرياضي بصورة تطبيقية. إن التكوينات الزخرفية وخاصة الهندسية منها الممتدة على مختلف التحف المنقولة وجدران العمائر وصفحات المخطوطات قد ضمت الأضلاع المستقيمة والمتباعدة عن بعضها بزوايا دقيقة القياس، كما ضمت المحيطات المستديرة بما بها من دقة هندسية تؤكد استخدام الفنان لأدوات هندسية خاصة برسم المستقيمات، وأخرى خاصة برسم الدوائر أو قياس الزوايا، وهي أدوات أسهمت في ضبط وتدقيق التكوينات الزخرفية، بل ويمكن القول بأنها أدوات قد أسهمت بصورة مباشرة في تأسيس الفكر الهندسي للفنان ــ عبر العصور الإسلامية ــ على الدقة الهندسية التي أثرت بدورها في بناء شخصيته.

ولقد أوردت بعض المصادر المخطوطة ما يشير إلى وجود مثل هذه الأدوات الهندسية وإلى استخدامها من أجل ضبط رسم وتنفيذ الأشكال الهندسية ومختلف التكوينات(٥٥).

ثالثا : القيم الدينية وفنون الحضارات المحيطة :

لقد كان الفنان المسلم ــ شأنه شأن كل مسلم ــ يمضي في أعماله متأثرا باتجاهات داخلية فكرية ووجدانية تستمد دوافعها من القيم الإسلامية التي نشأ عليها، ومن الدين الحنيف الذي اعتنقه. ولقد كان لهذه القيم الإسلامية أكبر الأثر في تركيب وتوجيه فكر الفنان وإحساسه بطريقة تتفق مع المبادئ الإسلامية بأوامرها ونواهيها(٥٦).

فلقد كان للقيم الدينية أثرها على القيم الجمالية في أعمال الفنان المسلم، وهو ما أحكم أسلوب الفنان في اتجاه تجريدي فريد حيث تحول أسلوب الفنان من التكوينات الطبيعية المحاكية للواقع(٥٧) وشديدة التأثر بفنون الحضارات الشرقية والغربية المحيطة به في مهد الحركة الفنية الإسلامية والتي استمرت قرابة قرن من الزمان، خلال حكم الأمويين بالشرق (٦٦١-٧٥٠م)، وهو الأسلوب الذي تحول تدريجيًا إلى التكوينات التجريدية المتوافقة مع أفكار الفنان وأحاسيسه النابعة عن عقيدته التي نشأ عليها وهو الأسلوب الذي توارثه الفنانون ــ فيما بعد ــ من جيل إلى آخر. فلم يحاك الطبيعة بل جردها وأضاف إليها، ورسبها إلى نسبها وأصولها الهندسية وإلى قيمها الجمالية التي أفاد منها الفنان في أعماله فكانت هذه الخصائص دافعة به في اتجاه فني محدد قوامه التبسيط والتجريد كأسلوب صاغ به كل عناصره الطبيعية، بعيدًا عن التقليد والمحاكاة، وهو أسلوب يعد حاليًا بالقرن العشرين من أهم الاتجاهات الفنية المعاصرة، من منطلق أن الفن تعبير وليس تقليد أو محاكاة(٥٨). ولم يكن للفنان المسلم أن يصل إلى هذه الثورة الفنية المتمثلة في اتجاهه التجريدي دون دعوى الإسلام إلى التأمل والتحليل واكتشاف الجمال الكامن في قيم الطبيعة وأشكالها ونسبها وقوانينها ونظمها، وفي ذلك تعبير عن خشوع الفنان أمام عظمة الله في خلقه، فضلا عن الدعوة إلى الابتعاد عن تشبيه كل ما فيه روح، فلقد كان لترك تصوير ذوات الأرواح ــ للشبهة فيها ــ أثره في الاتجاه نحو التجريد والزخرفة، الأمر الذي أفرز لون من ألوان الفن إسلاميًا خالصًا لم تعرف فنون العالم والحضارات مثيلا له في إبداعاتها.

كما كان لفنون الحضارات المحيطة أثرها في توجيه فكر الفنان وأسلوبه، وهي الفنون التي تمثلت بعض عناصرها ــ في أعماله كتأثيرات واضحة يمكن تمييزها والإشارة إليها عبر العصور المختلفة.

فلقد نشأ الفنان المسلم في بيئة فنية وعلمية زاخرة بتراث مختلف الحضارات المحيطة به والسابقة عليه، كحضارات الشرق الساسانية والصينية والهندية، وحضارات الغرب الإغريقية والرومانية ، فضلا عن حضارات مصر والشام ما قبل الإسلام.

لقد خلف الفنان المسلم عبر العصور الإسلامية تراثا على درجة كبيرة من التنوع وذلك منذ مهد الحركة الفنية التشكيلية الإسلامية والمتمثلة في بعض الأعمال الفنية والمعمارية التي لا تزال باقية كقبة الصخرة بالقدس (٧٢هـ)، والمسجد الأموي بدمشق (٨٨-٩٦هـ). وهي تعكس مدى استفادته من مناهج وأصول وأسس هذه الفنون التي تنتمي للحضارات المجاورة له، وكذلك قدر ما أبدعه من تطور في أساليب وأسس أعماله الفنية، الأمر الذي أفرز ـ عبر العصور الإسلامية ـ أسلوبًا فنيًا له طابعه العام الذي ميزه عن غيره من أساليب تلك الحضارات التي تأثر بها في مهد الحركة الفنية التشكيلية الإسلامية مندفعًا ـ في إطار هذا الأسلوب ـ إلى مصاف إبداعية راقية، ازدادت رقيًا وإبداعًا عبر العصور الإسلامية، كما ازدادت بعدًا عن تلك التأثيرات والأصول، وانفرادًا بأسلوبها المميز. وذلك رغم استمرارية توافد بعض التأثيرات عبر العصور الإسلامية[٤٩].

فلقد تربى الفنان المسلم في مناخ فني تكون خلال عدة عصور، وكانت فنون الحضارات المختلفة بمصر والشام والعراق وفارس وغيرها بمثابة حقل خصب ترعرعت فيه فنون العصور المختلفة، ونشأ الفنان فوجد أمامه المنهل الذي نهل منه ما شاء من أساليب وعناصر وتصميمات وأسس معمارية، أخذها وأضاف إليها وحذف منها ثم صاغها، أو مزج بين أكثر من عنصر منها ثم أعاد صياغتها، أو ربما استمدها من الطبيعة مباشرة بعد تأملها ثم جردها ورسبها إلى أصولها الهندسية والجمالية حتى وصل بها إلى أرقى المصاف الإبداعية عصرا بعد عصر.

فكانت فنون الحضارات السابقة منهلا استقى منه الكثير من التأثيرات، وكانت الأسس الجمالية والفنية لفنون العصور الأولى في الإسلام بمثابة اللبنات التي

تأسست عليها فنون العصور اللاحقة المزدهرة، ومصدر استيحاء للأعمال الفنية المختلفة.

من ثم فقد كان فكر الفنان موجها وفق بعض التأثيرات الراسخة والمتمثلة في القيم الدينية الإسلامية بأوامرها ونواهيها، وكذلك في التأثيرات الفنية التي وفدت عبر فنون الحضارات السابقة عليه والمعاصرة له فضلا عن تأثيره، بما توافر له من المصادر العلمية مع انتقال هذه المعرفة بين الولايات المختلفة والتي مهدت لدراسة القوانين الهندسية وتطبيقها والتي كان لها الأثر في التأثير على الشخصية الفنية الإسلامية وهي لا تزال في مهدها والتي أسهمت في إحكام توجيهها عبر عصورها.

نتائج البحث :

- هناك أصول هندسية وفنية أثرت في القائمين على النهضة الفنية الإسلامية وعلى رأسهم المعماري والفنان المصمم، اللذان كانا لهما الفضل الأكبر في إبراز وتأكيد الشخصية الفنية الإسلامية.
- مثلت المصادر العلمية وانتقال المعرفة أحد أهم الأصول الهندسية والفنية التي أثرت في تأسيس الشخصية الفنية الإسلامية، حيث دفعت بأصول الرسم والتصميم خطوات إلى الأمام من خلال المخطوطات التي كانت موجهة إلى المهندس والفنان والصانع، الذي انعكس بوضوح على تكويناته الزخرفية، التي اتسمت به من تجريد هندسي ميز الطابع العام للتكوينات الزخرفية خاصة النباتية منها.
- إن دراسة وتطبيق القوانين الهندسية مثلت كذلك واحدة من أهم الأصول الهندسية التي أثرت في تشبع فكر الفنان المسلم ووجدانه بالطابع الهندسي الذي انعكس بدوره على تكويناته الزخرفية من حيث الدقة الهندسية والتجريد كطابع عام. وذلك إلى جانب ما أسهمت به الأدوات الهندسية في ضبط رسم وتنفيذ الأشكال الهندسية ومختلف التكوينات.

- أثرت القيم الدينية بأوامرها ونواهيها في إحكام توجيه فكر الفنان وهو الأمر الذي انعكس جليًا على أعماله الفنية وما اتسمت به من بعد عن التجسيم والاستغراق في التبسيط والتجريد كما تمثلت إحدى الأصول الهندسية والفنية في فنون الحضارات المحيطة، متمثلة فيما وفد من تأثيرات فنية عبر العصور المختلفة، والتي كان لها أثرها خاصة في مهد الحركة الفنية الإسلامية بالقرون الأولى للإسلام.

المصادر المخطوطة :

- أبو الثناء شمس الدين محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني (ت: ٧٤٩هـ) : مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار، ألفه للناصر محمد بن قلاوون، من فهرس برلين رقم (١٧٧٧)، كشف الظنون رقم (١٧١٥، ١١١٦).
- أبو الوفا البوزجاني المهندس (محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، ت٣٨٧هـ)، رسالة فيما يحتاج إليه الصانع من أعمال الهندسية، مخطوطة بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٣١٠٢٤) عمومية، رياضة (٢٦٠) خصوصية.
- رسالة فيما يحتاج إليه العمال والكتاب، محفوظة بمكتبة مخطوطات جامعة الكويت تحت رقم (٢٥٠٨) فهرس برلين.
- إقليدس : كتاب أقليدس في الأصول، نقل إسحق حنين، وإصلاح ثابت بن قرة، فهرس شستر بيتي رقم (٣٠٣٥/١).
- محمد أبو نصر محمد أوزاغ بن طرخان الفرابي (٢٦٠-٣٣٩هـ) : كتاب الحيل الروحانية والأسرار الطبيعية في دقائق الأشكال الهندسية، مخطوطة محفوظة على ميكروفيلم لدى د. محمد عيسى صالحيه، جامعة الكويت، ولم يستدل على مصدر ومكان هذه الصورة مؤرخة في حادي عشر رجب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.
- نصر بن عبدالله : رسالة في أن الأشكال كلها من الدائرة، مخطوطة رقم (٢٥١٩/٣٩) بمكتبة معهد إحياء المخطوطات العربية، من مكتبة خدا بخش بتنه، مؤرخة في سنة ٦٣٢هـ بفيلم رقم (١٩٦/٣١٣٧).

المصادر المطبوعة :

- القرآن الكريم.
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن احمد) : بدائع الزهور في وقائع الدهور، المشهور بتاريخ مصر، ٣ج، بولاق، (١٣١١/١٣١٢هـ).
- ابن القفطي : أخبار العلماء باخبار الحكماء، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، المجلد الأول، القسم الرياضي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ.

- عبدالرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبدالواحد، الطبعة الثانية، (١٣٨٧هـ).
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) : الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢ج، بغداد.

المراجع العربية :

- أحمد سليم سعيدان : تاريخ علم الحساب العربي، تحقيق لكتاب المنازل السبع لأبي الوفا البوزجاني، ج١، حساب اليد، عمان، ١٩٧١م.
- الدوميلي : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، دار القلم، جامعة الدول العربية.
- الكسندر بابا دوبولو : جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة علي اللواتي، تونس، ١٩٧٩م.
- جورج سارتون : تاريخ العلم، الكتاب الأول، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.
- السيد عبدالعزيز سالم : المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، المطابع الأميرية، ١٩٥٩م.
- عبدالحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧.
- علي عبدالله الدفاع : الموجز في التراث العربي الإسلامي، نيويورك، ١٩٧٦م.
- عماد الدين خليل : الطبيعة في الفن العربي والإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م.
- عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.
- قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، الطبعة الثالثة، دار العلم، جامعة الدول العربية، ١٩٦٣م.
- لانسلوت هو جين : الرياضة للمليون، ج١، مكتبة الشرق، القاهرة، ١٩٥٧م.
- محمود عبدالجواد : تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

الهوامش :

١- الشخصية الفنية الإسلامية لها أصولها البنائية منها والوافدة وهي دعامة الانطباع العام الذي ينضح عبر الزمان والمكان، وهو الانطباع الذي قد يتغير من فترة زمنية لأخرى نتيجة لتأثيرات قد تفد لتحدث إما تأكيد الشخصية الفنية وإما تعديلها أو تغييرها.

٢- لقد كان " هارون الرشيد " (٧٨٦-٨٠٩م) يقبل الجزية كتبًا، بينما المأمون (٨١٣-٨٣٣م) يدفع وزن ما يترجم ذهبًا، عن د. علي عبدالله الدفاع، الموجز في التراث العربي الإسلامي، ص٢٠٤.

٣- سورة العلق، آية (١).

٤- سورة المجادلة، آية (١١).

٥- سورة فاطر، آية (٢٨).

٦- اهتم " خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ... (ت: ٩٠هـ/٧٠٨م) ... بعلمي الطب والكيمياء في بداية الأمر وطلب من اسطفانوس وماريانوس أن يترجما إلى اللغة العربية كل المؤلفات التي تتعلق بهذين الميدانين "، المرجع السابق، ص١٨.

٧- كانت مدينة بغداد مركزًا للعلوم والمعارف في ظل الخلافة الإسلامية .. وأسس الخليفة المأمون .. بيت الحكمة .. (الذي كان جامعة ومجمعًا علميًا وأدبيًا ودار للترجمة .. وهو أهم معهد تربوي منذ تأسيس مكتبة الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي .. وقد أمر الخليفة المأمون بترجمة جميع مؤلفات الإغريق إلى العربية (فضلا عن) مؤلفات بطليموس واقليدس وأرسطو (التي) انتقلت آخر الأمر إلى الجامعات الإسلامية "، المرجع نفسه، ص١٩.

٨- عرف من المسليمن علماء خلد التاريخ أسماءهم، مثل : جابر بن حيان (١٢٠-١٩٨هـ) في الكيمياء، والبيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ) في الرياضيات، وابن سينا (٣٧١-٤٢٨هـ) في الطب، والحسن بن الهيثم (ت: ٤٣٠هـ) في البصريات والضوء، والكندي (١٨٥-٢٥٢هـ) في الهندسة، وثابت بن

قرة (٢٢١-٢٨٨هـ) في الهندسة، وأبو الوفا البوزجاني (٣٣٠-٣٨٨هـ) في الهندسة والرسوم والأدوات الهندسية، قدري طوقان، تراث العرب العلمي، ص٤٠، ٥٧، ٢٢٧.

٩- هو علم قديم ترجع نشأته إلى أكثر من سبعة آلاف سنة، " فقد رأى كثير من مؤرخي الرياضيات أن علم الهندسة مصري الأصل، وقد استعمله المصريون القدماء في قياس الأسطح والارتفاعات والأعماق وبناء السدود .. وفي المتحف البريطاني بلندن مخطوطة مصرية قديمة كتبها أحمس يرجع تاريخها إلى ما قبل (سبعة آلاف سنة)، وتحتوي على معادلات وقوانين لمعرفة مساحة الحقول "، المرجع السابق، ص٦٩-٧٠.

١٠- ألف أبو الوفا البوزجاني (٣٣٠-٣٨٨هـ) العديد من الكتب والرسائل في مجال الهندسة والرسم والأدوات الهندسية، والتي أفادت كثيرًا الفنان والصانع والمهندس والعالم وغيرهم، فمن مؤلفاته كتاب في عمل المسطرة والبركار والكونيا و"كتاب فيما يحتاج إليه الصانع من أعمال الهندسة " ورسالة في " الرسم الهندسة هي " فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال ".

١١- لقد كان لعلم الهندسة أثره الكبير في تنمية فكر ومهارة كل من عاش بالحقل الفني، فلقد كان ــ على سبيل المثال ــ أبو الفضل المهندس (مؤيد الدين)، (٥٢٩-٥٩٩هـ) في أول الأمر نجارًا ونحاتًا للحجارة .. ورأى أن يتعلم هندسة إقليدس ليزداد في صناعة النجارة جودة، ويطلع على دقائقها .. فتعلمها وفهمها فهمًا جيدًا، قدري طوقان، ص٣٧٥، الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٨٤.

١٢- على سبيل المثال كان الناصر محمد بن قلاوون من أخلص الحكام رعاية للعلم والعلماء وللفن والفنانين، ومن أعظم الملوك شغفا بالتشييد والبناء، وقد اقتدى به أتباعه من أمراء دولة المماليك البحرية، في العناية بتأسيس المباني والتأنق فيها فلقد كان الناصر محمد " محبا للعمارة وبلغ مصروف العمارة في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم عنها ثلاثمائة وخمسون دينارًا، سوى من يسخره من المقيدين وغيرهم في عمل ما يعمره "، المقريزي، الخطط،

ج٢، ص٣٠٦؛ كما يقول ابن إياس عنه "ولا يعلم لأحد من الملوك أثاره ومثله مماليكه"، بدائع الزهور، ج١، ص١٧٣.

١٣- يروى أن الحسن بن الهيثم (٣٥٤-٤٣٠هـ) قال " لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملا يعود بالنفع الجزيل على سكانها والعالم أجمع، وذلك بالسيطرة على فيضان مياه النيل .. (فاستدعاه الحاكم بأمر الله الفاطمي) وعهد إليه في تنفيذ ما كان يقوله .. فأجرى ابن الهيثم الدراسات اللازمة على مجرى النيل حتى وصل إلى أسوان فوجد أن المصريين قد قاموا بإنشاءات كبيرة هناك ولا مجال لإضافة شيء إليها " الدفاع، الموجز، ص٣٢ ؛ كما أن هناك " الكرماني (أبو الحكم عمرو ت: ٤٥٨هـ) من أهل قرطبه. كان من الراسخين في الهندسة والعدد، (رحل إلى ديار الشرق، وعني في بلاد الجزيرة بالهندسة والطب ثم رجع إلى الأندلس .. وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا "، قدري طوقان، تراث العرب العلمي، ص٣٣٥؛ وكذلك " ابن الشاطر " (أبو الحسن علاء الدين) من أهل دمشق (٧٠٤-٧٧٧هـ) عالم بالفلك والهندسة والحساب، ويقال له المطعم لاحترافه في صغره تطعيم العاج ورحل إلى مصر والإسكندرية "، الدفاع، الموجز، ص٤٣٨؛ وأبو العباس شهاب الدين " المعروف بابن الهائم المصري من كبار علماء الرياضيات، مصري المولد، ولد فيها سنة (٧٥٣هـ) ثم انتقل إلى القدس (ت: ٨١٥هـ)، المرجع نفسه، ٤٣٩.

١٤- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، د. علي عبدالواحد، ج٣، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص١١٢٥.

١٥- على سبيل المثال، وجد مؤلف باسم الناصر محمد بن قلاوون ألفه أبو الثناء شمس الدين محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني (ت: ٧٤٩)، من فهرس شستر بيتي.

١٦- محمد عبدالجواد الأصمعي، تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام، ص١١١.

١٧- وهي عناصر نباتية استخدمت وهي في أقرب صورة إلى أصلها الطبيعـــي، وتمثلت ــ على سبيل المثـــال ــ فـــي عنـــاقيد العنـــب وأوراقـــه، وأوراق الأكانتس، والشجيرات والأزهار، التي شاعت على نطاق محدود منذ أواخـــر القرن الثالث عشر بسبب بعض التأثيرات ــ المغولية والصينية التي وفـــدت إلى مصر وسوريا، فظهرت على بعض المشكاوات ضمن عناصر بعـــض التكوينات الجدارية.

١٨- تمثل بعض هذا التراث الهندسي ذو الأهمية المباشرة على الفنان المسلم عبر العصور الإسلامية في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وخاصـــة القســـم الرياضي منها، الذي تأثر بشـــدة بـــالأعداد وأهميتـــها المتـــأثرة بطريقـــة الفيثاغوريين " فيثاغورث بن منيسارخوس .. (الذي التمس) في مصر مـــلاذا حيث عاش كثير من الساموسيين .. مصر التي كانت تعـــد حينـــذاك مـــهد التعاليم المضنون بها، فانتقل إليها ومكث بها ما لا يقل عن اثنى عشر عامـــا يدرس الفلك والهندسة .. " جورج سارتون، تاريخ العلـــم، الكتـــاب الأول، ص٤١٦-٤١٧ ، وإخوان الصفا قد اعتبروا العـــدد أصـــل الموجـــودات . ورسائلهم الرياضية أربع عشر رسالة أ همها الرسالة الأولـــى فـــي العـــدد وماهيته وكميته وكيفية خواصه، وكان " رياضو العرب يرون فيـــها تســـلية فكرية ومتاعا عقليا " د. عبدالحليم منتصر، تـــاريخ العلـــم، ص١١١. أمـــا الرسالة الثانية فهي في الهندسة التأليفية، وكمية أنواعها .. والغرض منـــها .. الوقوف على أن الموجودات المختلفة القوى المتباينـــة الصـــور المتنـــاظرة الطباع إذا جمع بينها على النسبة المتعادلة، انتقلت وصحت وبقيت ودامـــت، وإذا كانت على غير النسبة المتعادلة اضطربت وتنافرت حتـــى اضمحلـــت وفنيت .. " المصدر نفسه، ص٢٣،٢٤، وهي أسس هندسية هامـــة تتطـــابق تماما مع العناصر الفنية وكيفية توزيعها داخل التكوين، بل تمثـــل الأســـاس الهندسي للتكوين كما اهتم رياضيو العرب (بالمربعات الســـحرية magic squares) التي كانوا يرون فيها تسلية فكرية ومتاعا عقليا " عن عبدالحليـــم منتصر، تاريخ العلم، ص١١١، وهي المربعات التي قامت فكرتها على فـــهم حساب الأعداد، وإدراك ما لها من أهمية في فهم تأمل تراكيب التكوينـــات،

وما يرتبط بها من معاني التضاد والتكامل والاتزان. وهي المربعـات التـي ربما أسهمت في خلق مجال خصب للفنان لاسـتيحاء الأشـكال الهندسـية ودراسة كيفية توزيعها واتزانها داخل التكوين. فإذا " جمع بين بعض الأعداد وبين بعض الأشكال الهندسية : ظهر منها خواص أخر لا يتبين فـي كـل واحد منها بمجرده " اخوان الصفا، ص١٠٩، وهذا القول يعد بمثابة دعـوة صريحة للفنانين للاستفادة من ترتيب الأعداد وتحويلها إلى أشكال هندسـية، وذلك عن طريق توصيل الأرقام التي تضمنتها المربعات السحرية أفقيـا أو رأسيًا أو على اتجاه القطر، سواء بخطـوط مسـتقيمة أو منحنيـة، وطبقـا لتسلسل الأرقام أو دون تسلسل لكن مع فارق منتظم، وينتج عنـها أشـكال هندسية تامة الاتزان والتماثل. وهي هامة في تعلم المعنى التطبيقي للاتـزان والتماثل وغيرها من القيم الجمالية التي يلتزمها الفنان عند بناء أي تكويـن، والتي ربما اهتدى إليها الفنان وتعلمها من خلال تأمله لهذه ا لمربعات إلـى جانب غيرها " لانسلوت هوجبه، الرياضة للملبون، ج١، ص١٩٦.

١٩- قدري طوقان، العلوم عند العرب، ص٦٠.

٢٠- المرجع السابق، ص٦١.

٢١- المرجع السابق، ص١٤٨، ١٤٩.

٢٢- المرجع السابق، كما كان الفارابي (٨٧٢-٩٥٠م) " منتجا إلى أبعـد حـدود الإنتاج فقد أخرج للناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد على المائة .. (فـي) المنطق والعدد والهندسة، ويمكن القول أن مؤلفات الفارابي مهدت السـبيل لظهور ابن سينا (النصف الثاني من القرن العاشر ــ ١٠١٣م)، وابن رشـد (١١٩٨م) عن المرجع نفسه، ص١٤٧.

٢٣- د. عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص١١٢.

٢٤- " أبو الوفا البوزجاني " محمد بن محمد بن يحيى إسماعيل بن عباس. ولـد في وزجان من بلاد نيسابور (هي بلد صغيرة بين هراه ونيسـابور، راجـع معجم البلدان، مجلد١، ص٣٠٢)، في ١٠ رمضان سنة ٣٢٨هـ/يونيو سـنة ٩٤٠م، وانتقل إلى العراق وعاش في بغداد (٣٤٨هـ/٩٥٩م) ومات سـنة

(٣٨٤هـ/٩٩٧م) د. أحمد سليم سعيدان، تاريخ علم الحساب العربي، تحقيق لكتاب المنازل السبع لأبى لوفا البوزجـــاني، ج١، ص٥٨، حســاب اليــد، عمان، ١٩٧١م. وراجع ابن القفطي، أخبـــار العلمـــاء بأخبـــار الحكمـــاء، ص١٨٩م، والدوميللي، العلم عند العرب، ص٢١١.

٢٥- فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال، ص٣٤.

٢٦- فيما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة، الباب الثالث، ص٢٢-٣٠.

٢٧- المصدر نفسه، ص٣٠-٣٩.

٢٨- المصدر نفسه، ص٤٣-٥٧.

٢٩- المصدر نفسه، ص٥٧-٦٣.

٣٠- ج١، القسم الرياضي، ص٩١.

٣١- فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال، ص٤٠.

٣٢- المصدر نفسه، ص٤٤.

٣٣- المصدر نفسه.

٣٤- فيما يحتاج إليه العمال، الفصل الرابع، ص٤٧، حاشية (٤).

٣٥- فيما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة.

٣٦- المصدر نفسه، البابين التاسع والعاشر، ص٦٣-١٠١.

٣٧- المصدر نفسه، ص٧٧، ٧٩. جدير بالذكر أن هذا النص سالف الذكر مأخوذ كاملا عن : مخطوطة " الحيل الروحانية والأسرار الطبيعيـــة فـــي دقـــائق الأشكال الهندسية " للفارابي، مؤلفه وكتابه، مـــن المقالـــة السادســـة وهـــي مخطوطة، مؤرخة في (سنة ٣٢١هـ) بينما أبو الوفا ابوزجاني ولـــد فـــي (سنة ٣٢٨هـ). وجدير بالذكر أن مخطوطة الفرابي غير مرقمة الصفحـات وأن نص مخطوطة البوزجاني يطابق نص مخطوطة الفرابي، إلا أن كلمـــة "الأبواب " المذكورة في مخطوطة البوزجاني يقابلها كلمة " المقالات " فـــي مخطوطة الفارابي.

٣٨- فيما يحتاج إليه الصانع من أعمال الهندسة، ص٨١.

٣٩- المصدر نفسه، ص٨٣.

٤٠- المصدر نفسه.

٤١- نظرية فيثاغورث : " في المثلث القائم الزاوية يكون المربع المنشأ على الوتر يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الأخريين ".

٤٢- فيما يحتاج إليه الصانع، ص٨٣.

٤٣- المصدر نفسه، ص٨٦.

٤٤- المصدر نفسه، ص٨٨.

٤٥- المصدر نفسه، ص٨٩-٩٠.

٤٦- فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال، الفصل الرابع، ص٥١.

٤٧- المصدر نفسه، ص٣٥.

٤٨- فيما يحتاج إليه الصانع من أعمال الهندسة، الباب الرابع، ص١٦-٢١.

٤٩- على سبيل المثال يذكر المؤلف " أن الصناع يعملون الأشكال في المدورات وعليها بالقسمة، وذلك أنهم إذا أرادوا مثلا أن يعملوا في دائرة مخمسًا قسموها بخمسة أقسام متساوية ووصلوا بين مواضع القسمة .. فيكون قد عملوا في الدائرة مخمسًا متساوي الأضلاع .. وهذا العمل ليس بمرض عند المهندسين، ولا عند الصناع الحذاق .. فإن الذي يعمل بالقسمة يتعب في فتح البركار وضمه ودفعات كثيرة، ولا يصل إلى ما يريد إلا بمشقة ولا يخرج إلا بالتقريب، فإذا كان الأمر على ما ذكر فيجب أن نسلك في استخراج هذه الأشكال طريقًا صناعيًا (يعرف) بالطرق الهندسية ". عن : كتاب فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال، الفصل الرابع، ص٣٠. وهذا النص مأخوذ عن الفرابي، مخطوطة الحيل، المقالة الثالثة. ويستفاد من هذا النص أن رسم الأشكال الهندسية المنتظمة داخل الدوائر كان ينفذ بأكثر من طريقة، فالصناع كانوا يعتمدون على تقسيم المحيط إلى عدد من الأقسام مساو لعدد أضلاع الشكل المراد رسمه داخل الدائرة بينما كان الصناع ــ الذين ربما كانوا يتلقون قدرًا أكبر من العلم ــ وكذلك المهندسين كانوا يرسمون

الأشكال داخل الدوائر بطرق أكثر دقة وبساطة، وهي الطرق التـــي اتبعـــها مؤلف هذه المخطوطة.

٥٠- نصر بن عبدالله، مكتبة معهد إحياء المخطوطـــات العربيـــة، فيلـــم (١٩٦)، مخطوطة ٢٥١٩ (٣٩)، مخطوطة مؤرخة في سفر من شهور ســـنة ٦٣٢ بالموصل.

٥١- المصدر نفسه، ص٢٨٢.

٥٢- من مشاهير العلماء الذين دعوا من أثينا إلى جامعة الإســكندرية (ت: نحـو ٢٧٥ ق.م). عن : عمر فروخ، تاريخ العلـــوم عنـــد العـــرب، دار العلـــم للملايين، بيروت، ١٩٧٠، وراجع : ابـــن خلـــدون، المقدمـــة، ص١٣٢١، حاشية ٤٥١ ب.

٥٣- كتاب تحرير إقليدس في الأصول، من فهرس شستربيتي، مخطوطة، ص(ك د).

٥٤- المصدر نفسه، ص٢٥-٢٧.

٥٥- تمثلت هذه الأدوات الهندسية في : أ- البركـــار : وهـــي آلـــة تشـــبه فـــي استخدامها آلة الفرجار المستخدم حاليًا في عمل الدوائـــر والأقـــواس، إلا أن البركار يعد أكثر شمولاً وطواعية في استخدامه من الفرجار، لما لـــه مـــن قدرة على أداء أكثر من وظيفة، ولطواعيته في الاستخدام علـــى مســـاحات كبيرة عند استخدام المصمم له. فقد ورد ذكر البركار في مخطوطـــة لأبـــي الوفا البوزجاني المهندس في كتاب فيما يحتاج إليه الصـــانع مـــن أعمـــال الهندسة، الباب الأول، ص٣، ٤. وقد تضمن هذا الذكر وصفا ورسمًا دقيقـــا لبركار كان مستخدمًا في ذلك الوقت مـــن القـــرن (٤هـــ)، ويقـــول عـــن استخداماته "فأما البركار فإنه كان يحتاج إليـــه لرســـم المـــدورات وقســـمة الأعمال (أي تقسيم المسافات)، وأخذ المقادير المتساوية (أي تحديد الأبعـــاد المتساوية)، كما ذكر: " أن هذا البركار يضطرب عند العمل، ولأجـــل ذلـــك احتجنا أن نذكر البراكير الدولابية وهي ما كـــان مركبـــا علـــى مســـاطر " (ش٢٤). وكذلك، ب-المسطرة: يذكر البوزجاني " أعلم أن صحة الأعمـــال واستوائها بصحة ثلاثة أشياء وهي : المسطرة والبركار والكونيا (أي المثلـث

قائم الزاوية)، فأما المسطرة فالمراد منها إيجاد خط مستقيم لا عوج فيه، وهو على ما قاله أرشميدس : أنه أقصر خط بين نقطتين ..، فإذا كان لنا مسطرة، وكان حرفها على خط مستقيم، كانت تلك المسطرة صحيحة. وهذه المساطر تستعمل فيما قصر من الرسوم والخطوط، فأما إذا طال فإن رسما يكون بالخيوط (ش٢٥)، عن المصدر نفسه، ص٣. ج- الكونيا (المثلث قائم الزاوية) حيث يقول البوزجاني : " أما الكونيا فهي زاوية قائمة، ويحتاج إليها في تربيع المواضع، وإصلاح الزوايا للأبنية "، أي لتحقيق استقامة الزوايا وجعلها قائمة وذلك سواء في مرحلة التصميم على الرق أو الورق، أو في مرحلة التنفيذ على الطبيعة، وذلك كان يمثل رسالة هامة للمصمم والمعماري من أجل استخدام الكونيا.

٥٦- وهي الأوامر والنواهي التي أثرت في البعد عن التجسيم أو التصوير ذو الأبعاد الثلاثة، وينسحب ذلك على تصوير البشر، الأمر الذي فتح أفاقًا جديدة ليبدع من خلالها الفنان المسلم أنواعًا جديدًا من الفنون في مجالات عدة تمثل أهمها في استلهام الطبيعة ثم تحويرها ثم التعبير عنها، خاصة وأن العديد من آيات القرآن تدعو إلى التأمل في خلق الله وإبداعاته وإلى إعمال العقل والتفكير في خلقه تعالى الخالق البارئ المصور، أي تأمل هذه الطبيعة واستلهام جمالياتها وفنونها. كما كان للمحاذير المحرمة للتجسيم أثرها في فتح مجالاً رحبًا للفنان المسلم، قد تمثل في إبداع أرق وأجمل الأساليب الفنية الإسلامية المتمثلة في التجريد وتكوينات الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية. فكانت لأوامر الإسلام ونواهيه أثرها في إبداع أساليب فنية راقية ظلت عبر الزمان والمكان تمثل أهم سمات الفنون الإسلامية وهي السمات التي تميزها عن سائر الفنون الأخرى.

٥٧- كما هو متمثل في التكوينات الجدارية بقبة الصخرة (٧٢هـ)، والمسجد الأموي (٨٨-٩٦هـ)، وقصير عمرا (٩٦هـ)، وقصر المشتى (١٢٣-١٣٣هـ)، وغيرها من العمائر الأموية التي لا تزال باقية.

٥٨- أكد فيلسوف التربية الأمريكي جون ديوى على أن النشاط الفني ليس مجرد تلقائية طبيعية بل هو تنظيم وصياغة، ولهذا يقرر أن الفن ليس هو

الطبيعة، وإنما هو الطبيعة معدلة .. كما يرفض نظرية التقليد .. أو تكرار الواقع تكرارًا حرفيًا، (عماد الدين خليل، الطبيعة في الفن العربي والإسلامي، ص٢٩). ويقول بابلو بيكاسو أحد كبار الفنانين المعاصرين : " إن الطبيعة والفن لهما ظاهرتان مختلفتان تمام الإختلاف " (المرجع نفسه، ص١١). كما يقول الكسندر بابا دوبولو : " إن الفنان المسلم قد اخترع جمالية الفن الحديث قبل ستة أو سبعة قرون " (جمالية الرسم الإسلامي، ص٦).

٥٩- فلقد كانت مصر ــ على سبيل المثال ــ في عصر المماليك البحرية ملجأ للفارين من الفنانين أمام الغزو المغولي بالشرق، وملاذًا للقادمين نتيجة هزائم المسلمين من الغرب كما وقد تسربت التأثيرات الفنية الأندلسية إلى مصر نتيجة لكونه العصر الذي توثقت فيه عرا الصداقة بين مصر وأسبانيا، حيث " كانت العلاقات طيبة للغاية بين ملوك بني الأحمر بغرناطة وسلاطين مصر. وكان من نتائج هذه العلاقات أن زار مصر عدد كبير من أهل غرناطة. وكانت حركة الاسترداد الأسباني قد أوشكت أن تجهز على دولة الإسلام بالأندلس التي انكمشت رقعتها بعد هزيمة المسلمين .. فهاجر إلى المشرق عدد كبير من أهل الأندلس عند سقوط مدنهم .. وليس من شك أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين بعض الصناع وأرباب الحرف ". عن : السيد عبدالعزيز سالم، المآذن المصرية، ص٣٠.

شكل ١ - المثلث الرياضية .

عن : K. Critchlow , Order in Space , P. 8 .

شكل ٥ - طريقة رسم المثلث

شكل ٢ - المربع الرياضي .

عن : K. Critchlow , Order in Space , P. 29

شكل ٦ - طريقة رسم المربع

شكل ٣ - الشكل الزخرفي الهندسي المنتظم (المولدات)
(٦ = ٤ + ٣)

شكل ٧ - طريقة رسم المسدس المنتظم

شكل ٨ - طريقة رسم المسبع المنتظم

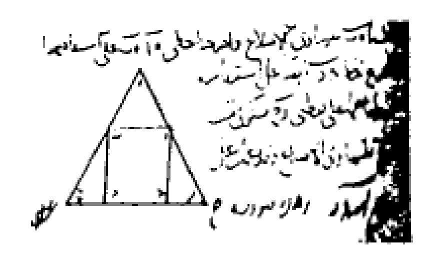
(ب)

شكل ٤ - [illegible]

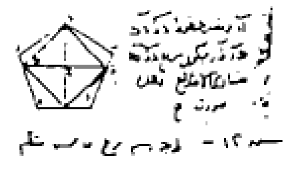
شكل ٩ - طريقة رسم المعشر المنتظم .



شكل ١٠ - طريقة رسم مثلث في مربع



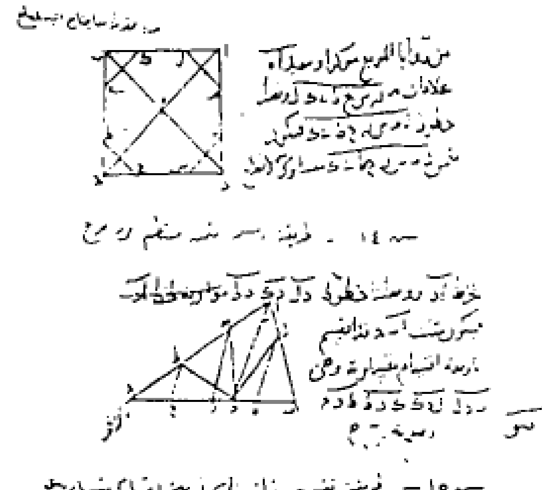
شكل ١١ - طريقة رسم مربع في مثلث



شكل ١٢ - طريقة رسم مربع في مخمس منتظم



شكل ١٣ - [illegible]



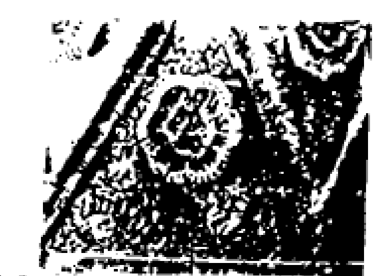
شكل ١٤ - طريقة رسم مثمن منتظم في مربع

شكل ١٥ - طريقة تقسيم مثلث الى اربعة اقسام متساوية

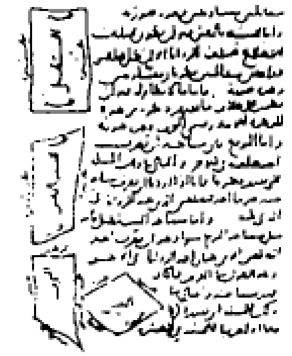


شكل ١٦ - [illegible]

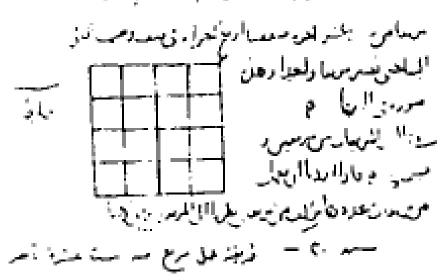
شكل ١٧ - [illegible]



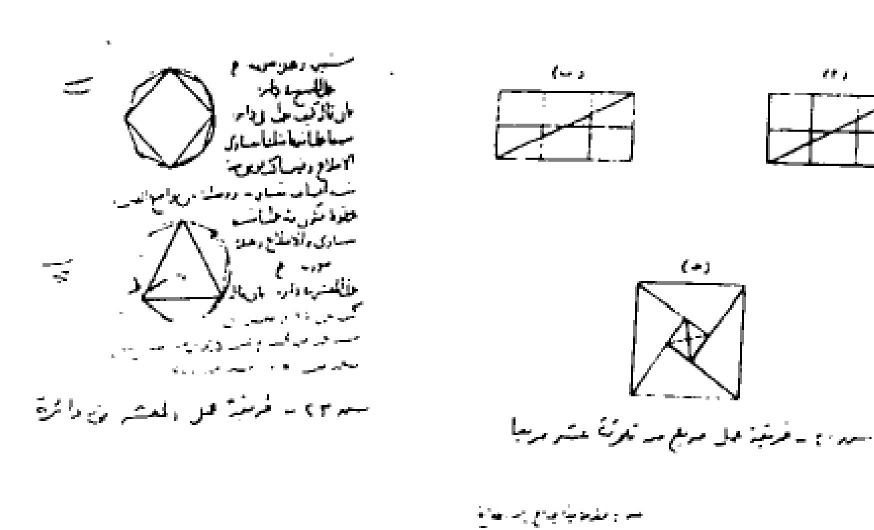
شكل ١٨ - واجهة قصر المشتى [illegible]



شكل ١٩ - [illegible]



شكل ٢٠ - طريقة عمل مربع [illegible]



شكل ٢٣ — طريقة عمل المعشر من دائرة

شكل ... — طريقة عمل مربع من ... عشر مربعا

شكل ٢٤ — طريقة ...
(تركيب البركار المدور)

شكل ٢٢ — طريقة عمل مربع من عشرين مربعا

شكل ٢٥ — المسطرة كأداة هندسية ، صفحة من المخطوطة

الكتابات العربية على الآثار الإسلامية

في مدينة دهلي (دلهي) بالهند

من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري

الثاني عشر إلى السادس عشر الميلادي

د. أحمد رجب محمد
كلية الآثار – جامعة القاهرة

مقدمة :

عرفت بلاد الهند الإسلام في عصر مبكر عن طريق التجار - إلا أن أول دخول رسمي للإسلام في بلاد الهند كان على يد محمد بن القاسم سنة ٩٢هـ، شهدت الهند بعد ذلك قيام العديد من الدول الإسلامية حيث فتحها السلطان محمود الغزنوي سنة ٣٩٥هـ، ثم شهدت الهند بعد ذلك قيام الدولة الغورية ثم دولة المماليك ثم دولة الخلجيين ثم دولة بني تغلق ثم دولة السادات الأشراف ثم دولة بني لودي وأخيرا الدولة المغولية ... هذه الدول التي تعاقبت على حكم الهند خلفت وراءها تراثا معماريا ضخما في حاجة إلى المزيد من الأبحاث والدراسات ... ومما لا شك فيه فإن ارتباط هذه الدول بكيان واحد وهو القرآن ولغته اللغة العربية جعلت لهذه اللغة قدرا كبيرا عند هذه الدول الإسلامية غير العربية حيث نظر ملوك وسلاطين هذه الدول إلى اللغة العربية والخط العربي نظرة احترام وتقدير على أساس أنه الخط الذي به كتب القرآن وبه بعث نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ولذا نجد الكتابة العربية في الهند قد تقاسمت الأهمية على الآثار الإسلامية مع الكتابات الفارسية والأوردية بل وزادت اللغة العربية في أهميتها على باقي اللغات أحيانا، فقلما يخلو أثر إسلامي هندي من آية قرآنية أو عبارة دينية بل وتعدى الأمر ذلك لنجد على بعض الآثار ألقابا وكتابات تاريخية باللغة العربية على الرغم من أنها ليست لغة أهل الهند أو حكامهم ، إلا أنهم كانوا حريصين على أن يكون للكتابة العربية نصيب وافر في

المساحات المخصصة للكتابة على جدران الآثار تبركا بها واحترام لها على الرغم من عدم فهم معظم رواد هذه الآثار من سكان الهند سواء في وقت إنشائها وحتى الوقت الحاضر لما تحويه هذه الكتابة من مضمون، إلا أن الجميع يجمع على احترام ما كتب بهذه اللغة وفي الصفحات القليلة القادمة نعرض لبعض هذه الكتابات وأماكن وجودها ومضمونها .

ومن الجدير بالذكر أنني اعتمدت في هذا البحث بالدرجة الأولى على الدراسة الميدانية من المواقع مباشرة فضلا عما توافر من المراجع العربية والأجنبية.

أولا : الكتابات العربية على آثار الدولة المملوكية بدهلي:

تنسب الدولة المملوكية إلى مؤسسها السلطان قطب الدين أيبك ، وكان مملوكا للسلطان شهاب الدين الغوري من ملوك الدولة الغورية التي نشأت في جبال غورستان فولى قيادة عساكره بالهند سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ودخل دهلي سنة تسع وثمانين وخمسمائة وجعلها دار ملكه ثم استقل بالحكم عن الدولة الغورية حتى وفاته سنة ٦٠٧هـ ببلدة لاهور وقد قام قطب الدين أيبك بعمل العديد من الاصلاحات وشيد مسجده الكبير بدهلي والذي يعرف باسم قوة الإسلام[١].

أ – كتابات مسجد قوة الإسلام :

يعد مسجد قوة الإسلام في دلهي والمعروف باسم (مسجد قطب منار) نظرا لاشتهاره بمنارته المميزة يعد أقدم مساجد الهند الباقية على الإطلاع ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م[١] ويشتمل هذا المسجد على العديد من الكتابات العربية سواء القرآنية أو التاريخية أو التي تشتمل على ألقاب .

وترجع أقدم هذه الكتابات إلى سنة ٥٩٢هـ، ونقشت أعلى مدخل البوابة الشمالية للمس جد وقام بنشرها الأستاذ (Nath)[٢]، وهذا النص من سطرين يقرأ على النحو التالي :

"بسم الله الرحمن الرحيم . والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم جرت هذه العمارة بعالي أمر السلطان المعظم معز الدنيا والدين ناصر أمير المؤمنين"

وأسفل السطر الأول كتب بخط أصغر تاريخ العمارة بنفس (في شهر سنة اثنين وتسعين) وهذا النص مكتوب بالخط الثلث، ويلاحظ عليه أنه يشتمل على آيات قرآنية وألقاب وتاريخ إنشاء باللغة العربية وهي ليست لغة المنشئ[٣] ، ويلاحظ على التاريخ في النص السابق أن الخطاط لم يكتب سوى العددين الآحاد والعشرات فقط وهو ٩٢ في حين أن التاريخ الحقيقي هو ٥٩٢ وربما كان ذلك اعتقادا من الخطاط بأن العدد الثالث (المئوي) لا يمكن أن يختلف عليه أحد تماما مثلما نكتب الآن التاريخ ٩٨ ولا نكتب ١٩٩٨ ربما اعتقادا بأن الكل يعرف الأعداد الكبيرة التي لا تتغير إلا كل مائة عام ، أو ربما لأن المساحة في هذا النص لا تكفي نظرا لأن التاريخ كتب أسفل السطر الأول بخط صغير ولم يكن معد له مكان، وهو ما يتضح من النص، ومن الملاحظ أن الخطاط قد التزم بالإعجام، كما يلاحظ أيضا أن النص قد كتب على أرضية من الوريدات والأوراق النباتية المختلفة الأشكال والتي تضفي على النص طابعا زخرفيا (شكل١) وهناك نص آخر من سورة الفتح بنص :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما ﴾[٩] .

وهذا النص مكتوب بالخط الثلث على أرضية من الزخارف النباتية على واجهة ظله القبلة بالمسجد (لوحة ١) .

وعلى جدران مئذنة قطب منار توجد كتابة عربية بالخط الثلث ترجع لعصر السلطان "التمش[١٠] نشرها الأستاذ Nath تلتف حول المئذنة في الطابق الثالث والذي قام السلطان التمش فيه ببعض الإصلاحات وتبدأ هذه الكتابة بالبسملة ثم بعض أسماء الله الحسنى بنص :

" بسم الله الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك – القدوس – السلام – المؤمن – المهيمن – العزيز – الجبار – المتكبر – الخالق – البارئ – المصور – الغفار – القهار – الوهاب – الرزاق – الفتاح – العليم – القابض – (الباسط)[١١] – الحي – الخافض – الرافع – المعز – المذل – السميع – البصير – (الحكم)[١٢] – العدل – اللطيف – (الخبير)[١٣] – الحليم – العظيم – الغفور – الشكور – العلي – الكبير –

الحفيظ – المقيت – الحسيب – الجليل – الكريم – المجيب – الواسع – الحكيم – الودود – المجيد – (الباعث) [١٠] – الشهيد – الحق – الوكيل – القوي – المتين – الولي – الحميد – المحصي – المبدئ – المعيد – المحي – المميت " (شكل ٢) .

ومن الملاحظ على هذا النص أنه مكتوب بالخط الثلث على أرضية نباتية وتتميز كتاباته بعدة مميزات من أهمها :

١- نهايات الألفات مفلطحة (مثلثة).

٢- كثرة استخدام الياء الراجعة.

٣- التشابه بين الميم المنفصلة والواو وبين الدال والذال.

٤- عدم وجود شكل أن إعجام على الحروف.

٥- الكتابة منفذة بأسلوب الحفر البارز على الحجر الرملي الأحمر.

ومن حيث المضمون نجد أن مضمون هذا النص موافقا تماما للمكان الموجود فيه وهو المئذنة أسماء الله الحسنى مناسبة تماما للمئذنة التي ينطلق منها الأذان بالتعظيم والتسبيح لله سبحانه وتعالى .

وأسفل الكتابة التي تشتمل على أسماء الله الحسنى توجد كتابة أخرى تشتمل على ألقاب مختلفة للسلطان المملوكي التمش وتاريخ "في شهور سنة سبع عشر وستمائة" ومن هذه الألقاب نقرأ:

" السلطان المعظم – ومالك رقاب الأمم – مولى ملوك العرب والعجم – سلطان السلاطين والعلم – غياث الدنيا والدين والإسلام (شكل ٣ أ) " .

وفي موضع آخر " ظل الله في الخافقين – الحامي لبلاد الله – الراعي لعباد الله – مجير ممالك الدنيا – مظهر كلمة الله العليا – قسيم أمير المؤمنين (شكل٣ب)".

وفي موضع ثالث " سلطان البر والبحر – المنصور على الأعداء – ملك الأمة الباهرة (شكل ٣ جـ) " .

لعل أول ملاحظة يمكن أن يلاحظها قارئ هذه الألقاب هي التشابه بين هذه الألقاب وبين الألقاب التي يلقب بها سلاطين السلاجقة وسلاطين الدولة المملوكية في مصر والشام، ومن الجدير بالذكر أن دولة المماليك في الهند سبقت دولة المماليك في

مصر بحوالي ٦٠ عاما حيث يرجع تأسيس دولة المماليك في الهند إلى سنة ٥٨٩هـ بينما ترجع دولة المماليك في مصر إلى سنة ٦٤٨هـ وفي الواقع فتشابه الألقاب وانتقالها من دولة إلى دولة يعتبر من الأمور الشائعة عكس الفنون والعمارة فإن كنت اؤيد في مجال العمارة عدم وجود تأثير وتأثر حتى لو وجدنا مثلين متشابهين في بلدين مختلفين مثل المساجد المتعددة الصحون في الهند والمغرب مثلا نظرا لعدم وجود القناة الشرعية لانتقال التأثير سوء هجرة فنانين أو معماريين أو احتلال بلد لآخر ... الخ . إلا أنني في مجال الألقاب والأسماء أعتقد أنه لا يلزم إيجاد القناة الشرعية لانتقال الاسم أو اللقب وأن مجرد وجود الاسم أو اللقب هو القرينة على وجود التأثير لأن الأسماء أو الألقاب يمكن أن تنتقل من بلد لآخر عن طريق رسالة أو خبر قد ترسل للحاكم فيستسيغ اللقب فيتمسك به وفي اعتقادي أن هذه الألقاب السابقة مهدها الأول هو الدولة العباسية ومنها انتشرت إلى باقي الدول حيث كان الملوك والسلاطين ينظرون إلى الخليفة العباسي على أنه منبع الشرعية بل وحرص معظم الملوك خصوصا المماليك سواء في الهند أو في مصر بعد ذلك على التماس الشرعية لوجودهم في الحكم مع كونهم أرقاء ولذا راسلوا الخليفة بل ودعوا له في الخطب وحرصوا على وصله بالهدايا القيمة حتى يحكموا بأساس شرعي وإضافة إلى ذلك أخذوا من ألقابه سواء التي يتلقب بها أو التي يمنحها لهم رداء يداري أصولهم في الرق ويقوي أواصر حكمهم ويؤكد ذلك بعض الألقاب السابقة مثل :

" ظل الله في الخافقين – سلطان البر والبحر – المنصور على الأعداء – الحامي لعباد الله – قسيم أمير المؤمنين " .

وهي ألقاب تلقب بها ملوك السلاجقة التابعين للخليفة العباسي ، ولذا فهذه الألقاب من المرجح أنها قد انتقلت من الدولة العباسية والسلجوقية إلى دولة المماليك في الهند .

ويؤكد ما سبق نسخة من الخليفة المقتضي لأمر الله إلى السلطان مسعود بن ملكشاه أحد ملوك السلاجقة يعزيه في ولد له جاء فيه :

من عبدالله أبي عبدالله محمد المقتضي لأمر الله أمير المؤمنين إلى شاهنشاه المعظم – مولى الأمم – مالك رقاب العرب والعجم – ظهير عباد الله – حافظ بلاد

الله – غياث الدنيا والدين – ناصر الإسلام والمسلمين – محي الدولة القاهرة – معز الملة الباهرة – أبي الفتح مسعود بن محمد ملكشاه قسيم أمير المسلمين(١١).

القضية الثانية التي تثيرها هذه الألقاب هي أنها ألقاب عربية وسلاطين الدولة المملوكية في الهند لغتهم الرسمية هي اللغة الفارسية فلمن تكتب هذه الألقاب إذا كانت لغتها غير لغة الحكام بل وغير لغة الشعب ولم تترجم إلى اللغة الفارسية أو الهندية. وفي اعتقادي أن هذه الألقاب هي من قبيل الاعتزاز والعظيم وتأكيد الشرعية وأن الناس حتى وإن لم يعرفوا معناها الحقيقي إلا أنهم يدركون أنها تعني شيئا كبيرا وسلطة دينية وروحية ودنيوية كبيرة تماما مثل العصر الحديث حيث يتداول الناس بعض الألقاب التي لا يعرفون أصولها ولا مدلولها إلا أنهم اصطلحوا على التعامل بها وإطلاقها على كبار القوم مثل باشا وبك وجنرال ولورد وبرنس وهي كلمات تركية وإنجليزية لم يفهم العامة المعنى الحرفي لها وإنما يعرفون فقط مدلولها العام .

ويؤكد عدم صدق مدلول الألقاب على من تلقب بها من سلاطين الهند وجود بعض الألقاب مثل سلطان البر والبحر على الرغم من أن سلطنة المماليك في الهند لم تمتد حتى البحر (المحيط الهندي) وإنما اقتصرت على دهلي وما حولها وهي منطقة لا تشرف على أية بحار(١٢) وأيضا لقب "مولى ملوك العرب والعجم ...الخ" هذه الألقاب(١٣).

ويلي هذه الألقاب تاريخ شهور سنة سبع عشر وستمائة ويلاحظ هنا أن الخطاط قد كتب العدد المئوي في التاريخ وهو ستمائة ولم يكتف بالعددين الأولين كما رأينا في كتابات السلطان قطب الدين أيبك بنفس المسجد (شكل ٣ د) أما من حيث أسلوب الكتابة ونوع الخط فهو نفس أسلوب ونوع الخط الذي كتب به أسماء الله الحسنى السابق ذكرها وهو الخط الثلث المحفور حفرا بارزا على الحجر الأحمر.

ب – كتابات ضريح السلطان التمش :

ويوجد ضريح السلطان التمش بالقرب من مسجد قوة الإسلامة (قطب منار) في الجهة الجنوبية الشرقية منه على بعد حوالي ١٥٠ متر منه، أنشأه السلطان شمس الدين التمش سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م أي قبل وفاته بعام واحد(١٤).

والضريح عبارة عن مساحة مربعة مغطاة بقبة (سقطت الآن) وجدران الضريح الداخلية تعد تحفة نادرة إذ لا يخلو شبر واحد منها من كتابة أو زخرفة محفورة على الحجر الرملي الأحمر – مادة بناء الضريح – أو على الرخام مادة بناء المحراب ومعظم كتابات جدران ضريح السلطان التمش بالخط الثلث المملوكي المنفذ بطريقة الحفر البارز أما كتابات المحراب فتجمع بين الخطين الكوفي والثلث وجميع كتابات الضريح من حيث المضمون عبارة عن كتابات قرآنية ومن أمثلتها الكتابة الموجودة على الجدار الشرقي للضريح وهي تتضمن آيات كريمة من سورة الأنعام نقرأ منها:

قل أنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا

قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين[١٥] (شكل ٤)، (لوحة ٢)

وهي مكتوبة بنفس نوع الخط الذي كتبت به الألقاب على مئذنة قطب منار بعد تجديدها على يد السلطان التمش وهو خط الثلث الذي يتميز بفرطحة نهايات الفاته. ولكن الجديد هنا هو الشكل والإعجام على حروف هذه الكتابة (لوحة ٢) .

وعلى الجدران الشمالية للضريح توجد آيات قرآنية نقرأ منها :

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة (من طين)"..الخ الآيات (شكل ٥)، (لوحة ٣)

وعلى الجدار الغربي للضريح آيات قرآنية من سورة الحشر تلتف حول المدخل من الداخل نقرأ منها:

" لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك (الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)"[١٦] (لوحة ٤) .

أما محراب الضريح فيعد تحفة فنية حيث زخرف بالزخارف النباتية المحفورة والكتابات القرآنية بالخطين الكوفي والثلث فمن أمثلة الكتابات القرآنية المكتوبة بخط الثلث أزار كتابي أعلى المحراب من سورة الواقعة بنص :

"إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل (من رب العالمين)"[١]

وهذه الكتابة محفورة حفرا بارزا على الرخام وتتميز حروفها بالشكل والإعجام (شكل ٦)، (لوحة ٥). وحول كتلة المحراب من الخارج إطار من الكتابات القرآنية بالخط الكوفي من سورة الكهف يبدأ أعلى يسار المحراب بنص: "(إن الذين أمنوا) وعملوا الصالحات كانت لهم (جنات الفردوس نزلا) .

ثم تستمر الكتابة في الشريط المستعرض والشريط النازل حتى آخر سورة الكهف[١٨] (شكل ٧) (لوحة ٦). وهذه الكتابة الكوفية محفورة حفرا بارزا على الرخام وتتميز نهايات قوائم ألفاتها بالتوريق ومن أسفل الركائز كما تتميز بعض حروفها بالاعجام. ومن الجدير بالذكر أن الجمع بين الخطين الكوفي والثلث (الخطوط الجافة والخطوط اللينة) من الظواهر النادرة على العمائر الإسلامية في دهلي في تلك الفترة (لوحة ٥ ، ٦).

ثانيًا : الكتابات على الآثار الإسلامية في عهد الدولة الخلجية :

تنسب الدولة الخلجية إلى مؤسسها جلال الدين فيروز شاه الخلجي الذي تولى الحكم عقب مقتل السلطان المملوكي معز الدين كيقباذ بن ناصر الدين محمود بن بلبن سنة تسع وستين وستمائة وكان جلال الدين سلطانا عادلا حليما حكم الهند سبع سنوات وكانت نهايته على يد ابن أخيه علاء الدين محمد شاه الخلجي الذي اعتلى دست السلطنة بعد[١٩] وقد حكم علاء الدين الخلجي بعد ذلك الهند مدة عشرين عاما[٢٠] .

ومن أهم ما وصلنا من كتابات على آثار الخلجية في دهلي كتابات مسجد خيزرخان الخلجي والذي أمر بإنشائه الأمير خيزرخان ابن السلطان علاء الدين الخلجي سنة ١٣٢١م (٧٢١هـ) . وهذه الكتابات موجودة داخل ساحة محراب المسجد حيث تتوسط ساحة المحراب حشوه مستطيلة بداخلها عقد يستند على عمودين يتدلى من قمة العقد مشكاة عليها كلمة الله ومحمد ومليء داخل العقد بزخارف نباتية (أرابيسك) قوامها أنصاف مراوح تحلية محورة كما يشغل كوشتي العقد زخارف أرابيسك وأعلى هذه الحشوة توجد حشوة أخرى عليها كتابة تقرأ "لا إله إلا الله محمد رسول الله" محفورة حفرا بارزا، وحول ساحة المحراب إطار من ثلاثة جوانب عليه

كتابة محفورة من سورة القدر تبدأ بالبسملة والتي لم يصلنا منها سوى كلمة الرحيم ثم "انا انزلناه في ليلة القدر وما أدارك ما ليلة القدر" .

وينتهي الشريط الصاعد ليبدأ الشريط المستعرض بنص : "القدر ليلة القدر خيرا من الف شهر تنزل الملائكة والروح" .

وينتهي الشريط المستعرض ليبدأ الشريط النازل بنص : "فيها باذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر" .

وهذه الكتابات تطرق التلف إليها الآن فأعيد ترميمها حديثا ولكن على غير حالتها الأصلية حيث كانت قبل ذلك بالخط الثلث محفورة حفرا على الحجر الرملي الأحمر أما الآن فقد تم طلاؤها بماء الذهب وتحديد إطارات الحشوات باللون الأبيض مما غير من معالمها الأصلية[٢١] ، أنظر تفريغ للكتابة (شكل ٨)، وصورة فوتوغرافية لها (لوحة ٧) .

ثالثا : الكتابات العربية على الآثار الإسلامية في دهلي في عصر دولة بني لودي :

تنسب هذه الدولة إلى مؤسسها بهلول اللودي وهو من أصل أفغاني[٢٢] استقل بهلول اللودي بالحكم سنة خمس وخمسين وثمانمائة لمدة ثمان وثلاثين سنة وكان عادلا كريما مات سنة أربع وتسعين وثمانمائة[٢٣] ومن أهم آثار دولة بني لودي في دهلي التي تشتمل على كتابات مسجد (باراجومباد) وباراجومباد في اللغة الهندية تعني الأضرحة الأحد عشر وقد عرف المسجد بهذا الاسم لمجاورته للضريح المعروف باسم باراجومباد والذي اشتمل على ١١ تابوت لأمراء دولة بني لودي ومنشئ هذا المسجد والضريح الملاصق له غير معروف وإن كان تاريخ الإنشاء مسجلا على المسجد وهو سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م وهي فترة حكم اسكندر لودي ١٤٨٩ – ١٥١٧[٢٤] . والذي يوجد ضريحه بالقرب من مسجد وضريح باراجومباد وترجع معظم الآثار المجاورة لهم في هذه المنطقة والتي تعرف باسم "حديقة لودي" إلى عصر دولة بني لودي والتاريخ المثبت على المسجد وموقع المسجد وسط آثار بني لودي كل ذلك يؤكد أن المسجد ينسب إلى أحد كبار رجال الدولة في عصر اسكندر

لودي حيث لم يكن يسمح لأي شخص عادي ذو مكانة أن بني ضريحا في هذه المنطقة التي كانت مقصورة على حكام وأمراء ووجهاء بني لودي .

أما عن كتابات هذا المسجد فمعظمها عبارة عن آيات قرآنية تملأ جدران المسجد وحول محاريبه وجدرانه بل وبواطن عقوده ومناطق انتقال قبابه فالمسجد مليء بالكتابات وهي بالخط النسخي والخط الثلث وجميعها منفذة بأسلوب الحفر البارز على الحجر والكتابة على أرضية من الوريدات وتتميز هذه الكتابات بالدقة والوضوح والانسياب كما تتميز حروفها بالشكل والاعجام والوضوح .

أما عن مضمون هذه الكتابات فكما سبق القول أغلبها من آيات قرآنية أو عبارات دينية .. ومن هذه الكتابات على المحراب الرئيسي للمسجد والذي يتكون من مساحة مستطيلة يحيط بها من جميع الجهات إطار من الآيات القرآنية من سورة الحشر تبدأ على يسار المحراب بنص: "بسم الله الرحمن الرحيم لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا"

ثم يبدأ الشريط المستعرض أعلى المحراب بنص: "متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم" .

ثم يبدأ الشريط النازل بنص: "يتفكرون هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي" .

ثم يبدأ الشريط أسفل المحراب بنص: "لا إله إلا هو الملك السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر" .

وداخل هذا المحراب حشوة مستطيلة أصغر بداخلها عقد مدبب على إطاره إزار من الكتابات القرآنية فيها إكمال الآيات الكريمة من سورة الحشر الموجودة على الإطار الخارجي للمحراب بنص "سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم"(٢٥) .

وداخل عقد المحراب جامه مستديرة بداخلها سطرين من الكتابة بنص: " لا إله الا الله محمد رسول الله " .

بينما يشغل كل كوشة من كوشتي العقد جامة بداخلها لفظ الجلالة (لوحة ٨). وعلى محراب ثان بنفس المسجد نقرأ في الإطار الخارجي آيات كريمة من سورة الأحزاب تبدأ بالشريط الصاعد على يسار المحراب والكتابة بهذا الشريط تطرق التلف إلى جزء منها والباقي منها يقرأ : "مبينا وإذا تقول للذي أنعم الله عليه" .

ثم يبدأ الشريط المستعرض بنص: "وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتقي الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه" .

ثم يبدأ الشريط النازل بنص: "وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى منها زيد وطرا زوجناكها"[٢٦] .

وداخل المحراب توجد حشوه مستطيلة يحيط بها إطار ضيق من الكتابة من ثلاث جهات به آيات قرآنية من نفس السورة يبدأ على يمين الناظر بنص: "إذا قضى منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا" .

ثم الشريط المستعرض بنص: "ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله" .

ثم يبدأ الشريط النازل بنص: "له سنة الله في الذين خلو من قبل وكان" .

وداخل الحشوة المستطيلة الداخلية توجد دخله معقودة يحيط بعقدها إطارين الخارجي عليه كتابات قرآنية من نفس السورة بنص.

"أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله وكفى" .

والإطار الداخلي للعقد تكتمل به الأيات بنص: [بالله حسيبا ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما][٢٧] (لوحة٩) .

وجميع هذه الكتابات النسخيه على أرضية من الوريدات الصغيرة والأوراق النباتية المبعثرة (لوحة ٩). ومن أمثلة الكتابات على بواطن عقود المسجد كتابه على أحد عقود بلاطة المحراب الرئيسي يقرا منها ايات قرآنية من سورة الأحزاب[٢٨] بنص:

" تبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع (طرائق) ".

وفي إطار آخر : "إن الذاكرين والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما" .

وفي إطار ثالث : " وما كنا عن الخلق غافلين وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض " .

وداخل منطقة الانتقال توجد حشوة صغيرة مستطيلة عليه حفرت عبارة: " لا إله إلا الله محمد رسول الله " حفرا بارزا على الحجر (لوحة ١٠) .

وأخيرا فكتابات هذا المسجد كما سبق أن ذكرنا معظمها آيات قرآنية من سورة الأحزاب وعبارات دينية وخصوصا "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أو لفظ الجلالة بالإضافة إلى تاريخ المسجد وهو سنة ٩٠٠هـ .

رابعا : الكتابات العربية على الآثار الإسلامية في دهلي في القرن ١٠هـ/١٦م :

ويعد القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي من القرون التي شهدت ازدهارا في فن العمارة والبناء في دهلي حيث شهدت هذه الفترة بدايات الدولة المغولية في الهند ، وأمدنا هذا العصر بالعديد من العمائر التي اشتملت على كتابات باللغة العربية فيما يلي تفصيل لها :

أ – كتابات المسجد الجامع بقلعة بورانا (مسجد كيلاكونا) :

يعتبر المسجد الجامع بقلعة بورانا والمعروف باسم مسجد "كيلاكونا" من أهم العمائر التي اشتملت على كتابات في القرن ١٠هـ/ ١٦م ، ومنشئ هذا المسجد هو منشئ القلعة السلطان (شيرشاه السوري)[٢٩] سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م ، وكان شيرشاه السوري وهو من أصل أفغاني قد غزا الهند في عهد الإمبراطور المغولي "همايون شاه"[٣٠] .

واستطاع أن يخضع الجزء الأكبر من بلاد الهند وقد قابل الهنود حكمه بترحاب شديد لقدرته على حسن الإدارة وتصرفاته المرضية في سياسته المالية وقد حاول إرضاء كل العناصر في المجتمع الهندي وكان يبتعد عن كل ما يعتبر اضطهادا لرعاياه الهندوس وقسم إدارة ملكه إلى مئات الأقسام ووضع على كل قسم ضابطا يمثله[٣١] .

ويشتمل هذا المسجد على العديد من النصوص الكتابية المكتوبة بالخط النسخي الجميل المشكل بأسلوب دقيق وتتوزع الكتابات داخل المسجد على جدرانه وعلى عقد محرابه الرئيسي .

فعلى عقد محراب المسجد الرئيسي توجد آيات قرآنية من خواتيم سورة البقرة بنص: "لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير"(٣٢) .

وعلى جدران المسجد كتبت سورة يس بالخط النسخي الجميل القريب من خط الثلث والذي يتميز بفرطحة قوائم ألفاته ولكن ليس بالصورة التي رأيناها في ضريح السلطان المملوكي التمش . كما تتميز كتابات هذا المسجد بعبقرية الفنان في تشكيل الحروف فمثلا في (بسم الله الرحمن الرحيم) نجد الفنان قد وضع كلمة الرحيم داخل تجويف النون في كلمة الرحمن (لوحة ١٢) كما تتميز حروف هذه الكتابات بالشكل والاعجام ، وجميع كتابات مسجد (كيلاكونا) منفذة بأسلوب الحفر البارز على الرخام (لوحة ١١ ، ١٢).

ب – كتابات مسجد عيسى خان بدهلي :

يوجد مسجد عيسى خان بحي نظام الدين في دهلي ومنشئ هذا المسجد هو عيسى خان أحد كبار رجال البلاط في عهد السلطان شيرشاه السوري ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى سنة ٩٥٤هـ (١٥٤٧ – ١٥٤٨م)(٣٣) .

وتنحصر الكتابات في هذا المسجد على محرابه حيث يشتمل محراب المسجد على عقدين مدببين على العقد الخارجي كتب بخط الثلث البديع آيات قرآنية من سورة آل عمران بنص :

"بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب"(٣٤) .

وعلى العقد الداخلي للمحراب كتبت آيات كريمة من سورة آل عمران بنص:

"بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إن أو بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين"[٣٥] .

وهذه الكتابات منفذه بالحفر البارز على الحجر وتتميز حروفها بوجود الشكل والإعجام كما تتميز الأرضية بوجود بعض الوريدات والأشكال النجمية المنتشرة على هذه الأرضية ولعل الظاهرة الملفتة للنظر في أسلوب الكتابة هنا هو الربط بين مجموعة الألفات المتجاورة بالألفات المستعرضة لبعض الكلمات مثل (في) ، (من) أو (الكاف) حيث تمتد شرطة الكاف مثلا في بداية الآيات في العقد الخارجي لتربط بين الألفات السبعة لكلمتي مالك الملك مما يعطي شكلا بديعا (شكل ٩، لوحة ١٣، ١٤).

ج – الكتابات العربية على التوابيت بضريح نظام الدين :

الشيخ نظام الدين من كبار رجال الصوفية في بلاد الهند ولد في مدينة "بدوان" سنة ١٢٣٦م وفقد أبوه وهو في الخامسة من عمره ثم جاء إلى دهلي مع والدته حيث رافق الشيخ الصوفي المعروف باسم فريد شاكر جانج الذي اتخذه مساعدا له ثم توفي فريد شاكر جانج وبدأ نجم الشيخ نظام الدين يلمع وقصده المريدون من جميع الأنحاء وتوفي سنة ١٣٢٤م[٣٦] .

وبعد وفاة الشيخ نظام الدين دفن في قبره في دهلي وعندما اعتلى السلطان فيروز شاه طغلق عرش بلاد الهند أقام فوق المقبرة بناء سقط سنة ١٣٥١م اما الضريح الحالي فيرجع تاريخ إنشاؤه إلى سنة ٩٧٠هـ ١٥٦٢ ـ ١٥٦٣م على يد فريد خان أحد كبار القادة في عصره[٣٧] .

وتنتشر التوابيت داخل وخارج وحول ضريح الشيخ نظام الدين وهي توابيت المريدين الذين قصدوا الشيخ نظام الدين وأحبوه ودفنوا بجواره هذه التوابيت بعضها يشتمل على كتابات على أسطحها وأغلبها بدون كتابات ومعظم هذه التوابيت ذات الكتابات ترجع للقرن ١٠هـ ١٦م وتشتمل هذه الكتابات على آيات قرآنية وعبارات دينية ، ومن أهم تلك الكتابات نص على أحد التوابيت عليه تاريخ سنة ٩٧٥هـ بنص (لا إله إلا الله محمد رسول الله) مشكله داخل جامه مفصصة بخط مشكل بديع بحث تملأ هذه العبارة معظم الجامة المفصصة ، وهي منفذه بأسلوب الحفر البارز على سطح التابوت الرخامي (شكل ١٠ ، لوحة ١٥) .

وعلى سطح تابوت آخر مجاور للتابوت السابق ، توجد وريده بداخلها جامة مستديرة ، حفر بداخلها عبارة (حسبي الله) بأسلوب الحفر البارز مع الشكل فوق الحروف حيث وضع الخطاط شده وفتحة فوق اللام بل ويلاحظ أن الخطاط عمل على تأكيد مخارج الحروف حيث وضع هاء فوق الهاء في كلمة الله ووضع نقطتين أسفل الياء في كلمة حسبي (شكل ١١ ، لوحة ١٦) .

د – كتابات ضريح (بارير) بدهلي :

يوجد ضريح باربر بمدينة دهلي بالقرب من ضريح الإمبراطور المغولي (همايون شاه) وينسب هذا الضريح إلى (بارير) أحد كبار رجال الدولة في بدايات العصر المغولي[٣٨] ، ويشتمل هذا الضريح على تابوتين على أحدهما تاريخ سنة ٩٩٩هـ / ١٥٠٩ - ١٥٩١م . (اللوحتين ١٧ ، ١٨) وأسطح التابوتين عليهما كتابات محفورة حفرا بارزا قوامها على سطح التابوت الأول المؤرخ آية قرآنية من سورة الرحمن بنص "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"[٣٩] . محصورة داخل جامة مفصصة ومكتوبة بالخط النسخي المشكل على سطح تابوت الرخامي داخل الجامعة في تكوين بديع بحيث تملأ معظم الجامة. وأسفل الآية القرآنية كتب التاريخ بالأرقام وهو سنة ٩٩٩هـ ويلاحظ هنا أن الآية اختيار يتفق مع وظيفة التابوت فهي آية خاصة بالموت (لوحة ١٧) .

وعلى سطح التابوت الثاني توجد جامة مفصصة بداخلها كلمة (يا فتاح) مكررة أربع مرات في تشكيل بديع لتكون معا شكلا جماليا من أربع أجزاء يملا الجامة المفصصة (شكل ١٢ ، لوحة ١٨) وأسلوب الثابات المكررة التي تكون أشكالا متماثلة تعتبر من أبدع نماذج الخط التي تفتق عنها ذهن الفنان المسلم والتي انتشرت في معظم البلدان الإسلامية خصوصا الدولة المملوكة والعثمانية والصفوية وهذه الكتابات هنا جديرة بالملاحظة والتأمل إذ أن الكتابة على الرغم من كونها على تابوت خاص بالموتى إلا أن الفنان قد أبدع فيها وقدم لنا لوحة زخرفية جميلة من كلمة واحدة مكرره وهي كلمة بالفاء والتاء من كل كلمة بينما شكل الحاء على هيئة قوس يتناغم مع تفصيصات الجامة المحيطة بالكتابة (شكل ١٢ ، لوحة ١٨).

نتائج البحث

وأخيرا وختاما للعرض السابق نستطيع أن نوجز أهم ما توصل إليه من نتائج في النقاط الآتية :

١- اشتملت معظم الآثار الإسلامية في مدينة دهلي حتى نهاية القرن ١٠هـ ١٦م على كتابات باللغة العربية خصوصا في عهد دولة المماليك والدولة الخلجية ودولة بني لودي .

٢- تنوعت الكتابات العربية على جدران العمائر ما بين الكتابات القرآنية والعبارات الدينية والكتابات التاريخية ، والألقاب إلا أن الكتابات القرآنية كانت أكثر أنواع الكتابات شيوعا على جدران الآثار الإسلامية في دهلي لأن معظم ما وصلنا من آثار في تلك الفترة كان إما مساجد أو أضرحة ومن أكثر الآيات القرآنية شيوعا على تلك العمائر سورة يس ، وسورة آل عمران ، وخواتيم سورة البقرة ، وخواتيم سورة الحشر .

٣- تعددت أماكن الكتابات على العمائر فأحيانا توجدالكتابات على الواجهات والمداخل مثل المدخل الشمالي لمسجد قوة الإسلام وأحيانا تكون على المئذنة مثل مئذنة (قطب منار) وفي معظم الأحيان توجد كتابات على المحاريب كما في محراب ضريح التمش ومحراب مسجد خيزرخان ومحراب مسجد كيلاكونا وفي أحيان أخرى تغطي الكتابة معظم جدران المسجد وبواطن العقود ومناطق الانتقال كما في مسجد باراجومباد.

٤- بالنسبة لكتابة تاريخ الإنشاء اكتفى بكتابة التاريخ الأحادي والعشري في بعض النصوص مثل نص إنشاء السلطان قطب الدين أيبك لمسجد قوة الإسلام ، وأحيانا يكتب التاريخ كاملا بالحروف كما في نص السلطان التمش على مئذنة قطب منار وأحيانا ثالثة يكتب التاريخ بالأرقام كما أن ضريح باربر .

٥- اشتملت الكتابات العربية على الآثار الإسلامية في دهلي على بعض الألقاب كما في مسجد قوة الإسلام وهي ألقاب عربية تتشابه مع الألقاب المتداولة

في الدولة العباسية والدولة السلجوقية وكذلك الدولة المملوكية في مصر والشام وإن كانت دولة المماليك في الهند أسبق في وجودها من دولة المماليك في مصر والشام بحوالي ٦٠ عاما هذه الألقاب يرجح أنها مأخوذة عن الدولة العباسية خصوصا مع وجود تشابه شديد بينهما وبين الألقاب الموجودة في الرسائل المتبادلة بين الخليفة العباسي وسلاطين الدويلات الإسلامية خصوصاص الدول السلجوقية في تلك الفترة مما يرجح معه وجود اتصال وعلاقة بين الدول العباسية والدولة المملوكية في الهند خصوصا مع ورود لقب قسيم أمير المؤمنين ومع حاجة سلطان المماليك في الهند إلى أساس شرعي لحكم بلاده .

٦- من حيث نوع الخط نجد أن معظم الكتابات العربية على جدران الآثار الإسلامية في دهلي حتى نهاية القرن ١٠هـ ١٦م كانت بالخط الثلث أما الكتابات الكوفية فنادرة جدا وتكاد تنحصر في الكتابة الموجودة على محراب ضريح السلطان التمش والذي جمع بين الخطين الكوفي والثلث.

٧- تميزت الكتابات المنفذة بخطي النسخي والثلث بوضوح شخصية الفنان وإبداعه فيها حيث حرص الخطاط على إيجاد فروق بين معظم النماذج ففي بعض الأحيان يزيد الفنان في فرطحة نهايات قوائم الحروف كما في ضريح السلطان التمش وفي أحيان أخرى يشكل الفنان الكلمات بحيث تحتوي الحروف المفتوحة كالنون بعض الكلمات بداخلها مثل كتابة كلمة الرحيم داخل نون كلمة الرحمن في كتابات مسجد كيلاكونا وفي أحيان أخرى يربط الفنان بين نهايات قوائم الحروف الكثيرة المتجاورة بأحد الحروف المستعرضة مثل الياء الراجعة أو الكاف ومثال ذلك كتابة كاف كلمة الملك مستعرضة على ألفات كلمة مالك الملك وهو ما يعرفه علماء الفن في الهند باسم (تحزيم الحروف) .

٨- انتشر في القرن ١٠هـ ١٦م الخط المشكل بأشكال جامات مستديرة أو مفصصة أو وريدات أو استخدام كلمة مكررة في تكوين شكل جمالي كما في توابيت ضريح نظام الدين وضريح بارير .

٩- تميزت حروف الكتابات على الآثار الإسلامية في دهلي حتى نهاية القرن ١٠هـ ١٦م بأن معظمها قد راعى فيها الفنان الشكل والإعجام .

١٠- تميزت الكتابات على العمائر الإسلامية في دهلي بأنها جميعا منفذة بأسلوب الحفر البارز سواء على الحجر كما في مسجد قطب منار وجدران ضريح السلطان التمش ومسجد خيزرخان أو على الرخام كما في مسجد كيلاكونا وتوابيت ضريح نظام الدين وضريح بارير .

١١- تميزت معظم الكتابات الموجودة على الآثار الإسلامية في دهلي بأنها أرضية تنتشر عليها الوريدات والأوراق النباتية المحفورة حفرا بارزا خصوصا على الحجر .

الهوامش

١ - عبدالحي الحسني الندوي : تاريخ المسلمين في الهند ، حيدر أباد ١٩٧١، ص١٧٦ .

2- Page (j.A) : A Guide To The QUTB Delhi, India Jodhpure 1986, p. 3.

3- Nath (R) : Manuments of Delhi - (Historical study) New Delhi: 1978. p5.

4- Nath : ibid, P. 3.

٥-القرآن الكريم ، سورة الفتح آية ١٤ .

٦-السلطان التمش ثاني سلاطين المماليك في الهند كان مملوكا للسلطان قطب الدين أيبك وبعد وفاة قطب الدين أيبك ٦٠٧هـ/ ١٢١١م أجمع أمراء المماليك على اختيار التمش لخلافة أيبك وكان مشهورا بعلمه وحرص على رفع المظالم عن شعبه واستن سنة حسنة لرفع المظالم عن الشعب فأمر بأن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا وكان أهل الهند لا يلبسون إلا الثياب البيضاء فإذا رأى السلطان يوم الجمعة وهو في طريقه إلى المسجد الجامع أحدا عليه ثوبا مصبوغا علم أنه مظلوم فنظر في مظلمته ، وكان السلطان التمش محبا للعلم والعلماء وقد اعتلى عرض الهند ٢٦ عاما حتى وفاته سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، انظر عبدالحي الحسني الندوي : المرجع السابق ، ص١٧٩ ، د. عبدالمنعم النمر : تاريخ الإسلام في الهند ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص١١٠ .

(٧، ٨، ٩، ١٠) يلاحظ أن الخطاط الذي كتب هذا النص غير ملم باللغة العربية ويبدو أنه كان ينقل نص مكتوب ولذا نجده قد غير في هذه الأسماء الأربعة الحسنى سواء بتقديم حرف على حرف أو زيادة حرف أو نقص حرف وقد نقلها الأستاذ (Nath) من على المئذنة كما هي (شكل ٢) وقد آثرت أن أقوم بتصحيح هذه الأسماء وعدم كتابتها على صورتها الأولى وإنما كتابتها

صحيحة مباشرة لقدسية هذه الأسماء وتنزهها عن أن تكتب بصيغ خاطئة حتى ولو كانت إشارة إلى ما كانت عليه .

١١- د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص٦٣ .

١٢- سلطان البر والبحر من الالقاب التي شاعت في عصر دولة السلاجقة ومن اشهر من تلقبوا به أبي الفتح كيكاوس بن كيخسرو في نص إنشاء القلعة في بيسوب سنة ٦١٢هـ ولعل كثرة استخدام لفظ سلطان البحر وأمير البحر راجع إلى أن دولة السلاجقة شبه جزيرة يحيط بها البحر الأسود وبحر الدردنيل وبحر الروم مما يجعل البحر يمثل أهمية قصوى بالنسبة لهم ، د. حسن الباشا: نفس المرجع ، ص٣٣٤ .

١٣- استمرت هذه الألقاب في الدول الإسلامية في الهند خصوصا في عصر الدولة المغولية وظهرت في كل مكان على العمائر والفنون والمسكوكات خصوصا الألقاب المنسوبة إلى الدين ونصرته مثل (غياث الدين) و (ظهر الدين) و (حامي الدين) و (نصير الدين) ، انظر :

Lane poole = The Coins of Moghul Emperors of Hindustan in the Britsh Museum London 1892, P 1, P 256.

14- Nath : OP - C IT, P. 79.

١٥- القرآن الكريم : سورة الأنعام ، أية ١٦١ .

١٦- القرآن الكريم : سورة الحشر ، الأيات ٢١ : ٢٤ .

١٧- القرآن الكريم : سورة الواقعة ، الأيات ٧٧ : ٨٠ .

١٨- القرآن الكريم : سورة الكهف ، الأيات ١٠٧ : ١١٠ .

١٩- عبدالحي الحسني الندوي : المرجع السابق ، ص١٨٦ ، ١٨٧ .

٢٠- محمد عبدالمجيد العبد : الإسلام والدول الإسلامية في الهند - الطبعة الأولى - مطبعة الرغائب ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص٤٠ .

21- Archaeological survey of India : OP. Cit. P116.

22- History of the Afghans in India From 1545 to 1631 With special Reference To Their Relation with The Maghul , university of London 1954, P. 63.

٢٣- عبدالحكيم خان لودي : مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات بمكتبة آزاد عليكره ، الهند تحت رقم ٤٧/١٩٤ تاريخ فارسي ورقة ٧ .

٢٤- اسكندر لودي اسمه الحقيقي عادل نظام الدين وهو ابن السلطان بهلول اللودي خالفه في الحكم وأسس مدينة (سكندرا) بالقرب من أجرا واتخذها عاصمة له وظل بها حتى توفي سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م ، انظر د. عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص١٤٩.

٢٥- القرآن الكريم : سورة الحشر ، الأيات من ٢١ : ٢٤ ويلاحظ أن خواتم سورة الحشر من أكثر الأيات القرآنية شيوعا على الآثار الإسلامية في الهند حيث سبق أن رأيناها على جدران ضريح السلطان المملوكي التمش ولعل ذلك راجع إلى بعض الأقوال التي ذكرت بأن اسم الله الأعظم ضمن أسماء الله التي وردت في خواتيم سورة الحشر .

٢٦- القرآن الكريم : سورة الأحزاب ، آية ٣٧ .

٢٧- القرآن الكريم : سورة الأحزاب ، الآيتين ٣٩ ، ٤٠ .

٢٨- القرآن الكريم : سورة الأحزاب ، آية ٣٥ .

٢٩- اسمه الأصلي فريد خان وأبوه حسن كان واليا على مدينة (شهرام) وجهده ابراهيم كان رجلا عاديا جاء إلى الهند يلتمس الرزق أيام بهلول اللودي وهو من قبيلة سور الأفغانية ولذا عرف باسم شيرشاه السوري انظر د. عبدالمنعم النمر : المرجع السابق ، ص١٨٤ .

٣٠- هو الإمبراطور المغولي نصير الدين محمد هايون شاه بن بابر ثاني أباطرة الدولة المغولية تولى الحكم سنة ٩١٣هـ سنة ١٥٠٦م بعد وفاة الإمبراطور مؤسس دولة المغول في الهند وثار عليه بعض إخوانه مما أضعف الدولة المغولية وهيأ الفرصة لشيرشاه الافغاني لدخول الهند وهزيمته وفر همايون إلى إيران حيث لقي الترحاب من الشاه طهماسب حتى عاد همايون إلى الهند مرة بعد وفاة شيرشاه السوري سنة ٩٦٢هـ واعتلى مرة أخرى عرش الهند، انظر .

Iqtidar Husain Siddiqi = History of shershah Aligarh 1971. P. 63.

٣- بايزيد بيات : تذكرة همايون وأكبر ، مطبعة بيشت كلكتا ، طبع سنة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م ، ص١٢٥ .

٣٢- القرآن الكريم : سورة البقرة ، آية ٢٨٤ .

33- Archaeological survey of India . OP. Cit. P111.

٣٤- القرآن الكريم : سورة آل عمران ، الأيتين ٢٦ ، ٢٧ .

٣٥- القرآن الكريم : سورة آل عمران ، الآية ٩٥ .

٣٦- سيد دنيال نظامي : سجادة نشين دركاة حضرة خواجه نظام الدين أوليا ، أنديا ١٩٩٠ نمبر ٣ .

37- Archaeological survey of India : OP. Cit. P. 115.

38- Archaeological survey of India : ibid, P. 108.

٣٩- القرآن الكريم : سورة الرحمن ، الأيتين ٢٦ ، ٢٧ .

أهم المراجع المستخدمة في البحث

المراجع العربية :

١- القرآن الكريم.

٢- الباشا (د. حسن) : الألقاب الإسلامية في التاريخ والآثار، القاهرة ١٩٥٧م .

٣- العبد (محمد عبدالمجيد) : الإسلام والدول الإسلامية في الهند ، الطبعة الأولى ، مطبعة الرغائب ، القاهرة ١٩٣٩ .

٤- الندوي (عبدالحي الحسن) : تاريخ المسلمين في الهند ، الطبعة الثانية ، الهند ، حيدر آباد ١٩٧٩ .

٥- النمر (د. عبدالمنعم) : تاريخ الإسلام في الهند ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٠ .

المراجع الفارسية والأوروبية :

٦- بيات (بايزيد) تذكرة هايون وأكبر ، مطبعة بيشت ، كلكتا ، طبع سنة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م .

٧- لودي (د. عبدالحكيم خان) : تاريخ لودي ، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات ، مكتبة آزاد ، عليكره ، الهند تحت رقم ٤٧/١٩٤ تاريخ فارس .

٨- نظامي (سيد دنيال) سجادة تشين دركاة حضرة خواجه نظام الدين أوليا ، أنديا ١٩٩٠ .

المراجع الإنجليزية :

9- Archaeological survey of India.

10- History of the Afghans in India with special reference to their relation with the mughul. University of London, 1954.

11- Nath (R) : Monuments of Delhi (History study) New Delhi. 1978.

12- Siddiqi (Iqtidar Husain) : History of Shershah. Aligarh, 1997.

13- Page (A) : A Guide to the Qutb Delhi India, Jodh pure 1986.

14- Pool (Lane) : The Coins of Moghul Emperors of Hindustan in the Britsh Museum, London, 1892.

أولا : الأشكال

ثانيا : اللوحات

لوحة (١) كتابة قرآنية من مسجد قوة الاسلام ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م .

لوحة (٢) كتابة قرآنية على جدران ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .

لوحة (٣) كتابة قرآنية على جدران ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .

لوحة (٤) كتابة قرآنية على مدخل ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م.

لوحة (٥) كتابة قرآنية على محراب ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .

لوحة (٦) كتابة قرآنية كوفية على محراب ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .

لوحة (٧) كتابة قرآنية على محراب مسجد خيزرخان الخلجي ٧٢١هـ/ ١٣٢١م .

لوحة (٨) كتابات قرآنية على محراب مسجد بارجومباد ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م .

لوحة (٩) كتابات قرآنية بمحراب ثان بمسجد باراجومباد ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م .

لوحة (١٠) كتابات قرآنية وعبارات دينية على بواطن عقود ومناطق انتقال ظلة القبلة بمسجد باراجومباد .

لوحة (١١) كتابات قرآنية بعقد محراب مسجد كيلاكونا ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م .

لوحة (١٢) كتابات قرآنية بمسجد كيلاكونا ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م .

لوحة (١٣) كتابات قرآنية بمحراب عيسى خان ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م .

لوحة (١٤) تكبير للجزء الأول من الكتابة السابقة بمحراب مسجد عيسى خان ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م.

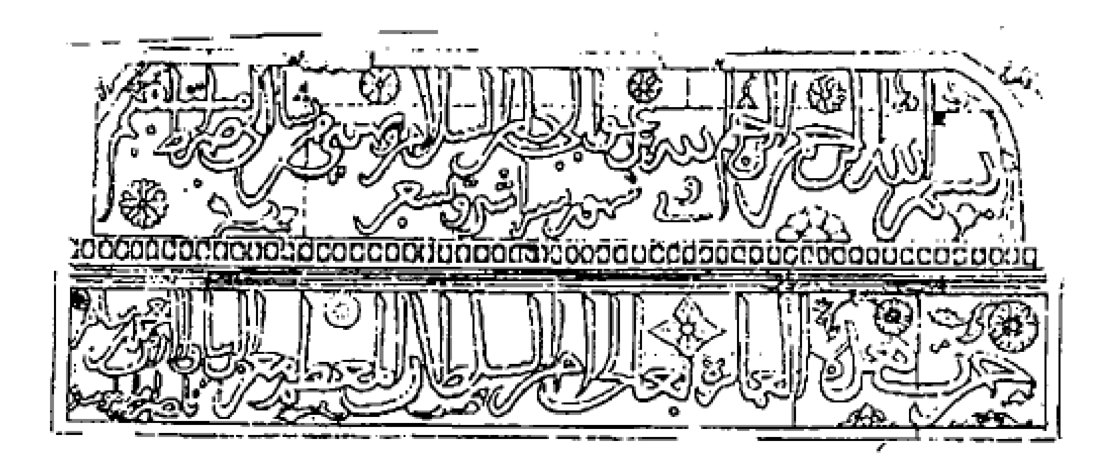
لوحة (١٥) كتابة على أحد التوابيت بمنطقة ضريح نظام الدين ق١٠هـ/ ١٦م.

لوحة (١٦) كتابة على أحد التوابيت بمنطقة ضريح نظام الدين ق١٠هـ/ ١٦م.

لوحة (١٧) كتابة مؤرخة بأحد التوابيت بضريح باربر أواخر ق١٠هـ/ ١٦م .

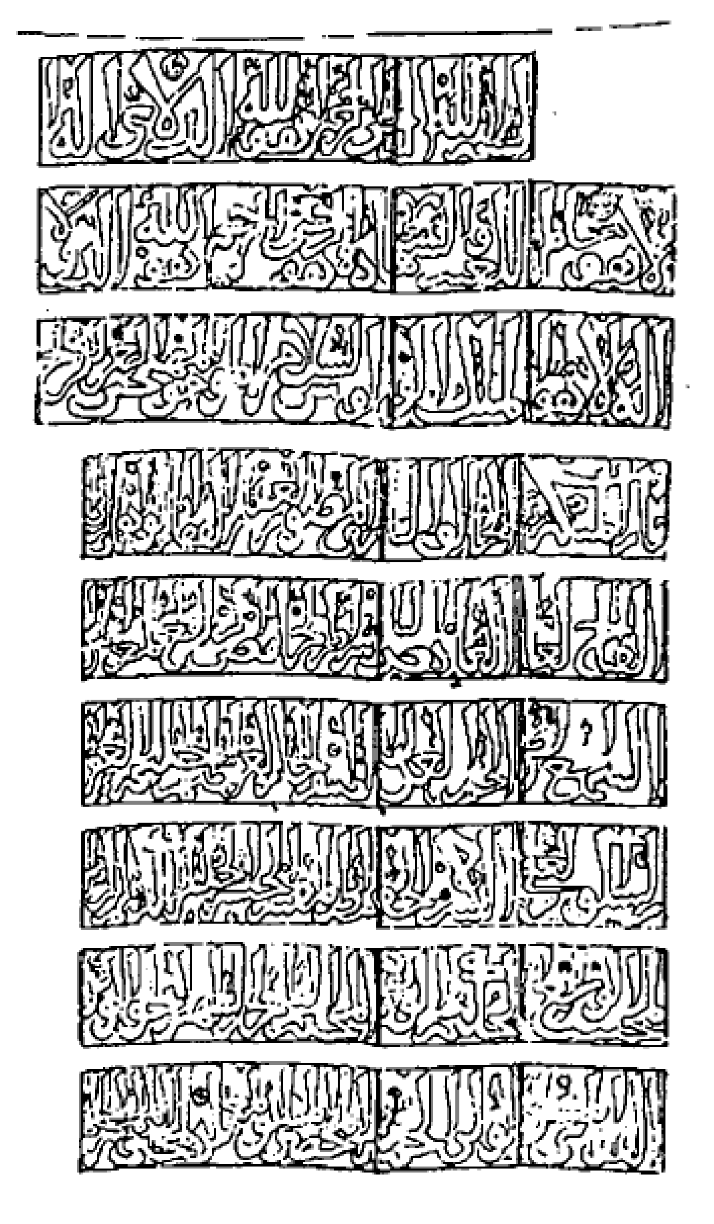
لوحة (١٨) كتابة زخرفية من كلمة يا فتاح مكررة بأحد التوابيت بضريح باربر أواخر ق١٠هـ/١٦م .

أولاً : الأشكال



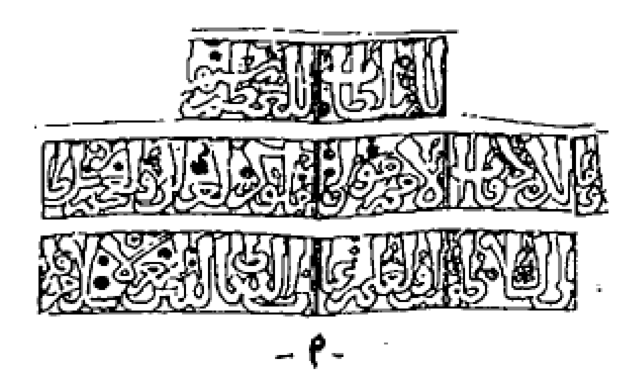
شكل (١) كتابة تأسيسية بمسجد قوة الإسلام بدهلي (قطب منار) ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م .

نقلاً عن (Nath)

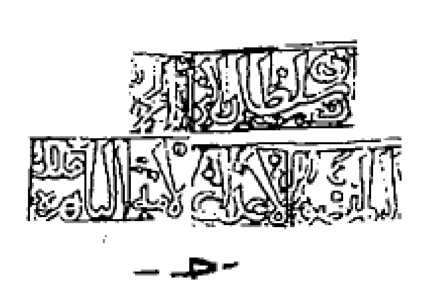


شكل (٢) كتابات بأسماء الله الحسنى بمسجد قوة الإسلام ٦١٧هـ/ ١٢١٩م .

عن (Nath)



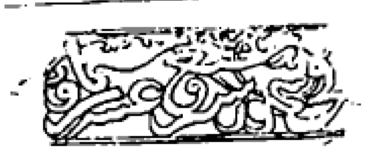
- أ -



- جـ -



- ب -



- د -

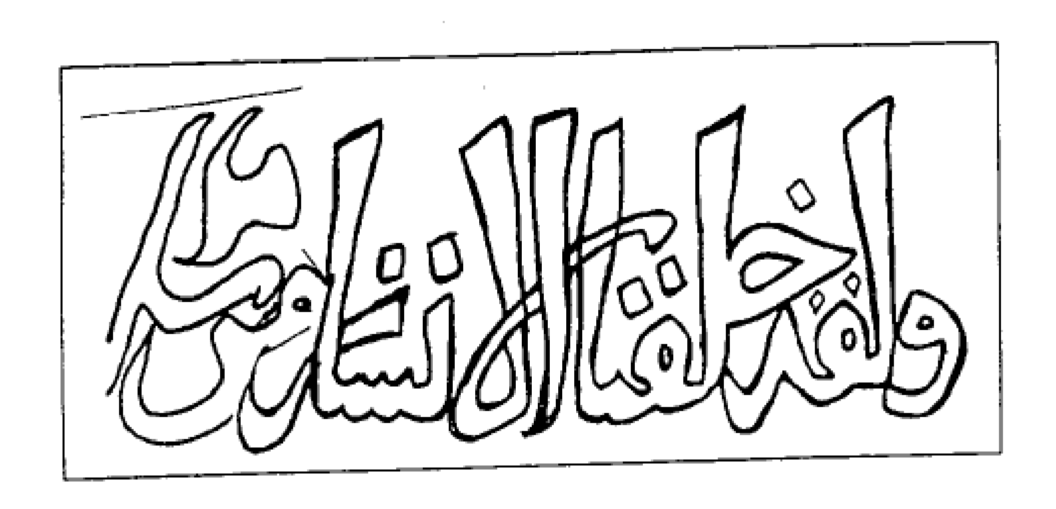
شكل (٣) كتابات تشمل على ألقاب على مئذنة قطب منار بدهلي ٦١٧هـ/ ١٢١٩م .

نقلاً عن (Nath)



شكل (٤) تفريغ لكتابات قرآنية على جدران ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .

(من عمل الباحث)



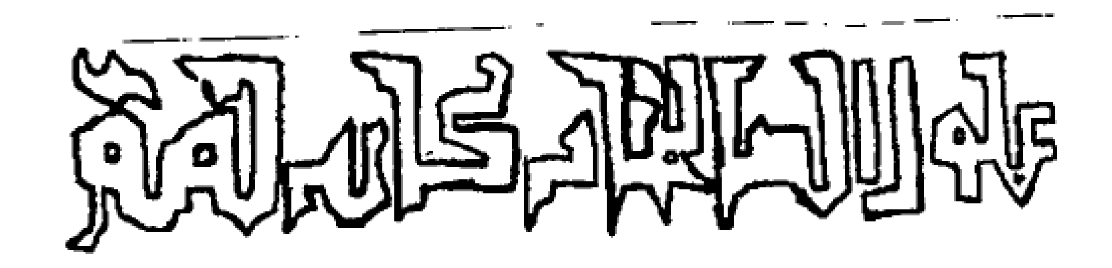
شكل (٥) تفريغ لكتابات قرآنية على جدران ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م .

(من عمل الباحث)

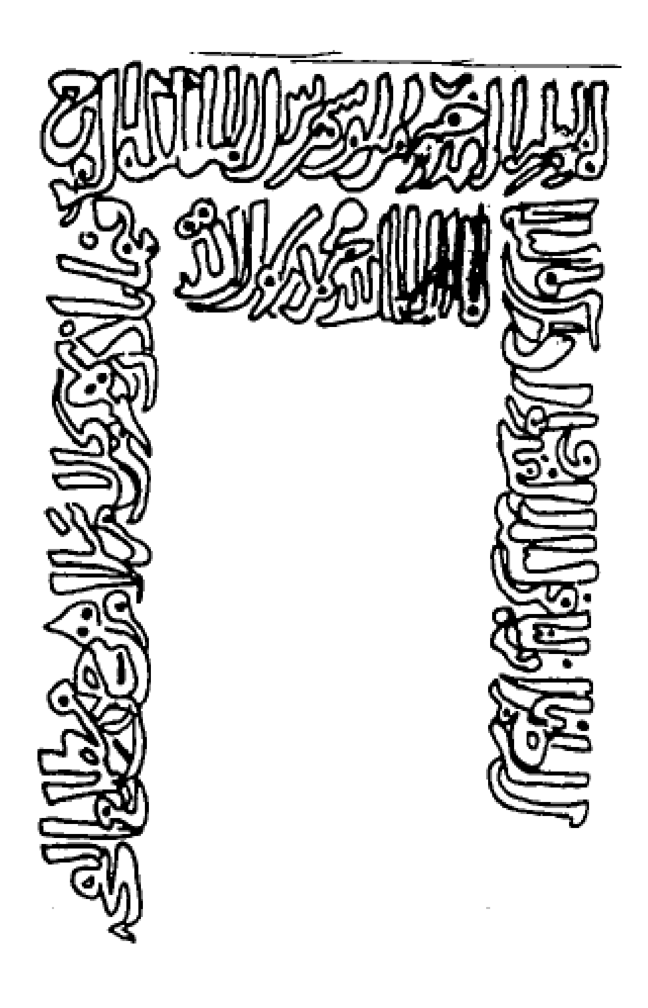


شكل (٦) تفريغ لكتابات قرآنية من سورة يس على محراب ضريح السلكان التمس ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م

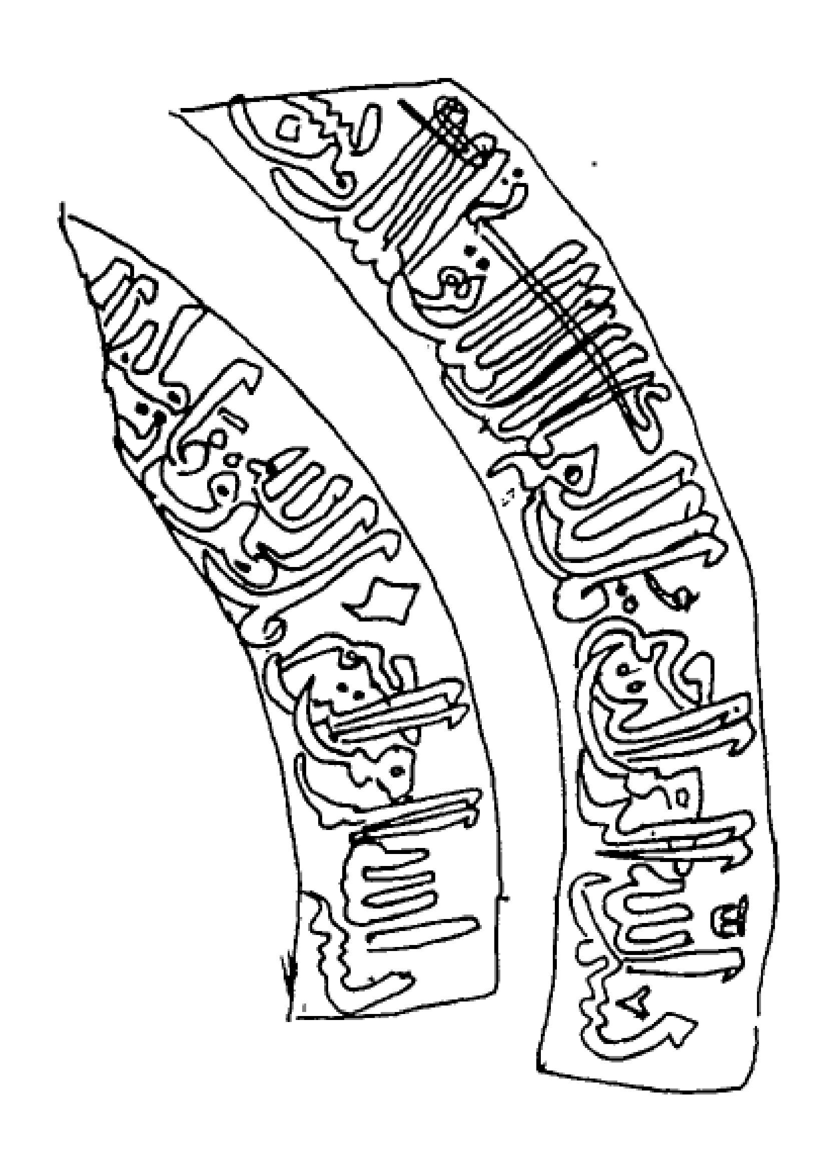
(من عمل الباحث)



شكل (٧) تفريغ لكتابات قرآنية كوفية من سورة الكهف على محراب ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م . (من عمل الباحث)



شكل (٨) تفريغ لكتابات قرآنية من سورة الحشر على محراب مسجد خيزرخان الخلجي ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م. (من عمل الباحث)



شكل (٩) تفريغ لكتابات قرآنية على محراب مسجد عيسى خان ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م .

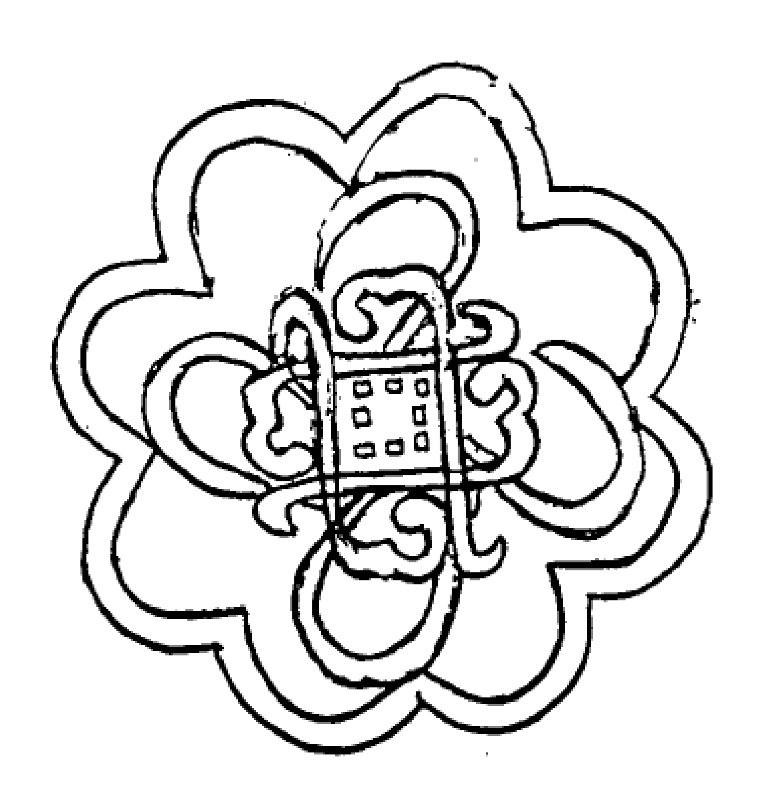
(من عمل الباحث)



شكل (١٠) تفريغ لعبارة التوحيد على أحد
التوابيت بمنطقة ضريح الدين ق١٠هـ/ ١٦م
(من عمل الباحث)



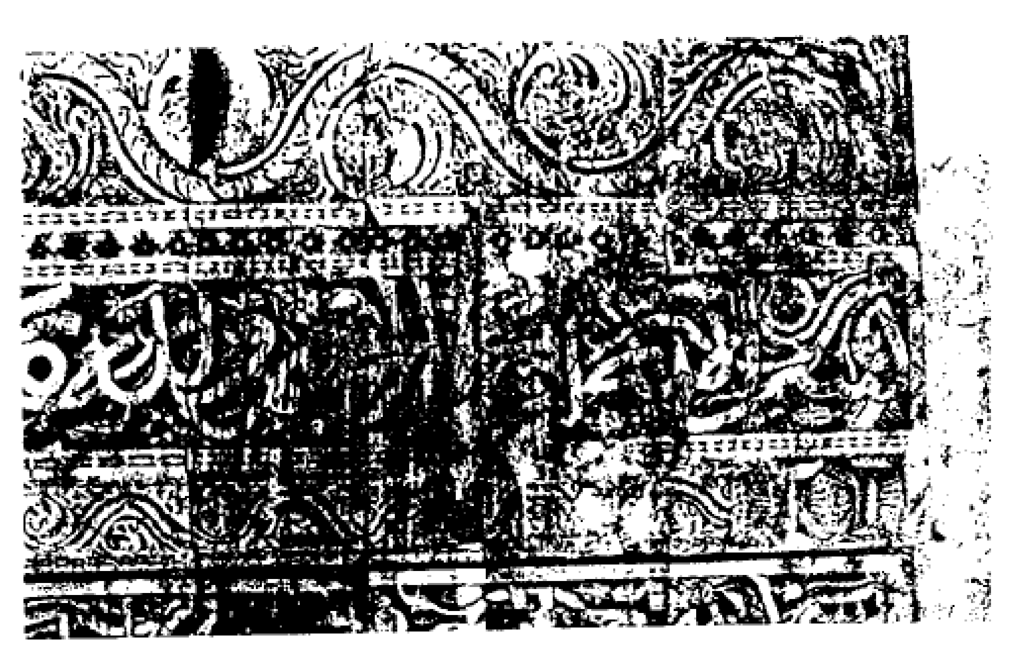
شكل (١١) تفريغ لكلمة "حسبي الله" على
أحد التوابيت بمنطقة ضريح نظام الدين
ق١٠هـ/ ١٦م (من عمل الباحث)



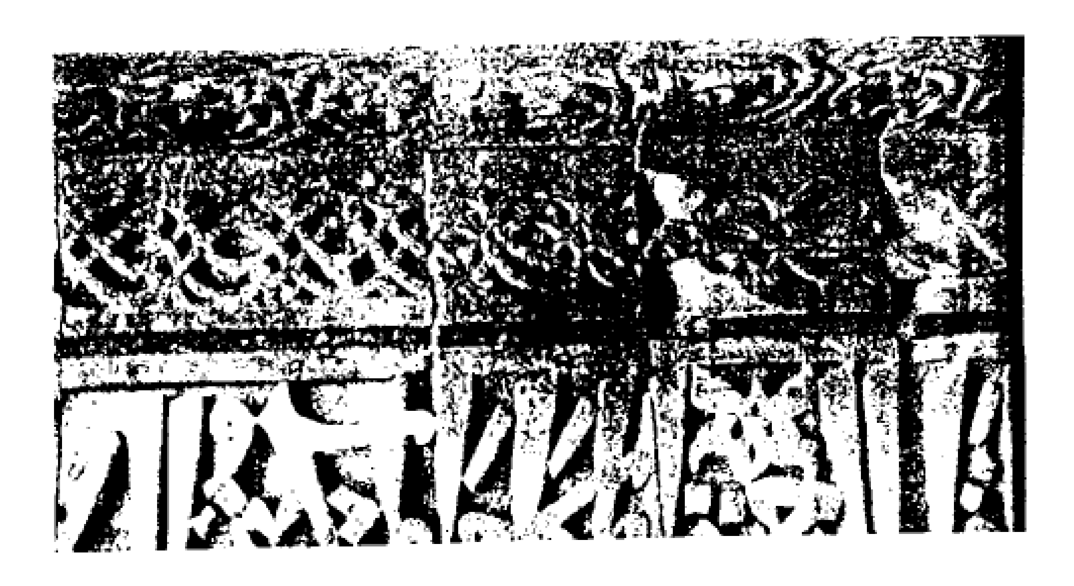
شكل (١٢) تفريغ لتكوين زخرفي من كلمة (يا فتاح) من داخل ضريح باربر أواخر ق١٦م .

(من عمل الباحث) .

ثانيا : اللوحــات



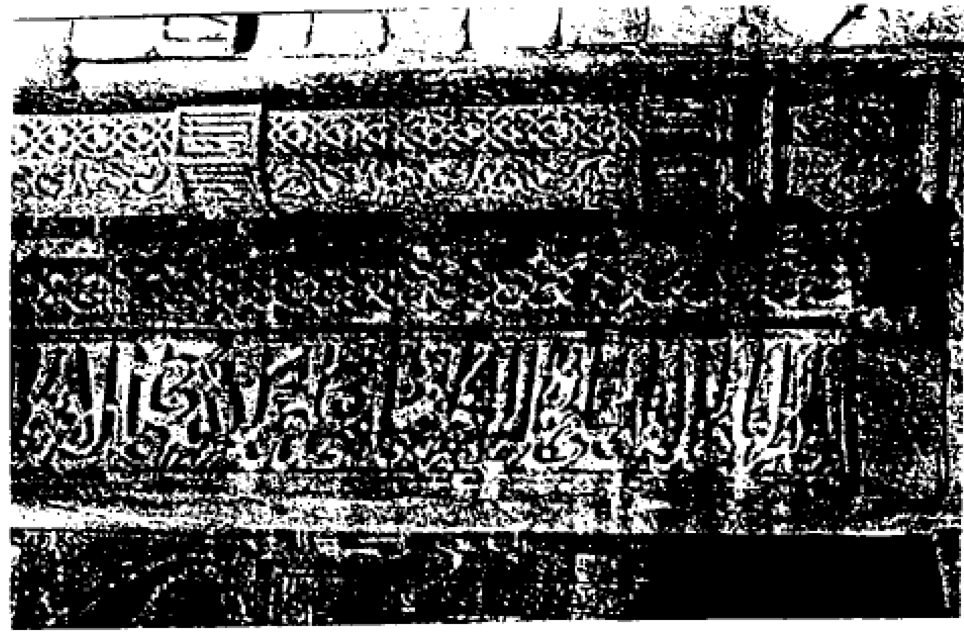
لوحة (١) كتابة قرآنية من مسجد قوة الإسلام ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م



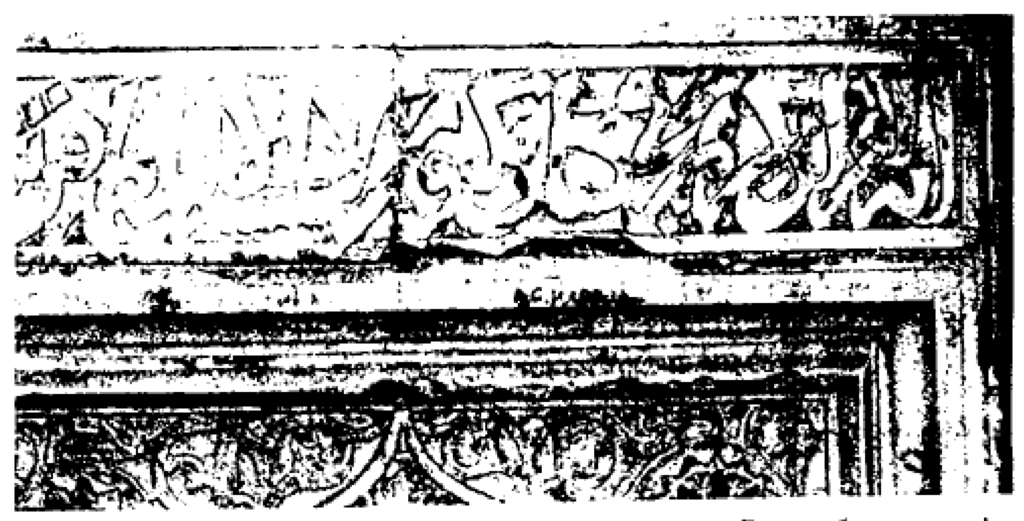
لوحة (٢) كتابة قرآنية على جدران ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م



لوحة (٣) كتابة قرآنية على جدران ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م



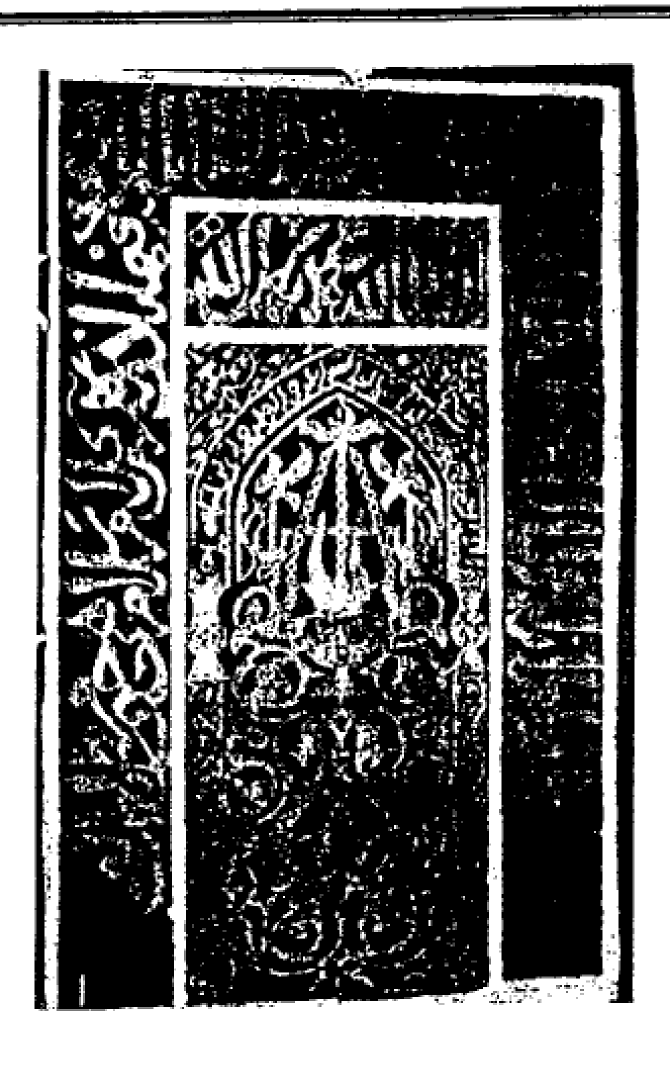
لوحة (٤) كتابة قرآنية على مدخل ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م



لوحة (٥) كتابة قرآنية على محراب ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م



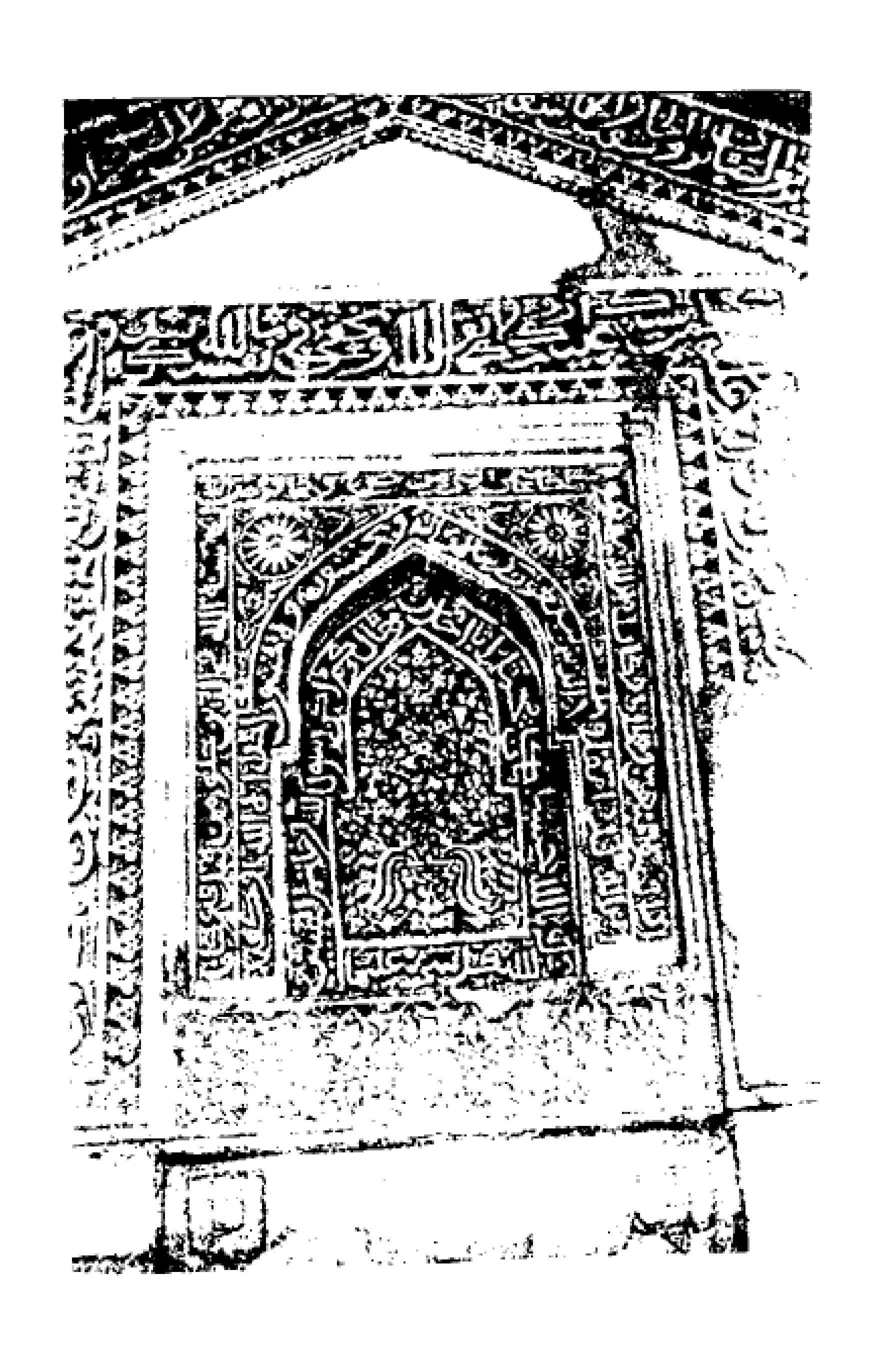
لوحة (٦) كتابة قرآنية كوفية على محراب ضريح السلطان التمش ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م



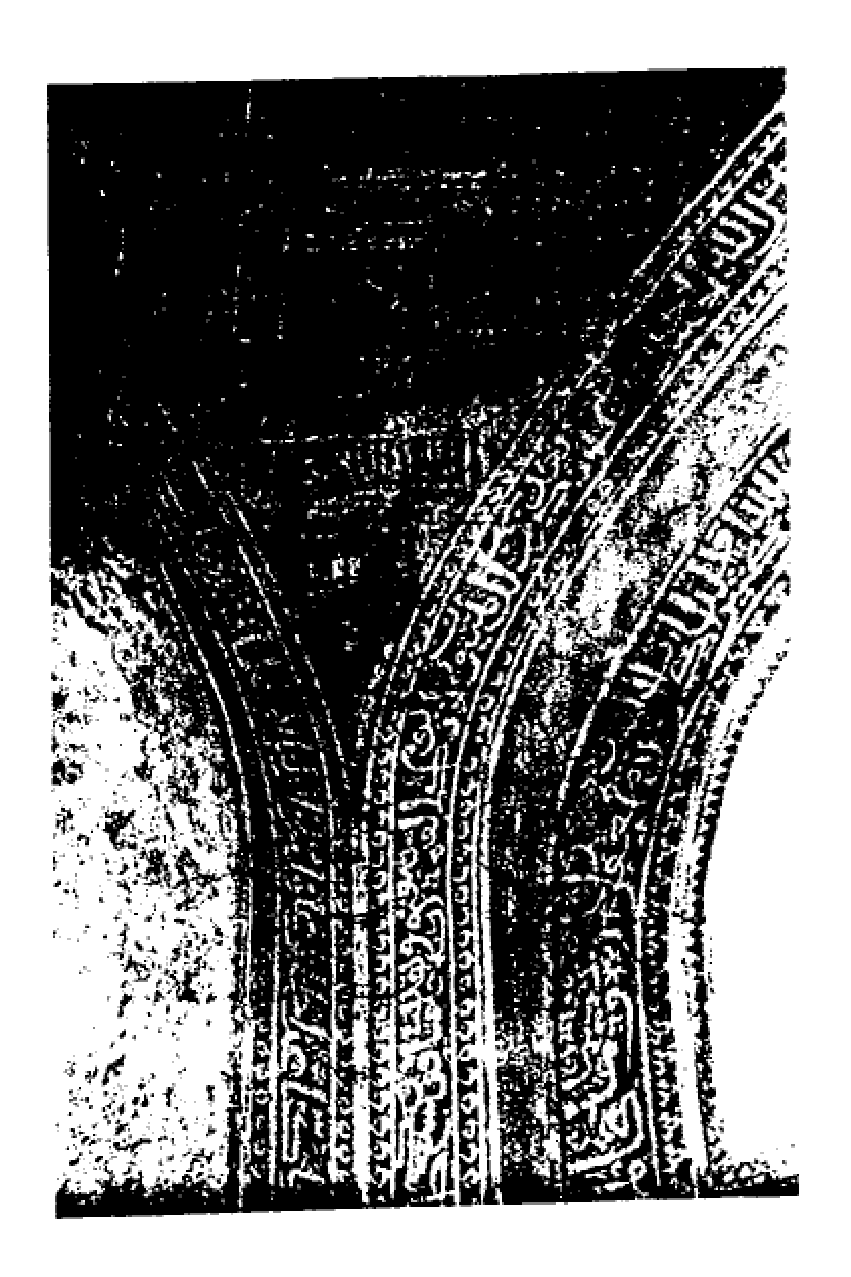
لوحة (٧) كتابة قرآنية على محراب مسجد خيزرخان الخلجي ٧٢١هـ/ ١٣٢١م



لوحة (٨) كتابات قرآنية على محراب مسجد بارجوماد ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م



لوحة (٩) كتابات قرآنية بمحراب ثان بمسجد باراجومباد ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م

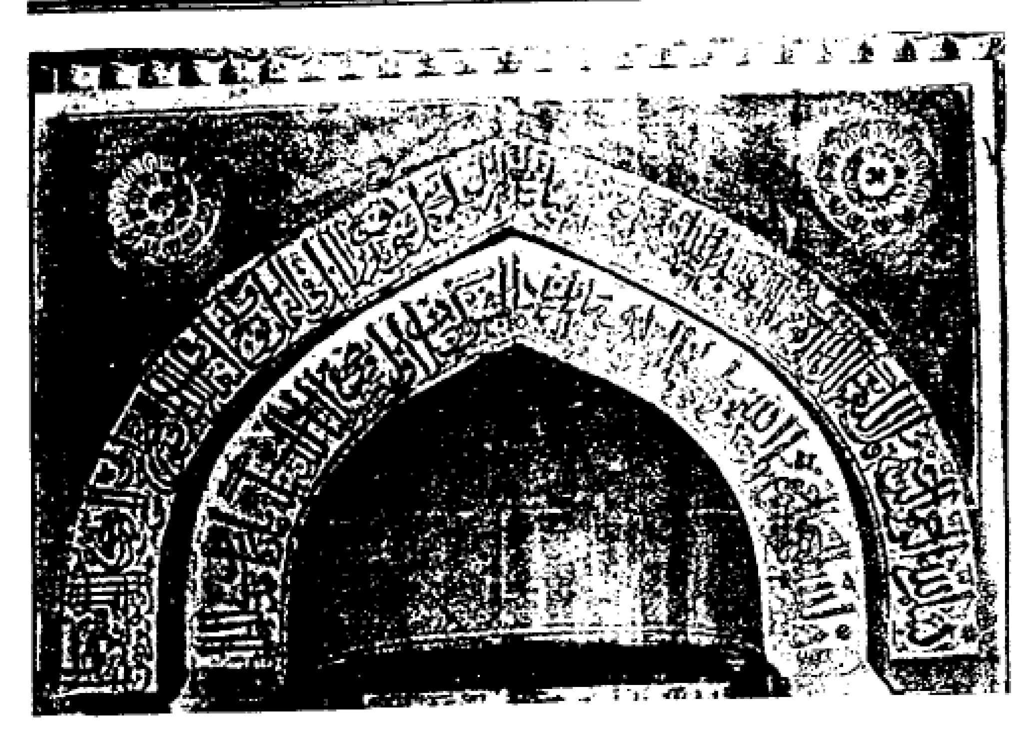




لوحة (١١) كتابات قرآنية بعقد محراب مسجد كيلاكونا ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م



لوحة (١٢) كتابات قرآنية بمسجد كيلاكونا ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م



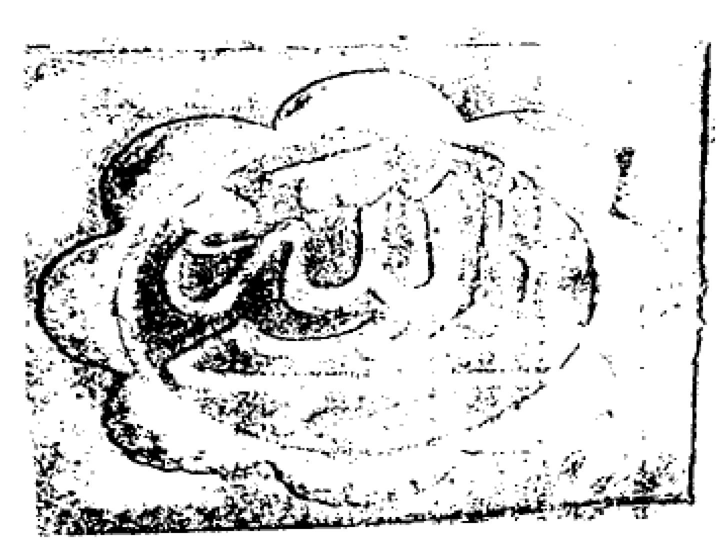
لوحة (١٣) كتابات قرآنية بمحراب عيسى خان ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م



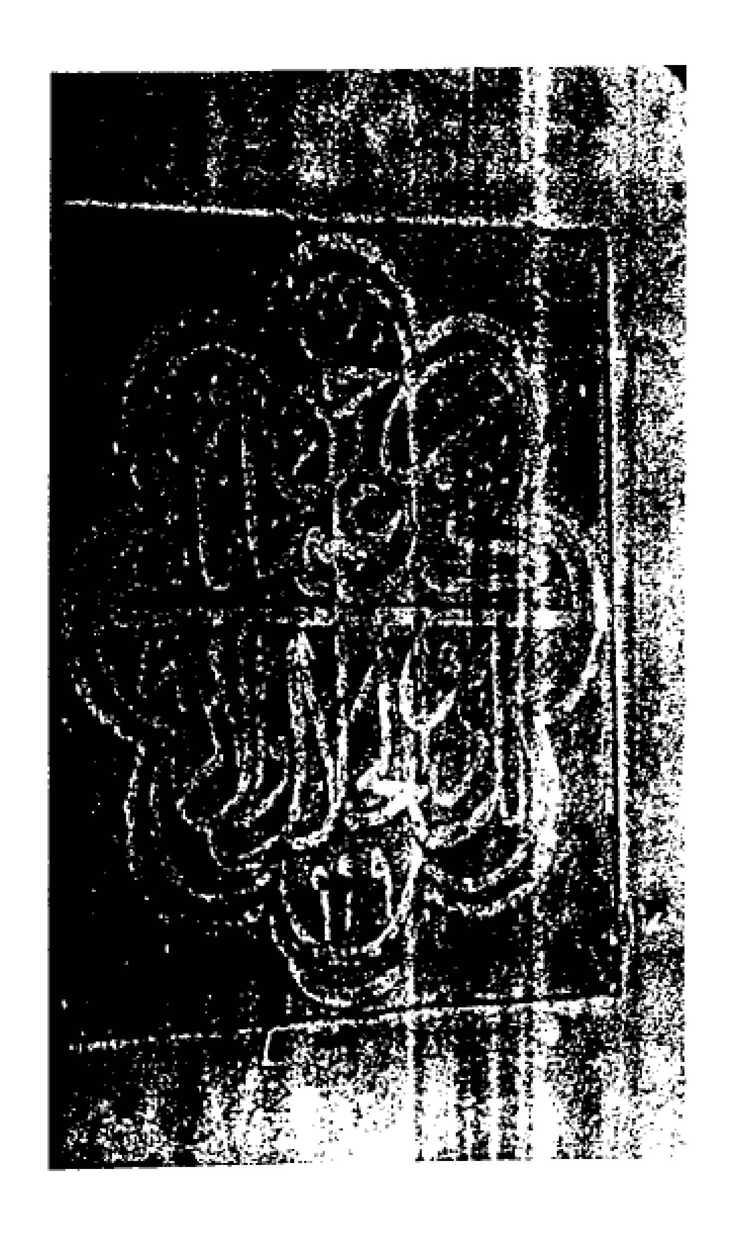
لوحة (١٤) تكبير للجزء الأول من الكتابة السابقة بمحراب مسجد عيسى خان ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م



لوحة (١٥) كتابة على أحد التوابيت بمنطقة ضريح نظام الدين ق١٠هـ/ ١٦م



لوحة (١٦) كتابة على أحد التوابيت بمنطقة ضريح نظام الدين ق١٠هـ/ ١٦م



لوحة (١٧) كتابة مؤرخة بأحد التوابيت بضريح باربر أواخر ق١٠هـ/ ١٦م



لوحة (١٨) كتابة زخرفية من كلمة يا فتاح مكررة بأحد التوابيت بضريح باربر أواخر ق١٠هـ/١٦م

المهمشون في جنوب القاهرة

في النصف الأول من القرن العشرين

د. يحيى محمد محمود

كلية التربية - كفر الشيخ

تعتبر المشكلة الأولى في دراسة تاريخ مصر الاجتماعي هي مشكلة المصادر ؛ حيث تهتم الوثائق بالدرجة الأولى بالأحداث السياسية الهامة، وبسيرة حياة الزعماء والأمراء، ويجد الباحث نفسه أمام جفاف في المصادر التي يمكنها أن تمده بالمعلومات اللازمة خاصة حول تاريخ المهمشين والحرافيش والزعر وباقي الطوائف الدنيا في المجتمع .

ستعتمد هذه الدراسة على أرشيف إحدى الجماعات الأهلية التي اهتمت بالفئات الدنيا من المجتمع، وعملت على تنميتها والاهتمام بها والارتفاع بمستواها، وهى جماعة الرواد التي أسسها المبعوثون المصريون العائدون من أوروبا سنة ١٩٢٩م، والمتأثرين بالفكر الاشتراكي الفابي، ولهذا اهتموا بالطبقات الأقل حظا من أبناء المجتمع وعملوا على الارتفاع بمستواها .

كانت البداية عندما بدأ هؤلاء العائدون دراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية لتلك الطبقات الفقيرة من أجل البحث عن الوسائل اللازمة لعلاج الأوضاع الاجتماعية بالمناطق التي يعيشون بها . وقد عكف فريق من الباحثين المهرة على دراسة أوضاع تلك الطبقات، و إجراء الإحصائيات اللازمة لإمدادهم بالمعلومات اللازمة للتعامل معها . وقام بتنظيم هذه الإحصائيات والإشراف عليها الدكتور عبد المنعم الشافعي[١]، بالإضافة إلى الدكتور عبد الجليل العمرى[٢]، ومعهما مجموعة من الخبراء المهتمين بالعمل الاجتماعي في مصر، وترجع تلك الدراسات إلى الفترة من سنة ١٩٣٩م إلى ١٩٤٣م .

ستعتمد دراستنا تلك على وثائق تلك الجماعة الأهلية (الرواد)، بالإضافة إلى مجموعة الوثائق التقليدية المحفوظة بدار الوثائق القومية، وباقي مصادر دراسة تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي، ونظرا لصعوبة فصل تلك الفئات من المهمشين عن بعضها البعض فستعتمد الدراسة أيضا على دراسة تلك الفئات في ضوء الأحياء التي تسكنها؛ والتي تضم خليطا من فئات متشابهة، إلا أنها تشكل وسطا اجتماعيا واحدا ، تسكن في ظروف واحدة ، وتعيش في تناسق اجتماعي في حي الطيبى و أبو سيفين في جنوب القاهرة.

الموقع

في جنوب القاهرة وبالقرب من سور القاهرة القديم المشهور باسم مجرى العيون تقع تلك المنطقة التي يخترقها شارع أبو سيفين، وألتي تضم عدة مناطق فقيرة هي منطقة حوش الغجر، وعزبة القرود، وهى المنطقة التي كان يشار إليها جغرافيا باسم حوض النخيل، ومنطقة الطيبي، وهى منطقة أفضل قليلا من منطقة حوض النخيل، وهى منطقة تبدأ من مسجد الطيبي وتنتهي عند جبانة الإنجليز البروتستانت .

وتضم المنطقة عدة جبانات للمسيحيين منها جبانة الأرثوذكس وجبانة الروم الكاثوليك وجبانة الإنجليز البروتستانت، ويخترقها أيضا تلا كبيرا وهو تل الطيبى والمنطقة المعروفة باسم تل العقارب، و كانت تتبع بعض أجزاءها في تلك الفترة لمصلحة المناجم والمحاجر؛ حيث كانت تستخدم للعمل كجباسات.

مع عدم قدرة مجموعات كبيرة من المهمشين على الحياة في القاهرة القديمة في بداية القرن العشرين لجأ هؤلاء المهمشون لسكنى تلك المنطقة المهجورة الملاصقة لأسوار المقابر والتلال غير الصالحة صحيا للسكن، وتحولت الجباسات والمحاجر التي كانت لا تتبع اية منطقة سكنية، الى منطقة لسكنى الغجر ــ وهى طائفة تعمل بالموالد ــ و وضاربوا الودع، والقرداتية، وغيرها من الحرف الدنيئة وألتي لا تجد وسيلة للحياة داخل القاهرة . وقد أطلق الأهالي على هؤلاء جميعا اسم الغجر، وأطلقوا على المنطقة ألتي يقيمون بها اسم "حوش الغجر"، وبالرغم من عدم استقرار الغجر في تلك المنطقة وترحالهم منها إلا أن الأهالي أطلقوا علي سكانها اسم الغجر وأصبحت كلمة غجري تطلق على كل من

سكن المنطقة التي تمارس نفس المهن وهى التسول والسرقة والحرف الدنيئة، وكل من انضم إليهم من القادرين واستطاع التعايش معهم في تلك المنطقة.

وقد بدأ أنصار الغابية من المصريين دراسة تلك المنطقة تمهيدا للتعامل مع سكانها. وسنستخدم وثائقهم ودراساتهم كمصدر لدراستنا، وسنبدأ أولا بحي الطيبي ثم حوش الغجر .

حي الطيبى :

الوصف العام لحى الطيبي :

حي الطيبى من الأحياء البلدية، يتبع قسم السيدة زينب[٣] والشارع الرئيسي به هو شارع السد البراني، الذي كان يتراوح اتساعه ما بين ٥ و ٦ متر، وهو شارع مرصوف ومع ذلك سرعان ما تنتشر به القاذورات ؛ للكثافة المرورية به وتزاحم الباعة الجائلين على جنباته .

ويقسم شارع الخليج المصري الحي إلى منطقتين :الأولى مزدحمة بالسكان والأخرى وهى موضع الدراسة تنقسم إلى أزقة ضيقة تقع شرق الحي وهو الجزء الذي توجد به المقابر المحاطة بالأسوار و في نفس الوقت الأكثر قذارة .

كان الحي محروما من المدارس الأولية، ولكنه يمتاز عن غيره من الأحياء بقربه من المستشفيات العامة حيث يسهل علاج سكانه .

أما مساكن الحي فتنقسم إلى أربعة أنواع من الأبنية :النوع الأول منها مبنى بالدبش ويمثل ٥٧,٥% من مجموع مساكن الحي، والثاني أبنية بالحجر الجيري وتمثل ٢٥% منها، والثالث أبنية بالطوب الأحمر وتمثل ١٥%، أما النوع الرابع وهو الأبنية الخشبية فلا تمثل إلا ٢,٥% من مجموع المساكن[٤]، وبالرغم من وجود مساكن خشبية وأخرى بالدبش وهى الغالبية العظمى من مساكن الحي، إلا أن ذلك يعتبر من أفضل الأحياء مقارنة بمناطق أخرى حيث لا توجد فيه مساكن من الصفيح أو الخشب ألا بنسبة قليلة، ولكنه أيضا يعبر عن مدى رداءة مساكن الحي الذي بنيت مساكنه بدون تخطيط هندسي مما يعبر عن العشوائية وهى ما تعكس منذ البداية طبيعة الحي.

أما من حيث توافر الشروط الصحية بهذه المساكن فقد كان ٧٥% من

مجموعها غير موصل بالمجارى العمومية، وكان ٧٠% منها لا توجد بـــه ميـــاه للشرب وكان السكان يشترون المياه من السقاءين أو يجلبونها بأنفســهم مــن النيــل المجاور[٥]، وهو ما انعكس على الصحة العامة لسكان الحـــي، كمــا يشــير إلـــى المستوى المعيشي المتدني لهذا الحي، كذلك عدم توصيل ثلاثـــة أربـــاع المنـــازل بالمجارى العمومية يعنى أن ثلاثة أرباع الحـــي كـــانت خـــارج تفكــير الأجــهزة الحكومية، وتعيش في مستوى متدنى .

أما دورات المياه فان ٥٧,٥% من مجموع المساكن كان يوجــد بكــل منـــها مرحاض واحد مشترك لسكان المنزل جميعا،و ٥ % من هذه المساكن تخلـــو تمامـــا من المراحيض .أما الحمامات فان ٦٢،٥% من المساكن يخلو منها، كذلك المطـــابخ لا توجد إلا في ٥ % من مجموع المساكن،أما الباقي و يمثل ٩٥% فـــلا تحتــوى على مطابخ علىالإطلاق بل تستعمل الحجـــرات نفســها فـــي أعــداد الأطعمـــة والطهي[٦]، وهو ما يبن التدني الذي وصل إليه مستوى المعيشة.

أما الإضاءة فكان ١٧,٥% من المساكن يضاء بـــالبترول، وكـــان البـــاقي محروم تماما من الإضاءة[٧]. أما التهوية وهى من أهم العناصر الصحيـــة الـــلازم توافرهـــــا ؛ لتنقية هواء الغرف وتجديده فان ٤,٨% مـــن مجمـــوع الغـــرف لا توجد بها نوافذ بالمرة ، و ٦٦% منها يوجد بها نافذة واحدة فقط ،كمـــا أن الشـــمس والهواء لا يتوفران إلا فـــي ٥% من مجموع المساكن[٨]، أما حجرات النوم فـــلا توجد حجرة منها يمكن اعتبارها صحية على الوجه الأكمل، وتنقسم حجرات النـــوم من هذه الناحية إلـــى قسمين :قســم غير صحي بـــالمرة، وهـــو ٤٩% مـــن مجموع الحجرات، والقسم الأخر وحالته الصحية متوسطة فيمثل ٥١%[٩] .

أما مستوى النظافة في المساكن فكان منخفضا للغاية؛ فـــلا تتوافـــر النظافـــة الكاملة إلا في ٧,٥% من مجموع المساكن، وتتوفر بدرجة متوسطة فـــي ٢٠ % منها، وتتوفر بدرجة أقل من المتوسطة في ٢٧,٥% ، وتنعدم تماما في ٤٥% مـــن مجموع هذه المساكن[١٠] .

أما عن الاكتظاظ السكاني في تلك المساكن فقد كان متوسط ما يخص الحجرة من السكان يتراوح ما بين ٢ و ٥ أفراد لكل حجرة واحدة ،إذ لا يوجد ســــــوى ٥% مـــن مجموع الحجرات يقطنها فرد واحد، ثم ترتفع هـــذه النسبة آلي حوالـــي

٢٧ % من الحجرات يقطنها فردين ،و تكاد تتساوى هذه النسبة مع نسبة الحجرات التي يقطنها ثلاثة أفراد حيث تبلغ حوالي ٢٦%، ثم تنخفض النسبة بعض الشيء فتصل إلى حوالي ١٨ % من مجموع لحجرات يقطنها أربعة أفراد، وتستمر في الانخفاض فتبلغ حوالي ١٣% من مجموع الحجرات التي يقطنها خمسة أفراد، ثم حوالي ٦% من الغرف يقطنها ستة أفراد، وحوالي ٣% يقطنها سبعة أفراد، و أخيرا حوالي ٢% منها يقطنها تسعة أفراد[١١]. هذا الاكتظاظ السكاني يعكس مستوى معيشة الحي ومدى تردى المستوى المعيشي .

أما غرف النوم فان نسبة اكتظاظها بالشاغلين لها قد تعطينا فكرة أوسع مما أعطتنا النسب السابقة ؛ لان معرفة عدد الشاغلين لحجرات النوم ودرجة اكتظاظهم فيها لها أهمية كبرى في إدراك الحالة الصحية العامة للسكان، ومدى تعرض السكان للعدوى بالأمراض المعدية، فقد كان ٢% من مجموع غرف النوم ينام بها فرد واحد ، بينما كان حوالي ١١,٧ % منها ينام بها فردين، وحوالي ٢٣,٥% ينام بها ثلاثة أفراد، بينما كان حوالي ٢١,٦% منها ينام بها أربعة أفراد،و كان ٢١,٦ % أيضا ينام بها خمسة أفراد، بينما كان ١١,٧% من حجرات النوم ينام بها ستة أفراد، وحوالي ٥,٩% منها ينام بها سبعة أفراد، وأخيرا حوالي ١٢% ينام بها تسعة أفراد[١٢]، ولعل ذلك راجع إلى أن معظم الأسر تقطن كل منها غرفة واحدة تستعملها لشتى الأغراض .

مثل هذه الحالة السيئة للحى ومساكنه وحالة السكان في هذه المساكن تدل دلالة واضحة على مدى تعرض السكان لخطر العدوى بالأمراض المختلفة ؛ الناتجة من عدم توافر الشروط الصحية في المسكن نفسه، وتلوث مياه الشرب، وعدم وجود مراحيض صحية، مما سهل انتقال العدوى من المريض إلى السليم؛ نتيجة لازدحام الحجرات بهم مع سوء التهوية، وعدم توافر الشمس والهواء والنظافة، فيها مما يسبب ضعف مقاومة السكان للأمراض المختلفة .

الحالة الصحية :

يبلغ عدد الأصحاء بين السكان حوالي ٨١,٣% من مجموعهم، والمرضى ١٧,٣% وذوى العاهات ١,٤% [١٣]، وقد تم هذا التحديد بطريقة العينة ، ودون أجراء لكشف طبي عام للسكان لتحديد المرضى، وكان تحديد المرضى على أساس

عدد الأفراد الذين تظهر عليهم أعراض مرضية فعلا، أما باقي الأفراد فقد كان من الصعب تحديد حالتهم الصحية بدقة اولا لان حالتهم العامة تبدو عادية،وثانيا لانهم لا يشكون أعراضا مرضية ومن ثم فهم يعتقدون انهم أصحاء، وان كان يبدو عليهم من مظاهر الثقافة المحيطة بهم والتي تظهر نتائجها جلية واضحة على وجوههم الشاحبة، وأبدانهم الهزيلة أن معظمهم مصاب بأمراض سوء التغذية والأمراض المعوية كالدوسنتاريا والإسهال، ويسهل ملاحظة هذه الحالة خصوصا بين الأطفال .

ولعل توزيع عدد المرضى على الأعمار المختلفة يبين لنا مدى تعرض الأطفال للأمراض أكثر من أي مجموعة أخرى، فقد كان ١٦,٢% من المرضى تتراوح أعمارهم بين سنة إلى أقل من خمس سنوات، و ٢٤,٣% من مجموعهم تتراوح أعمارهم بين ٥ إلى أقل من عشر سنوات، و٢٤,٣% أيضا تتراوح بين عشرة إلى أقل من ٢٠ عاما، أما الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ إلى أقل من ٣٠ سنة فتبلغ نسبة المرضى ٥,٤% من مجموعهم، وبنفس النسبة بين الأفراد من سن ٣٠ إلى ٤٠ سنة، ثم ترتفع النسبة مرة أخرى بين الأفراد من سن ٤٠ إلى ٥٠ فتصير حوالي ١٦ % من مجموع المرضى ، ثم تبدأ مرة اخرى في الهبوط فتصل إلى ٥,٤% بين الأفراد من سن ٥٠ إلى أقل من سن ال ٦٠ سنة، وأخيرا تصل إلى حوالي ٢,٨% بين الأفراد في سن الستين ، ومن لواضح أن أغلب النسب الكبيرة تظهر في فئات السن الأولى إذ تبلغ نسبة مجموع المرضى بين الأطفال ابتداء من سن ستة إلى أقل من ١٥ سنة ، وهى السنين التي يمر فيها الطفل بمراحل نموه الهامة حوالي ٦٥% [١٤] من مجموع المرضى جميعهم وتؤدى هذه الحالة إلى ضعف في النمو للبالغين.

ما عن نسب الوفيات بين الأطفال من سن سنة إلى أقل من ٥ سنوات فكانت تبلغ حوالي ٧٦,٧%، أما الأطفال أقل من سنة فتصل نسبة الوفيات ٧٢,٧% من مجموعهم [١٥]، ولعل في ذلك ما يوضح لنا مدى ما كان يتعرض أطفال هذا الحي في مراحل نموهم الأولى من خطورة كبيرة، ومن خلال تعرضهم للأمراض التي تؤدى إلى ارتفاع الوفيات .

وقد تعددت أسباب وفيات الأطفال ما بين النزلات المعوية والشعبية والالتهاب

الرئوي والدوسنتاريا والإسهال، وهي أمراض تنتشر بين الأطفال بسبب سؤ العناية بهم وجهل ذويهم بقواعد الصحة العامة .

ويبلغ متوسط الوفيات في الأسرة الواحدة ما يتراوح بين ٢ و٣ أفراد أي بنسبة حوالي ٥٠%[١٦] من مجموع أفراد الأسرة الواحدة وهي نسبة بالغة الخطورة، كل هذا يدلنا على مدى فساد البيئة، وجهل بالقواعد الصحية وسؤ رعايتهم لأطفالهم وعدم استفادتهم بوجود المستشفيات العامة القريبة منهم.

الحالة الاقتصادية :

يبلغ عدد المتكسبين الذكور بين أفراد العائلة حوالي٢٧% من مجموع السكان وحوالي **٣%** من الإناث .أما نسبة عدد من ينفقون عليهم هؤلاء المتكسبين حوالي **٧٠%** من مجموع السكان، وتبلغ نسبة العاطلين من الذكور فوق سن السابعة حوالي **٣,٧%**[١٧] من مجموع السكان .ويبلغ متوسط دخل الفرد في العام ٢١,٤٣٢ جنيها ومتوسط ما ينفقه في العام أيضا ١٨,٠٤٨[١٨].

أما عن توزيع الدخل على أوجه الأنفاق المختلفة فقد كان الأنفاق حوالي ٥٩,٥% من الدخل على الطعام، وحوالي ٥,٥% منه على المسكن وحوالي ٨,٥% على الملبس و٨,٤**%** على المكيفات، و٢,٤% على أبواب الصرف الأخرى كمصاريف الانتقال والمصروفات المدرسية وغيرها[١٩].

وقد انقسم سكان الحي على أساس مهن أربابها إلى قسمين : القسم الأول يقوم بأعمال حرة وهو الأكثر رواجا من القسم الثاني الذي يشتغل أربابه أجراء لدى هيئات مختلفة، ولكي يسهل أدراك حالة السكان على أساس دخولهم المختلفة اتضح أن ٥% من مجموع السكان كان يتراوح دخل الفرد بين ٥ وأقل من عشرة جنيهات في العام،و ١٢,٥% يتراوح دخلهم بين ١٠ وأقل من ١٥ جنيها،و ١٧،٥% يتراوح دخلهم بين ١٥ و أقل من ٢٠ جنيها، و١٢,٥% يتراوح دخلهم بين ١٠ وأقل من ٢٥ جنيها، و١٧،٥% يتراوح دخلهم بين ١٥ وأقل من ٢٠ جنيها، و١٢ و٥% دخلهم بين ٢٠ وأقل من ٢٥جنيها، ثم تقل النسبة حتى تصل إلى ٢,٥% من الأفراد يتراوح دخلهم بين ٣٥ وأقل من ٤٠ جنيها،وترتفع النسبة فجأة إلى ١٠% من الأفراد يتراوح دخلهم بين ٤٠ و٤٥ جنيها وهؤلاء يمثلون أصحاب المهن الحرة

التي تلقى رواجا كتجارة الأغنام والجزارة ومقاولات البناء، وتنخفض النسبة إلى ٢,٥% من الأفراد يتراوح دخلها بين ٥٠ و أقل من٥٥ جنيها، و ٢,٥% أيضا يتراوح دخلها بين ٥٥ و أقل من ٦٠ جنيها في العام[٢٠].

من هذا كله يتضح لنا أن معظم دخول الأفراد تتراوح ما بين جنيه واحد و ٣٠ جنيها في العام، إذ تبلغ نسبة من تتراوح دخولهم بين هذين الحدين ٦٧,٥ % من مجموع سكان الحي، وهذا الدخل لا يكفي إطلاقا لتحقيق مستوى معيشي ملائم للحياة الإنسانية وخصوصا كلما قل الدخل عن المتوسط العام الذي كان يبلغ في تلك السنة ٢١,٣٢٤ جنيه مصري[٢١].

وعن طريقة أنفاق الدخل يلاحظ أن أكثر من نصفه ينفق على الماكل. ولكن مقدار ما يصرف على المسكن والملبس يعطينا فكرة عن مدى ضيق هذا الدخل عن توفير احتياجات الفرد والأسرة بوجه عام[٢٢]، إذ يستهلك المأكل باعتباره اشد حاجات الإنسان إلحاحا أكثر من نصفه بينما يوزع الباقي على شتى الحاجات الأخرى الضرورية والكمالية .

أما المكيفات – كانت تنحصر بين الدخان والقهوة والشاي والخمور – ومقدار ما ينفق عليها على وجه التحديد يلاحظ أن النسبة العامة لما ينفق عليها من مجموع الدخل حوالي ٨,٤% ، بفرض وجود المتعاطين لها في كل أسر الحي ولكن الواقع أن ٥٠%[٢٣] فقط من أسر الحي هي التي يوجد بها متعاطو المكيفات، أما الباقي فتعجز موارد الأسر عن السماح بتعاطيها في معظم الأحوال.

وتبلغ نسبة عدد المتعاطين للمكيفات إلى مجموع الذكور فوق سن ١٥سنه حوالي ٥٠%، ونسبتهم إلى مجموع السكان ١٠,٨% وتبلغ نسبة ما ينفقونه عليها من دخولهم حوالي ١٦ ,٩%، وهى نسبة عالية إذا قيست بما ينفق على كل من المأكل والملبس والمسكن ، وهى ضرورات اشد إلحاحا وادعى إلى الاهتمام بها من المكيفات . وقد كان هناك نسبة متوسطة من الأفراد فوق سن العشرين يتعاطون المخدرات ولكنهم يتحفظون في الإدلاء بمقدار ما ينفقونه عليها لما يشعرون به من حرج، ويحتمل أن يكون ما كان ينفقونه عليها جزءا كبيرا من نسبة ما يتبقى من الدخل دون أدنى اعتبار لارتفاع أسعارها، وقد يفسر أيضا هذه الحالة سبب عدم وجود ادخار بين العائلات التي يزيد دخلها عن مصروفاتها .

بعد هذا العرض للحالة الاقتصادية نستخلص نتيجتين : الأولى أن معظم الأسر لم يكن يكفيها دخلها ،أو بمعنى آخر فان هذا الدخل لا يمكنه توفير مستوى معيشي ملائم للفرد، والثانية : أن الأسر لا تستطيع أن توفق في إنفاقها بين أوجه الصرف المختلفة، إذ نجدها تنفق على المكيفات نسبة كبيرة من دخلها لا تتناسب مع حالتها الاقتصادية .

الحالة الاجتماعية :

أ – الهجرة الداخلية :

تبلغ نسبة عدد الأسر المهاجرة من الأقاليم لهذا الحي ٥٠%من مجموع الأسر، يخص الوجه البحري من هذه الأسر ٤٠ % والوجه القبلي ٦٠ % [٢٤]. وتترك البيئة التي هاجروا منها أثرها في عاداتهم وتقاليدهم داخل بيئتهم الجديدة ؛ مما يسبب لهم مشاكل عديدة نتيجة عدم تكيفهم مع البيئة الجديدة وصعوبة تسليمهم بعاداتها وتقاليدها التي يعتبرونها دخيلة عليهم .

ب – الحالة المدنية للسكان :

تبلغ نسبة عدد الذكور فوق سن الزواج إلى عددهم الكلي ٣٢,٢% ،وتبلغ نسبة المتزوجين منهم حوالي ٨١% ، والمطلقين حوالي ٢,٤ %، والأرامل نسبة ٤,٢%، وغير المتزوجين حوالي ١٤,٣ % منهم[٢٥].

أما الإناث فتبلغ نسبة عدد من بلغ منهن سن الزواج ٦١,٩%، المتزوجات منهن ٦٣,٥%،و المطلقات ٧,٧%، والأرامل أيضا ٧,٧% ،و تبلغ نسبة غير المتزوجات ٢١,١ %[٢٦]. ويلاحظ من هذه النسب أن هناك إقبال على الزواج ،إذ تبلغ نسبة غير المتزوجين من الذكور فوق سن الزواج إلى عددهم ١٤,٣ % فقط ، بينما تزيد هذه النسبة إلى ٢١,١% في الإناث، وذلك لان عدد من بلغ منهن سن الزواج يزيد على عدد الذكور البالغين .

أما عن تعدد الزوجات فالحي لا يعاني مشكلة كبيرة في هذه الناحية، إذ اتضح أن ٥% فقط من مجموع الأسر يجمع فيها الزوج بين زوجتين [٢٧].

أما الطلاق فقد اتضح أن هناك نسبة كبيرة تبلغ ٢٠% من مجموع العائلات سبق لعائليها الطلاق مرة واحدة، و ٧,٥% منها سبق لهم الطلاق مرتين، و ٥,٢%

سبق لهم الطلاق أربع مرات [٢٨]. ولعل ذلك يرجع إلى سوء الأحوال الاقتصادية وعدم تيسر الجمع بن زوجتين، والإنفاق عليهما معا مما يجعل من الطلاق المشكلة الأكثر تعقيدا من تعدد الزوجات .

الحالة العلمية :

تبلغ نسبة الأمية في الحي ٤٣،١ % ، فإذا أضيف إليها نسبة الملمين بالقراءة والكتابة بنسبة بسيطة جدا صارت النسبة ٨٦،٢% [٢٩]، وهى نسبة كبيرة كما يظهر لنا .وقد تتضح لنا الحالة العلمية أكثر من ذلك إذ لاحظنا أن ٤٢،٨% من السكان لم يتلقوا تعليما بالمرة ، و أن ٦،٤% منهم تلقوا تعليمهم بالكتاتيب ، و أن ١٧،١% منهم تلقوا تعليمهم الأولى حتى السنة الأولى فقط، و أن ٩،٥% منهم تلقوا تعليمهم حتى السنة الثانية الأولية و٤،٨% واصلوا منهم حتى السنة الثالثة، و١١،٢% منهم حتى السنة الرابعة، أما التعليم الابتدائي فلم يكن حظه من إقبال السكان سوى ٩،٦% من مجموعهم، موزعين على سنوات التعليم فيه إلى ١% حتى السنة الثالثة و٣،٤% حتى السنة الرابعة الابتدائية[٣٠].

أما التعليم الثانوي فلم يتجاوز عدد من تلقوا تعليمهم به نسبة ½ % [٣١] من مجموع السكان ، وعلى أي حال فالمشاهد أن حوالي نصف السكان أميين والنصف الآخر تلقى معظم تعليمه بالكتاتيب والمدارس الأولية وهذه الحالة تعطينا فكرة عامة عن المستوى العلمي في الحي بأكمله، أما الاتجاه في تعليم الأبناء وتوجيههم فتبلغ نسبة التلاميذ من الذكور فوق سن السادسة إلى مجموع عددهم حوالي ٥٠،٦% ، ونسبة التلميذات فوق سن السادسة إلى مجموع الأبناء فوق هذا السن ٢٢،٩% ، وتبلغ نسبة التلاميذ والتلميذات معا إلى مجموع الأبناء فوق سن السادسة حوالي ٤٢،٤ %[٣٢].

يتضح من النسبة الأخيرة أن أكثر من نصف الأبناء الذين تجاوزوا سن التعليم الأولى لا يلقون أي توجيه تعليمي، والسبب في ذلك أن حوالي ٤١،٤% من مجموع الأبناء الذكور فوق سن السادسة يوجهون توجيها مهنيا، دون أن يهتم أهلهم بتلقينهم أي نوع من الثقافة يساعدهم على تفهم ما هم مقبلون عليه في حياتهم العملية وما تطلبه هذه الحياة من أعداد الطفل وتزويده بقدر معلوم من الثقافة أو التعليم يفتح مغاليق ذهنه ويوسع من أفق تفكيره ويقوى إدراكه . كما تبلغ نسبة

العاطلين من الأبناء الذكور فوق سن السابعة حوالي ٨% [٣٣] من مجموعهم وهي نسبة كبيرة إلى حد ما .

أما فيما يختص بتوجيه الإناث من الأبناء فسكان الحي يعتقدون أن مكان المرأة هو المنزل وهم على صواب في ذلك بملاءمة ذلك لطبيعة ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، ولكنهم يخطئون في توجيه البنت وإعدادها للحياة الزوجية والأمومة في المستقبل إذ يعتقدون أن الفتاة يجب أن تتلقى كل خبراتها ومعلوماتها عن أمها أو من تعاشرهم في منزلها. ولهذا فقد رأينا أن ٦١% من البنات فوق سن السابعة يلازمن منازلهن بلا تعليم أو أعداد سليم لحياتهن المقبلة، و٢٣% منهن يكتفي آبائهن بإلحاقهن بالمدارس الأولية حتى ينلن قسط بسيطا من التعليم ثم يلازمن بعد ذلك منازلهن أما نسبة المشتغلات من البنات فوق سن السابعة فلا تزيد عن ١٦ % من مجموعهن [٣٤].

وقد لوحظ أن التعليم الأولي يستحوذ على حوالي ٨٦% من مجموع التلاميذ من سن ٦ إلى ٩ سنوات، ويستحوذ التعليم الابتدائي على ١٤ % فقط من هذه الفئة، كما يخص التعليم الأولى أيضا من التلاميذ من سن ١٠ إلى ١٤ سنة ٦٤% من مجموعهم،أما التعليم الابتدائي فلا يخص سوى ٣٦ % منهم [٣٥].

أما التلاميذ فوق سن ١٥ سنة فلا تبلغ نسبتهم سوى ٢% من مجموع التلاميذ لقلة عدد الأسر التي تسمح ظروفها باستمرار أبنائها في التعليم ؛ ولهذا فقد رأينا أن التعليم الثانوي يستحوذ عليهم جميعا ولكن مع ملاحظة أن نسبتهم ضئيلة جدا تكاد تكون منعدمة الأهمية إذن نستطيع القول أن السياسة العامة في توجيه الأبناء في الحي تسير نحو التوجيه المهني في سن مبكرة [٣٦]، مع انقسام السكان في ذلك إلى فريقين : فريق يوجه أبناءه مهنيا مباشرة حالما يبلغون سن السادسة أو السابعة دون أن يحصلوا على أي قسط من التعليم، والفريق الثاني يفضل أن يحصل أبناؤه على حظهم من التعليم الأولى والابتدائي أو جزء منه، وذلك لسببين : أولهما أن الطفل في سن السادسة لا يكاد يصلح لان تعتمد عليه الأسرة ليكون مورد للرزق تعتمد عليه،وثانيهما أن التعليم الأولى بالمجان كما صار التعليم الابتدائي بالمجان ايضا ولهذا فالطفل لا يكلف أسرته نفقات تذكر في تعليمه .

وتكاد تكون نسبة الأولاد الذكور الذين يتلقون هذا القسط البسيط من التعليم

يتساوى مع نسبة الأولاد الذين لا يتلقون أي قسط من الثقافة والتعليم، إذ تبلغ نسبة الطائفة الأولى حوالي ٥١%، ونسبة الطائفة الثانية حوالي ٤٩ % من مجمل الحالة العلمية للحي، كما يلاحظ أن درجة ثقافة السكان تقل كثيرا عما يلزم لعصرهم (سنة ١٩٣٩م)، و أن حالة الجهل التي تشيع بينهم لها أكبر الأثر فيما وصلوا إليه من سوء الحال في النواحي الأخرى، فلو اتسعت مداركهم بالثقافة و التعليم لاستطاعوا أن يحسنوا التصرف و التفكير في تدبر أمورهم المختلفة ولاكتسبوا القدرة على التكيف مع البيئة التي يعيشون فيها، والعمل على تغييرها أو إعلائها إلى صورة أفضل و أصلح مما هي عليه .

أوقات الفراغ :

تظهر الوثائق التي اهتمت بأوقات الفراغ أن هناك ٤٩,٥ % من مجموع السكان يتمتعون بأوقات فراغ عامة، و أن حوالي ٤٦ % منهم يتمتعون بأوقات فراغ منتظمة، و ٤٢ % يتمتعون بأوقات فراغ سنوية[٣٧].

وتظهر الدراسات التي تمت سنة ١٩٣٩م أن حوالي ٣٧,٥% من مجموع السكان لديهم أوقات فراغ يومية تزيد على الثلاث ساعات، وأن حوالي ٣٥% من مجموع السكان لديهم فراغ أسبوعي،أما الفراغ السنوي فيبلغ نسبة عدد من لديهم أوقات فراغ سنوية حوالي ١٠% من مجموع السكان ومعظمهم من عمال الحكومة وموظفيها وتبلغ نسبة من لديهم أكثر من شهر حوالي ٢٦% وكلهم من التلاميذ والطلبة[٣٨].

أما كيف تقضي هذه المجموعة من السكان أوقات فراغها ؛ فكانت ا ٢٢,٦% منهم يقضي وقت فراغه بالمنزل،وكان ٣,٨% منهم يقضونها في الشارع وهؤلاء من الأطفال ، أما نسبة من يقضون أوقات فراغهم في أحد الأندية الرياضية فلا تزيد عن ١,٩% من السكان وهي النسبة التي تمكنت الجماعات الأهلية من توفير متنفس لها لممارسة بعض من أشكال الممارسة المحدودة للرياضة،أما المقاهي فقد حظيت بـ١٩,٨% من مجموع من لديهم أوقات فراغ ومعظم هؤلاء من الشباب وأرباب العائلات[٣٩].

كانت تلك الحالة في حي الطيبى الأكثر تقدما والأكثر حظا ، فكيف كانت

الحال في منطقة حوش الغجر وعزبة القرود وهى المنطقة التى يسكنها الأقل حظا من السكان والأكثر فقرا في قلب حي أبو سيفين ؟

حي أبو سيفين :

كانت الأوضاع في أبو سيفين أكثر قسوة منها في الطيبى فقد كانت نسبة المنازل التى تتمتع بالصرف الصحي صفر%، أما المنازل المزودة بمياه الشرب فقد كانت نسبتها أيضا صفر%، ومعنى هذا أنها منطقة خارج خريطة العمران ولعل ذلك يرجع إلى كونها مبنية على شكل مجموعة من المنازل المنشأة من الصفيح، يسكنها مجموعة من الحواة والقرداتية ولكن مع مرور السنوات تحولت بعض هذه المنازل إلى مساكن من الطوب والدبش ولكن دون أي شكل من أشكال التنظيم (٤٠).

تشير دراسة أجريت في سنة ١٩٤٦م للتعرف على إمكانيات الحي والحالة العامة فيه ، حيث أجريت على ٣٦٠ أسرة من أبناء الحي . يتضح من هذه الدراسة أن هناك مهنا جديدة بدأت في الظهور منها : الجزارة لوجود المذبح قريبا من الحي، والدباغة بسبب قرب الحي من المدابغ أيضا، ثم أعمال البناء لوجود الجيارات، ولم يعرف الحي طبقة العمال الحكوميين أو الموظفين وظهر من مجمل هذا أن إجمالي سكان الحي قد انحصر عملهم في تلك المهن ؛ ربما لتوافر فرص العمل داخل الحي أو على أطرافه وبالقرب منه(٤١).

أما عن الكثافة السكانية في الحي،فقد كان متوسط عدد سكان الغرفة الواحدة ٣,٤٨ فردا للغرفة التي تبلغ مساحتها ٣ متر مربع، أما عن حالة تأثيث تلك الغرف فقد ظهر أن ٦٠% من الأسر ليس لديها أثاث كاف لأفرادها(٤٢).

أما عن الحالة الصحية فقد كان يشترك أكثر من ٦٠% من العائلات في مرحاض واحد غير صحي،بينما كان ٢٣,٣١ % تستعمل مرحاض خاص غير صحي، بينما استعمل ٩,٥٤% منهم دورة مياه خاصة صحية، على حين كان هناك ٦,٥١% منهم يستعملون دورات مياه مشتركة وغير صحية، وفي نهاية السلم السكاني كان هناك ١,٥٣ % ليس لهم دورات مياه(٤٣)، وهو ما يعكس لنا مدى تردى الأوضاع الصحية في تلك المنطقة التي كانت مركزا للتلوث بحكم قربها من

منطقة المذبح والمدابغ والجيارات حتى أنها عرفت لدى الكثيرين باسم منطقة الجيارة .

أما عن مستوى الدخل فقد كان١٢,٧٧% من السكان تقريبا يبلغ دخلهم ٢,٥ جنيها شهريا،على حين كان دخل ٢١,٩ % منهم ٥ جنيهات شهريا،بينما كان دخل ١٣,٦ % منهم ٧,٥جنيها شهريا، وبلغ دخل ١٠,٥ % منهم ١٠ جنيهات شهريا، أما الأسر التي تتمتع بدخل ١٢,٥ جنيها شهريا فقد بلغت نسبتها ٣% من السكان، بينما بلغت نسبة الأسر التي دخلها ١٥ جنيها شهريا إلى ٥,٥% من السكان .أما الشرائح ذات الدخل الأعلى تمثلت في ٢,٥ % من السكان ممن كانوا يحصلون على دخل شهري بلغ ٢٠ جنيها، بينما كان دخل ١,١% حوالي ٢٥ جنيها شهريا ومثلهم يحصلون على دخل ٣٠ جنيها شهريا [٤٤]. من هذا الإحصاء للدخل لسكان الحي يتضح لنا مدى تردى المستوى المعيشي لهؤلاء السكان و مدى حالة الفقر التي عاشوها .

أما توزيع الدخل بالنسبة لأوجه الإنفاق المختلفة فقد كان على النحو التالي: ٢٢,٣ % للخبز، و٣٦,٣ % للمواد الغذائية، و ١٦,٤٣ % للمكيفات، و٦,٣ % للملابس، و٥,٠٢ % للسكن، و٢,٥٩ % للانارة، و ٠,١٥ % للمياه، و ٧,٠٢ % مصروفات أخرى[٤٥]، من بنود الإنفاق يتضح لنا مدى ما تحتله المكيفات من بنود هذا الإنفاق في حين اختفت بنود الرفاهية تماما من حياة سكان الحي .

الخاتمة :

لم تكن علاقة المهمشون بباقي أحياء القاهرة علاقة طبيعيـــة ولكنـــها كـــانت علاقة رفض متبادل، فالمجتمع يرفض هؤلاء بصفة مستمرة ويصفهم بالغجر وهـــم يعبرون عن هذا الوضع بالتمرد الدائم على هذا المجتمع،وكان هـــذا التمـــرد أكـــثر وضوحا في أبو سيفـــين حيث يتدنى المجتمع إلي أدنى المستويات في حين كـــانت الأمور أفضل قليلا في الطيبي، وتمثل رفض أهل أبو سيفين في التعامل بعنف مـــع سكان سائر الأحياء المجاورة،الراقية كالمنيل والشعبية كحي السلخانة، وكانت علاقة سكان أبو سيفين بكلا الحيين متشابه، فكانوا يسرقونهم، ويعتـــدون عليـــهم بشـــكل مستمر، وظلت المنطقة مرتعا للصوص وتجار المخدرات لفترة طويلـــة، حيـــث لا يجرؤ أحد على الدخول إلي الحي، وإذا ضلت قدم أحد إلي الحي فانه قلمـــا يخـــرج منه سليما،أو بمتعلقاته مهما كانت بسيطة، حتى الباعة الجائلين من يقترب منهم مـــن المنطقة يفقد بضاعته كاملة، ولا يعود للمكان مرة ثانية، تلك هي الطريقة التى عـــبر بها السكان عـــن تمردهم على وضعهم الاجتماعي في المنطقة .

أما تعامل السلطة مع هؤلاء وتعاملهم مع السلطة فقـــد انقطعـــت العلاقـــة بينهما، فكان هؤلاء خارج تفكير السلطة، فقلما قـــامت بـــأي شـــكل مـــن أشـــكال المشروعات في المنطقة، وقلما لجأوا إليها لفض نزاعاتـــهم خصوصـــا فـــي أبـــو سيفين،فقد أعتاد الأهالي على فض نزاعاتهم بأنفسهم، وحسمها بالقوة إذا لزم الأمـــر؛ ولا يستلزم ذلك الرجوع إلى الحكومة أو الجهات القضائية، ونظرا لوقوعهم جميعـــا تحت خط الفقر فلا توجد رابطة بينهم وبين الضرائب أو الجهات الحكومية، إلا القلة الصغيرة في الطيبي مـــن صغار مستخدمي الحكومة .

من الناحية السياسية فقد انعدمت المشـــاركة السياسيـــة لـــهؤلاء السـكان، واقتصر دور أقلية صغيرة على المشاركة في الانتخابات كناخبين يبيعون أصواتـــهم في الطيبي، بينما لعب الفتوات أبو سيفين دور الخادم لبعض المرشـــحين، ولكـــن انعدم دورهم السياسي ولم يكن لهم أي شكل مـــن أشكال النضال لتحسين وضـــعهم السياسي أو الحزبي .

وداخل الحي نفسه كان التعامل يتم على مستويين بين العاملين بالمهن المتدنية وبين اللصوص، كانت الطائفة الأولى متعاونة لمواجهة لقمة العيش والقـــدرة علـــى

الحياة، وتسودها الونام، وتدين بالطاعة والولاء للطائفة الثانية آلتي تسلطت عليها، ونكلت بها إذا ما حاولت التعاون مع الجهات الأمنية، أو إذا لم تبد الطاعة الكاملة لهؤلاء اللصوص، الذين كانت علاقتهم علاقة صراع معا، ولا يموت أي منهم إلا مقتولا بيد الآخر، ونادرا ما كان يتم محاكمة القاتل،إلى أن يلقى نفس المصير بعد مدة تقل أو تزيد.

أما تعاملهم مع فقرهم فتمثل في تدبير أمور العيش من خارج الحي، وذلك بالعمل أما في الجيارات والجباسات والفواخير القريبة أو الموجودة داخل الحي، أو التسول خارجه، وتحول شارع أبو سيفين نفسه إلى سوق للحي .

وقد قبع هؤلاء المهمشون في حيهم دون محاولة لتغيير الواقع،وذلك بفعل انشغالهم في القتال من أجل لقمة العيش،دون أن يطمع أحدهم في تغيير الواقع، وقد تولى الدعوة لتغيير هذا الواقع الجمعيات الأهلية آلتي مارست دورها في تلك المنطقة، منها الجمعيات القبطية، وجماعة الرواد من الاشتراكيين .

أنشأت الجمعيات الأهلية العديد من المشروعات البسيطة بالمنطقة، وحاولت رفع المستوى المهني لبعض سكان ألحي، وذلك بتدريب العديد منهم على أعمال مهنية بسيطة مثل أعمال النجارة، وأشغال الكهرباء، كذلك أنشأت مسرحا صغيرا للارتقاء بالسكان في منطقة أبو سيفين، كانت تقدم عليه بعض العروض البسيطة، والحفلات الترفيهية آلتي تتناسب مع سكان الحي، إلى جوار عيادة طبية لتقديم العلاج المجاني للأهالي . أم أكبر تأثير لتلك الجماعات الأهلية فقد لعبته الحضانة آلتي أنشأتها في قلب الحي وآلتي كانت تقدم خدماتها مجانا إلى الأهالي وتقدم الطعام المجاني و الحلوى للأطفال، مما دفع بالأهالي في البداية لإرسال أولادهم للحضانة تخلصا من إطعامهم، ومن ثم بعد ذلك بإرسالهم إلى المدارس الأولية آلتي كانت مجانية ، ولكن في النهاية يصب الجميع سريعا في سوق العمل، لعدم قدرتهم على مواصلة التعليم، ولكن كان هذا القدر الضئيل من التعليم لبعض هؤلاء المهمشين هو شعاع الأمل في ذلك الحي المغلق أمام كافة المؤسسات الحكومية وآلتي تناست وجوده على خريطة القاهرة في بداية القرن العشرين .

الحواشي :

(١) الدكتور عبدالمنعم الشافعي خبير في الإحصاء ومؤسس معهد الإحصاء التابع لجامعة القاهرة.

(٢) الدكتور عبدالجليل العمري وزير المالية السابق، أول وزير للمالية في عهد وزارة الثورة.

(٣) مذكرة من الدكتور عبد المنعم الشافعي بشأن حي الطيبي في ١١نوفمبر ١٩٣٩م، أرشيف جماعة الرواد.

(٤) مذكرة من الدكتور مهندس جورج عزمي، في ٣ فبراير ١٩٤٠، الملحق رقم(١).

(٥) دراسة حول الصرف الصحي بحي الطيبي أعدها الدكتور مهندس جورج عزمي سنة ١٩٤٠ م، أرشيف جماعة الرواد .أنظر أيضا: ملحق رقم٢.

(٦) نفس المصدر .أنظر أيضا: الملحق رقم ٣.

(٧) ملحق رقم ٥.

(٨) ملحق رقم ٤ .

(٩) مذكرة للدكتور الصدر بشأن الحالة الصحية لاماكن النوم، أنظر الملحق رقم٧.

(١٠) المصدر السابق .

(١١) المصدر السابق، أنظر أيضا ملحق رقم٩.

(١٢) المصدر السابق

(١٣) دراسة للدكتور الصدر بشأن الحالة الصحية،أرشيف جماعة الرواد .

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) المصدر السابق .

(١٦) دراسة إحصائية حول المواليد والوفيات بحي الطيبي، أرشيف جماعة الرواد

(١٧) إحصائية حـــول العمـــل بحـــي الطيبـــى أعدهـــا الدكتـــور عبـــد الجليـــل العمرى،أرشيف جماعة الرواد.

(١٨) نفس المصدر .

(١٩) الملحق رقم ١٤ .

(٢٠) الماحق رقم ١٣.

(21)Copte Rendu de travoux de la caise de la dette publique de l,Egypt pendant l,anne 1939 ,

الأرشيف الأوروبي، صندوق الدين، دار الوثائق القومية .

(٢٢) دراسة حول توزيع الدخل، أرشيف جماعة الرواد.

(٢٣) نفس المصدر .

(٢٤) دراسة حول الهجرة، أرشيف جماعة الرواد .

(٢٥) الملحق رقم ١٥.

(٢٦) الملحق رقم ١٦

(٢٧) دراسة حول تعدد الزوجات بالطيبي سنة ١٩٤١م.أرشيف جماعة الرواد.

(٢٨) دراسة حول الطلاق بالطيبي سنة ١٩٤٣م، أرشيف جماعة الرواد

(٢٩) دراسة حول الأمية بالطيبي،أعدها الدكتور سعد دياب،أرشيف جماعة الرواد.

(٣٠) دراسة حول الحالة التعليمية بالطيبي،أرشيف جماعة الرواد.

(٣١) المصدرالسابق .

(٣٢) نفس المصدر .

(٣٣) دراسة للدكتور عبد المنعم الشافعي حول البطالة، أرشيف جماعة الرواد .

(٣٤) نفس المصدر .

(٣٥) نفس المصدر .

(٣٦) نفس المصدر .

(٣٧) دراسة حول أوقات الفراغ بالطيبي، أرشيف جماعة الرواد.

(٣٨) نفس المصدر .

(٣٩) نفس المصدر .

(٤٠) التقرير السنوي لمحلة الرواد بأبو سيفين لسنة ١٩٤٤ م، أرشيف جماعة الرواد.

(٤١) تقرير حول العمالة بأبو سيفين،أرشيف جماعة الرواد .

(٤٢) تقرير حول الكثافة السكانية في أبو سيفين،أرشيف جماعة الرواد.

(٤٣) نفس المصدر .

(٤٤) دراسة حول الدخل في أبو سيفين سنة ١٩٤٢م.

(٤٥) نفس المصدر.

الملاحق

الملحق رقم (١)

المساكن فى حى الطيبى سنة ١٩٣٩م

نوع الأبنية	*العدد*	*النسبة المئوية*
حجر جيرى	٣٠	%٢٥
طوب أحمر	١٨	% ١٥
دبش	٦٩	% ٥٧،٥
خشب	٣	% ٢،٥

مصدر الجدول : إحصاء عن منازل الطيبى د. عبد المنعم الشافعى، دراسة غير منشورة أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم (٢)

المرافق (الصرف الصحي في حي الطيبى)

وجه المقارنة	*عدد المنازل*	*نسبتها المئوية*
منازل موصلة على المجارى	٣٠	%٢٥
منازل غير موصلة على المجارى	٩٠	%٧٥
منازل موصل إليها مياه الشرب	٣٦	% ٣٠
منازل غير موصل إليها مياه الشرب	٨٤	% ٧٠

مصدر الجدول: إحصاء للمياه والصرف بحي الطيبى د. عبد المنعم الشافعى، دراسة غير منشورة أرشيف جماعة الرواد.

ملحق رقم (٣)

دورات المياه بحي الطيبى

وجه المقارنة	العدد	النسبة المئوية
منازل بها دورات مياه مشتركة	٦٩	%٥٧،٥
منازل بها دورات مياه خاصة	٤٥	% ٣٧،٥
منازل لا توجد بها دورات مياه	٦	%٥
منازل يوجد بها حمام	٤٥	% ٣٧،٥
منازل لا يوجد بها حمام	٧٥	% ٦٢،٥
منازل يوجد بها مطبخ	٦	% ٥
منازل لا يوجد بها مطبخ	١١٤	% ٩٥

مصدر الجدول من تركيب الباحث اعتمادا على : مذكرة للدكتور جورج عزمـــــي، أرشيف جماعة الرواد.

ملحق رقم (٤)

الإضاءة في المنازل

نوع الإضاءة	العدد	النسبة المئوية
كهرباء	٣	% ٢،٥
بترول (لمبة الغاز)	١١٧	% ٩٧،٥

مصدر الجدول: المصدر السابق.

ملحق رقم (٥)

التهوية في المنازل

ما يخص الحجرة من النوافذ	العدد	النسبة
غرف لا يوجد بها نوافذ	٣	٤,٨٤
غرف لكل منها نافذة واحدة	٤١	٦٦,١٣
غرف لكل منها نافذتين	١٨	٢١,٠٣
الجملة	٦٢	١٠٠ %

مصدر الجدول : من تركيب الباحث اعتمادا على: مذكرة من الدكتور الصدر أرشيف جماعة الرواد

ملحق رقم (٦)

توافر الهواء والشمس بالمنازل

وجه المقارنة	العدد	النسب
مساكن يدخلها الهواء والشمس	٦	٥ %
مساكن يدخلها أحدهما	٦٠	٥٠ %
مساكن لا يتوافر بها الشمس أو الهواء	٥٤	٤٥ %

مصدر الجدول : نفس المصدر.

ملحق رقم (٧)

الحالة الصحية لحجرات النوم

النوع	العدد	النسبة المئوية
حجرات نوم صحية	-	-
حجرات نوم متوسطة	٢٦	٥٠,٩٨
حجرات نوم غير صحية	٢٥	٤٦,٠٢
الجملة	٥١	١٠٠ %

مصدر الجدول: من تركيب الباحث اعتمادا على : دراسة غير منشورة للدكتور الصدر، أرشيف جماعة الرواد

ملحق رقم (٨)

جدول يوضح مدى اكتظاظ حجرات السكن جميعا

متوسط ما يخص الغرفة الواحدة من السكان	العدد	النسبة المئوية
فرد واحد	٣	٤,٨٤
فردان	١٧	٢٧,٤٢
ثلاثة أفراد	١٦	٢٥,٨١
أربعة أفراد	١١	١٧,٧٤
خمسة	٨	١٢,٩
ستة	٤	٦,٤٥
سبعة	٢	٣٢.٣٢
تسعة	١	١,٦٩

مصدر الجدول : نفس المصدر.

جدول رقم (٩)

يوضح درجة الاكتظاظ بالمسكن

حجرات النوم	العدد	النسبة المئوية
فرد واحد	١	١,١٦
فردان	٦	١١,٧٧
ثلاثة أفراد	١٢	٢٣,٣٥
أربعة أفراد	١١	٢١,٥٧
خمسة	١١	٢١,٥٧
ستة	٦	١١,٧٢
سبعة	٣	٨٨,٥
تسعة	١	١,٩٦

مصدر الجدول: مذكرة للدكتور جورج عزمي، أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم (١٠)

يوضح درجة نظافة المنازل

المقارنة	العدد	النسبة المئوية
مساكن نظيفة	٩	٧,٥
مساكن متوسطة	٢٤	٢٠ %
مساكن دون المتوسطة	٣٣	٢٧,٥
مساكن قذرة	٥٤	٤٥ %

مذكرة للدكتور الصدر: أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم (١١)

المتكسبين وغير المتكسبين في الطيبى

المقارنة	العدد	النسبة المئوية
ذكور متكسبين	٥٨	٢٧,١
إناث متكسبين	٧	٣,٢٧
جملة المتكسبين	٦٥	٣٠,٣٧
عدد المعالين	١٤٩	٦٩,١٣
عدد العاطلين	٨	٣،٧٤

مصدر الجدول: مذكرة للدكتور عبد الجليل العمرى، أرشيف جماعة الرواد.

ملحق رقم (١٢)

يبين الدخل الشهري ومتوسط الدخل السنوي في الطيبى

عدد الأفراد	مجموع الدخل في الشهر	متوسط دخل الفرد في العام
٢١٤	٣٨٢،١٥٠	٢١،٤٣٢

مصدر الجدول : المصدر السابق.

ملحق رقم (١٣)

جدول يوضح توزيع فئات الدخل

فئات الدخل	العدد	النسبة المئوية
أقل من خمسة جنيهات	٦	٥ %
من ٥ إلى أقل من ١٠	٢٤	٢٠ %
من ١٠ إلى أقل من١٥	١٥	١٢,٥ %
من ١٥ ألي أقل من٢٠	٢١	١٧,٥ %
من ٢٠ إلى أقل من ٢٥	١٥	١٢,٥ %
من ٢٥ ألي أقل من٣٠	٩	٧,٥%
من ٣٠ ألي أقل من ٣٥	٩	٧,٥%
من ٣٥ إلى أقل من ٤٠	٣	٢,٥ %
من٤٠ إلى أقل من٤٥	١٢	١٠ %
من٤٥ إلى أقل من ٥٠	---	---
من ٥٠ إلى أقل من٥٥	٣	٢,٥ %
من ٥٥ إلى أقل من ٦٠	٣	٢,٥ %
إجمالي	١٢٠	١٠٠ %

مصدر الجدول : دراسة غير منشورة للدكتور عبد المنعم الشافعي،أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم (١٤)

متوسط ما يصرفه الفرد شهريا

عدد الأفراد	مجموع ما يصرفه شهريا	متوسط ما يصرفه شهريا
٢١٤	٣٢١,٩٥٥	١,٥٠٤

مصدر الجدول : نفس المصدر.

جدول رقم (١٥)

توزيع السكان حسب النوع

السكان حسب الجنس	العدد	النسبة
ذكور	٣٩٥	٦٠,٧ %
إناث	٢٥٣	٣٩,٣ %
الجملة	٦٤٢	١٠٠ %

مصدر الجدول: دراسة غير منشورة للدكتور سعد دياب، أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم (١٦)

توزيع السكان حسب فئات السن

توزيع السكان حسب فئات السن	*العدد*	*النسبة المئوية*
أقل من سنة	٤٨	٢,٨ %
من سنة إلى أقل من ٥سنوات	٦٠	%١,٣٦
من ٥ إلى ١٠	١٣٥	%٢١,٠٣
من ١٠ إلى ١٥	١٤٧	٢٢,٩ %
من ١٥الى ٢٠	٤٥	٧ %
من ٢٠ الى٣٠	٤٥	٧ %
من ٣٠ إلى ٤٠	٨٧	%١٣,٥٥
من٤٠ الى٥٠	٧٢	١٩,٢٢ %
من٥٠الى٦٠	٢٧	٤,٢١ %
من٦٠الى٧٠	٦	٠,٩٣ %
الجملة	٦٤٢	١٠٠ %

مصدر الجدول : دراسة غير منشورة للدكتور عبد المنعم الشافعي، أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم (١٧)

الحالة الاجتماعية في حي الطيبى

المقارنة	العدد	النسبة المئوية
نسبة المتزوجين من الذكور	١٠٢	%٢٦,١٥
نسبة المطلقين من الذكور	٣	% ٠,٧٧
نسبة الأرامل من الذكور	٣	%٠,٧٧
ذكور غير متزوجين	٢٨٢	% ٧٢,٣١

مصدر الجدول : نفس المصدر السابق.

جدول رقم (١٨)

الحالة الاجتماعية للإناث في الطيبى

المقارنة	العدد	النسبة المئوية
نسبة المطلقات	١٢	% ٤,٧٦
نسبة الأرامل	١٢	% ٤,٧٦
غير المتزوجات من الإناث	١٢٩	%٥١,١٩
المطلقات إلى عدد المتزوجات	٨٤	% ٩

مصدر الجدول : نفس المصدر السابق.

جدول رقم (١٩)

الوفيات في الطيبى

نوع الحالة	العدد	النسبة المئوية
أسر لم يتوفى منها أحد	٢١	١٧,٥ %
أسر توفى منها واحد	١٨	١٥ %
أسر توفى منها اثنين	٣٠	٢٥ %
أسر توفى منها ثلاثة	١٨	١٥ %
أسر توفى منها أربعة	٢٧	٢٢,٥%
أسر توفى منها ستة	٣	٢,٥ %
ثمانية	٣	٢,٥ %
الجملة	١٢٠	١٠٠ %

مصدر الجدول : من تركيب الباحث اعتمادا على دراسة غير منشورة للدكتور الصدر، أرشيف جماعة الرواد.

جدول رقم(٢٠)

توزيع الوفيات على فئات العمر المختلفة

الفئة	العدد	النسبة إلى مجموع الوفيات
أقل من سنة	٤٨	١٧ %
من سنة إلى أقل من ٥ سنوات	١٩٨	٧٠,٢%
من ٥ – ١٠	١٨	٦,٤%
من ١٠ – ٢٠	٦	٢,١ %
من ٢٠ – ٣٠	٦	٢,١ %
من ٣٠ – ٤٠	٣	١,١ %
من ٤٠ – ٥٠	٣	١.١ %
الجملة	٢٨٢	١٠٠ %

مصدر الجدول : نفس المصدر السابق.



CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 25 (Jannuary 2002)